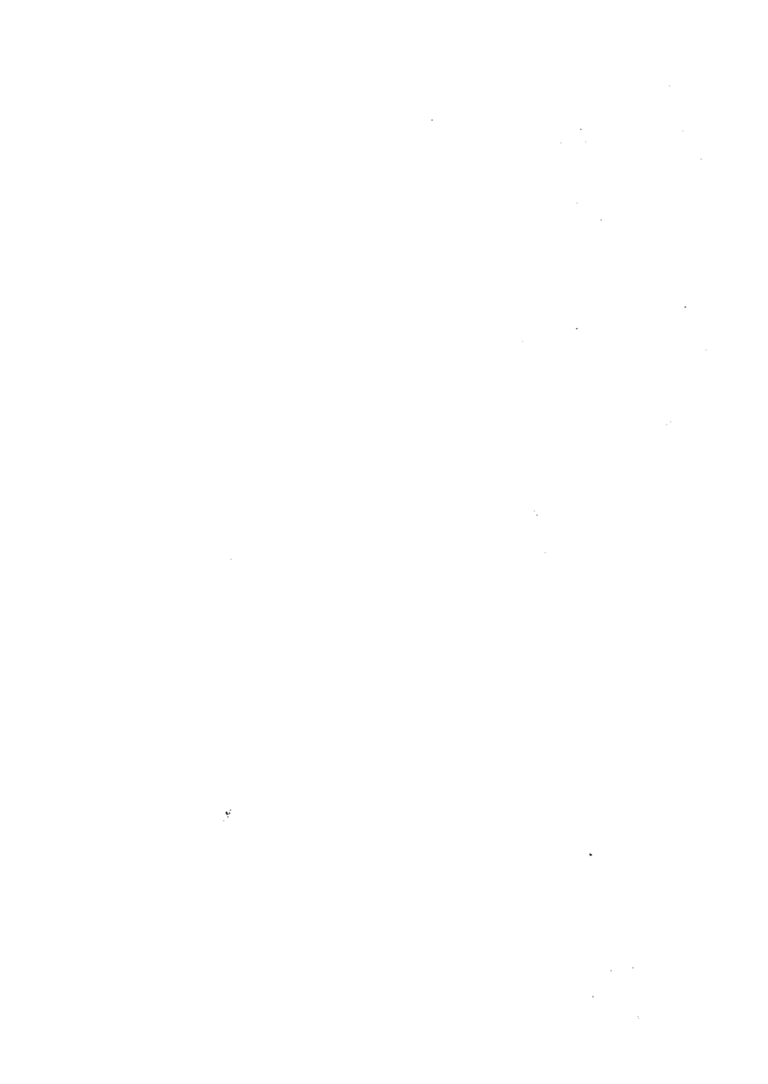
الاستاذ الدكتور
عمر عبد العزيز عمر
أستاذ التاريخ الحديث
بجامعة الاسكندرية

التاريخ الأوربى والأمريكى الحديث

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣ .
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦



التاريخ الأوربى والأمريكى الحديث

الاستاذ الدكتور

عمر عبد العزيز عمر

أستاذ التاريخ الحديث

بجامعة الاسكندرية

٢٠٠٢

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس الشاطبي ت ٥٩٧٣٠٤٦

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع

---

* الإدارة : ٤٠ شارع سوتير
الأزاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبى - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



القسم الأول

التاريخ الأوروبى الحديث



مقدمة

مراحل الانتقال إلى العصور الحديثة

ينقسم التاريخ الإنسانى إلى قسمين غير متساويين : قسم عصور ما قبل التاريخ ، وقسم العصور التاريخية . ونبدأ العصور التاريخية ، وهى الفترة التى ترك الإنسان فيها سجلات مكتوبة عن حياته وأوجه نشاطه ، بالعصور القديمة التى كان يميزها قيام الحضارات القديمة فى الشرق . وتلت هذه الفترة العصور الوسطى التى حدد جمهرة المؤرخين زمنها من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية على أيدى البرابرة فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر ؛ وقد شاهدت العصور الوسطى هذه ازدهار الحضارة البيزنطية وانتشار الحضارة الإسلامية . أما غرب أوروبا فكان متخلفاً عن تلك النهضة التى شملت كل نواحى الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وفن وأدب . وإنه لمن الأهمية بمكان أن نلقى نظرة سريعة على أهم المظاهر التى كانت تميز العصور الوسطى كى ندرك التغيير الكبير الذى طرأ على نظم أوروبا فى العصور الحديثة . ونوجز فيما يلى بعض هذه المظاهر :

١ ـ أنه نتيجة لسقوط الدولة الرومانية بدأت العصور الوسطى بفترة قلق واضطراب بسبب هجمات البرابرة ، ولكن القائمين على الأمر استطاعوا إيجاد أمن وسلام نسبى ، أما عن محاولات الوحدة السياسية الأوروبية كما كانت من قبل ، فلم يجانبها التوفيق (مثل محاولات جستنيان وشارلمان) .

٢ ـ كان وجود امبراطورية عالمية من أهم مميزات العصور الوسطى ، وخضعت لحكم الامبراطورية المقدسة معظم أجزاء أوروبا فى ذلك الوقت ، ومعنى هذا أن الفكرة السائدة كانت فكرة العالمية (أى وجود حكومة عالمية) ، لأن فكرة القوميات أو الدولة الوطنية الحديثة Nation state لم تكن معروفة

ومفهومة فى العصور الوسطى ، إذ كان أصحاب النظريات السياسية فى العصور الوسطى يعتقدون أن المسيحية كلها تكون دولة واحدة يحكمها البابا والامبراطور بتفويض من الله ، يشرف الأول على الشئون الدينية والثانى على الشئون الدنيوية . غير أن تحديد اختصاصات كل من البابوية والامبراطور لم يحل دون قيام صراع بينهما نتيجة لنمو هاتين القوتين . فسلطات كل منهما لم تكن محددة تحديداً دقيقاً وبالتالى حاول كل من الطرفين أن تكون له الغلبة فى النهاية على حساب الآخر . ولقد أضعف هذا الصراع تلك القوتين وكان ذلك إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى .

٣ ـ ومن مظاهر هذا العصر أيضاً تسلط الكنيسة ورجال الدين على عقول وأفكار الناس فى أوروبا ، وتحت تأثير ذلك أخذت غالبية الناس تفكر فى أن الحياة الدنيا ما هى إلا قنطرة يعبرون عليها للحياة الآخرة . وانصرف غالبية الناس عن دنياهم إلى آخرتهم ، وكانت الحياة المثلى لهم هى حياة التقشف والاشتغال بالأمور الدينية . فأصبح الفرد يؤمن بما يلقى على مسامعه من قول دون أن يخضع هذا الكلام للمنطق أو العقل . وعلى ذلك نرى أن القول السائد كان هو : I believe so that I may Understand ، غير أن هذا الحال تغير عندما أشرفت العصور الوسطى على الانتهاء وبدأ عصر النهضة الذى ظهرت فيه روح البحث والتشكك والنقد ، فأصبح القول السائد فى هذه الفترة هو : Nothing is to be believed unless it is Understood . وبالإضافة إلى ذلك كانت الكنيسة الكاثوليكية تحت رئاسة البابوية لها نفوذ وسيطرة عظيمة فى المجتمع الأوروبى الغربى الوسيط ، وكان أثرها ملموساً فى السياسة والاقتصاد وأحرزت حينذاك ثروة كبرى وكانت مثلاً صادقاً للحكم الاستبدادى . فالكنيسة فى العصور الوسطى كانت ـ على حد قول أحد الكتاب ـ بمثابة الدولة أو السلطة المدنية ، لأنه لم يكن

معترفاً بوجود مجتمع منفصل ، فالكنيسة أخذت عن الامبراطورية الرومانية نظريتها في السلطان المطلق العام للسلطة العليا وحورتها إلى نظرية السلطة التامة للبابا الذى كان المدبر الأسمى للقانون ، والمصدر الشرعى الوحيد للسلطة على الأرض .

٤ ـ أما المظهر الخاص الذى تميزت به العصور الوسطى فهو الجانب الحربى الذى وجه وجهة دينية عرفت باسم الحروب الصليبية ، التى اشتركت فيها مختلف طبقات المجتمع فى أوروبا ، إما إظهاراً للشجاعة وحباً فى القتال ، أو للدفاع عن مثل دينية عليا . وكان تطور ونمو فكرة الحرب المقدسة فى غرب أوروبا من العوامل الرئيسية التى مهدت لقيام الحركة الصليبية . ولقد أتاح هذا الاتصال بين الشرق والغرب أن يتعرف كلا الجانبين على الآخر وأن يلم بشئونه السياسية والاجتماعية . وهكذا نشأت صلات تجارية بين الطرفين المتحاربين نتيجة لتعرف الغرب على حاجيات الشرق ، ورغبة الشرق فى مبادلة الغرب بالفائض من منتجاته الزراعية والصناعية ، واستفاد من ذلك كله المماليك والبنادقة ، وظل الحال على هذا النحو إلى أن تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

٥ ـ ومن أهم ما يميز العصور الوسطى أيضاً هو قيام النظام الإقطاعى الذى يجدر بنا أن نلقى عليه بعض الضوء . فلقد نشأ النظام الإقطاعى بعوامل ذاتية تحت ضغط الأحداث دون أن تكون له قواعد مرسومة . فلم تعرف أوروبا ـ منذ إنهيار الامبراطورية الرومانية الغربية وهجمات البرابرة عليها ـ الاستقرار لا فى الأجناس ولا فى الشعوب ، وفى هذا الوضع المضطرب نشأ الإقطاع وتطور ، فكان نظاماً حربياً زراعياً اجتماعياً ، لم يكن يوجد فى تلك المرحلة حكم مركزى ، وإن وجد فقد كان ضعيفاً ، وكان من الطبيعى أن يلجأ من لا يقوى على الدفاع عن نفسه إلى أولئك الذين تمركزوا نوعاً ما واستطاعوا أن يحتفظوا بثروتهم الوحيدة وهى الأرض . ولقد كانت الأرض هى مصدر

الرزق ، يحيا عليها سكانها الأصليون وبجانبهم عدد من المستأجرين بشروط معينة . وكان الاقتصاد فى هذا المجتمع الإقطاعى قائماً على سياسة الإكتفاء الذاتى Self Sufficient ، فلم يكن يستورد من خارج الإقطاع إلا المواد القليلة التى لا يمكن إنتاجها محلياً كالأسلحة النادرة والملح والخمور وغيرها، ولم يكن لأحد فى هذا المجتمع أن يجمع المال مثلاً أو يقيم مصرفاً، بل كان السيد مصدر كل شىء تقريباً . وكان هذا المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات هم النبلاء ورجال الدين ثم الشعب الذى كان قوامه رقيق الأرض ، وكان لكل فئة من هذه الفئات عملها ووظيفتها ، وبذلك فقد كان الإقطاع يمثل دولة داخل دولة .

وعندما زالت الظروف التى أوحت بهذا النظام أصبح الإقطاع عبئاً ثقيلاً على كاهل الناس ، فحياة طبقة رقيق الأرض (طبقة الفلاحين) التى كونت نسبة كبيرة من المجتمع الإقطاعى الوسيط كانت حياة قاسية وتفتقر إلى الاستقرار والأمانة . وقد عارض النبلاء تحويل أراضى الغابات إلى أراض زراعية وذلك لرغبتهم فى الاحتفاظ بأراض خاصة للصيد . وإزاء هذا الوضع ، فكر الكثيرون فى السعى عن مصادر للرزق خارج أوروبا ، فلبوا دعوة البابا للذهاب إلى الشرق للدفاع عن الأراضى المقدسة . أما النبلاء أنفسهم فقد اشتركوا فى هذه الحملات، وشجعهم على ذلك أن الإقطاعات فى غرب أوروبا لم تعد تكفى أفراد العائلات النبيلة المتزايدين . وكان من أهم آثار الحروب الصليبية (التى بدأت فى نهاية القرن الحادى عشر) على الغرب أن أخذ العهد الإقطاعى فى التدهور عندما قضت هذه الحرب على الكثيرين من أمراء الإقطاع ممن أسهموا فيها ، فأدى ذلك إلى الاستغناء عن الكثيرين من رقيق الأرض الذين أخذوا يتفرغون للتجارة والصناعة . ولما أخذت التجارة تنشط تبع ذلك حركة ظهور المدن . ومنذ القرن الثانى عشر الميلادى بدأت الحركة الفكرية فى الانتعاش وذلك بتوفر الثروة وإتساع

الأفق الاقتصادى ، ومن ثم أخذت طبقة جديدة من المجتمع الإقطاعى فى الظهور، وهى طبقة البرجوازية التجارية .

وكان ظهور هذه الطبقة الجديدة من المظاهر الاجتماعية البارزة للحضارة الأوروبية الحديثة . وكان التاجر الجائل يتمركز فى المدن الواقعة عند مفرق الطرق، وعند مصبات الأنهار ليحتمى من الثلوج ، وعندما تهدأ الطبيعة يتمكن من متابعة سيره . وهكذا كانت ضواحى هؤلاء التجار قرب الحصون ، ولكى تصبح تلك فى مأمن من الاعتداء عمل هؤلاء التجار على تقوية مركز هذه الضواحى Bourg وتحصينها ، ومن هنا أطلق عُلى هؤلاء التجار اسم مرادف لكلمة تاجر سمى فيما بعد برجوازى Bourgeois . ولقد أحرزت هذه الطبقة السيطرة فى المجتمع بفضل ما تركز فى يديها من ثروة بعد أن زالت الأهمية التى كانت الأرض فى العصور الوسطى كمصدر منفرد للثروة والقوة . وقد استتبع ذلك اختفاء طبقة رقيق الأرض Serfs الذين تحولوا إلى عمال أجراء ، ومن ثم زال الاقطاع الأوروبى فى جملته من ناحية ، وظهرت الدولة الوطنية الحديثة Nation State من ناحية أخرى ونتج عن ظهور هذه الحركة التجارية أن دب النشاط فى المدن الإيطالية واتسع نطاق بعض المدن الفرنسية ، وأصبحت المدينة مركزاً تصب فيه المواد الأولية فحلت الصناعة محل الحرف المتنقلة ، ونهضت بعض المدن الأخرى فى غرب أوروبا منذ أوائل القرن الثانى عشر .

أما من ناحية النهضة الفكرية ، فقد كان لنشأة المدن فضلها فى رعاية نهضة العلوم والفنون فمنها ظهرت هذه النهضة ، فمنذ القرن الثانى عشر فصاعداً لم تكن هناك مدينة فى أوروبا إلا وبها مدرسة ، ولها أرشيفها وسجلاتها مما أدى بالتدرج إلى انتقال مراكز التعليم من المؤسسات الكنسية والأديرة إلى مدارس المدن، فانتعشت على يد المدن وسكانها من البرجوازية ، الحركة الفكرية . وكان لاختراع البارود الفضل فى القضاء على النظريات الحربية فى العصور الوسطى

الفصل الأول

عصر النهضة The Renaissance

النهضة الأوروبية :

يأتي بين كل عصرين تاريخيين عظيمين فترة انتقال تحدث فيها التغييرات العظيمة التي تميز بين نوعين في النهاية ، ولكنها في العادة تظهر وتنمو وتتطور تدريجياً شأنها في ذلك شأن الكائن الحي حتى تنضج ويتم نموها . وفترة الانتقال من العصور الوسطى إلى الحديثة قد أطلقت عليها عدة أسماء ، فسميت أحيانا باسم The Decline of Medieval Europe وأحيانا The Renaissance (The Beginning of Modern Europe) وكلمة Renaissance كما تدل عليها الكلمة الأجنبية معناها تجدد الميلاد Rebirth ، أي عودة الحياة أو البعث أو الولادة الجديدة . ويتضح من هذا أن تعريف النهضة الأوروبية ليس بالأمر السهل ، فإنها ليست حادثاً معيناً وإنما هي حركة شاملة ظهرت ، واتجاه جديد في تفكير الناس وأعمالهم ومعيشتهم ، جعلتهم يتحررون تدريجياً من قيود ما ألفوه في العصور الوسطى . ولقد وقعت كل هذه التغييرات التي نقلت العالم الأوروبي من العصور الوسيطة إلى الحديثة فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الميلاديين . ولقد كانت هناك عوامل مساعدة شجعت على حدوث هذا التغيير من أهمها : إنحلال الامبراطورية والبابوية ، ونهضة الشعوب وتمتعها بقسط من القوة السياسية ، ثم نشأة الممالك الحديثة نتيجة لظهور الأمم وقيام الحكومات الملكية .

وكلمة Renaissance لها مدلولان ، مدلول واسع والآخر ضيق ، والمدلول الأخير استعمله الإيطاليون خاصة وقد عنى هذا اللفظ بالنسبة لهم بعث الآداب والفنون والعلوم الكلاسيكية اليونانية والرومانية والاهتمام بدراستها من جديد .

ذلك أن الإيطاليين قد شعروا بأن العلوم الكلاسيكية والآداب والفنون قد انعدمت على أثر وقوع غزوات الجرمان والقبائل الأخرى فى القرن الثالث والرابع والخامس، وأنه بعد مضى عدة قرون على أثر إندثار هذه العلوم الكلاسيكية قد بعثت من جديد على يد بترارك والكثيرين غيره من الذين اهتموا بدراستها. وظهرت النهضة بهذا الشكل فى إيطاليا وانتشرت منها إلى غيرها من الدول الأوروبية إلى أن أصبحت إيطاليا معلمة للعالم فى إحياء الدراسات القديمة. وساعد ذلك بالتالى على تغيير العقلية الأوروبية كلها مما أدى إلى تطورات أخرى من الكشف الجغرافى والإصلاح الدينى وازدياد المعرفة الإنسانية.

على أن نظرة الإيطاليين إلى النهضة بهذه الصورة هى نظرة قاصرة بلا شك، فالنهضة كانت حركة أعظم من هذا، وقد شملت تغييرات خطيرة فى شتى مرافق الحياة وغيرت من معالم المجتمع الأوروبى. والكلمة بمدلولها الأوسع تشمل كل التغييرات التى طرأت على المجتمع الأوروبى فى النواحى المختلفة من نظم الحكم، والحالة الاجتماعية، والعلوم والفنون، والفلسفة، والدين، والأدب، فهيأت حضارة العصور الوسطى لتصير بالتدريج حضارة العصور الحديثة. فعصر النهضة إذن هو عصر ظهور الفرد، وعصر ظهور وإنتعاش الآداب القديمة، وعصر الفن والبناء، وعصر المخاطر والكشوف الجغرافية، وعصر بداية العلم الجديد، وعصر النقد والتهكم على الأوضاع القائمة، وكذلك عصر ظهور الكنائس المحلية المستقلة عن سلطة البابا كما حدث فى انجلترا أو ألمانيا وغيرها من البلاد، وعصر ظهور المخترعات الحديثة مثل البوصلة أو الاسطرلاب Astorlabe.

::

وقبل أن نناقش خصائص النهضة الأوروبية ينبغى أن نوضح أسباب ظهورها فى مدن شبه الجزيرة الإيطالية قبل غيرها من مدن أوروبا، ونخص من تلك الأسباب ما يلى:

١ ـ الرخاء الاقتصادى : لقد شاهدت مدن إيطاليا الشمالية تقدماً سبقت به غيرها من مدن أوروبا ، فكان يسودها حالة انتعاش فكرى واقتصادى منذ القرن الحادى عشر ، نتيجة لسيطرتها على تجارة التبادل بين الشرق والغرب فى أعقاب الحروب الصليبية . وكانت مظاهر الحياة فى شبه الجزيرة الإيطالية تختلف عنها فى البلاد الأوروبية الأخرى ، حيث ساد نظام الإقطاع الذى اعتمد على الزراعة كأساس للحياة الاقتصادية . أما فى الدويلات الإيطالية فقد ظهرت الرأسمالية ، وبدلاً من سيطرة طبقة النبلاء الإقطاعيين وكبار رجال الكنيسة تولى مقاليد الحكم فى هذه الدويلات الإيطالية رجال من ذوى النفوذ من أهل المدن . وعلى ذلك فقد كان من الطبيعى أن يتحول الكثير من الناس عن تقاليد العصور الوسطى بما فيها من تقشف وزهد إلى الاهتمام بالحياة الدنيوية والتمتع بها ودراستها .

٢ ـ بعث الحضارة القديمة : كان من الطبيعى أن تقوم حركة بعث الدراسات القديمة فى بلاد كانت هى نفسها مهداً للحضارة الرومانية القديمة ، فقد ربط الكثير من الآثار الأدبية والفنية القديمة أهل إيطاليا بتاريخهم القديم ، وسيطر على أذهانهم اعتقاد راسخ بأنهم حفدة الرومان وورثتهم ، وأنهم أجدر الناس بالقيام على إحياء تراث أجدادهم واستعادة أمجادهم .

٣ ـ قيام حكومات قوية مستنيرة فى المدن : من الخصائص التى تميزت بها الحياة السياسية فى إيطاليا انقسام البلاد إلى دويلات سياسية وقيام حكومات مستنيرة فيها ، واحتدم بينها التنافس على تشجيع الآداب والفنون ، وقد حكمت فيها أسرات تركت بصماتها قوية فى تاريخ البلاد ، فنذكر منها على سبيل المثال: أسرة ميدتشى Medici وقد حكمت فلورنسا ، وأسرة ڤيسكونتى Visconti وقد سيطرت على ميلان (١٢٧٧ ـ ١٤٧٧) ، وأسرة بورجيا Borgia وقد قبضت بيد من حديد على الولايات البابوية . ولجأ كثير من حكام هذه الأسر إلى النظام الاستبدادى أسلوباً فى الحكم للاحتفاظ بسلطتهم ، ومن هنا أطلق عليهم

اسم « الطغاة » ، وعلى حكمهم ، حكم الطغاة » وعلى الرغم من هذا الطابع الاستبدادى الذى اتسم به حكمهم ، فقد كان من أبرز ما تميزوا به هو تشجيعهم العميق للعلماء والأدباء والفنانين ومن إليهم ، وكان بلاط أولئك الطغاة تهوى إليه أفئدة هؤلاء الأعلام مما ساعدهم على مزيد من النبوغ والإبداع والإنتاج .

٤ ـ **تأسيس المكتبات** : حدث تنافس بين المدن المختلفة فى إنشاء المكتبات واقتناء أنفس الكتب وأغلى المخطوطات وأبدع الصور . فقد شيد كوزمودى ميدتشى (Cosmo de Medici) مكتبة فى مدينة البندقية خلال الفترة التى كان منفياً بها ، ودعم مكتبة سان ماركو فى فلورنسا وجمع لها المخطوطات ، واهتم البابا نيقولا بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب القديمة النادرة حتى أصبحت المكتبة تضم على عهده قرابة ١٢ ألف مجلد .

٥ ـ **المجامع العلمية** : ظهور ونمو ما يعرف باسم المجامع العلمية أو الأكاديميات . وقد أسهمت فى نشر الدراسات الإغريقية واللاتينية ، إذ كانت بمثابة حلقات ثابتة للبحث والتدريس ، يلتقى فيها الأساتذة ويلقون المحاضرات تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة التى يشترك فيها الأستاذ وطلابه الدارسون . وقد حوت هذه المجامع العلمية ألواناً مختلفة من الدراسات القديمة مثل الفلسفة الإغريقية والموسيقى والرسم . وكانت الأكاديمية أشبه ما تكون بجامعة غير رسمية .

وقد تنافست الأسرات الحاكمة فى المدن المختلفة فى إنشاء المجامع العلمية وتدعيمها ودعوة كبار الأساتذة لزيارتها وإلقاء المحاضرات بها . وقد فاقت فلورنسا سائر المدن فى هذا المضمار بفضل رعاية أسرة ميدتشى للآداب والفنون ، فأنشأ كوزيمو دى ميدتشى أكاديمية أفلاطون ، وبعد وفاته تعهد حفيده لورنزو هذه الأكاديمية وكان يجمع أعضاءها تارة فى قصره فى فلورنسا ، وتارة فى بيته الخاص . كما تأسست فى روما عام ١٤٦٠ أكاديمية على يد جوليوس لاتيوس

Julius Loetus وجعلت مقراً للدراسات التاريخية والآثار . كما شهدت نابولى تأسيس أكاديمية على يد الفونس الخامس حاكم نابولى ، وتخصصت هذه الأكاديمية فى دراسة الآداب . وفى البندقية قامت أكاديمية أخرى اسمها الأكاديمية الجديدة أسسها ألدو مانوزيو Aldo Manuzio واهتمت بالدراسات الاغريقية وأخرجت بعضاً منها إلى عالم الطباعة ، لأن مؤسسها ألدو كان صاحب دار طباعة فدفع إلى مطابعه ببعض الكتب القديمة . ولقد كانت الطباعة التى دخلت إيطاليا فى عام ١٤٦٥ من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار النهضة الفكرية فى إيطاليا .

٦ ـ **الموقع الجغرافى** : اكتسبت شبه الجزيرة الإيطالية أهمية كبرى بسبب مركزها الجغرافى ، فهى تقع فى وسط البحر المتوسط الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها ، وفى وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادى فى العالم ، وكانت المدن الإيطالية هى حلقة الاتصال بين أوروبا وبين الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبلاد الشرق ، وكانت بفضل موقعها من أقرب الأقاليم الأوروبية إلى الدولة البيزنطية . فكان العلماء البيزنطيون يذهبون إلى إيطاليا إما أساتذة زائرين يلقون المحاضرات وينشرون من الدراسات الإنسانية ألواناً متعددة ، وإما مهاجرين إلى إيطاليا للإقامة الدائمة . ومن ناحية أخرى كان الإيطاليون المهتمون بالعلم ينزحون إلى الدولة البيزنطية للتعمق فى دراسة اللغات الإغريقية وآدابها وفنونها ثم يعودون إلى بلادهم حملة المشاعل الفكرية .

٧ ـ **طبيعة الشعب الإيطالى** : كان لدى الشعب الإيطالى ميل طبيعى للحياة الفنية بكل صورها وأشكالها ، فقد فتن بالموسيقى والرقص والأغانى والتصوير والنحت والعمارة والشعر وغير ذلك من أنواع الآداب والفنون . أما الحياة العسكرية والمعارك الحربية ، فقد باعد الشعب الإيطالى بينه وبينها ، وعهد حكامه بها إلى جنود مرتزقة كانت غالبيتهم من الألمان والسويسريين . وقد أوجد ذلك

ميلاً فنياً لدى الشعب الا طالى عمقته العوامل السابقة ، وفى مقدمتها الرخاء الاقتصادى والحياة المرحة ، التى كانت تموج بها قصور الأمراء حكام المدن الإيطالية ، والناس على دين ملوكهم أو أمرائهم . وقد أدت هذه العوامل وغيرها مجتمعة إلى تفجير طاقات عقلية وفنية ، وظهرت المواهب متفتحة نحو الفن أخذ الحكام الأمراء بيد أصحابها وأجزلوا لهم العطاء ، ولذلك برز الموهوبون الخلاقون المُبدعون الذين عاشوا وأنتجوا فى مجتمع حساس مرهف .

٨ ـ ومن أهم العوامل التى أدت إلى ظهور النهضة فى إيطاليا أيضاً ، هو أن شبه الجزيرة كان مقراً للبابوية ، فعلى الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسى كعاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية منذ عام ٤٧٦ ، فإنها غدت فى العصور الوسطى مقر البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى . وكان سقوط الامبراطورية قد جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها المسيحيون فى الغرب طوال القرون التالية ، ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيل بحمايتهم ، الأمر الذى أضفى على شبه الجزيرة الإيطالية مكانة ممتازة لم تتوافر لغيرها من البلاد الأوروبية . وهكذا كانت الزعامة الدينية للبابا عاملاً هاماً أكسب الإيطاليين شعوراً بنوع من السيطرة الدينية على بقية أنحاء أوروبا . وقد أصاب الإيطاليون كسباً آخر من الناحية المادية نتيجة وجود مقر البابوية فى بلادهم ، إذ كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة ، وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة منها .

ولقد كان من الممكن أن تقف البابوية موقف المعارضة من النهضة وتعمل على وأدها لولا أنها تحولت فى نهاية العصور الوسطى إلى ما يمكن تسميته « إمارة علمانية » ذات أطماع سياسية واسعة ، تعتمد على الغدر والنفاق وإشعال نار الحروب ابتغاء إخضاع أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية سياسياً للبابا . وهكذا أصبح البابا ـ بجانب صفته الدينية كرأس للكنيسة المسيحية الغربية ـ حاكماً دنيوياً لا يختلف عن الملوك والأمراء المعاصرين له : فكانت له أقاليم يحكمها

ويسيطر عليها بواسطة أجهزة حكومية تابعة له دب فى أوصالها الفساد ، وكان له بلاط يعج بالموظفين وتفوح منه رائحة المجون والفسق . وبينما كان المسحيون فى شمال أوروبا يستهجنون إنغماس البابوية وبلاطها فى الملذات ، كان الإيطاليون ينظرون إلى هذا الإنحدار الخلقى الذى تردت فيه البابوية كأنه أمر عادى . وكان كل ما يثير اهتمام الإيطاليين هو استمرار بقاء المقر البابوى فى روما كى تتدفق على بلادهم الأموال التى يجئ بها من البلاد الأوروبية مبعوثو البابوية . وكان البابوات ينفقون بعضها فى النهوض بالعلم ، ونشر المعرفة بإنشاء المكتبات وشراء المخطوطات ، وإقتناء الكتب وإقامة الأكاديميات ، وجمع الكنوز الفنية ، وتجميل مدينة روما نفسها بعد الإهمال الشديد الذى تعرضت له ردحاً من الزمن . ومن ثم أخذ البابوات ينافسون الأمراء الإيطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون ، وكان الأدباء والفنانون يهرعون إلى بلاط البابا يطمعون فى كرم العطاء . ويطلق على هؤلاء البابوات فى التاريخ الأوروبى الحديث اسم « بابوات النهضة » ، مثل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٤٥) ، والبابا ليو العاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١) ، الذى شيد كنيسة القديس بطرس .

ونتيجة لهذه العوامل التى أوجزناها وعوامل أخرى ، قامت فى إيطاليا نهضة ثقافية عظيمة فى الناحية الأدبية والفنية ، وبقيام تلك النهضة ارتحل إلى إيطاليا طلاب العلوم والفنون من أنحاء أوروبا المختلفة ، كما أن النهضة قد تعدت حدود إيطاليا إلى بقية أوروبا حيث أخذت طريقها فى النمو والتقدم ، لأن هذه الدول أيضا كانت قد بدأت فى التخلص من تقاليد العصور الوسطى وأصبحت مهيأة لقبول النهضة الجديدة .

ولا يفوتنا أن نشير هنا بصفة خاصة إلى أثر العرب والحضارة الإسلامية فى قيام النهضة الأوروبية ، والدور الذى أسهم به العرب فى قيام حركة إحياء

الدراسات القديمة التى سنشير إليها عند الحديث عن خصائص النهضة الأوروبيه ولولا العرب لكان من الممكن أن يقضى على كل ما تركه اليونان والرومان من حضارات قديمة وتراث إنسانى عظيم . ولقد قام المسلمون بتوصيل الحضارات القديمة إلى غرب أوروبا فى أواخر العصور الوسطى وذلك بعد أن أضافوا إليها الكثير مما توصلوا إليه فى الفنون والعلوم المختلفة ، وكانوا بذلك حلقة الاتصال بين حضارة العصور القديمة والعصور الحديثة . كما أن جزءاً كبيراً من النهضة الأوروبية التى قامت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ويطلق عليها اسم « **النهضة الوسيطة** » ، يرجع إلى أثر الحضارة التى نشرها العرب فى جنوب أوروبا حيث درس علماء أوروبا ونقلوا فلسفة القدماء وعلوم العرب . وهؤلاء العلماء بالتالى بفضل ما نشروه من علومهم مهدوا الطريق للتقدم الثقافى الأوروبى الحديث .

وهكذا أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وسلكت فى طريقها عدة معابر أهمها ثلاثة ، هى : شبه جزيرة إيبيريا أولاً ، وجزيرة صقلية ثانياً ، وبلاد الشرق الأدنى ، وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثاً . فكانت البلاد التى تخضع للحكم العربى فى الأندلس ، كمدينة طليطلة Tolido مثلاً ، من أهم المراكز للحضارة الإسلامية فى العالم ، كما كانت ملتقى الطلاب من مختلف الجهات ، فقد نزح إليها كثير من طلاب العلم من المسيحيين والمسلمين الأوروبيين على السواء والتحقوا بمعاهدها . ولقد أدى قيام النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقى وتحرير العقل الأوروبى من القيود الثقيلة التى فرضتها عليه الهيئات والأنظمة المختلفة ، وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الإنقلاب العظيم الذى حدث فى بداية القرن الرابع عشر أى النهضة الأوروبية الحديثة .

خصائص النهضة .

أما عن خصائص النهضة الأوروبية فمن الممكن أن نقسمها إلى عدة نواحى .

أولاً : الناحية الثقافية :

١ ـ تمتاز فترة عصر النهضة عن العصور الوسطى بظهور روح البحث والتشكك والنقد والاهتمام البالغ بإحياء الأدب اللاتينى والإغريقى القديم . كما تمتاز فترة عصر النهضة بظهور بظهور الحركة الإنسانية (Humanist Movement) ، وحركة إحياء الدراسات القديمة ، وتشمل هذه الحركة عنصرين أساسيين هما الدراسات الإغريقية والدراسات اللاتينية . ولقد وصف أحد كبار مؤرخى عصر النهضة الـ Humanists القائمين بهذه الحركة بقوله : The Humanists were the midwives of the new culture, the culture of Renaissance ؛

أى كان الإنسانيون مولدى الثقافة الحديثة ، وهى ثقافة عصر النهضة . ولم تكن الحركة الإنسانية حركة شعبية ، كما أنها لم تنبثق من داخل الجامعات بل ظهرت خارجها ، وكان هذا الوضع أمراً طبيعياً لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها إلى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب والقانون ، وظلت حقبة طويلة معادية للدراسات الإنسانية . واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادى والأدبى الذى أضفاه حكام المدن الإيطالية على المشتغلين بها .

وهكذا بدأ اهتمام الناس يتغير بعد أن كان مقصوراً فى العصور الوسطى على علم اللاهوت والقانون الكنسى والرومانى والفلسفة ، فأصبحوا أكثر ميلاً للتمتع بالجمال والقيم الدنيوية الإنسانية . وقد استهوت الدراسات الإغريقية واللاتينية أفئدة الكثيرين من الأوروبيين فى ذلك الوقت ، واعتقدوا أنها أروع

وأرقى وأجمل ما يمكن أن تنتجه عقول البشر ، وأن الفرد لا يمكن أن يتبوأ مكاناً علياً في المجتمع مالم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات . وقامت الحركة الإنسانية على دراسة المخطوطات القديمة ، التي كانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر منها ، وكانت على نوعين : المخطوطات اللاتينية في شبه الجزيرة الإيطالية ، وفي سويسرة ، والولايات الألمانية ، وغيرها من أجزاء أوروبا . أما المخطوطات الإغريقية ، فقد اتجهت الأنظار إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات ، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة ، وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية ، أو دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية في القسطنطينية، ويجمعون أثناء دراستهم عدداً وافراً من المخطوطات .

وهذه الحقائق التاريخية تنفي بكل تأكيد الخطأ الشائع بين جمهرة المؤرخين ، وهو أن سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثماني قد أدى إلى انتقال الثقافة الإغريقية إلى أوروبا ، وإلى ظهور حركة الإحياء في إيطاليا . ولكن مجيء الثقافة الإغريقية إلى أوروبا إنما كان في الحقيقة قبل ذلك ، كما أن حركة التنقيب عن المخطوطات القديمة قد ظهرت في إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية بحوالي خمسين عاما . ومن الحقائق الثابتة أيضا أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكري بين الدولة البيزنطية وبين المدن الإيطالية التي اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب .

وسارت في نفس الوقت حركة إحياء الدراسات اللاتينية قدماً نحو الإزدهار، لأن الإيطاليين كانوا ينظرون إلى اللغة اللاتينية على أنها لغة الحضارة الرومانية . وكان وراء هذه الدراسات عالم إيطالي يدعى بترارك Petrarch (Petrarque) (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) ، انصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية حتى سيطر عليها سيطرة تامة . واستطاع بترارك بفضل تمكنه من هذه اللغة أن يتذوق الاتجاهات

الإنسانية التي حفلت بها كتابات الرومان . وقد قام بترارك بجمع المخطوطات اللاتينية والنقوش ، وعمل جاهداً على نشر الدراسات الإنسانية وتشجيعها ، حتى أطلق عليه « والد الإنسانية » ، ونجح في تكوين مدرسة فكرية تنتمي إليه ، وتتكون من مثقفين متحمسين للدراسات الإنسانية ، وقد ألف بترارك باللغة اللاتينية ملحمته الشهيرة أفريقيا التي سرد فيها حوادث الحروب التي اندلعت بين روما وقرطاجنة ، ولكن لم يتح له إكمالها .

ومما ساعد على انتشار الدراسات الإنسانية وذيوعها اختراع الطباعة التي تعتبر من أعظم الاختراعات التي شهدتها الإنسانية وأسهمت في إثراء الحياة العقلية على مر العصور . وكان من الممكن طبع الكتب القديمة التي رخص ثمنها ، وأصبح من السهل على المتأدبين أو الإنسانيين تدوالها . ويعود الفضل في استعمال الحروف المتحركة في الطباعة إلى كل من يوحنا جوتنبرج John (Gutenberg) حوالي عام ١٤٥٠ من أهالي ماينز Mains، ولوران كوستر Coster من أهالي هارلم بهولنده . ولقد انتشر هذا الاختراع في ربوع أوروبا في عصر لم يتقيد بحقوق الاختراع . ففي عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معينة إلى إيطاليا ، ودخلت الطباعة باريس في عام ١٤٧٠ ، ووصلت إلى لندن في عام ١٤٧٧ ، وإلى إستوكهلم في عام ١٤٨٣ ، ومدريد في عام ١٤٩٩ . وكان الإنجيل هو أول الكتب التي طبعت في عام ١٥٥٤ . وقال البعض بأنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد في أوروبا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع . ولقد اكتشف الورق أيضاً في عصر النهضة ، وكان النجاح في صنعه هو الذي مكن الطباعة من أداء رسالتها .

ومما يجدر ملاحظته أيضاً هو أن صاحب المطبعة كان يجمع بين إلمامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة . ومن أبرز أعلام الطباعة الإيطاليين الدوس مانوتيوس Aldus Manutius (١٤٤٩ ـ ١٥١٤) الذي تعمق في دراسة

اللغتين الإغريقية واللاتينية ، وأصبح متخصصاً فى النقد والنحو وتاريخ الأدب وعلم الأخلاق .

٢ ـ ظهور اللغات الحديثة :

كانت اللاتينية هى لغة العلم والكتابة فى العصور الوسطى دون بها العلماء ثمرات إنتاجهم ، ثم تضاءل استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الكنيسة ؛ فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم ؛ فنشأت فى شبه الجزيرة الإيطالية وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتينى . وظهرت فى شمال أوروبا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتونى ، وعمد علماء كل لغة إلى تكوين كلمات وعبارات جديدة ، والإرتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب بها ، وأصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية الوليدة مظهراً من مظاهر النزعة القومية ، وعاملاً هاماً ساعد على نشر الأفكار الجديدة التى أتت بها النهضة . ففى إيطاليا كتب دانتى Dante (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) كتابه الخالد « **الكوميديا الإلهية** » باللغة الإيطالية ، وفى فرنسا كتب مونتين Montaigne (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الفلسفة والأخلاق ، وفى انجلترا وضع جفرى تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) قصص كانتربرى Canterbury Tales باللغة الإنجليزية . هذا بالإضافة إلى غيرهم ممن ظهروا فى مختلف البلاد الأوروبية وكتب كل منهم بلغة شعبه .

٣ ـ الآثار وعلم التاريخ :

لقيت الآثار الرومانية اهتماماً كبيراً بها فى عصر النهضة وذلك من حيث المحافظة عليها من التلف والضياع بسبب تعرضها لعبث النبلاء وغيرهم من طبقات الشعب . ولكن فى عصر النهضة شعر الناس بالقيمة الفنية الرائعة لهذه

الآثار وأخذ العلماء ينقبون عنها وظهر عدد من المؤلفات وتناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء . كما شهد عصر النهضة أيضاً اهتماماً كبيراً بعلم التاريخ فتطورت مناهج البحث التاريخى ، وظهرت مدرسة جديدة فى النقد التاريخى كان من أهم مظاهرها البحث الذى قام به أحد الإيطاليين ، وهو لورنزو فالا عن « **هبة قسطنطين** » وهى وثيقة قيل إنها ترجع إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى ، واستند إليها البابوات فى العصور الوسطى فى صراعهم مع الأباطرة حول حقهم فى السلطة الزمنية . ولكن النتيجة الهامة التى خرج بها هذا البحث هى أن الوثيقة مزورة ، وبذلك تتهاوى جميع إدعاءات البابوات . وقد تكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسا أخرجت عديداً من الكتب التاريخية فى موضوعات شتى .

٤ ـ الفنون الجميلة :

لقد نبغ الإيطاليون فى مجال الفنون الجميلة ، وإليهم يرجع الفضل فى إحياء الفنون التى كانت مزدهرة فى العصور القديمة . ولقد قام الفنانون الإيطاليون بكشف النقاب عن الآثار القديمة ؛ ولذلك فهم أصحاب الفضل الأول فى إبتكار الفن الحديث ، إذ تحرروا من قيود العصور الوسطى وتقاليدها المتزمتة ، وكرسوا كل طاقاتهم المبدعة فى الارتفاع بمستوى الفنون الجميلة الحديثة إلى أسمى درجات الكمال وبخاصة فى فنى النحت والتصوير . ويعتبر ليوناردو دافنشى Leonardo de Vinci ومايكل أنجلو Maichael Angelo ورفائيل Rafael أعظم الفنانين الإيطاليين فى عصر النهضة . ولقد تحرر هؤلاء الفنانون ، وأخرجوا صوراً تنبض بالحياة أبرزوا فيها جمال الوجه البشرى وسائر أجزاء جسم الإنسان ، وصوروا جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة . فكان ليوناردو دافنشى مثلاً ، الذى ولد فى فلورنسا (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) ، أكثر عظماء النهضة براعة من نواح كثيرة ، فكان رساماً ونحاتاً وعالماً مخترعاً متقدماً على عصره بعدة قرون ، وكان

مهندساً وموسيقياً ومبتكراً فى فن الرقص ، وكان كيميائياً ومؤلفاً لكتاب من أقدم كتب التشريح . وللأسف فقدت معظم صور دافنشى ، ولكن العالم عرف عبقريته من صورته المشهورة « **العشاء الأخير** » الموجودة فى متحف ميلانو ، ومن صورة موناليزا Mona Liza المحفوظة فى متحف اللوفر بباريس وهى سيدة من نابولى تدعى موناليزا چيراردينى Gherardini تزوجت فى السادسة عشرة من عمرها على كره منها أحد ضباط مدينة فلورنسة يسمى فرانشيسكو زانوبى دل چيوكندا Del Gioconda . وقد استغرق رسم هذه الصورة أربع سنوات أثبت فيها الفنان أدق التفاصيل بالرسم والألوان حتى خرجت الصورة معجزة فنية خالدة .

وقد شرح دافنشى نظرياته فى الفن فى رسالته الشهيرة فى التصوير ، ومما قاله فيها: «إن أهم القواعد التى تقوم عليها نظرية التصوير كلها أن تكون أعمال الشخص المصور معبرة عن حالته النفسية ، كالرغبة والاحتقار والغضب والرحمة وما إلى ذلك » .

أما الشخصية الأخرى فهى شخصية مايكل أنجلو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) الذى اشتهر بتعدد الجوانب الثقافية مثل دافنشى ولكن ذاعت شهرته فى النحت وهو لا يزال غلاماً . ولما ذاعت شهرته آواه لورنزو ميديتشى فى قصره وعين له مرتباً . وقد أثرت فيه وقت ما خطب ساڤونا رولا Savona Rola ، ولكن يبدو أنه خشى أن يحوله ساڤونا رولا عن عقيدته ، فخرج إلى البندقية قبل أن يتولى ساڤونا رولا حكم فلورنسة ، ثم انتقل منها إلى روما حيث صنع تماثيله الشهيرة للآلهة الوثنية ، ولكن استشهاد ساڤونا رولا أثر فى نفسه تأثيراً شديداً ، فقضى السنين التى تلت هذه الحادثة فى نحت المجموعة الرخامية الشهيرة التى تمثل العذراء والطفل .

وبينما كان مايكل أنجلو عبوساً حزيناً ساخطاً على العالم كان معاصره العظيم رفائيل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) فناناً سعيداً . وقد عين فى عام ١٥١١

رئيساً لمهندسى كنيسة القديس بطرس فى روما ، ولم ينقطع عن العمل فى نقشها طوال حياته . وعلى الرغم من أنه مات وهو فى سن الشباب ، إلا أنه جسد العبقرية الإيطالية فى فن التصوير بما خلفه من آثار فنية رائعة . وخير ما يعرف به الآن صورة البابا يوليوس الثانى وعذراء سيستين Sistine ، وعذراء أنسدى Ansidei ، وهى محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن ، وقد بيعت بسبعين ألف جنيه . ولقد تنكب أنجلو طريقة دونا تيللو (Donatello (١٣٨٦ ـ ١٤٦٦) ـ وهو الفنان الذى دشن نتاج النهضة فى فن النحت ـ التى اقتنعت فى سذاجة بصورة العالم المنظور المباشر ، فأخذ يبحث فى إصرار عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر . ومن أشهر أساتذة فن النحت أيضاً الذين أنجبتهم عصر النهضة لورنزو چيبرتى Lorenzo Ghiberti (١٣٧٨ ـ ١٤٥٥) .

وبالنسبة لفن العمارة فلم يندثر طوال العصور الوسطى ، بل ظل قائماً مزدهراً معتمداً على نماذج الفن القديم ، ولكن فى عصر النهضة ظهر الاتجاه إلى إحياء الدراسات والفنون القديمة ، وانعكس هذا الاتجاه على فن العمارة ؛ فأدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الإغريق فى مبانيهم القديمة . وشهدت فلورنسة هذا التطور الكلاسيكى فى فن البناء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، ومنها انتقل إلى بقية أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية . وقد نبغ فى فن العمارة فى مطلع النهضة فيليب برنيلسكو Burnellesco (١٣٧٧ ـ ١٤٤٦) ، الذى يعتبر رائداً فى هذا الميدان . ومن أهم آثاره المعمارية هى القبة التى توج بها كاتدرائية فلورنسة مسقط رأسه .

٥ ـ التمتع بملذات الحياة والإنغماس فيها :

وهناك مظهر من مظاهر عصر النهضة لا يمكن إغفاله ، ألا وهو التغيرات العميقة التى أحدثتها النهضة فى المجتمع الأوروبى وعلى وجه الخصوص فى إيطاليا ؛ إذ برز دور النساء فى مجتمع النهضة ، وأصبحت السمة الظاهرة فيه

تقديس الجمال ، والتمتع بملذات الحياة ونعميها ونتيجة لانطلاق روح الخيال في رجال عصر النهضة ونموه نمواً عظيماً أن استهان الناس بالآداب العامة ، وخرجوا على التقاليد والأخلاق ؛ فلم يتقيد أهل ذلك العصر بالروابط الزوجية . وليس معنى ذلك أن الناس انصرفوا عن حياة الأسرة نهائياً ، بل احتفظوا بها كعنصر تقليدى فى حياة المجتمع ، ولكنهم إلى جانب ذلك أرادوا أن يعيشوا أحراراً يمتعون أنفسهم بالحياة إلى أكبر حد ممكن . وأصبح من الأمور الألوفة أن يتطلع كلا الزوجين إلى حياة العشق والهوى بعد الزواج . وكانت تحدث أحياناً فواجع ومآسى وقتل وغدر وانتقام عنيف . كما ظهر الانحلال الخلقى أيضاً فى الأغانى العاطفية المبتذلة العبارات المفضوحة المعانى . وقد عبر مارتن لوثر عن انتشار هذه الآثام تعبيراً مهذباً جاء فيه « إن كل من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى تصيبه من جراء ما يرى هناك » .

وأصبح من الأمور المألوفة أيضاً أن يخالف الأفراد أوامر الحكومات التى سيطرت على الشعب بالعنف والقوة تارة ، وبالخداع والحيلة تارة أخرى . وامتدت هذه الحالة الشاذة إلى رجال الدين والكنيسة . ولم يعد هناك ما يمنعهم من أن يشتركوا فى أعمال النهب والقتل والإعتداء على النساء . ولم يعد اهتمام الكنيسة موجهاً إلى الدين وإلى مساعدة الفقير . وعاش البابوات أنفسهم حتى قبل نهاية العصور الوسطى ، عيشة مخالفة لقواعد الدين والأخلاق . ونتيجة لهذا التدهور الخلقى الشديد ظهر رد فعل هذه النهضة ؛ فظهرت فى إيطاليا وفى خارجها حركات دينية تصوفية ترمى إلى إصلاح المجتمع من الناحية الدينية والخلقية والسياسية . ويمثل هذا الاتجاه الأخير ؛ أى نحو التمسك بالفضيلة الراهب چيروم سافونا رولا Jerome Savona Rola (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) الذى جاء إلى فلورنسة من فرارا Ferrara ، والتحق بنظام الرهبان الدومنيكان فى دير سان ماركو . وفى فلورنسة أغضبه اهتمام أهلها بإحياء تراث القدماء وإشادتهم

بآثار أفلاطون وأرسطو ، وإنكارهم فى مناقشاتهم بعض أسس الديانة المسيحية ؛ كما كره النهضة ونظر إليها على أنها السبب فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى أصاب المجتمع . ولقد قال : « إن الكنيسة ذاتها هى المسئولة المجرمة لتأثرها وخضوعها لمادية العصر » . وساعدت كتابات سافونا رولا الفلسفية والدينية التى طبعت فى تلك الفترة على ذيوع صيته بين الناس ، وعملت على اجتذاب المثقفين الذين ظلوا مترددين بإزائه ، واكتظ المستمعون إليه فى كاتدرائية فلورنسة حتى بلغوا ١٠,٠٠٠ نفس . وعندما وعظ سافونا رولا الناس فى موسم الصوم الكبير فى عام ١٤٩١ ندد صراحة بجشع رجال الدين وحرصهم على جمع الذهب . وقال إن الفقراء مضطهدون مثقلون بأعباء لا قبل لهم بها ، ومنهم من يطالب بأن يدفع ضرائب تبلغ ضعف دخله فى حين أن الأغنياء لا يدفعون إلا مبالغ زهيدة ، وهم الذين يفرضون الضرائب تحقيقاً لمصالحهم الشخصية دون رعاية لمصلحة الشعب . وهكذا وقف سافونا رولا وجهاً لوجه أمام لورنزو ، وبدأ بينهما كفاح صامت خفى ، وكان كفاحاً بين المبادئ وطرق التفكير وأسلوب الحياة العملية . ومضى سافونا رولا فى وعظه فهاجم القمار والمقامرين وحمل على المرابين ، وتكلم عن ميلاد المسيح ، وأثار شعور الناس بتنديده بما لقيه من التعذيب على أيدى اليهود .

وبعد وفاة لورنزو فى عام ١٤٩٢ لم يحتمل ابنه بييرو ـ الذى لم تكن له ملكات أبيه فى إدارة شئون تسكانيا وفى حفظ التوازن فى إيطاليا ـ وجود سافونا رولا على الدوام فى إيطاليا ، وحاول إبعاده ولكنه فشل . وسيكون للغزو الفرنسى لإيطاليا فى القرن الخامس عشر أثر مهم فى حياة سافونا رولا ، فستتاح له الفرصة لكى يخرج من ميدان الوعظ والخطابة ، إلى ميدان الواقع العملى . وبعد أن ذاعت أنباء استسلام بييرو للملك شارل ملك فرنسا ، سخط أهل فلورنسة وأخذوا يتجمعون فى الشوارع ، وتطلعوا إلى سافونا رولا لإيجاد سبيل للنجاة من

الأخطار ؛ فخرج من عزلته وخاطب الناس قائلاً : « انظروا هذا سيف الله مسلطاً على رقابكم ، هذه تنبؤاتى قد تحققت وبدأ عقاب الله ... أيا فلورنسة لقد انتهى زمن الغناء والرقص ، هذا وقت سكب الدموع من أجل خطاياك ، خطاياك يا فلورنسا ، وخطاياك يا روما ، وخطاياك يا إيطاليا هى التى جلبت هذا العقاب الآن؛ فأعلنوا بندمكم وصلوا لله وكونوا متحدين ... » . وسقطت الحكومة وأصبح سافونا رولا رجل الساعة ، وتمكن من إنقاذ فلورنسة من الغزو والسيطرة الفرنسية . واستعان به الفلورنسيون لإبداء النصح والمشورة للحكومة والشعب بوضع نظام حكم ديمقراطى سليم . كما رأى سافونا رولا أنه من المستحيل إلغاء العادات القديمة إلغاءاً تاماً ، ورأى من المناسب تحويلها وجهة أخرى واستخدامها لأغراضه؛ فأبدل الأغانى الوثنية بأناشيد دينية ، ووضع لهم نظاماً عسكرياً ؛ فكل فرقة منهم تمثل أحد أحياء المدينة ، ولها رئيس من بينهم ، واستقبل أعضاء السنيوريا Signoria هؤلاء الرؤساء . وبذلك أدرك الأولاد أن لهم أهمية فى نظر الحكومة ، فامتلأت نفوسهم حماسة وفخراً . وهكذا جعل سافونا رولا من أولاد فلورنسا نوعاً من « بوليس الآداب » ، وكلفهم اتباع بعض التعليمات . فأصبحوا يذهبون بانتظام إلى الكنائس ، وامتنعوا عن حفلات السباق وعن المراقص والمساخر ، وارتدوا أبسط الملابس ، وقصوا شعورهم حتى مستوى الأذن . ومضى سافونا رولا فى خطته ، فكان يجمع فى الميادين العامة فى فلورنسة الكتب المخالفة للمسيحية ويشعل فيها حرائق عامة . ويرى بعض الباحثين أن حركة سافونا رولا هذه تمثل السلوك المسيحى المضاد لتيار النهضة . وقد أدت حملته على البابوية بوجه عام ، وعلى الباب اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) بوجه خاص إلى اتهامه بالكفر كوسيلة للتخلص منه ، وقد تم إعدامه فى أحد ميادين فلورنسة فى مايو عام ١٤٩٨ وإحراق جثته .

ثانيا : الناحية السياسية :

من المسائل البارزة التى نراها إنحلال النظام الإقطاعى الذى ساد فى العصور الوسطى وقيام ملكيات قومية ذات سلطة مركزية وعلى أساس قومى . ولقد نجحت دول غرب أوروبا مثل انجلترا وفرنسا وأسبانيا والأراضى المنخفضة فى توحيد المملكة وبسط السلطة المركزية فى أنحاء البلاد ، ثم جاء عصر النهضة فساعد على دعم القوى الباعثة للقومية واستكمال الشخصية المستقلة للأمم . وتمكنت هذه الأمم من تكوين الامبراطوريات العظيمة فى العصور الحديثة قبل غيرها ، فإن تحقيق وحدتها قد ساعد على ذلك دون شك . ولقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر نمو نظم الحكم ونشوء الدولة الوطنية الحديثة ، ولم تكن فكرة العصر الحديث عن معنى الدولة والأمة مفهومة فى العصور الوسطى كما نفهمها حالياً ؛ فالأمم الحديثة كالأمة الفرنسية والانجليزية والأسبانية وغيرها لم تكن إذ ذاك إلا فى دور التكوين ، ولم تتنبأ إلى شخصيتها المستقلة ووحدتها وكيانها إلا فى أواخر تلك العصور .

وقد استغلت الملكيات فى غرب أوروبا الطبقة الوسطى فى دعم مركزها تجاه النبلاء « أمراء الإقطاع » وتجاه كبار رجال الدين . فوجدت فى كل من أمراء الإقطاع ورجال الدين مصدر خطر يهددها لأن ولاء الجماهير موزع بين الملكية والكنيسة . وكان أفراد الطبقة الوسطى لا يتصورون بقاء امتيازات النبلاء ورجال الدين ، ومن ثم تلاقت مصلحة الملكيات مع مصلحة أفراد الطبقة الوسطى فى دول غرب أوروبا للحد من امتيازات الطبقتين الأخريين . وقدم أفراد الطبقة الوسطى الأموال اللازمة للملكيات لكى تنفذ بنجاح الأهداف المشتركة كما استفادت الملكية استفادة كبرى من اختراع البارود الذى كان من نتاج عصر النهضة وعجز نظام الفروسية الذى اعتمد عليه أمراء الإقطاع عن الوقوف أمام هذا التطور الحربى الجديد . وكان من أهم النتائج المترتبة على هذا الاكتشاف هى

سرعة تدهور النظام الإقطاعى ، وإنهيار نظام الفروسية واختفاء طبقة رقيق الأرض Serfs ، وإزدياد نمو الروح القومية واستخدام اللغات القومية على نطاق واسع ، وقيام الملكيات ذات الحكومة المركزية الموحدة .

كما اختفى فى عصر النهضة أصحاب النظريات السياسية السائدة فى العصور الوسطى الذين كانوا يعتقدون بأن المسيحية كلها تكون دولة واحدة ، ويحكمها البابا والإمبراطور بتفويض من الله ، يشرف الأول على الشئون الدينية ، والثانى على الشئون الدنيوية . وظهرت نظريات سياسية كان بعضها معروفاً من قبل لبعض الملوك مثل لويس الحادى عشر ملك فرنسا (١٤٦١ ـ ١٤٨٣) وتبيح استخدام كافة الوسائل الخلقية وغير الخلقية لتحقيق أهداف الحاكم ، وفيها تجاهل تام لتعاليم الأديان وإخضاع جميع المبادئ للمصلحة السياسية . على أن الجديد فى تلك النظريات أن سياسياً من فلورنسة هو ميكيافللى وجد فى نفسه الجرأة على تسجيلها فى كتابه « **الأمير** » مطالباً بتطبيق هذه السياسة تطبيقاً حرفياً لتنفيذ الرحدة الإيطالية التى كانت تهفو إليها نفسه . ونادى سياسى إنجليزى هو توماس مور بنظرية تقول أن الهدف من قيام الحكومة هو السهر على مصالح المحكومين ، وتأسيساً على هذه النظرية فإن أفضل الحكومات هى أقدرها على أداء هذا الواجب . وقد وضح هذه النظرية فى كتابه « **عالم الكمال** » **Utopia** صوّر فيه الدولة المثالية وشرح أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

أما بالنسبة لألمانيا وإيطاليا فكانتا تكونان فى العصور الوسطى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد تداعى نفوذ الامبراطور فيهما خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لأن الإمبراطور واجه فى ألمانيا خصوماً أشداء هم حكام الإمارات الإقطاعية التى كانت وحدات سياسية ، كان بعضها ذا طابع دينى يحكمه أسقف أو كبير أساقفه ، والبعض الآخر ذا طابع علمانى يحكمه أمير . ومن ناحية أخرى كان بعض هذه الوحدات السياسية عبارة عن مقاطعة كبيرة ، والبعض الآخر لـ

يكن يتجاور مدينة . ولما جاءت النهضة الأوربية حاول الإمبراطور الاستعانة بالمدن وأفراد الطبقة الوسطى لدعم مركزه تجاه الأمراء ورجال الدين ، وكانوا يسيطرون على الأرض ويحكمون الإمارات الإقطاعية ، ولكن كان هؤلاء الحكام أحرص على الاحتفاظ بإماراتهم وإمتيازاتهم من تحقيق وحدة سياسية فعلية تجمع شتات الوطن الألمانى . وظلت ألمانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ممزقة إلى وحدات سياسية تجاوز عددها ٣٥٠ وحدة تشكل خليطاً غير متجانس فى التكوين الجغرافى والاتجاه السياسى والمستوى الاقتصادى ، ولكن جمعت بينهما الجرمانية فى الجنس وفى اللغة ، وعلى ذلك لم يكن للنهضة تأثير على الأوضاع السياسية الداخلية فى ألمانيا . أما إيطاليا فعلى الرغم من أن مدنها كانت مهداً لمولد النهضة وإزدهارها ، فإنها لم تستفد شيئاً من النهضة سياسياً . فلم تقم بها حكومة مركزية موحدة تبسط نفوذها على سائر أنحاء البلاد ، ولكنها ظلت موزعة بين وحدات سياسية ناصب بعضها البعض العداء ، وخضع بعضها للنفوذ الأجنبى المباشر حيناً. وأكثر من ذلك أصبحت إيطاليا ميداناً لصراع رهيب بين ملكى فرنسا وأسبانيا من أجل السيطرة على أوروبا ، وهذا ما يعرف باسم « **الحروب الإيطالية** » .

ثالثاً : الناحية الاقتصادية :

صاحب النمو فى الحركة الاقتصادية إتساعاً فى نطاق التجارة الأوروبية الأمر الذى أدى إلى الكشوف الجغرافية التى حدثت فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، ومهدت الطريق لإنتشار الحضارة الأوروبية فى جميع أنحاء العالم . وقد نتج عن الثورة التجارية التى أعقبت حركة الكشوف الجغرافية تغيير كبير فى النظم الاقتصادية الأوروبية ؛ فبدلاً من الاقتصاد الذى قام فى أوروبا الوسطى ، وكان اقتصاداً زراعياً ذا كفاية محلية Self Sufficent يسوده الركود ، وجدت نظم اقتصادية ذات طابع تجارى زراعى متداخل ، وقد أصبحت هذه النظم الأخيرة هى القائمة فى القرون الثلاثة التالية لهم ، وكانت الأساس الذى قامت عليه الثورة الصناعية .

حركة النهضة خارج إيطاليا :

أوضحنا في المحاضرات السابقة كيف أن المدن المتناثرة في شبه الجزيرة الإيطالية أصبحت مهداً للنهضة والتطور الفكرى والثقافى ، ولكن مظاهر الحضارة فى إيطاليا أخذت تخبو فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر عندما بدأت الحروب الإيطالية التى كانت مظهراً من مظاهر التنافس الدولى بين فرنسا وأسبانيا. فمنذ أن غزا شارل الثامن ، ملك فرنسا و إيطاليا فى عام ١٤٨٤ ، أصبحت إيطاليا ميداناً لهذا الصراع الذى استمر حتى عام ١٥٥٩ ؛ كما كان استيلاء قوات الدولة الرومانية المقدسة على روما فى عام ١٥٢٧ إيذاناً بإنهيار النهضة الإيطالية . أما العامل الثانى الذى أسهم فى تدهور النهضة الإيطالية فكان ظهور حركة الإصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى المانيا . وقد نقم البابوات على تلك الحركة واعتبروها ثمرة من ثمرات حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة ، ولذلك قام البابوات بمعارضة الحركة الإنسانية.

ولكن قبل أن يبدأ إضمحلال النهضة فى إيطاليا تسربت روحها ومظاهرها إلى ما وراء جبال الألب إلى جهات متفرقة من القارة الأوروبية ؛ وذلك عن طريق الطلاب الذين كانوا قد جاءوا من أنحاء أوروبا إلى المدن الإيطالية ينهلون من مراكز النهضة . وقاموا بعد عودتهم إلى بلادهم بنشر تلك الأفكار والآراء الجديدة. وكان أكبر داعية للنهضة خارج إيطاليا هو أرزمس Desiderius Erasmus (١٤٦٧ ـ ١٥٣٧) ، وهو عالم هولندى ولد فى روتردام ، وتنقل للتدريس بين إيطاليا وانجلترا ؛ كما زار سويسره وباريس . وكان من أهم أعماله إخراج نسخة الكتاب المقدس اليونانية (العهد الجديد) مصحوبة بترجمة لاتينية من عنده . وكان إرزمس يرى أن الدراسات الإنسانية وسيلة لغاية هى إصلاح المجتمع الأوروبى ، وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التى كانت ترتكب جهاراً . وكان يهدف من وراء نشر النسخة الإغريقية الأصلية للإنجيل هو

أن يعود الناس فى أوروبا إلى المسيحية الأولى فى بساطتها ونقائها . وكان يدرك إدراكاً تاماً التدهور الذى أصاب الكنيسة نتيجة سلوك كبار رجال الدين وحياة البذخ والفساد ؛ ولذلك كان إرزمس فى طليعة الرواد الذين دعوا إلى الإصلاح الدينى كما كان يرى فى التعليم أرقى مهنة ، ومن كتاباته المشهورة تقريظ الجهالة (The Praise of Folly). ومن أشهر مؤلفاته (١٥١٢) الأمثال Adgia (١٥٠٠) ، والأحاديث Colloquia (١٥٢١) ، وكلها ملأى بالنقد الساخر الموجه إلى المساوئ المنتشرة فى عصره لا سيما بين رجال الكنيسة ، وقد توفى فى مدينة بال بسويسره عام ١٥٣٦ ، وأطلق عليه بعض المؤرخين فولتير اللاتينى .

أما بالنسبة مثلاً لانتشار النهضة فى ألمانيا ، فلم تجد الدراسات الإنسانية فى الأوساط العلمية والدينية أول الأمر ظروفاً ملائمة تنمو فيها على الرغم من تشجيع بعض الحكام للقائمين بهذه الدراسات ؛ فقد حدث معارضة من رجال الدين الألمان من انتشار هذه الدراسات على واسع ، وقد ربطوا بين الدراسات الإنسانية وبين إيطاليا باعتبارها مهد الدراسات الإنسانية منذ بدأت النهضة . وكان الألمان بوجه عام ، ورجال الدين بوجه خاص يشعرون بمقت شديد لرجال الكنيسة فى روما نظراً لما كان يتناقله الناس فى إحاديثهم ومجالسهم من أخبار تدل على تدهور رجال الكنيسة فى روما . وعلى هذا النحو نرى أن النهضة فى ألمانيا اتجهت إتجاهاً علمياً ودينياً ؛ لأن الألمان لم يقنعوا بمجرد التقليد ، بل انكبوا على الدراسة العلمية والدينية معاً بدلاً من الاقتصار على الدراسات الإنسانية ، وقد تمثلت نزعة الألمان العلمية فى يوحنا موار Muller (١٤٦٣ ـ ١٥٥٦) الذى اختص بدراسة الفلك ووضع عدة تقويمات بحرية وإرشادات فلكية ، أفادت المستكشفين البرتغاليين والأسبانيين . كما ظهر فى ألمانيا يوحنا روكلن Reuchlin (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢) أحد أعلام الفكر الألمانى الحديث ؛ وقد تخصص فى

الدراسات الإغريقية واللاتينية فى روما وغيرها من مدن إيطاليا وفى باريس وبال ، وجاهد فى نشر هذه الدراسات بين الألمان . كما اهتم بإحياء دراسة اللغة العبرية لخدمة الديانة المسيحية على أساس أن العبرية هى الوسيلة العملية لدراسة وتفهم كتاب « **العهد القديم** » . وقد قام جدل بين روكلين وبين أحد زملائه من المفكرين ، حيث هاجم زميله الدراسات الإنسانية ، ولكن الرأى العام الألمانى وقف إلى جانب روكلين . وعلى أية حال أدرك الألمان من خلال هذا الجدل العنيف أهمية الدراسات الإنسانية فى شرح الكتاب المقدس ، وبالتالى فى تفهم الديانة المسيحية على أساس سليم ؛ ومن هنا حدث ارتباط وثيق بين الدراسات الإنسانية وبين الرغبة فى الإصلاح الدينى ، وهى رغبة جاشت فى صدور الجماهير الألمانية . ومن ثم اتخذ دعاة الإصلاح الدينى الدراسات الإنسانية وسيلة لتحقيق رغبتهم بعد أن كان رجال الدين يعارضون هذه الدراسات .

وفى فرنسا تسربت عوامل الحضارة فى إيطاليا إليها منذ بدأ الاتصال بينها وبين فرنسا بنزول شارل الثامن إيطاليا عام ١٤٩٤ ، ومن ثم أخذت حركة إحياء الدراسات القديمة تؤتى ثمارها فى بناء الحضارة الحديثة فى فجرها الأول فى فرنسا . وكان العالم الإيطالى چيروم ألياندر Jerome Aleandre ، الذى جاء إلى باريس فى عام ١٥٠٨ ، وحاضر بجامعتها فى اليونانية واللاتينية والعبرية ، وكان أول من نبه الأذهان فى فرنسا إلى دراسة اللغات القديمة بصفة حاسمة . ثم تزايد اهتمام ملوك فرنسا بعد ذلك بالدراسات الإنسانية ؛ فأنشأ كلية فرنسا Le College de France فى عام ١٥٣٠ فى باريس ، وعينوا لها أساتذة متخصصين فى اللغة الإغريقية بوجه خاص . ونشطت فى باريس حركة نشر الكتب الإغريقية ، وأسست مطبعة يونانية متخصصة لنشر هذه المؤلفات .

وتذخر النهضة فى فرنسا بأسماء أعلامها المشهورين مثل جيوم بوديه Guillaume Bude (١٤٦٧ ـ ١٥٤٠) وكان من أكبر العلماء المتخصصين

فى اللغة الإغريقية وهو الذى زين لفرنسوا الأول ملك فرنسا إنشاء كلية فرنسا . ومن بين هؤلاء الأعلام أيضاً فرنسوا رابليه Rabelais (١٤٨٣ ـ ١٥٥٣) وقد تعلم الطب وأصبح أستاذاً فى علم التشريح ، وكان أول من خالف أمر البابا وشرح جثة إنسان . ونذكر أيضاً فى سياق حديثنا عن أعلام النهضة فى فرنسا دوليه Dolet (١٥٠٩ ـ ١٥٤٦) الذى تخصص فى القانون والدراسات الكلاسيكية ، وبيير ليسكو Lesscot (١٥١٠ ـ ١٥٧٨) ، الذى تخصص فى الحفر وخطط عمارة اللوفر وبدأ فى بنائها . ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أيضاً أن الإنتاج الذى قام به علماء فرنسا فى عصر النهضة كان مزجاً بين القديم الذى يتمثل فى المخلفات الإغريقية والرومانية ، وبين الجديد الذى يتمثل فى خصائصهم الذاتية . ويتضح هذا الفارق بين الإنتاج الإيطالى والإنتاج الفرنسى فى قطاع الأدب والبناء والنحت

أما فى انجلترا فقد تأخر دخول الدراسات الإنسانية إليها بعض الوقت بسبب إنشغالها بحرب المائة عام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣) مع فرنسا ، ثم بحرب الوردتين (١٤٦١ ـ ١٤٨٥) ؛ وبعد إنتهاء الحرب الأخيرة أخذت الدراسات الإنسانية سبيلها إلى انجلترا . وكان جماعة من الإنجليز من أكسفورد قد ذهبوا إلى إيطاليا، ودرسوا اللغات القديمة فى فلورنسة والبندقية وروما . ولما عادوا اتخذوا من أكسفورد مكاناً لإلقاء محاضراتهم ، ونشر آرائهم الجديدة ، فأطلق عليهم اسم **«مصلحو أكسفورد»** Oxford Reformers . ولقد حاضر إرزمس عند زيارته الأولى لانجلترا عام ١٤٩٩ فى أكسفورد ، ثم حاضر فيما بين ١٥١٠ و ١٥١٣ فى جامعة كمبردج . ولقد اهتم مصلحو أكسفورد بالدراسات الأدبية القديمة،وطالبوا بتحرير الفكر الإنسانى من القيود التى كانت الكنيسة تفرضها على حرية البحث العلمى وحرية الفكر . ومن أعلام النهضة فى انجلترا توماس كوليت الذى لم يكن من الأساتذة المعروفين قبل سفره إلى إيطاليا ، ولكن بعد

عودته منها أدهش أساتذة اللاهوت فى أكسفورد بأن أذاع أنه ينوى المحاضرة فى رسائل سانت بول فى الجامعة ، وقام بإدخال اللغة اللاتينية فى جامعة أكسفورد . ومن الذين عملوا أيضاً على نشر الدراسات الإنسانية سير توماس مور صاحب كتاب عالم الكمال وكلاهما (مور وكوليت) كان صديقاً لإرازمس ، وتعاون الثلاثة على نشر الإنجيل .

وانتقلت الدراسات الإنسانية من جامعة أكسفورد إلى جامعة كمبردج بواسطة إرزمس الذى كون حلقة من الدارسين الشغوفين بتلك الدراسات ، وتعاقب بعد إرزمس عدد من صفوة الأساتذة الإنجليز ، يحاضرون فى اللغة الإغريقية حتى أصدر الملك هنرى الثامن فى عام ١٥٤١ مرسوماً ملكياً بإنشاء خمسة كراسى أستاذية فى جامعة كمبردج للغتين اليونانية والعبرية ، واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة . وفى النصف الأول من القرن السادس عشر أصبح كوليت عميداً لكاتدرائية سانت بول Saint Paul ، وأنشأ مدرسة أطلق عليها إسم مدرسة سانت بول ، وأدخلت اليونانية واللاتينية القديمة فى مناهج المدرسة . وعلى العموم أخذت النهضة فى انجلترا طابعاً دينياً يستهدف خدمة المسيحية ؛ ولذلك لم تكن النهضة فى انجلترا مقصورة على الآداب والفنون ، بل شملت أيضاً الدين، وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة ، وبين الجمال والدين . وظهرت فى انجلترا تراجم لأعلام الفكر القديم مثل هوميروس وبلوتارك وغيرهم ؛ كما نقلوا كتابات أدباء إيطاليا فى عصر النهضة . وعلى هذا لم تقدم انجلترا خلال القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى الدراسات الإنسانية حتى جاء القرن السابع عشر ؛ فبلغ الإنتاج الأدبى فى اللغة الإنجليزية الذروة فى الروعة والإبداع ، وقد تمثل ذلك فى إنتاج وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) وجون ملتون John Milton (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) .

أما شبه جزيرة أيبيريا فقد انتقلت بذور الحركة الإنسانية إليها عن طريق عدد غير قليل من التلاميذ الذين زاروا إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، وكانت شبه جزيرة أيبيريا فى أوائل القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الإنسانية كبقية جهات أوروبا ، ولكن الخوف من بوادر حركة الإصلاح الدينى ، دفع الامبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا الكاثوليكى والبابا كلمنت السابع إلى عقد إتفاق فى بولونيا فى عام ١٥٣٠ استهدفا به تصفية الحركة الإنسانية ، ونجم عن هذا الإتفاق أن أصبح للدراسات الإنسانية فى أسبانيا خصوم أعز نفراً وأقوى نفوذاً ، واستعانوا بمحاكم التفتيش تنكل وتبطش بأصحاب الدراسات الإنسانية . وتعتبر أسبانيا مسئولة عن تأخر هذه الدراسات فى الأراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) ؛ لأنها كانت تابعة لأسبانيا ، وفرض عليها نفس الحجر الذى فرض على الدراسات الإنسانية فى أسبانيا ، وما لبث أن قامت الثورة فى الأراضى المنخفضة مطالبة بالاستقلال عن أسبانيا . وفى أثناء الصراع العسكرى المرير بين فيليب الثانى ملك أسبانيا وثوار الأراضى المنخفضة أنشئت جامعة ليدن Leyden تخليداً لذكرى انتصار الهولنديين على الأسبان فى عام ١٥٧٤ ، وسرعان ما أصبحت هذه الجامعة مركزاً هاماً للدراسات الإنسانية ، واهتمت بالدراسات اللاتينية وبخاصة ما يتصل منها بالتاريخ والآثار .

أما عن أثر النهضة فى روسيا والبلقان الذى كان خاضعاً للدولة العثمانية ، فلم يتعد بعض مظاهر فردية ؛ كما لم يحدث أى تغير فى المجتمع أو نظم الحكم أو الفنون أو الدين أو الأدب . ومن هذه المظاهر الفردية صورة رسمها أحد فنانى مدينة البندقية للسطان محمد الفاتح ، ووضعت فى قصر السلطان فى استانبول ، وتشييد قصر الكرملين فى موسكو وقد اقتبس تصميمه من ميلان .

بعض أعلام النهضة الأوروبية الأوائل

١ ـ دانتى اليجييرى Dante Aleghieri (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) :

لا تكتمل دراسة النهضة فى إيطاليا دون الإشارة إلى أحد أعلامها الأوائل الذى بدأ به تاريخ الأدب الأوروبى الحديث ؛ كما يعتبر دانتى من رواد اللغة الإيطالية التى كتب بها معظم إنتاجه الأدبى . وكان قد وضع باللغة اللاتينية رسالة فلسفية سياسية أسماها الملكية (de Monarchia)، وقد قسمها إلى لغتين: لغة عامية ولغة فصحى . ولقد ولد دانتى فى فلورنسة ، وتعلم فى بادوا وبولونا فى شبه الجزيرة الإيطالية ثم فى باريس . واشتغل لفترة معينة فى الحياة السياسية فى فلورنسة ، ولكنه نفى من فلورنسة على أيدى أنصار البابا الذين تغلبوا على أنصار الإمبراطور الألمانى ، فأخذ ينتقل من مدينة إلى أخرى حتى توفى فى رافنا . وفى أثناء نفيه تعمق فى المطالعات الإغريقية واللاتينية وأخرج الكوميديا الإلهية (Divina Commedia) التى تحدث فيها عن زيارة خيالية قام بها للجحيم والجنة ، وتكلم خلالها مع نزلائها من رجال الأدب والعلم والدين والسياسة . والأساس فى الكوميديا الإلهية هى الرغبة الدينية فى معرفة أسرار الحياة الأخرى .

وقد نجح دانتى فى تصوير العدالة الإلهية يوم الحشر أروع تصوير . وتنقسم الكوميديا الإلهية إلى ثلاثة أقسام : الجحيم ، المطهر (سور الجنة أو الأعراف) ، والفردوس ، وهذه الأجزاء الثلاثة تضم مائة أنشودة ، أربعاً وثلاثين للجحيم ، وثلاثاً وثلاثين لكل من المطهر (الأعراف) والفردوس ؛ واختلفت تفسيرات الباحثين حول الأهداف التى من أجلها كتب دانتى الكوميديا ، فمنهم من يرى أنه أراد تخليد اسم معشوقته ، ومنهم من يرى أنه توخى التشفى والإنتقام من أعدائه السياسيين ، على أن الفكرة التى يخرج بها دارس الكوميديا الإلهية أن صاحبها أراد وعظ أبناء جيله الذين ضلوا سواء السبيل ؛ فأسرفوا فى إرتكاب المنكرات والجرائم وقد أراد أن يرشدهم إلى السعادة الأبدية . ويتضح هذا الوعظ

من ثنايا ما جاد فى الكوميديا الإلهية إذ قال : « إننا ظللنا نرتكب الخطايا إلى أن وافتنا المنية ؛ فاستنارت بصائرنا واستغفرنا لذنوبنا ، وتبنا منها إلى الله » . والكوميديا الإلهية بمثابة موسوعة أو دائرة معارف مصغرة ، تعرّض فيها دانتى بأسلوب جذاب لشتى أنواع المعرفة من مذاهب فلسفية ، واتجاهات سياسية ومبادئ دينية مر بها المجتمع على توالى العصور ؛ فهى ثمرة لقاء فكرى بين الثقافات العربية والمسيحية واللاتينية والإغريقية . ولكن يظهر عليها بوضوح أثر التراث الشرقى العربى الإسلامى ، فقد نهل دانتى الكثير من هذا التراث الذى كان قد انتشر فى أوروبا منذ استيلاء العرب على أسبانيا ، وسرعان ما أصبحت الأندلس طريقاً رئيسياً من طرق الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

كما وضع دانتى رسالة باللغة اللاتينية سماها « **الملكية** » de Monarchia وقد قال فيها إن الحرب هى آفة التقدم ، وإن السلام العالمى يجب أن يكون هدف الساسة الذى يجلب معه الخير والسعادة للبشرية . ووضع أيضا كتاباً آخر باللغة الإيطالية سماه « **الوليمة** » IL Convivio ، عالج فيه موضوعات شتى فى السياسة والحكمة والأخلاق والحب . وتتمثل الفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى فى أن مثله الأعلى فى نظم الحكم السياسية هو الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنه كان لا يحبذ قيام النظام الجمهورى ، وأن هدفه سيطرة القانون لا الحرية .

٢ ـ نيقولا ميكيافيللى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) :

ولد ميكيافيللى فى فلورنسة عام ١٤٦٩ من أسرة متوسطة الثراء ، وحصل على قسط من التعليم أهله للتدرج فى الوظائف الحكومية فى فلورنسة ؛ فعين سكرتيراً عاماً للحكومة بعد أن استشهد سافونا رولا ، وخرج على رأس عدة بعثات دبلوماسية دقيقة ، كان بعضها إلى خارج إيطاليا ، والبعض الآخر إلى الإمارات المختلفة فى شبه الجزيرة الإيطالية لتنفيذ السياسة الخارجية لفلورنسة . وقد استفاد

ميكياڤيللى كثيراً من هذه البعثات الدبلوماسية ؛ فخبر الكثير من خفايا السياسة الدولية ، ولمس عن كثب أخلاق رجال السياسة ، وأضاف إلى حصيلته العلمية الكثير من المعلومات والآراء السياسية . وكان من بين الآراء التى خرج بها من تجاربه أن اعتماد دولة ما على دولة أجنبية فى الدفاع عن أراضيها يعتبر نكبة تؤدى إلى ضياع الدولة الأولى . وبناء على ذلك رأى أن سلامة فلورنسة تتطلب إنشاء جيش وطنى قوى بدلاً من الاعتماد على الجنود المرتزقة ، وكان أمراً مألوفاً فى تلك العصور استخدام الجنود المرتزقة فى الدفاع عن المدن الإيطالية ، وفى تكوين الجيوش الأوروبية عامة . وقد بذل ميكياڤيللى جهداً مضنياً فى إنشاء جيش قوى لفلورنسة دلّ على صدق وطنيته ورغبته فى حماية مدينته .

وحدث أن أراد البابا يوليوس الثانى الذى جلس على كرسى البابوية عام ١٥٠٣ إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وكان على فلورنسة أن تختار بين صداقة البابا الطموح ، وبين صداقة حليفتها فرنسا . واختارت فلورنسة صداقة فرنسا ، وأوفدت حكومة فلورنسة ميكيافيللى إلى لويس الثانى ملك فرنسا لإبلاغه استمساك فلورنسة بتحالفها مع فرنسا ، واشتعلت الحرب بين فرنسا وبين البابا يوليوس الثانى ، واستطاع إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، ولكنه استبدل النفوذ الأسبانى بالنفوذ الفرنسى ، وكان من نتائج هذه الأحداث أن سقطت الجمهورية الفلورنسية وعادت أسرة ميديتشى إلى الحكم ، وطرد ميكياڤيللى من منصبه ، وأصبحت فلورنسة خاضعة خضوعاً تاماً لأسرة ميدتشى ممثلة فى الكاردينال جيوڤانى ميدتشى . ورغم ذلك عرض ميكيافيللى خدماته على أسرة ميدتشى أملاً فى استرداد وظيفته ، ولكن الحكومة الجديدة لم تقنع بعزله ؛ بل أمرت بنفيه مدة عام على أن يبقى فى حدود دولة فلورنسة . ولما لم تسفر مساعيه فى العودة إلى منصبه عن النتيجة التى كان يبتغيها رأى أن ينتقل بمواهبه وخبراته من ميدان السياسة إلى ميدان التأليف ؛ فشرع يؤلف فى منفاه كتاب « الأمير » وقدمه لأسرة

ميدتشى ؛ ثم وضع كتاباً آخر بعنوان « **تاريخ فلورنسه** » ، وكتابا ثالثاً بعنوان « **فن الحرب** » . وعندما تطورت الأحداث بسرعة داخل فلورنسة ، وقام أهلها بثورة على أسرة ميدتشى وأعلنوا النظام الجمهورى تطلع ميكيافيللى إلى إستعادة منصبه القديم ، ولكن أعرض عنه رجال النظام الجديد لتعاونه السابق مع أسرة ميدتشى . وأثرت هذه الأنباء فى نفس ميكيافيللى ومات حزيناً فى عام ١٥٢٧ .

ويعتبر ميكيافيللى هو الذى وضع أساس الفلسفة السياسية التى كان لها أكبر الأثر فى تاريخ أوروبا حتى آخر القرن الثامن عشر . وكتاب « **الأمير** » الذى وضعه عبارة عن دراسة مستفيضة عن أصول الحكم ، وفن السياسة ، وشرح فيه الأمانى القومية التى كانت تجيش بها نفسه ، ومنها تحرير بلاده من الجيوش الأجنبية التى تحتلها ، وقيام وحدة سياسية تجمع شتات الوطن الممزق ، وإنشاء جيش وطنى قومى يحمى البلاد . والكتاب لا يقتصر على دراسة العصر الذى عاش فيه ميكياقللى ، بل يتعرض للتاريخ القديم بوجه خاص يستقى منه مادة علمية غزيرة تؤيد الآراء السياسية التى يبسطها على أمل أن يأخذ بها الأمير الذى يأخذ بيد إيطاليا نحو الحرية والوحدة والاستقلال ، فهو يشير إلى أحداث معينة فى تاريخ إسبرطة وأثينا وطيبة والفرس وإمبراطورية الاسكندر المقدونى والإمبراطورية الرومانية مما يدل على أنه كان على علم موفور بالتاريخ القديم ونظريات وآراء فلاسفة العصور القديمة ؛ فالكتاب يشتمل من ناحية على آراء استمدها من دراسة الماضى وتجارب الحاضر ، ويتضمن من ناحية أخرى نصائح وإرشادات يقدمها للأمير كى يسترشد بها فى حكمه ، ليصل إلى أوفى قسط من القوة والمتعة .

والأمير الذى يصفه ميكياقللى فى كتابه هو أمير إيطالى ، ولكنه يحمل سمات أمراء عصر النهضة ، وهو حاكم مستبد طاغية ، وفى تقديره لا يمكن أن يكون الحاكم غير ذلك ، إذا أريد تحقيق الأهداف القومية على يديه . وهو

يقصد بكلمة « الأمير » ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بلفظة « الملك » ، ولكنه ملك لدولة صغيرة أو دويلة ؛ لأن إيطاليا كانت لا تزال تعبيراً جغرافياً ، وكانت ممزقة إلى وحدات سياسية صغيرة أو إمارات . وخيل لميكيافيللى أن الصورة التى رسمها فى كتابة للأمير الذى ينقذ إيطاليا قد تستهوى خيال أحد أمراء أسرة ميدتشى فيأخذ على عاتقه عبء النضال القومى .

وتعرض ميكيافيللى فى كتابة إلى نظم الحكم واختيار أفضل تلك النظم التى تكفل النهوض ببلاده ، وقد رأى أن وطنه تمزقه الجيوش الأجنبية . ووضع بعض الشروط عن كيفية قيام أمير جديد بإنشاء دولة جديدة . وكان أول شرط طرحه هو مقدرة هذا الأمير على إيجاد الوحدة السياسية بين الولايات الإيطالية المختلفة سواء تمت الوحدة بالعنف وشن الحروب أو بالإقناع والمسالمة . كما تعرض ميكيافيللى لموضوعات خطيرة منها مدى محافظة الأمير على وعده . وقد جاءت كتابته تحريضاً سافراً على نكث العهود ؛ إذ نصح الأمير بألا يقيم وزناً لعهد قطعه على مفسه ، أو لوعد التزم به ، إذا كان الوفاء بالعهد يعرضه للخطر ، ولأن الناس أشرار مناكيد ، لا يحترمون العهود ، والأمير فى حل من أن يتمسك بعهد أو وعد . ثم قرر ميكيافيللى بعد ذلك أن الإنسان لا يقدم على فعل الخير إلا مكرهاً ؛ فلا مناص من استخدام الضغط والعنف بشتى صورهما وأنواعهما ، حتى يمكن حجب نزعته الشريرة عن الظهور وحمله على فعل الخير .

ثم يقوم ميكيافيللى بعد ذلك بعرض النظرية السياسية المشهورة ، وهى أن الغاية تبرر الوسيلة القذرة ، أو مجموعة الوسائل القذرة ، التى يلجأ إليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة . وقرر أن القوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الأفراد فحسب ؛ أما السياسية فلا مكان فيها للأخلاق . ويجوز لمن يريد إنشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ إلى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة

وجميع أنواع الجرائم . وعلى هذا الأساس طالب ميكيافيللى بأن يكون الأمير بارعاً فى الكذب والغش ، وأن يكون منافقاً يتظاهر بالتحلى بالصفات الحسنة . ويقول ميكيافيللى فى هذا الصدد « إن ما يضير الأمير هو أن يتصف بهذه الصفات الحسنة وأن يعمل على هواها ، فى حين أنه من الخير له أن يبدو متحلياً بها فقط» . ويضيف إلى ذلك أنه لا حرج على الأمير أن يأثم فى حق الدين والفضيلة والإنسانية ، إذا رأى أن المحافظة على الدولة تتطلب ارتكاب مثل هذه الآثام . ويروّج ميكيافيللى فى كتابه لمسألة جد خطيرة ؛ فيقول : « إذا تمسك الأمير بالفضائل فإن هذه الفضائل ستقضى عليه لا محالة ، وإذا مارس الرذائل وجعلها أسلوباً لحكمه ، فإن هذه الرذائل ستجلب له الأمن والرخاء » . ويقول أنه يجدر بالأمير أن يرهبه رعاياه ، ويخشون بأسه وسطوته بدلاً من أن يكون محبوباً لديهم ، ويقول فى هذا الصدد : « إن البشر بصفة عامة قوم ناكرون للجميل وإنهم قوم ... يميلون إلى الكذب والغش والخداع ، ويطمعون فى الكسب ويتحاشون تعرض أنفسهم للأخطار .. فهم يقفون إلى جانبك طالما كنت تقدم لهم خيراً ، وطالما كان الخطر بعيداً ، فإذا اقترب الخطر وأحدق بك فإنهم يتنكرون لك ، ويركنون إلى الفرار فتجد نفسك وحيداً . والأمير الذى يقنع بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيلة يبوء بفشل ذريع . إن الناس لا تبالى بالإساءة إلى الأمير الذى يجعل نفسه محبوباً ، ولكنهم يخشون أن يمسوا بسوء الأمير الذى يخشون بأسه » .

ويقول ميكيافيللى للأمير أن قوة الدولة فى قوة جيشها ، وللجيش فى نظره مهمتان : حماية الأمن الخارجى وتوطيد الزمن الداخلى . وينصح ميكيافيللى الأمير بالتزام القسوة المتناهية مع جنود جيشه . والحرب فى نظره هى أول شئ يجب أن يكون موضع تفكير الأمير لأنها المهنة الحقيقية لمن يتولى الحكم .

وعندما فشل ميكيافيللى فى دعوته الدينية فى فلورنسة وعى هذا الدرس القاسى ، وهو أنه لابد لكل من يريد الإصلاح أن يكون له من قوة السلاح ما يجعله قادراً على فرض سياسته الإصلاحية .

وتوجد فى كتاب « الأمير » الإزدواجية والمتناقضات ؛ فميكيافيللى يبدو فى كتابه نصيراً للنظام الملكى ، وهو فى قرارة نفسه ، ومن ثنايا السطور جمهورى العقيدة والنزعة . ولقد فسر الباحثون هذه الإزدواجية تفسيرات مختلفة ، فيقول بعضهم أن مناصرته للنظام الملكى هى وليدة نزعة عارضة استهدف منها التقرب إلى الأمير الجديد الذى تولى الحكم فى فلورنسة ، لكى يعيده إلى منصبه الذى عزل منه . ويرى البعض الآخر أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بحاجة بلاده إلى أمير قوى الشكيمة شديد المراس ، يعيد إليها وحدتها السياسية ، ولن يكون هذا الأمير البطل سوى حاكم فلورنسة الذى يهدى كتابه إليه . ويخرج هذا الفريق من الباحثين إلى القول بأن ميكيافيللى ينشد النظام الملكى بدولة واحدة هى إيطاليا ولهدف واحد هو تحقيق وحدتها ، وفيما عدا ذلك فهو مؤيد قلباً وقالباً للنظام الجمهورى . أما بالنسبة للعوامل التى أدت إلى تفضيل النظام الجمهورى على النظام الملكى ، فيتلخص فى أن النظام الجمهورى يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص بمعنى أنه يفتح الباب أمام أصحاب الكفايات بخلاف الحال فى النظام الملكى ، الذى يقوم على مبدأ الوراثة بصرف النظر عن حظ الوارث من العلم أو الكفاية ، كما أن النظام الجمهورى أكثر مرونة وأسهل قابلية للتطور من النظام الملكى الذى يتصف بالجمود وعدم قدرته على تطوير نفسه . ويضيف ميكيافيللى أيضاً أن الحكومة الجمهورية أكثر حرصاً على الوفاء بالتزاماتها الدولية من الحكومة الملكية ، فقد يرى الملك أن من مصلحة أسرته التحلل من أحكام معاهدة جماعية .

ويبدو من دراسة كتاب ميكيافيللى « الأمير » أنه خرج على تقاليد العصور الوسطى ؛ فنبذ الناحية الدينية ، وتجاهل تعاليم الأديان السماوية ، وتغافل عن مقومات الإنسانية وفى مقدمتها الأخلاق المثالية ، وأخضعها جميعاً للمصلحة السياسية ، وطالب بأن يكون الشعب أداة مسخرة فى يد الحاكم وأن تكون مصلحة الحاكم ، وهى مصلحة الدولة ، مقدمة على كل اعتبار آخر ؛ فهو ينادى بالسياسة الملتوية الغادرة الخائنة ، إذا كان فى إتباعها الحفاظ على كيان الدولة ، ولا يقيم وزناً للسياسة الأمينة الصادقة . ومما يؤخذ على ميكيافيللى أنه أغفل ذكر المقومات الأخرى للدولة ، مثل الدين والثقافة والاقتصاد فهو ، لا يهتم إلا بدعامتين : السياسة والجيش ، وهما ضروريتان للمحافظة على كيان الدولة .

وينبغى فى هذا المجال أن نحدِّد الدوافع التى أثَّرت فى ميكيافيللى ، وجعلته يتجه هذا التجاه الذى يراه البعض شططاً فى الآراء السياسية :

١ ـ الدافع الأول هو الآلام النفسية المريرة التى كان ميكيافيللى يمر بها أثناء فترة نفيه وعندما كان يضع هذا الكتاب ؛ فكان يعانى من الفقر والحرمان ولا يملك ما ينفقه على زوجته وأولاده . وهذا تغير ملحوظ فى حياته ، لأنه كان يشغل مكانة عليا فى داخل المجتمع الفلورنسى قبل ذلك .

٢ ـ كانت نفسه تجيش بعاطفة وطنية دافئة ، وحز فى نفسه ما رأى عليه وطنه من تفكك إلى وحدات سياسية متعددة ، وما يسود هذه الوحدات من مشاحنات وحروب داخلية ، وغزو الجيوش الأجنبية لشبه الجزيرة الإيطالية التى أصبحت ميداناً للصراع على السيطرة بين فرنسا وأسبانيا ؛ فتطلع إلى قيام وحدة سياسية ، تضم جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية فى دولة واحدة ذات حكومة مركزية واحدة .

٣ ـ كان العصر الذى كتب فيه ميكيافيللى كتابه عصراً حافلاً بالمتناقضات ؛ فكانت حركة إحياء العلوم على أشدها ، وحركة الكشوف الجغرافية تسير قدماً إلى الأمام ، ثم حل فى نفس الوقت الرخاء المادى الذى جاء معه الترف والإنغماس فى الملذات والمجون والفسق . ولهذا أصبحت السمة البارزة المميزة لهذا العصر هى الإنحلال الخلقى . ومما هو جدير بالذكر أن ميكيافيللى لم يكن وفياً لزوجته ، فانغمس فى المتع الجنسية التى أولع بها معاصروه ، واهتم بمفاتن الدنيا وكانت له مغامرات غرامية ، وكان ضميره يستيقظ من وقت لآخر فيشعر فى قراره نفسه بسلوكه المعيب ، ولكنه كان يعترف بعجزه عن كبح جماح نفسه .

وانقسم رأى الكتاب بالنسبة لكتاب ميكيافيللى إلى قسمين : فالقسم الأول هاجمه وانتقده ، لأنه رأى أنه أسوأ مثل للسياسى الذى ينادى بمبادئ تنبو عنها الأخلاق ، وأن الحكام المستبدين اتخذوا آراء ميكيافيللى ذرائع للجرائم السياسية الكبرى والاضطهادات الدينية . أما القسم الثانى فمدح الكتاب ، لأنه رأى أن ميكيافيللى كان أحد أعلام الفكر الأوروبى الحديث وأنه كان رجلاً وطنياً من الطراز الأول ، يعمر قلبه بالإيمان بحق وطنه فى الوحدة وفى الحياة الحرة الكريمة . وهكذا يعتبر هذا القسم أن الأثر الذى أحدثه كتاب الأمير فى تاريخ العالم يكاد يضارع ما تركه كتاب العقد الاجتماعى لجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) ، والذى قرر فيه أن الأمة مصدر كل سلطة ، وأن سلطة الحكومة مستمدة من سلطة الشعب .

ولقد لقيت آراء ميكيافيللى إستمالة من عدد كبير من ملوك أوروبا ، فقد سار على سنته فى عصر النهضة آل ڤالوا Valois فى فرنسا والذين جلسوا على العرش من عام ١٣٢٥ إلى عام ١٥٨٩ ، وآل تيودور Tudor فى انجلترا

(١٤٨٥_١٦٠٣) . وسار فردريك الأكبر ملك بروسيا على نفس النهج السياسى لميكيافيللى ، ويقال أنه وجدت نسخة من كتاب الأمير ضمن مخلفات نابليون بعد معركة وترلو . وعلى أية حال أصبحت كلمة ميكيافيللية مرادفة ، إلى الآن ، لمعنى التصرفات التى يشوبها الغدر والأنانية وغيرها من الصفات التى نادى بها ميكيافيللى . وغدت كلمة ميكيافيللى تطلق على الشخص الذى يمارس فى حياته أسلوباً يقوم على الغدر والخيانة وما إلى ذلك من عدم الالتزام بالمبادئ الخلقية ابتغاء الوصول إلى تحقيق أهدافه فى الحياة . ومجمل القول فإن أوروبا فى المائتين والخمسين عاماً التى أعقبت موته كانت إما خاضعة للمبادئ الميكيافيللية أو ثائرة عليها .



الفصل الثانى
نشأة الدول الأوروبية الحديثة
فى مطلع القرن السادس عشر

لقد لعبت الطبقة البرجوازية الناشئة دوراً هاماً فى نمو نظام الدولة الحديثة وتطورها إلى نظام الملكية المطلقة وقيام الحكم المركزى . وكانت البرجوازية ظاهرة اجتماعية جديدة ، بدأت تلعب دورها لإقامة هذا اللون من الحكم من أجل مصالحها . ففى العصور الوسطى قام الطريق التجارى عبر جبال الألب بدور مهم؛ إذ نمّى تجارة التبادل بين منتجات الشرق ومنتجات أوروبا الشمالية . وأفاد كذلك المدن الواقعة على هذا الطريق بسبب النشاط التجارى ، فلقد قامت بها الصناعات لتحويل المواد الخام التى دخلت إلى هذه المدن إلى سلع صالحة للإستعمال . وظهر بذلك عند طرف هذا الطريق التجارى عبر جبال الألب منطقتان رئيسيتان للصناعة ، إحداهما تشمل الأراضى المنخفضة وبلاد البلطيق وألمانيا ، والأخرى فى إيطاليا الشمالية ، وبذلك عرف هذا الطريق بأنه « السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا » The Economic Spine of Europe .

وكان ثمرة هذا الرواج التجارى والصناعى أن ظهرت طبقة متوسطة ، أخذت تنمو ووقع على كاهلها عبء هذا النشاط ، واستفادت منه كما حدث فى انجلترا وفرنسا والأراضى المنخفضة . وألف التجار جزءاً هاماً من تلك الطبقة التى تمكنت من السيطرة على المجتمع بفضل تركز النشاط الاقتصادى فى يدها ، وكان ذلك النشاط ممثلاً فى التجارة والصناعة . وبفضل هذا النمو الاقتصادى والاجتماعى ،أخذت الاعتبارات الجعرافية ، ثم اتفاق أهل الإقليم الواحد فى

اللغة والجنس وغيره ، تعمل على تقسيم أوروبا إلى مجموعة من الأمم ، ولم يلبث أن أدى الإحساس بالمصلحة المشتركة ، بجانب ذلك ، إلى نمو الشعور القومى (Nationalism) .

ورغبت هذه الطبقة المتوسطة فى إنشاء الحكومة المركزية القوية التى تستطيع تنشيط التجارة الوطنية وفتح الأسواق ، وتصريف المتاجر وصون المعاملات ، وحفظ الأمن ، وتنظيم القضاء . ولم تكن هذه الطبقة تخشى وجود مثل هذه الحكومة طالما كانت فى ثراء وغنى يجعلان هذه الحكومة فى حاجة مستمرة إلى معونتها المالية ، ورغم أن مثلها الأعلى فى الحكم كان بحكم تكوينها ، وهو الجمهورية ، فقد رضيت بالتنازل عن هذا مؤقتاً ، لحاجتها فى بداية نموها وتطورها إلى الحكم القوى الذى يقضى على الفوضى ويضم شتات المجتمع . على أن هذه الطبقة رغم غناها كانت لا تزال تشعر بضعفها إزاء النبلاء القدماء ؛ لذلك أرادت نظاماً يكفل مواصلة النضال ضدهم ، وبذلك لم تر غضاضة حينئذ فى قبول الخضوع لملك مطلق فى سبيل أن يقوم بالسهر على مصالحهم .

وعندما حاولت هذه الطبقة المتوسطة إنشاء الملكية المطلقة للدولة الوطنية الحديثة ، كان قد طرأ على تكوين أوروبا الاقتصادى تغيير كان له آثار بعيدة المدى ، ونجم عنه انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية ، انتقالاً تدريجياً إلى الجهة الغربية بدلاً من امتدادها الأول من الشمال إلى الجنوب فى أوروبا ؛ فانتقلت بسبب ذلك مراكز التجارة ، فى المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى أوروبا ، من بحر البلطيق إلى الأراضى المنخفضة ، حيث انتقلت منطقة الأسماك حوالى عام ١٤٥٠ من بحر البلطيق إلى بحر الشمال ، وتم إعادة فتح الطريق التجارى عبر الألب من إيطاليا إلى فرنسا بعد انتهاء حروب المائة عام فى ١٤٥٣ .

هذا فضلاً عما حدث خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر من قيام حركة الكشوف الجغرافية وتركز الحركة فى موانئ غرب أوروبا ، وفى السير منها غرباً وشرقاً ، فكان لهذا أثر ظاهر فى سرعة انتقال الطرق التجارية إلى الجزء الغربى لأوروبا ، وقد أثر هذا الانتقال فى مدى أو درجة تقدم أو تأخر الدولة الوطنية الحديثة ، عندما أصبح نمو ورقى هذه الدولة أو تأخرها متوقفاً ، على مدى قربها أو بعدها من هذه السلسلة الفقرية الاقتصادية .

أما الأمم البعيدة قليلاً من هذا المحور فكانت هى الأمم الشبيهة بالموحدة ، وكانت ذات ميزات خاصة ، وإن كانت تدخل مع ذلك ضمن المجموعة الأولى ، وتمثل هذه الأمم الأراضى المنخفضة . ويلى ذلك الأمم غير الموحدة ، وهى التى انعدم فيها إطلاقاً وجود الحكومة المركزية لعدم توفر عواملها ، وكانت تمثل هذه المجموعة إيطاليا وألمانيا والدول الاسكندنافية وروسيا وبولنده . وفى الأمم الموحدة استطاعت المدن الحصول على المركز السياسى ، كما حدث فى كل من فرنسا وأسبانيا وانجلترا ، عند الحدود الأمنية الفاصلة بين العصور الوسطى وعصر النهضة ؛ فكانت المدن تمد الملك بالمال اللازم فى نزاعه مع الأمراء الإقطاعيين .

وهكذا اختلف التكوين السياسى للدول الأوروبية الحديثة فى القرن السادس عشر بين بلد وآخر تبعاً لظروف كل منهما ، فى نموه الاقتصادى والاجتماعى وموقعه الجغرافى خصوصاً ، بعداً أو قرباً من المحور الاقتصادى الذى لعب دوره الكبير فى تكييف ذلك التكوين السياسى لكل أمة .

١ - الدولة العثمانية

بالرغم من أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية شرقية ، إلا أنها كانت تعد من ضمن الدول الأوروبية ، وذلك لتوسعها وسيطرتها على كثير من البلاد الأوروبية ، والواقع أن تاريخ أوروبا الحديث يبدأ فى وقت الزحف العثمانى على أوروبا من ناحية الشرق . ولقد بدأ ظهور العثمانيين فى التاريخ عندما دفعت غزوات المغول فى نهاية القرن الثالث عشر الشعوب التركية الإسلامية تجاه الشرق حيث سلكوا طريقهم إلى المناطق الغربية إلى ما وراء سيطرة المغول ، واستقروا فى الأناضول . وفى حوالى عام ١٣٠٠ ظهرت فى عالم الأحداث إمارة تركية صغيرة أسسها زعيمها « عثمان » حول مدينة « بروسة » فى الطرف الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، وكان العثمانيون (نسبة إلى عثمان) يعتبرون أنفسهم فى حالة جهاد مع الامبراطورية البيزنطية التى استقروا على حدودها .

ولقد تكاتفت العوامل التاريخية والجغرافية لتساعد على تطور الإمارة العثمانية ، وفى مجال إنشاء الدولة ، بمعنى التوسع الإقليمى وإنشاء تنظيم سياسى قوى ، لعب الحكام دوراً قيادياً . وفى عام ١٣٢٦ ، وهى السنة التى توفى فيها عثمان مؤسس الأسرة ، أحرز أتباعه أول غزو كبير لهم ، وذلك بالاستيلاء على المدينة البيزنطية الهامة بروسة ، والتى أصبحت بالتالى عاصمة الأسرة العثمانية . وفى عام ١٣٥٣ أغار العثمانيون على أوروبا ، واستولوا على أدرنة ، وجعلوها حاضرتهم فى أوروبا عام ١٣٦١ ؛ فقطعوا بذلك الطريق بين القسطنطينية وما خلف أدرنة من بلاد البلقان ، وعزلوا عاصمة المسيحية الأرثوذكسية عن الأمم السلافية الأرثوذكسية التى قد تجد فيهم خير أحلاف لهم . ولم يأت عام ١٤٠٠ ، على أية حال ، إلا وكانوا قد مدوا حدودهم الشمالية إلى نهر الدانوب ؛ فضلاً عن استيلائهم على الجانب الأعظم من آسيا الصغرى ، وكادت

القسطنطينية تسقط فى أيديهم ، لولا أن دهمهم فى هذه اللحظة سيل تيمورلنك وهزمهم هزيمة منكرة عند أنقرة فى عام ١٤٠٢ ، وانتزع آسيا الصغرى من أيديهم ، وإن كانوا قد احتفظوا بأملاكهم فى البلقان .

وقد أخذ العثمانيون بعد عام ١٤٢٠ ينقلون عن أوروبا الغربية الأسلحة النارية ، واستطاع السلطان محمد الثانى فتح مدينة القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ ، وأصبحت مدينة الأباطرة ، ثالث وآخر عاصمة لبيت عثمان . كما استطاع محمد الثانى خلال فترة حكمه التى امتدت ثلاثين عاماً (١٤٥١ ـ ١٤٨١) من أن يحرز الكثير من الأعمال بجانب هذا العمل العظيم ؛ فالإمبراطورية العثمانية ، كما يمكن أن نسميها الآن ، قد امتدت فى البلقان وبلاد اليونان . وبالإضافة إلى ذلك أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية . ولقد قامت معظم فتوحاتهم على أكتاف المشاة العسكرية التى كونها العثمانيون من أبناء المسيحيين الخاضعين لحكمهم والتى عرفت بإسم الإنكشارية . ولقد استطاع العثمانيون بعد ذلك السيطرة على معظم مناطق الشرق الأوسط بعد هزيمة الصفويين فى إيران فى موقعة چالديران عام ١٥١٤ ، وتمكنوا من إحتلال سورية بعد موقعة « مرج دابق » فى عام ١٥١٦ ؛ ثم احتلوا مصر فى العام التالى . وقد وصلت الإمبراطورية فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) إلى أقصى إتساع لها حيث وصل العثمانيون إلى أسوار مدينة ڤينا . أما نظم الحكم العثمانية فلقد اعتمدت على الثنائية ، إذ كان هناك فى داخل الإمبراطورية هيئتان : الهيئة الحاكمة والهيئة الإسلامية . وكان السلطان على رأس الهيئة الحاكمة ، وتركزت فى يده كل السلطة ، واستمر الأمر على هذا النحو حتى بدأت مظاهر الضعف والإنهيار تظهر فى داخل الإمبراطورية بعد وفاة سليمان القانونى فى عام ١٥٦٦ ، وعند مجئ سليم الثانى إلى العرش .

وقد أثرت الدولة العثمانية فى أوروبا تأثيراً ملحوظاً فى ناحيتين مهمتين :

أولاً : كان نظام الحكم فيها هو نظام مركزى استبدادى ، بينما كان حكام أوروبا يحاولون القضاء على سيطرة وسلطة أمراء الإقطاع وتركيز السلطة فى أيديهم ؛ وبذلك وجدوا فى النظام العثمانى مثلاً يحتذى .

ثانياً : عندما كانت الإمبراطورية العثمانية دولة قوية فى بداية نشأتها ، وقامت بتوسعاتها فى أوروبا ، فإننا نجد أن معظم الدول الأوروبية قد بدأت تتكتل ضد هذا الخطر المحدق من جانب دولة إسلامية شرقية . وكانت نظرة أوروبا تجاه الدولة الناشئة المتوسعة نظرة دينية لازالت قائمة على مدى العلاقة بين المسيحية والإسلام ؛ حيث لم تكن الحروب الصليبية التى قامت فى العصور الوسطى قد غابت بعد عن الأذهان . إذ كان هم أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر هو التكتل والوقوف ضد الخطر العثمانى ، وإنقاذ الدول الأوروبية من السيطرة العثمانية . وبذلك فإننا نجد أن قوات السلطان سليمان قد فشلت فى الإستيلاء على مدينة ڤينا التى وصلتها فى ٢٧ سبتمبر عام ١٥٢٩ ، وسرعان ما انسحبت منها فى ١٥ أكتوبر . وقام العثمانيون بمحاولة أخرى فى مدى قرن ونصف ، أى فى عام ١٦٨٣ ، ولكنهم فشلوا أيضاً . ولقد ظهر الآن تقدم أوروبا عسكرياً بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى حالة تأخر مستمر ؛ وبذلك أوقفت أوروبا التقدم العثمانى . وكان فشل العثمانيين أمام ڤينا للمرة الثانية حاسماً حيث تقدم النمساويون وحلفاؤهم إلى المناطق العثمانية فى المجر واليونان وعلى سواحل البحر الأسود ، وانتصروا على العثمانيين فى موقعة موهاكس Mohacs عام ١٦٨٧ ، وفى موقعة زنتا Zenta عام ١٦٩٧ ، وعقدت بينهما معاهدة كارلوڤيتز Carlowitz عام ١٦٩٩ ، والتى كانت أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية كدولة مهزومة ، وبدأ ما يعرف باسم المسألة الشرقية يظهر إلى حيز الوجود منذ ذلك الوقت .

والمسألة الشرقية تعنى فى قاموس السياسة الأوروبية ضعف الدولة العثمانية ، ومحاولة الدولة الأوروبية تقسيم ممتلكاتها والقضاء عليها ؛ وبذلك فقد أصبح يطلق على الإمبراطورية العثمانية فيما بعد اسم رجل أوروبا المريض The Sick Man of Europe . ولقد بدأ التهديد الروسى للإمبراطورية فى القرن السابع عشر فى عهد بطرس الأكبر ، عندما حاولت روسيا الحصول على مركز لها فى المياه الدفيئة . وكان ذلك بداية مرحلة طويلة من الحروب بين روسيا والإمبراطورية العثمانية ، وكانت من أهم المظاهر التى ميزت تاريخ أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . غير أنه كانت هناك دول تنادى بمبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية كانجلترا مثلاً ، وكان لورد بامستون (Palmerston) ، أحد وزراء خارجية بريطانيا فى القرن التاسع عشر ، هو الذى قنن تلك السياسة .

٢ ـ ألمانيا

استوطن ألمانيا منذ بدء العصور الوسطى عدد من القبائل الجرمانية التى هاجمت الدولة الرومانية فى القرون الأولى . وقد ظهر من هذا العنصر شارلمان Charlemagne (٧٧١ ـ ٨١٤) الذى نجح فى تكوين إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ، وتوّجه البابا إمبراطوراً عام ٨٠٠م . ومنذ قيام الدولة الرومانية المقدسة على يد شارلمان ، أثرت فى تاريخ ألمانيا عوامل كثيرة ، كان أهمها العامل الجغرافى ؛ فكانت الملكية الألمانية أقوى ملكية فى أوروبا فى العصور الوسطى ، ولكنها أصبحت أضعفها شأناً فى القرن الخامس عشر . ولقد قسمت الإمبراطورية بين أبناء شارلمان بمقتضى معاهدة فردان عام ٨٤٣م ، وتولى العرش بعد ذلك الملك الألمانى أوتو الأول (Otto I) ، عام ٩٦٢م ، وتوجه البابا ، وأنشأ إمبراطورية مقدسة ، لكن سرعان ما تلاشت سلطة الإمبراطور ، وأصبحت سلطة صورية ، وانقسمت ألمانيا إلى أكثر من ٣٠٠ ولاية بعضها خاضع للكنيسة ، والبعض يحكمه أمراء ، وأحياناً وجد أكثر من إمبراطور واحد .

وظلت اللامركزية قائمة فى ألمانيا على أساس التقسيمات الإقليمية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن كان فى ألمانيا من العناصر ما أهلها بعد ذلك للوحدة القومية ، وقد تمثلت أحداها خير تمثيل فى المجلس الإمبراطورى أو الديت (Diet) وهو مجلس يمثل الإمارات ، وكان مشكلاً من ثلاث طبقات : الأولى كانت من الناخبين Electors الذين كان من حقهم انتخاب الإمبراطور ، والثانية من الأمراء ورجال الدين ، والثالثة من المدن الإمبراطورية (أى التى يكون رئيسها الأعلى الإمبراطور نفسه) . وكان من بين هذه العناصر أيضاً وجود الإمبراطور كملك ، وإن لم يكن يقوى على فرض سيادته على الإقطاع القوى ؛ إلا أنه كان يسعى دائماً لتوطيد نفوذه وإنشاء حكومة مركزية موحدة ، ولم يستطع الإمبراطور تحقيق رغبته نفسها .

وعندما تولت أسرة الهابسبرج Hapsburg شئون الإمبراطورية بعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen عام ١٢٧٣ ، كان من المنتظر أن تصلح أحوال ألمانيا ، ولكن ذلك لم يحدث ؛ بل استمر النزاع فى عهد هذه الأسرة على تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فلما اعتلى مكسمليان الأول ، من أسرة الهابسبرج ، العرش (١٤١٣ ـ ١٤١٩) أعاد للإمبراطورية كثيراً من هيبتها المفقودة ، ويعتبر حكمه فترة انتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة . وحتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٨٠٦ ، بقى تاريخ الإمبراطورية وراثياً فى أسرة الهابسبرج . وكانت هناك ولايات متعددة فى داخل ألمانيا ، فبالإضافة إلى النمسا وجدت براندنبرج Brandenburg ، وسكسونيا Saxony ، وبفاريا Bavaria، وفورتمبرج Wurtemburg ، ومنحت أسرة الهوهنزلرن Hohenzollern حكم إمارة براندنبرج عام ١٤١٥ ، وأسست لنفسها ملكية قوية فى بروسيا ظلت تحكم ألمانيا بعد حركة توحيد ألمانيا (The Unification of Germany) عام ١٨٧١ حتى إنهيارها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

٣ - إيطاليا فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث

كانت إيطاليا كألمانيا تتبع الدولة الرومانية المقدسة من الناحية الإسمية ، واشتركت مع ألمانيا من حيث أن وحدتها القومية لم تتم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكانت إيطاليا فى بادئ الأمر هى قلب الإمبراطورية الرومانية القديمة التى شملت بلاداً كثيرة فى أوروبا وآسيا وإفريقيا ، وتركت تراثاً حضارياً عظيماً لحياة الإنسانية فى شتى النواحى . ثم بدأت هذه الإمبراطورية فى الإنهيار بسبب هجمات الجرمان ، وسقطت روما فى أيديهم فى بداية القرن الخامس الميلادى . وعندما كون شارلمان إمبراطوريته الواسعة ، كانت إيطاليا جزءاً منها ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى . وبعد تقسيم الإمبراطورية فى عام ٨٤٣ أصبحت إيطاليا من نصيب أحد أبنائه ؛ كما أنها صارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد أوتو Otto فى النصف الأول من القرن العاشر . لكن لم يبق نفوذ الأباطرة قوياً فى إيطاليا ، وأخذ فى الضعف ، وأخذت الولايات الإيطالية المختلفة فى الخروج على نفوذ الإمبراطور ، حتى لم يصبح إلا نفوذاً شكلياً فى القرن الثانى عشر ، وترتب على ذلك أن انقسمت إيطاليا إلى وحدات صغرى ، واستمر هذا الإنقسام السياسى واضحاً حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

والواقع أنه منذ بداية القرن الثانى عشر ، وخلال عصر النهضة ، تميز تاريخ إيطاليا بوجود نظم سياسية تشابه تلك التى وجدت فى بلاد اليونان فى التاريخ القديم . فقد وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة . وكان لوقوع إيطاليا على الطريق التجارى بين الشرق والغرب ، وشروق الحضارة الحديثة فيها مبكراً عن سائر أوروبا ، أثر فى التعجيل بتفكك وحدتها تفككاً انبعث من نموها السريع . وكان ضعف الإقطاع وعدم انتشاره فى إيطاليا من أكبر العوامل التى ساعدت

على هذا النمو السريع . وعلى هذا وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف ؛ كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة . وكانت الدويلات الرئيسية فى إيطاليا فى عصر النهضة هى البندقية ، وممتلكات البابوية ومركزها روما ، وميلان ، وفلورنسة ، وقد أحرزت هذه المراكز مكاناً متفوقاً على الدويلات الأخرى المجاورة ؛ كما يجب ألا نغفل أهمية المدن الإيطالية الأخرى مثل جنوه وڤيرونا Verona وفيرارا Ferrara؛ فكان لهذه المدينة الأخيرة نشاطها السياسى ، وكانت فى سياستها صورة مصغرة للدويلات الرئيسية السابقة الذكر . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك عدة أمور يجب ملاحظتها فى تاريخ تلك الفترة مثل :

١ ـ كان الإيطاليون قديماً يقاتلون بأنفسهم ، لكنهم كفُّوا فى عصر النهضة عن ممارسة القتال شخصياً واستخدموا طوائف من الجنود المرتزقة ، ذلك لأنهم قد آثروا الاشتغال بالتجارة والصناعة وجمع الثروة ، واتجهوا لدراسة الأدب والفنون ، ولذا استخدموا هؤلاء الجنود من عناصر مختلفة وغالباً كانت من السويسريين ، وكان يقودهم قواداً يعرفون باسم (Condottiri) ، وقد امتازت هذه الفرق من الجنود المرتزقة بمهارتها فى القتال وبالشجاعة والمحافظة على النظام .

٢ ـ لم يتقيد الإيطاليون بالأخلاق ، واتبعوا فى السياسة الوسائل التى توصلهم إلى أهدافهم سواء وسائل العنف أم القتل أم القسوة ، وحتى البابوات أنفسهم قد اتبعوا هذه الوسائل فقتلوا أعداءهم ومثلوا بهم .

٣ ـ كان لازدياد الثروة فى المدن الإيطالية نتيجة النشاط التجارى أن انقسم الشعب فى المدينة الواحدة إلى طبقتين متنازعتين ، الأولى وهى طبقة الـ Popolo Grosso و الثانية هى الـ Popolo Minuto ، وكانت الأولى هى الطبقة الثرية ؛ أما الأخرى فكانت تتكون من العناصر الفقيرة من أصحاب المهن المختلفة ومنهم

الخبازين والنجارين وصناع الأحذية وغيرهم . وقد قام صراع بين الطبقتين أدى إلى الكثير من الشغب والمتاعب الداخلية . ولتحقيق الأمن والنظام فى الداخل عهد بإدارة شئون المجتمع إلى شخص Signor أو الأشخاص Signoi وقد تمكن بعض هؤلاء الرجال من ذوى الكفاءة من القبض على زمام الأمور .

وكانت هناك ولايات خمس رئيسية فى إيطاليا هى البندقية وميلان وفلورنسة والولايات البابوية ومملكة نابولى .

أما عن **البندقية** Venice فكان لها تاريخ مجيد فى عصر النهضة الأوروبية، وعرفت هذه المدينة باسم ملكة الأدرياتى (Queen of the Adriatic) . واشتغل أهلها منذ القدم بالتجارة ، وقد منحتها الدولة البيزنطية امتيازات تجارية ، ولم يكن للبندقية أملاك فى نفس إيطاليا ، ولذا لم تنشأ بها أرستقراطية من أمراء الإقطاع ؛ كما كان الحال فى معظم البلاد الأوروبية الوسيطة . ولقد اشترك البنادقة فى الحركة الصليبية ، وازداد تبعاً لذلك نفوذ البنادقة فى الشرق الأدنى . ومنذ فترة مبكرة تحدت مدينة جنوة ، تلك المدينة التجارية التجارية الإيطالية الهامة ، النفوذ البندقى ؛ فاستحوذت على امتيازات تجارية فى القسطنطينية بعد سقوط الإمبراطورية اللاتينية فى الشرق عام ١٢٦١ . كما انتهى الصراع بينهما حول النفوذ فى البحر الأسود بانتصار البندقية على جنوه عام ١٣٨١ . ولقد اكتفت البندقية حتى القرن الرابع عشر بأن تعيش فى معزل عن سائر الأراضى الإيطالية معتمدة على مستعمراتها التجارية خارج إيطاليا . وعندما توغل العثمانيون فى البلقان اصطدموا بالبنادقة ؛ ومن ثم عملت البندقية على توجيه عنايتها إلى أراضى إيطاليا نفسها . وكان لكشف طريق رأس الرجاء الصالح أثر كبير عليها ؛ إذ ضاع جزء كبير من الثروة التى كانت تحصل عليها .

ومن أهم خصائص البندقية فى عصر النهضة هو تمتعها بالوحدة والاستقرار الداخلى ، وقد خالفت فى ذلك أغلب الدويلات الإيطالية الأخرى ، وخاصة

فلورنسة التى عانت من الحياة الصاخبة ، ولم تعرف بالبندقية الصراع الداخلى بين الأحزاب بالشكل الذى وجد فى الدويلات الأخرى . وقد تركزت السلطة فى يد الأقلية الغنية القوية وكان على رأسها الدوج Doge ، وهو أصلاً ممثل الإمبراطور البيزنطى ، وكانت سلطته فى بادئ الأمر قوية ، ولكن إلى جانبه وجد المجلس الكبير ، وقد تكون من أفراد من أغنى العائلات ، وعمل المجلس على الحد من سلطة الدوج ؛ وكان للمجلس حق إختيار هذا الحاكم . وإلى جانب المجلس الكبير وجد مجلس العشرة ، وكان يختاره كذلك المجلس الكبير للمحافظة على الأمن العام للدولة . وبفضل هذه النظم السياسية تمتعت البندقية بحياة داخلية مستقرة واعتمدت قوتها الدولية على بحريتها وأسطولها الذى كان أعظم أسطول فى أوروبا . أما فى قوتها البرية ، فقد اعتمدت كلية على الجنود المرتزقة ، وكان هذا الوضع مصدر متاعب لها فى تاريخها وخاصة فى الفترة المتأخرة .

أما **ميلان** فكانت مركزاً زراعياً فى سهل لمبارديا الخصيب فى شمال إيطاليا . وبعد انتعاش حركة التجارة فى أواخر العصور الوسطى جذبت هذه المدينة إليها عدداً كبيراً من التجار ورجال الأعمال من كل أنحاء العالم التجارى من البندقية وجنوة وفلورنسة وغيرها . وكانت ميلان مركزاً اقتصادياً هاماً كذلك فى عصر النهضة . وكان لازدهار التجارة وتفوق الصناعة والمركز الجغرافى الممتاز لميلان أهمية خاصة فى السياسة الإيطالية . فقد عمد حكام بيت هابسبرج وملوك فرنسا إلى الاستيلاء عليها أثناء الحروب الكبرى التى قامت فى القرن السادس عشر .

وفى أوائل القرن الرابع عشر ، تولى حكم ميلان أسرة ڤيسكونتى Visconti ، وسرعان ما أصبح لهذه الأسرة حكم وراثى فى ميلان ، وحكموا حكماً عسكرياً استبدادياً واعتمدوا على استعمال الجنود المرتزقة . وقد جر ذلك عليهم المخاطر ، حيث استحوذ بعض قواد هؤلاء الجنود على السلطة ، مثلما

حدث فى حالة فرانشيسكو سفورزا Francesco Sforza (١٤٥٣) الذى تزوج ابنة آخر ممثل للعائلة الـ Visconti فى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد امتاز هذا الرجل بالذكاء وقوة الشخصية وتمكن من تأسيس أسرة سفورزا كأسرة حاكمة من ميلان . ثم استولى الفرنسيون على المدينة فى عام ١٥٠٠ وانتزعها منهم بعدئذ الإمبراطور شارل الخامس (إمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا) فى عام ١٥٢٢ ، وبقيت منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٧١٤ تابعة لأسبانيا ، وفى هذه السنة ضمت إلى النمسا وظلت خاضعة لها حتى الغزو النابليونى لإيطاليا .

أما **فلورنسة** وتسمى أحياناً بمدينة الزهور ، فتعتبر من عدة نواحى أعظم الدول التى وجدت فى عصر النهضة ، وتميزت فى عصر النهضة بوجود أروع الآراء السياسية ؛ فامتاز أهلها بالعمق فى التفكير ، والبراعة فى النقد ، والقدرة على الإنتاج الفنى ، وروح السخرية والدهاء . وقد أخذت هذه العقلية تعمل باستمرار على تغيير الحياة الاجتماعية والسياسية فى فلورنسة ، التى شاهدت انقلابات سياسية عنيفة بشكل فاق ما ورد فى الدويلات الإيطالية الأخرى . وقد اشتد فى فلورنسة الصراع بين الديمقراطية والأوليجركية (أى حكم الأقلية - وكان اليونان القدماء يستعملون هذا اللفظ للدلالة على الحكومة التى تتولاها أقلية من الأعيان Oligarchy) . ووجدت نقابات للصناع وأصحاب الحرف ؛ كما وجدت حكومات متنوعة من شعبية وديمقراطية وأرستقراطية ، بل قد اتخذت أحياناً طابعاً دينياً مثل تلك الحكومة التى أسسها سافونا رولا . وعمل سافونا رولا ، كما أسلفنا ، على العناية بمصالح الشعب ، فخفض الضرائب وأوجد العمل للمتعطلين ، وجمع كتب الفساد والحلى والملابس الفاخرة وأحرقها . وقامت بين السكان طائفة أخذت تطالب بالرجوع إلى عصر آل ميدتشى ، واستفاد البابا اسكندر السادس ، الذى طالما ندد سافونا رولا بخطاياه ، من هذا القلق المتزايد ،

وحرّض البابا أهل فلورنسة ضد ساڤونا رولا فى عام ١٤٩٨ ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته .

وبعد ثلاثين عاماً من وفاة ساڤونا رولا ضاع استقلال فلورنسة وضمت إلى دوقية تسكانيا (Tuscany) ، التى استمرت من القرن السادس عشر إلى أيام الثورة الفرنسية تابعة للإمبراطورية . وكان من أشهر حكام أسرة الميدتشى كوزيمو Cosemo ولورنزو Lorenzo ، وقد اشتهر الأخير بمساعدته وتشجيعه للفنانين والعلماء والأدباء . وقد اعتمدت فلورنسة فى تكوين ثروتها على تقدم أهلها فى الصناعة وخاصة صناعة المنسوجات الصوفية ، وكذلك على المهارة فى المعاملات المالية والتجارية ، ولكن كان من أكبر عيوبها الاعتماد على الجنود المرتزقة .

أما الولايات البابوية فكانت تسمى كذلك Patrimony of St . Peter ، ولقد اهتم البابوات بتكوين ملك دنيوى لهم بأواسط إيطاليا ، ونجحوا فى ذلك ؛ وشملت أملاكهم المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأدرياتى ، فضمت مدناً مهمة منها روما ، وأسيسى (Assisi)، وأنكونا (Ancona) وغيرها . ولكن المدن الواقعة داخل ممتلكات البابوية لم تشارك المراكز الإيطالية الأخرى فى نشاطها التجارى وتقدمها الصناعى ؛ فقد كانت بلاداً زراعية قبل أى شئ . وميّز الأملاك البابوية كذلك أن النظام الإقطاعى قد بقى فيها قوياً ، كما امتلأت حياتها بالحزبية . وكانت أعظم نقط ضعف الدويلات الكنسية هى نوع حكومتها ؛ فعلى رأسها وجد البابا أو البابوات ، وكان هؤلاء عادة عند توليتهم لمنصبهم شيوخاً مسنين ، ولم تكن البابوية وراثية وقد نتج عن ذلك عدم وجود سياسة واحدة ثابتة . وعلاوة على هذا فإن المشاكل التى واجهت البابوية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين قد أضعفت من سلطان البابا فتجاهل الحكام الإقطاعيون والحكومات المدنية السلطة المركزية للبابوية . وتمكنت العائلات

الأرستقراطية المحلية من تأسيس حكم استبدادى وخاصة أثناء غياب البابوية فى أفينيون .

وعلى كل ، فقد قامت الأملاك البابوية بدور كبير فى التطور الثقافى فى عصر النهضة ، فشجع بعض البابوات العلوم والآداب والفنون مما ساعد على بدء النهضة والتمهيد لها . وقد كان ذلك أمراً عظيماً ؛ فإن البابوات فى أول الأمر قد قاوموا العلم الحديث ، ولكن جرفهم التيار فأخذوا فى نشر فلسفة أرسطو بعد أن كانوا يقاومونها ، وهذه الفلسفة قد لاءمت التقدم الفكرى الحديث أكثر من فلسفة أفلاطون الشعرية التى سيطرت على الناس فى العصور الوسطى . فبقيام الدول الأوروبية الحديثة وانتشار حركة النهضة ، ضعف نفوذ البابوية فى أوروبا ، ولذلك اتجه البابوات إلى إيطاليا ذاتها وعملوا على توحيد جهودهم للسيطرة عليها بدلاً من السيطرة على أوروبا كلها . ولكن ذلك كان شراً على إيطاليا ، لأن البابوات قد قاموا بكثير من الفتن والدسائس فى الولايات الإيطالية لبسط سلطانهم عليها وتنصيب أقاربهم على رأس هذه الإمارات . ونتيجة لهذا الاضطراب تنافست على إيطاليا فرنسا وأسبانيا وتأخرت الوحدة الإيطالية بالتالى .

أما بالنسبة لنابولى ، فكانت تشغل الجزء الجنوبى من إيطاليا ، وقد كونت مع صقلية مملكة مستقلة عن بقى إيطاليا وسميت أحياناً بالصقليتين ، ولعبت دوراً مهماً فى نشأة الأدب وتطور الفكر الإيطالى . واستمدت مملكة نابولى وصقلية ثقافتهما من العرب والنورمانديين . ومن الملوك البارزين فى تاريخها فردريك الثانى Frederic II ، الذى حكم فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وقد أسس جامعة نابولى عام ١٢٢٤ ، وكان مهتماً بجمع المخطوطات العربية واليونانية ، وأمر بترجمتها إلى اللاتينية . وفى نهاية القرن الثالث عشر ، تدخل الفرنسيون فى شئون هذه المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الإيطالية ونازعتهم السلطة هناك أسبانيا .

٤ ـ انجلترا

تعرضت انجلترا منذ تاريخها القديم لإغارات مختلفة ، وأصبحت فى فترة تحت حكم الرومان ، ثم استوطنت بها بعد ذلك العناصر الأنجلو سكسونية . وجاءت بعد ذلك موجة من النورمانديين واستقروا بالبلاد منذ عام ١٠٦٦ . ولقد كان الفتح النورماندى فى هذه السنة حدثاً هاماً فى التاريخ الإنجليزى كله ؛ فبينما ظلت انجلترا إلى ما قبل الفتح النورماندى لا يربطها بالقارة الأوروبية سوى علاقات واهية ، إذ هى صارت بعد ذلك الفتح إلى أواخر العصور الوسطى مرتبطة بفرنسا أشد الارتباط . وفى تلك العصور شاعت المؤثرات الفرنسية وسادت بين الأمم ؛ فبعد انتصار وليم النورماندى على الملك إدوارد التقىEdward the Confessor عند بلدة هيستنجز Histings اعترف به مجلس الدولة The Witan ملكاً على انجلترا .

ويمتاز التاريخ الإنجليزى منذ هذه السنة حتى عام ١٤٠٥ بالصراع بين الملكية والنبلاء والشعب ، ونمو السلطة المركزية فى نفس الوقت . ونتيجة لذلك نمت الحياة البرلمانية فى انجلترا بشكل لم يعرف له مثيل فى سائر الدول الأوروبية. ولقد تم اجتماع كلمة الأشراف (أمراء الإقطاع) ورجال الكنيسة وفيما بعد العامة كذلك على تقييد سلطة الملكية ؛ فأصدرت الملكية فى عام ١٢١٥ ما يعرف باسم العهد الأعظم Magna Carta (أساس الدستور الإنجليزى) ، وأقدم العهود التى دونت بها قبل كل شئ حقوق وامتيازات البارونات ثم الكنيسة ثم العامة . وتعهد الملك فى هذا العهد بما يلى :

١ ـ احترام حقوق الأشراف ، وأعلن أنه لن يفرض ضريبة غير الضرائب الإقطاعية المعتادة إلاّ بموافقة المجلس الأعظم الذى يمثل طبقات الأمة .

٢ ـ تعهد بألاّ يقبض على أحد أو يسجنه ما لم يقرر ذلك مجلس مختص

أو محكمة قانونية. ولو أن العهد الأعظم لم ينفذ بحذافيره ؛ فإنه أصبح للملك مجلس أعظم يتكوّن من رجال الكنيسة والأشراف والفرسان إلى أن جاءت سنة ١٢٩٥ وعقد اجتماع يمثل الكنيسة والأشراف والشعب ويقرب كثيراً من شكل البرلمان الحالى .

وقد حدثت حرب الوردتين Wars of the Rosesعام ١٤٥٥ حتى عام ١٤٨٥ بين أسرتى لانكستر Lancaster (وكانت شارتها الوردة الحمراء) ويورك York (وشارتها وردة بيضاء) . وكانت هذه الحرب بمثابة انتحار من جانب طبقة الأشراف والنبلاء الإنجليز ، إذ قضى على عدد كبير منهم . وعقب انتهاء هذه الحرب (بعد انتصار لانكستر) ظهرت أسرة التيودور Tudors؛ حيث توج قريبهم هنرى تيودور (وهو يمت بصلة إلى أسرة لانكستر) ملكاً على انجلترا باسم هنرى السابع وحكم من ١٤٨٥ إلى ١٥٠٩ ، وكان هنرى قد جاء إلى انجلترا بمساعدة البلاط الفرنسى . وتمكن أفراد أسرة تيودور (١٤٨٥ ـ ١٦٠٣) ، بعد ضعف سلطة الأشراف الانجليز ، ونتيجة للحرب السابقة ؛ من حكم انجلترا حكماً مطلقاً ؛ فكان ملوك هذه الأسرة هم أصحاب الكلمة النافذة فى سياسة البلاد الداخلية والخارجية ، لا يقف فى طريقهم أشراف ولا هيئات برلمانية ، إذ كان الأشراف قد قضى على سلطتهم فى الحرب الأهلية السابقة ، وكان البرلمان قد أقنعته تلك الحروب بأن ترك للملوك السلطة الكافية لضبط الأمن وحماية البلاد من الغزو

وفى عهد هنرى السابع بدأت انجلترا تمهد لبسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وتعقد صلات وثيقة بأوروبا ، وتتطلع إلى آفاق واسعة فى الاستكشاف والتجارة فيما وراء البحار . فاكتشف چون كابوت John Cabot بتكليف من الملك نيوفوند لاند عام ١٤٩٦ ، وهى أقدم ممتلكات التاج البريطانى فى أمريكا . وعلى أساس هذا الكشف ادعت انجلترا لنفسها حق احتلال هذه الأجزاء الواسعة

من أمريكا الشمالية بعد ذلك بأكثر من مائة عام . وتبعت أسرة التيودور فى الحكم أسرة ستيوارت Stewart. وفى الواقع يرجع إلى ملوك انجلتـــرا من التيودوريين الفضل فى تحويلها إلى دولة قومية ذات مصالح فى العالم الجديد .

٥ - فرنسا

كانت فرنسا جزءاً من الدولة الرومانية حتى أغارت عليها قبائل الفرنجة فى القرن الخامس الميلادى ، ومن أشهر حكامهم شارل مارتل ، وحفيده شارلمان . وكانت فرنسا بعد عهده بلداً إقطاعياً ، وليس للملكية فيها إلا نفوذ ضعيف ، وذلك إلى أن أخذت الملكية فى فرض نفوذها على حساب الأمراء الإقطاعيين ، وخاصة أثناء حرب المائة عام التى قامت بين انجلترا وفرنسا فى أخريات العصور الوسطى (١٣٣٨ - ١٤٥٣) ، وخرجت منها فرنسا قوية ، وبدأ نمو الروح القومية فى البلاد . وكان لوى الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) ممن عملوا على إضعاف سلطة الأمراء الإقطاعيين ؛ فلم يكن قد مضى على توليه العرش وقت طويل حين واجهه تألب خطير من النبلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شارلوا (الملقب بالجسور) ، وريث دوقية برجنديا Burgandy. واستطاع لوى بذكائه الخارق أن يكسب خصومه فى باريس بما أظهره من دلائل الصفح الحكيم ، وبذلك استطاع أن يعتمد على باريس ، وأن يواجه جميع أعدائه الذين دبت الفوضى فى صفوفهم . وكان من حسن حظ لوى أن شارل الجسور لم ينجب ذكراً ، ولهذا فبوفاته عام ١٤٧٧ آلت برجنديا إلى العرش الفرنسى ؛ كما آلت إليه دوقية بريتانى بعد ذلك ، وأصبحت فرنسا بعد وفاته دولة متماسكة قوية ، مأمونة الحدود من كل جانب ، كما أنهى حكمه عهد العصور الوسطى فى فرنسا .

وخلف لوى شارل الثامن الذى حكم حتى أواخر القرن الخامس عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨) ،وقد تبعه فى مواصلة تلك السياسة (أى فرض السلطة

المركزية على حساب الأمراء الإقطاعيين) كما عمد هذا الملك إلى توسيع نفوذ فرنسا عبر جبال الألب ، وغزا إيطاليا ، وبدأ الصراع بين فرنسا وآل الهابسبرج للسيطرة على أوروبا . وفى بداية العصور الحديثة ، تم توحيد فرنسا على أساس قيام الحكومة الملكية ذات السلطة المركزية الثابتة لها . ومن أهم أعماله عزمه على فرض سلطان فرنسا على إيطاليا ، وهكذا تبدأ حروب فرنسا فى إيطاليا (١٤٩٤ ـ ١٥١٩) .

٦ ـ أسبانيا

امتد حكم روما إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم أسس القوط الغربيون دولة بها ، ثم جاء العرب وازدهر حكمهم فى تلك البلاد ، ولكن دولتهم بدأت فى الانحلال ، وقوّت الإمارات المسيحية مركزها على حساب قوى الإسلام ، واستولت على عدد من المدن الإسلامية ومنها قرطبة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقبل النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت أسبانيا مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل منها ملك مستقل ؛ فكانت هناك نافار Navarre، وأراجون Aragon ، وكاستيل Castile ، ثم البرتغال ، وفى الجنوب كانت توجد الأملاك العربية . وبدأ عهد جديد لأسبانيا المسيحية عندما اتحدت أراجون مع كاستيل (قشتالة) بالمصاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر ، إذ تزوج فرديناند ملك أراجون من إيزابيلا Isabella أخت ملك كاستيل عام ١٤٦٩ ، وقد خلق هذا الزواج وحدة أسبانيا ، ولتقوية هذه الوحدة تابع الأسبان تقدمهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية واستولوا على غرناطة فى عام ١٤٩٢

ويعد حكم فرديناند وإزابيلا فترة عظيمة فى تاريخ أسبانيا ؛ فالكشوف الجغرافية فى أمريكا قد أعطتها ممتلكات شاسعة ، واتخذ فرديناند وإيزابيلا من تزويج بناتهما من أمراء البرتغال وانجلترا وفرنسا والنمسا وسيلة لتحقيق سياستهما الخارجية ، وانتهى هذا بأن آل تاج أسبانيا إلى الهابسبرج. فابنتهما جوانا Joanna

صارت زوجة لفيليب الإبن الأوحد للإمبراطور مكسمليان . وموت الإبن الأوحد لفرديناند وإيزابيلا ، ثم موت إيزابيلا (١٥٠٤) وفرديناند (١٥١٥) جعل العرش الأسبانى يؤول إلى شارل بن چوانا وحفيد مكسمليان الذى تولى الملك باسم شارل الأول . ولكن بموت مكسمليان ، وكان ابنه قد تبعه من قبل ، صار شارل الأول امبراطوراً باسم شارل الخامس فى يونيو عام ١٥١٩ .

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية

كانت حركة الكشوف الجغرافية التى تم جزء كبير منها فى القرن الخامس عشر هى أهم نتيجة عملية للنهضة الأوروبية . فلقد تمكن الملاحون الأوربيون من التوصل إلى نتائج هامة فى مجال الكشف الجغرافى وفى تاريخ العالم ، مثل اكتشاف الأمريكيتين ابتداء من عام ١٤٩٢ واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨ .

ولقد كانت معلومات أهل أوروبا عن العالم ضئيلة ، ومعظمها من نسج الخيال وخاطئة فى مجموعها ، وكان ذلك يرجع بطبيعة الحال إلى عدة عوامل من أهمها :

١ ـ قصور وسائل المواصلات عن التغلغل فى أنحاء العالم .

٢ ـ ضعف مقدرة الإنسان على الملاحة فى أعالى البحار .

٣ ـ سطحية معلومات أهل أوروبا فى علم الفلك .

٤ ـ الحياة مجتمع مغلق والانفصال بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى.

ولذلك اقتصرت معلومات الأوروبيين على أوروبا والأقاليم التى يسكنها « الكفرة » من المسلمين ، كما كانوا يسمونهم . أما بقية القارات فكانت غير معروفة لديهم ، واستمدوا معلوماتهم عن آسيا وإفريقيا من التجار الإيطاليين الذى كانوا يترددون على موانى مصر والشام من أجل التجارة الشرقية ، ولقد انتشرت بعض الأفكار الخرافية فاعتقدوا بأن المحيط الأطلسى والبحار الجنوبية مأوى الشياطين والجن والوحوش ، وهكذا صور لهم الوهم والخيال ألواناً من الأخطار والمخاوف . وكل المصورات الجغرافية التى وضعها الأوروبيون فى القرن الحادى

عشر تبيّن أنهم كانوا يعتقدون أن الأرض عبارة عن قرص منبسط ، مركزه بيت المقدس يحيط به البحر ، وكان هذا التصور امتداداً للأفكار التى سادت قبل ذلك. فكتب كوزماس Cosmas (٥٤٧) كتاباً عرف باسم Cosmmography أو Christian Geography استخدم فيه توراة موسى فى برهنة أن الأرض منبسطة وأن القدس فى وسطها .

دوافع قيام حركة الكشوف الجغرافية :

أدت عوامل كثيرة إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية وتنشيطها وتتلخص هذه العوامل أو الدوافع فيما يلى :

أولاً : الدافع الاقتصادى :

كان الدافع الاقتصادى فى مقدمة الدوافع التى ساعدت على ظهور تلك الحركة ونموها ، إذ حاول الأوروبيون التخلص من الرسوم الجمركية الباهظة التى كانت تفرضها سلطنة المماليك فى مصر والشام على التجارة الشرقية عند مرورها فى هذين البلدين . وكانت هذه السلع الشرقية ذات أهمية كبرى بالنسبة لأوروبا، فلقد اشتملت على التوابل والعطور العربية والأقمشة الحريرية والبن والسجاجيد والأحجار الكريمة والعقاقير الهندية مثل الأفيون والكافور والصمغ ، وهى مواد كان الصيادلة الأوروبيون يستخدمونها فى إعداد الدواء . وكانت معظم هذه السلع الشرقية تسلك طريقين رئيسين إلى أوروبا فى العصور الوسطى ، كان أولهما طريق الخليج العربى حيث كانت سفن المسلمين تحمل المتاجر إلى البصرة ، ثم تنقل براً إلى بغداد حيث تعبر نهر دجلة والفرات ، ثم تتجه القوافل غرباً نحو ثغور الشام. أما ثانيهما فكان طريق البحر الأحمر الذى تمر فيه السفن حتى السويس ، ثم تنقل المتاجر عبر الصحراء إلى القاهرة ومنها إلى الأسكندرية ، وأحياناً إلى دمياط . وكانت السفن الإيطالية تنقل هذه المتاجر من الموانى المصرية

والشامية إلى المدن الإيطالية ، وكانت سفن جمهورية البندقية تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق إلى ميناء البندقية حيث تعرض فى سوق ريالتو Rialto ، الذى غدا من أشهر أسواق التجارة فى حوض البحر المتوسط .

وتمكنت جمهورية البندقية بفضل علاقتها الوطيدة مع سلطنة المماليك فى مصر والشام من أن تحتكر معظم المتاجر الشرقية ، وجنت من وراء ذلك أرباحاً خيالية ؛ غير أنّ هذا الازدهار الذى حصلت عليه البندقية قد أثار رغبة ملحة فى أوروبا فى القضاء على الاحتكار الذى كان يمارسه تجار البندقية فى نقل المتاجر الشرقية ، وتطلع التجار من رعايا دول أخرى غير البندقية إلى النزول إلى ميدان التجارة الشرقية والحصول لأنفسهم على جزء كبير من هذه الأرباح الطائلة ؛ لأن التجار الأوروبيين فى ذلك الوقت كانوا يعيشون عيشة الملوك من الأرباح الخيالية التى كانت تدرها تلك التجارة ؛ فكان البهار يساوى وزنة فضة ، وكان الناس فى أوروبا يصفون الرجل الغنى بأنه كيس بهار . ومما ساعد التجار فى الوصول إلى الشرق فى بداية العصور الحديثة ، للاستفادة من هذه الأرباح والتى حصل عليها تجار البندقية ، ظهور الدولة الأوروبية الحديثة التى أصبحت تشعر بالعزة القومية ، وتريد أن تبسط سيطرتها على غيرها من الأمم .

ثانياً الدافع الدينى :

كان الدافع الدينى من أهم العوامل التى شجعت على القيام بحركة الكشوف الجغرافية . وكانت البرتغال وأسبانيا أسبق الدول فى القيام بالكشف الجغرافى لأن الناحية الدينية لعبت دوراً كبيراً فى تخطيط سياسة هاتين الدولتين ، وكانت نكمن فى هذه الناحية الدينية روح صليبية جارفة. فكانت البرتغال مثلاً تهدف إلى تحويل المسلمين فى غرب أفريقيا وغيرها من المناطق الآهلة إلى المسيحية الكاثوليكية ؛ أما أسبانيا فكانت تبغى نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى بين السكان الأصليين والوثنيين فيما وراء البحار . وقد استهدفت هذه

الروح الصليبية أيضاً تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكى وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر .

ولقد تجلت فكرة التعصب الدينى والروح الصليبية فى أسبانيا فى عام ١٤٦٩ عندما تزوج فرديناند حاكم أراجون من إيزابيلا حاكمة قشتالة ، وكان ذلك بمثابة مولد دولة أسبانيا المتحدة فى التاريخ الحديث ؛ وبدأ فعلاً سياسة الاضطهاد الدينى والقضاء على كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكى . وكانت أول الأعمال التى قاما بها الاستيلاء على غرناطة ، وهى آخر معقل للمسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا . وبعد طرد المسلمين من الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة إيبيريا تحمساً وشراسة فى مطاردة المسلمين خارجها ، وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربيها ، وراودتهم الآمال فى محاصرة الإسلام عن طريق البحر والقضاء عليه . وظفرت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من البابوات ، الذين أصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك أسبانيا والبرتغال الحق فى ملكية كل إقليم جديد ، وتورط بعضهم فى هذه المراسيم فوصفوا الإسلام بأنه طاعون The Plague of Islam ؛ وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى كشفت أو سوف تكتشف ، والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام . وبالإضافة إلى ذلك ، كان البابوات يعدون المشتركين فى الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب فى اليوم الآخر . أرسل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) فى عام ١٤٥٤ مرسوماً إلى ملك البرتغال اشتمل على ما أطلق عليه اسم « خطة الهند » ، وهى تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء قضاء مبرماً على الإسلام .

ثالثاً: الرغبة فى زيادة المعلومات الجغرافية :

سيطرت على الأوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية ، وكان سبب ذلك هو ما توصلت إليه أوروبا من تقدم فى فنون الملاحة

والمعرفة الجغرافية المتزايدة ، والاهتداء إلى آلات لا غنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة ؛ فقد عرف الأوروبيون بوصلة الملاحة ، وعمم استعمالها فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر ، والاسطرلاب (وهو جهاز لتقدير المسافات وتعيين الاتجاهات فى عرض البحر) ، وكذلك الدفة المتحركة لعبور البحار . ومما شجع على القيام بحركة الكشوف أيضاً تلك الرحلات التى قام بها الأوروبيون منذ القرن الثالث عشر فى آسيا مثل رحلة ماركو بولو Marco Polo ، وكان ماركو بولو (من أهالى البندقية) هو أول أوروبى توغل نحو الشرق فى أماكن كان بعضها مجهولاً . وقد امتدت الرحلة من عام ١٢٧١ حتى عام ١٢٩٥ ، واتجه من شواطئ آسيا الصغرى إلى قلب الصين ، ومن بلاد المغول واليابان إلى سومطره وسيلان وبلاد الهند وفارس . وعقب عودته من رحلته وضع كتابا بالفرنسية أطلق عليه اسم « **كتاب العجائب** » ، ونشر فيه الكثير من القصص المثيرة عما شاهده من كنوز الثروة فى البلاد التى زارها ، ومنتجاتها الزراعية والصناعية ، وتقدم التجارة. وكان من أهم نتائج رحلة ماركو بولو أنها أوضحت للأوروبيين أن الكرة الأرضية تختلف كل الاختلاف عما تصوره الأولون ، وأنه توجد فى أقصى أطراف آسيا بلاد تمتاز بكثرة سكانها وضخامة ثروتها . وتتابعت بعد ذلك رحلات الكثيرين من الأوروبيين إلى بلاد الشرق ، وتحققوا من صدق ما ذكره ماركو بولو.

الكشوف البرتغالية :

ساعد البرتغاليون على القيام بحركة الكشوف الجغرافية ما تلقوه عن البحار وما تعلموه عن بناء السفن الكبيرة ، كما وقعت فى أيدى هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) ، أو Don Hanrique، الذى تزعم حركة الكشوف نسخة من كتاب رحلة ماركو بولو أهداها إليه دون بيدرو Don Pedro . كما تلقى البرتغاليون فنون الملاحة عن الجنويين الذين قاموا بأول محاولة

للطواف حول ساحل أفريقية ؛ ففى عام ١٢٩١ أبحر أوجولينو دى ڤيڤالدو Ugo..no di Vivaldo من أهل جنوه فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحرى إلى الهند ، ولكن السفينتين تحطمتا فى مواجهة الساحل الأفريقى . وبالإضافة إلى ذلك ، سيطرت على هنرى الملاح الروح الصليبية المنتشرة فى ذلك الوقت ، إذ جاد فى مستهل المرسوم الذى بعث به البابا نيقولا الخامس فى عام ١٤٥٤ إلى هنرى : « إن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز، هنرى ، أمير البرتغال ، قد سار فى خطى أبيه الملك جون ، بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ، ليقضى على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة... » .

ولم يكن فى استطاعة البرتغال وهى بلاد صغيرة فقيرة ، أن توسع حدودها البرية ؛ إذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها أسبانيا ، فلم يبق إلا أن تتوسع من ناحية البحر بالتجارة والاستعمار . ولم يهتم هنرى كثيراً بالخرافات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت مثل القول بأن الرجل الأبيض عندما يصل إلى منطقة معينة على شاطئ إفريقيا تنقلب بشرته إلى اللون الأسود من شدة حرارة الشمس التى تجعل المياه تغلى حول سفينته ، وتهب عليها ريح عاصف تحمل لهباً محرقاً يدمر السفينة تدميراً . فأسس أكاديمية بحرية ومرصداً على الطرف الجنوبى لشاطئ البرتغال ، وزودهما بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط ، واستقدم صفوة العلماء والجغرافيين وكان يجمع المعلومات من كل ربان عائد من رحلة بحرية ، وصنفت هذه المعلومات كلها فى ملفات خاصة . وخرج هنرى من دراساته بفكرة تناقض الرأى السائد عند علماء الجغرافيا فى ذلك الوقت ، والذين كانوا يعتقدون أن أفريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبى ، وأنه لا سبيل إلى الطواف حولها من ناحية الجنوب . وانصرف هنرى إلى بذل الجهود لتحسين بناء السفن ، وفى بضع سنوات أنزلت إلى البحر سفن قوية تراوحت حمولتها بين ثمانين طناً وبين مائة طن .

وفي عهد الأمير هنري الملاح ، بدأت الخطوات الأولى في الكشوفات الجغرافية واستطاع البرتغاليون الوصول إلى ماديرا ثم جزر الأزورا ، ثم وصلوا في عام ١٤٤٦ إلى مصب نهر السنغال وإلى الرأس الأخضر واستطاعوا الوصول إلى بلاد غانا ، وانطلق التجار والملاحون يقتنصون أهالي هذه البلاد وينقلونهم إلى أسواق أوروبا لبيعهم عبيداً . ولقد لقيت الرحلات تشجيعاً عميقاً من الأمير هنري الملاح طوال حياته حتى توفي عام ١٤٦٠ بعد أن نجح في بث روح جديدة في الشعب البرتغالي ، وأصبحت بلاده رائدة الدول الأوروبية في مجال الكشوف الجغرافية

وبعد وفاة هنري اجتاز البرتغاليون خط الاستواء إلى رأس كاترين في عام ١٤٧١ ، وتأكدوا أن القارة الأفريقية تمتد وراء هذا الخط ، وأن الملاحة في هذه المناطق ليست عملية انتحارية ، كما كان يعتقد الكثيرون . وفي عام ١٤٨٢ وصلوا إلى مصب نهر الكونغو ، واحتكرت البرتغال الحق في الملاحة الساحلية ؛ أي بمحاذاة الشاطئ الأفريقي حتى غينيا . وفي عام ١٤٨٦ خطت الكشوف الجغرافية البرتغالية خطوة هامة في مجال الكشف الجغرافي ؛ إذ قام بارثلميو دياز برحلة وصلت إلى طرف أفريقيا الجنوبي ، واجتاز رأس الرجال الصالح . ولكن دياز لم يستطيع المضي في رحلته ، لأنه واجه تمرداً خطيراً من البحارة البرتغاليين، فقطع رحلته وعاد إلى البرتغال

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم في مواصلة الكشوف الجغرافية ابتغاء الاهتداء إلى طريق بحري متصل إلى الهند حول أفريقيا . وأوفد عمانويل الثاني ملك البرتغال في عام ١٤٩٧ الرحلة فاسكو دا جاما Vasco da Gama الذي وصل بأول رحلاته المشهورة إلى الهند بطريق يدور حول أفريقيا . ففي مارس ١٤٩٨ وصل داجاما إلى موانئ شرق أفريقيا وكان منها موزمبيق وممبسا وماليندي ، وكانت هذه الثغور خاصة بالتجار العرب ومن ثغر ماليندي

اتجه إلى الهند بمساعدة ملاح عربى ، فوصل فى مايو عام ١٤٩٨ إى ثغر كاليكوت (قاليقوط) Calicut على الساحل الغربى للهند المسمى ساحل ملَبَار وبعد أن أقام داجاما قرابة ثلاثة شهور فى كاليكوت قرر العودة إلى البرتغال ، فوصلها فى سبتمبر عام ١٤٩٩ وهو يحمل كنوزا من الأحجار الكريمة والسلع الهندية وغيرها .

وبوصول البرتغاليين إلى المحيط الهندى فى عام ١٤٩٨ أقاموا لأنفسهم مراكز تجارية مسلحة فى أفريقيا الشرقية ، وفى الساحل الغربى للهند ، وفى جزر المحيط الهندى والخليج العربى ، وعملوا على بسط سيطرتهم العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق ونقلها إلى أوروبا عبر الطريق الجديد.

وفى عهد الملك البرتغالى عمانويل السعيد (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) خرج ألفاريز كابرالAlvarez Cabral فى رحلة من قادش فى مارس عام ١٥٠٠ إلى شرق أفريقيا والمحيط الهندى. وأراد قائد الرحلة أن يتجنب خليج غانا ؛ فضل الطريق ، وانحرف نحو الجنوب الغربى ؛ فإذا به يصل إلى البرازيل وحقق لبلاده كسباً كبيراً . وأعقب هذا الكشف إرسال حملات كشفية لهذه البلاد الجديدة ، بعث بها الملك عمانويل ووقع اختياره على رحالة آخر هو أمريجو فيزبوتشىAmerigo Vespucci قام بعدة رحلات وأطلق اسمه على الأمريكتين .

وتوالت رحلات كابرال وداجاما ، وعندما نشط البرتغاليون على ساحل الملبار شرع المغاربة المسلمون يبحثون عن طريق آخر إلى متاجر الشرق الأقصى واستخدموا طريقاً جديداً من الشواطئ العربية والأفريقية إلى ملقا Malacca (أى إلى ساحل شبه جزيرة الملايو الغربى) متحاشين ساحل الملبار . ولذلك قرر البرتغاليون الاستيلاء على مفاتيح الشرق الأقصى بالاستحواذ على مراكز المسلمين فى الشاطئين الأفريقى والعربى ، وفى هرمز وفى عدن ؛ أى أن خطة البرتغاليين الجديدة كان معناها مهاجمة الملاحة الإسلامية فى جميع وجوه نشاطها بدلاً

من مناصبة العداء لأمير واحد معين . وقد قام بتنفيذ هذه السياسة كل من فرنسوا الميدا Almeida (١٤٥٠ ـ ١٥١٠) ، وألبوكيرك Albuquerque (١٤٥٣ ـ ١٥١٥) ، الذى استولى على جوا فى نوفمبر عام ١٥١٠ على ساحل الملبار ؛ وقد جعلها البرتغاليون منذ ذلك الوقت المركز الرئيسى لممتلكاتهم الآسيوية .

الكشوف الأسبانية :

وفى الوقت الذى اهتمت فيه البرتغال بحركة الكشف الجغرافى ، اتجهت أسبانيا أيضاً إلى هذا الميدان . وشق كريستوفر كولومبس Colombus (١٤٥٠ ـ ١٥٠٦) ، وهو من أهالى جنوه ، طريقه فى المحيط الأطلسى لحساب فرديناند وإيزابيلا ، ملكى أسبانيا ، بعد أن حصل على مساعدتهما . وتخلف أسبانيا عن البرتغال فى مجال الكشوف ، فبينما قام المواطنون البرتغاليون بعبء ارتياد البحار كشفاً لطرق ملاحية جديدة وبحثاً عن ممتلكات جديدة ، كانت أسبانيا تدين بهذا الفضل لأجنبى عنها هو كولومبس ، الذى كان ملاحاً مثقفاً وتوفر على دراسة الخرائط. وقد خرج من دراساته وتجاربه بفكرة علمية جديدة هى أنه إذا أبحر غرباً من مضيق جبل طارق عبر المحيط الأطلسى ، استطاع أن يصل الشواطئ الشرقية لآسيا . ومنذ عام ١٤٧٩ شرع كولومبس بعرض مشروعاته للقيام برحلة استكشافية فى المحيط الأطلسى (أو الغربى كما كان يسمى فى ذلك الوقت) لاستكشاف أرض جديدة اعتقد بوجودها ، ولكنه لم يلق تأييداً من البرتغال . غير أنه لم ييأس ، وعاود السعى لدى ملكى أسبانيا ، وأسفرت مساعيه عن قبول مشروعه . وكانت الأسباب الدينية والاقتصادية هى التى دعت فرديناند وإيزابيلا إلى قبول مشروع كولومبس . وكان الطابع الدينى غلب على سياسة هذين الملكين ، وكان لقبهما « **الملكان الكاثوليكيان** » .

خرج كولومبس فى أغسطس عام ١٤٩٢ من ميناء بالوس Palos فى

غرب أسبانيا ، ووصل فى أكتوبر إلى إحدى جزر باهاما Bahama ، وأطلق عليها اسم سان سلڤادور San-Salvador . ثم كشف بعدها كيوبا وهايتى Haiti التى أطلق عليها اسم Espanola ، أى أسبانيا الصغيرة . وفى مارس عام ١٤٩٣ عاد إلى أسبانيا وهو يعتقد أنه وصل فعلاً إلى طرف العالم الشرقى . وفى سبتمبر من نفس العام قام كولومبس برحلته الثانية لاحتلال الأراضى الجديدة واستعمارها ، ولاستخراج الذهب ، ولنشر المسيحية ؛ فوصلت الحملة إلى إسبانولا ، وكشفت جمايكا وعادت إلى أسبانيا فى عام ١٤٩٦ . وقام كولومبس برحلته الثالثة فى عام ١٤٩٨ ثم الرابعة والأخيرة فى عام ١٥٠٢ . وكان دعاة المسيحية يرافقون هذه الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر الدين المسيحى بين سكان البلاد الأصليين . وكان كولومبس قد خسر كثيراً من سمعته الطيبة منذ رحلته التالية بسبب وشايات أعدائه ، ولأنه اضطر إلى استخدام الرقيق فى الممتلكات الجديدة ، فأثار بعمله هذا غضب إيزابيلا ، وأهمل أمره وتوفى فى عام ١٥٠٦ .

وكان لرحلات كولومبس أثران ، أولهما أن الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم لهذه الأراضى الجديدة وبخاصة عندما نشط البرتغاليون فى استكشافاتهم . وكان البرتغاليون حريصين على الاحتفاظ بالأقاليم الجديدة ملكاً خاصاً لهم ، ولكن ظهر لهم منافس جديد يحاول الاستحواذ عليها . ومما زاد الموقف تعقيداً أن البرتغال كانت قد ظفرت من البابا فى روما بمرسوم بابوى يخولها الحق فى تملك جميع القارات والجزر التى تكتشفها البرتغال فيما وراء رأس بوجادور . وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون ، ورأى البرتغاليون عدم جدوى المرسوم البابوى الذى منحهم جميع البلدان الواقعة فى طريق الهند من الشرق ؛ إذ كان الأسبان قد سبقوهم من الغرب وانتزعوا منهم الهند . وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن لجأت الدولتان إلى البابا اسكندر السادس تلتمسان تدخله بينهما لتسوية المسألة تسوية سليمة .

وقد أصدر البابا مرسوماً تقرر بمقتضاه اتخاذ خط وهمى للتقسيم يفصل بين ممتلكات الإمبراطوريتين الأسبانية والبرتغالية ، ويبدأ هذا الخط من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، ويمر على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر ؛ فيكون من نصيب أسبانيا كل الأقاليم التى تقع إلى غرب هذا الخط الوهمى ، وتكون الأقاليم التى تقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . لكن طعنت البرتغال فى هذا التقسيم ، وتدخل البابا مرة أخرى بين أسبانيا والبرتغال وقرر نقل الخط الوهمى للتقسيم بين ممتلكاتهما إلى نقطة تبعد ٣٦٠ فرسخاً غرب جزر الرأس الأخضر . وعلى ضوء هذا القرار البابوى ، عقدت فى ٧ يونيو ١٤٩٤ معاهدة توردیسيلاس Tordesillas بين أسبانيا والبرتغال لتثبيت ذلك الخط الوهمى بين ممتلكات هاتين الدولتين . وكان من نتائج تنفيذ تلك المعاهدة أن وجد وضع شاذ ، ذلك أن البرازيل عندما اكتشف أصبحت من نصيب البرتغال ؛ لأن هذا الخط الوهمى يمر بالشاطئ الشمالى لأمريكا الجنوبية، ولم يفكر أحد فى ذلك الوقت أن هذا الخط الوهمى سوف يقسم أمريكا الجنوبية، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية لقارة ستصبح أسبانية.

أما الأثر الثانى لرحلات كولومبس ، فكان فتح الطريق لرحلات الأفراد والمغامرين ، فاستطاع الرحالة الجدد بين عامى ١٤٩٩ و ١٥٠٨ الوصول إلى أسبانولا ثم إلى مصب نهر الأمازون ، وبرزخ بناما ، وحول كيوبا ؛ وتلى ذلك توطن الأسبان بأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية . وكان فى مقدمة هؤلاء المغامرين الجدد بلباو Balbao ، الذى شاهد المحيط الهادى وأعلن امتلاكه باسم ملك أسبانيا (١٥١٣) ، ودى سوليس de Solis الذى بلغ شواطئ البرازيل ووصل إلى مصب نهر لابلاتا ؛ واستولى الأسبان مثلاً على المكسيك فى عام ١٥٢١ .

رحلة ماجلان حول العالم :

توفى فرديناند ملك أسبانيا ، وتولى عرش أسبانيا بعده حفيده شارل الأول عام ١٥١٦ ، الذى بلغت الكشوف الجغرافية فى عهده الذروة ، حين نفذ أكبر مشروع جغرافى ظهر فى العالم إلى ذلك الوقت ، وهو الطواف حول العالم فى رحلة بحرية متصلة ، وفى اتجاه واحد والعودة إلى مكان بدء الرحلة . ويقترن هذا المشروع باسم ماجلان Magellan (١٤٧٠ ـ ١٥٢١) ، وهو برتغالى سبق له الاشتراك فى حملة البرتغال على الهند بقيادة ألميدا . وكان ماجلان يرى أنه فى الاستطاعة الوصول إلى جزر التوابل فى الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبى لأمريكا ، وليس عن طريق الشرق بالطواف حول الطرف الجنوبى لأفريقيا .

صادف ماجلان عقبة فى سبيل تنفيذ مشروعه ، فقد كان مغضوباً عليه من ملك البرتغال ؛ فاتجه إلى البلاط الأسبانى وعرض على شارل الأول ملك أسبانيا مشروعه . ورحب الملك بهذا المشروع ، وفى ٢٢ مارس ١٥١٨ وقع شارل العقد المبرم بين التاج من ناحية وبين ماجلان من ناحية أخرى . وكان من بين النقاط التى تم الإتفاق عليها إعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التى يكتشفها وجزيرتين إذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستا . وفى أغسطس عام ١٥١٩ أقلعت حملة ماجلان ، وعددها خمس سفن ، من ميناء سان لوكار San Lucar ، واتجهت فى المحيط الأطلسى جنوباً ؛ ثم عرجت فى اتجاه الجنوب الغربى ، ثم إلى ريو دى جانيرو فى البرازيل ، ثم إلى مصب نهر ريو دى لابلاتا ، وسارت بمحاذاة الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية ، ووصلت السفن إلى خط عرض ٤٩ درجة جنوباً ؛ ثم واصلت الحملة سيرها نحو الجنوب بمحاذاة الشاطئ الشرقى لأمريكا الجنوبية . وفى أكتوبر عام ١٥٢٠ اكتشف مضيق ماجلان ، وفى نوفمبر من نفس العام دخلت السفن المحيط الهادى ،

وقد أطلق عليه ماجلان الاسم Pacıfique ، لأنه وجده قليل الأعاصير التى تكثر فى المحيط الأطلسى . وأبحرت السفن شمالاً فى اتجاه الغرب ووصلت إلى جزر الفلبين ، وهى مجموعة من جزر الملايو فى بحر الصين ، وأطلق عليها هذا الاسم تكريما لفليب ابن الإمبراطور شارل الخامس الذى سيلى عرش أسبانيا باسم فيليب الثانى . وقد اعتقد ماجلان أنه وصل إلى جزر التوابل ، ولكنه كان قد أخطأ فى تقدير درجات العرض ، وابتعد عشر درجات شمالاً عن الطريق المؤدى إلى جزر التوابل . وأدى هذا الخطأ إلى نتيجة هامة هى أن جزر الفلبين أصبحت من ممتلكات أسبانيا ، وقد اشتعلت الحرب بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٨ ، وأدت إلى ضياعها منها وإنتقالها إلى ممتلكات الولايات المتحدة .

وفى أثناء الرحلة مات ماجلان فى أبريل ١٥٢١ ، وتولى قيادة الحملة أحد رجالها وهو چون سباستيان ديلكانو John Sebastian Delcano . وفى نوفمبر من نفس العام وصلت الحملة إلى جزيرة تيدور Tidor ، إحدى جزر التوابل التى كانت حلم ماجلان . وفى ٢ فبراير عام ١٥٢٢ غادرت الحمنة جزر التوابل فى طريق عودتها إلى أسبانيا ؛ فعبرت المحيط الهندى ، ومرت برأس الرجاء الصالح . ولقد أثبتت هذه الرحلة أن السير فى اتجاه واحد سواء أكان ذلك من الشرق أم من الغرب لابد أن يؤدى إلى المكان الذى بدأ منه الإنسان رحلته ؛ وبدلك استقرت فى الأذهان الحقيقة الجغرافية وهى كروية الأرض ، وأيقن الجميع أن هناك قارتين عظيمتى الإتساع هما أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية ، تقعان بين أوروبا وآسيا . كما فتحت رحلة ماجلان الشرق الأقصى أمام أوروبا بطريق ملاحى متصل ؛ كما أنها ربطت بين العالم الجديد وبين الشرق الأقصى باكتشاف الممر الذى يعرف باسم ماجلان فى أقصى الطرف الجنوبى من أمريكا الجنوبية .

وهكذا سبقت أسبانيا والبرتغال باقى الدول الأوروبية فى القرن السادس عشر فى مضمار الاستعمار والتجارة ، ولكن بعد القرن السادس عشر أخذت البرتغال

وأسبانيا فى الضعف تدريجياً فى الوقت الذى أخذت فيه قوى الهولنديين والفرنسيين والإنجليز فى النمو وأصبحت الدول البحرية الاستعمارية الكبرى فى أوروبا .

نتائج حركة الكشوف الجغرافية :

أولا : بعد أن كان البحر المتوسط هو الطريق الرئيسى للتجارة فى العصور الوسطى ، بل مركز النشاط السياسى ، انتقل هذا المركز بعد حركة الكشوف الجغرافية إلى المحيط الأطلنطى ، الذى أصبح طريق التجارة العالمية فى العصر الحديث ، وبالتالى انتقل مستقبل أوروبا الاقتصادى من مدن البحر المتوسط ، من البندقية وجنوه اللتين كانتا تقومان بتوزيع التجارة الشرقية التى كانت تأتى من الهند والشرق الأقصى عن طريق مصر ، واكتسبتا من وراء هذه التجارة ثروة طائلة، إلى أمم الغرب الناشئة ، إلى البرتغال وأسبانيا ، ثم هولندا وانجلترا وفرنسا التى كانت تقع على الطريق الغربى للدنيا القديمة وأصبحت فى قلب العالم بعد الكشوف الجديدة . ونظمت فى المحيط الأطلنطى خطوط ملاحية بين أوربا والعالم الجديد ومنطقة المحيط الأطلنطى خطوط ملاحية بين أوروبا والعالم الجديد ومنطقة المحيط الهندى ، ويطلق فى التاريخ الاقتصادى على هذه الحركة اسم « الثورة التجارية » The Commercial Revolution ؛ وتدفقت على أسواق أوروبا نتيجة لذلك منتجات الشرق بكميات أوفر وبأسعار أقل مما كانت تعرض به قبل اكتشاف الطرق الملاحية الجديدة .

ثانياً : أما النتيجة الثانية فقد تمثلت فى حركة التوسع التجارى التى ظهرت على أثر فتح أسواق جديدة ، وقد زادت كمية المعادن الثمينة ولا سيما الذهب والفضة، واتخذت طريقها إلى أوروبا ، وساعد ذلك على أن يحل النقد محل المبادلة فى البيع والشراء ، وتدفقت كميات عظيمة من معدن الفضة على أوروبا نتيجة للاستكشافات الأسبانية على وجه الخصوص . وكانت الفضة فى

أواخر القرن الخامس عشر قد أخذ وجودها يقل كثيراً فى أوروبا بسبب الحاجة المستمرة إليها من مدة طويلة من أجل استيراد البضائع من الشرق ؛ فتعطلت الحياة الاقتصادية عموماً بسبب قلة النقد (العملة) . وكان هذا النقص فى الفضة أحد الأسباب التى جعلت الأوروبيين يجدُّون فى البحث عن طريق موصل إلى موطن تجارة الشرق الأصلية من غير حاجة إلى وساطة العرب أو غيرهم من الذين سيطروا على طرق لتجارة القديمة ، وأرغموا الأوروبيين على أن يدفعوا أثماناً باهظة للسلع التى يحتاجونها .

وفى عهد فيليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) تدفقت الفضة بكثرة على الموانى الأسبانية خاصة بعد اكتشاف مناجم الفضة فى بوتوسى Potosi فى بوليڤيا عام ١٥٤٥ . وفى عهده أصبحت أسبانيا القناة التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا ، ومنذ ذلك الوقت بدأ عصر الفضة فى أوروبا . وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى أوروبا . وقد أحدث تدفق الفضة ثورة فى الأسعار Price Revolution ، وارتفعت الأجور وأثمان السلع وتكاليف المعيشة والحياة ؛ وتحسنت الحالة الاقتصادية فى أوروبا بوجه عام ، وأخذت محصولات جديدة ترد إليها كالذرة والبطاطس والكاكاو والتبغ ، وأصبحت عاملاً أساسياً فى الحياة الاقتصادية .

ثالثاً : تكونت امبراطورية برتغالية وأخرى أسبانية ، وفتح باب الاستعمار أمام الدول الأوروبية الأخرى التى لم تلبث أن دخلت الميدان لتأخذ نصيبا من الأملاك الجديدة ، ودعا هذا إلى التنافس والتطاحن فى البحار . وإزداد نتيجة لذلك اهتمام الدول بإنشاء الأساطيل البحرية باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار ، فانتقل مركز التوازن الدولى من البر إلى البحر .

رابعاً : سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرت لصالح الدول المستعمرة

وسيطرة الرجل الأبيض التى تبيح تملك الأرض التى تسكنها شعوب غير أوروبية وغير مسيحية ، وجعل إرادتها وجهود أبنائها مسخرة لإرادة الشعب المالك ، وللسياسة التي يريد إنتهاجها . وقد أدى ذلك إلى تذمر السكان وثورتهم فى النهاية طلباً لرفع نير الاستعمار الذى كان فاتحة لسيل من الهجرة من أوروبا إلى الأصقاع الجديدة .

خامساً : قاسى سكان البلاد الأصليون الكثير من المستعمرين ، وكان هذا الانتصار كارثة عظمى عليهم فى الكثير من الأحوال وخاصة فى أمريكا الشمالية، حيث قضت على الكثير منهم الحروب والأوبئة ، ومن بقى منهم اضطر للعيش فى معزل عن المستعمرين وأخذ عددهم فى التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل فى غرب الولايات المتحدة وكندا ، وكان الحال أخف وطأة فى أمريكا الجنوبية إذ بعد هدوء الزوبعة الأولى التى قامت على أثر الفتح والاستعمار أخذ السكان الأصليون يختلطون بالأسبان والبرتغاليين وتعلموا لغتهم واعتنقوا دينهم ، ومن ذلك الامتزاج نشأ الجيل الحاضر . وبعد ذلك عمل الأسبان والبرتغاليون على التبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى بين أهالى المكسيك وأمريكا الجنوبية ، وكان فى ذلك أكبر تعويض للبابوية والكنيسة الكاثوليكية عن نفوذها الذى ضاع بعد ظهور حركة الإصلاح الدينى .

سادساً : أثرت حركة الكشوف الجغرافية بدرجة كبيرة على مركز مصر التجارى ، وكان العرب قد اهتموا اهتماماً بالغاً بالتجارة التى درت عليهم ثروات طائلة بصفتهم وسطاء بين الهند والصين من ناحية ، وأوروبا من ناحية أخرى ، وسيطروا على التجارة العالمية فى العصور الوسطى ؛ حيث كانت تنقل تجارة التوابل والحرير إلى أوروبا عبر الطرق الهامة المارة بالمنطقة العربية . ولقد جنت مصر من هذه التجارة الكبيرة الغنية ، وأصبحت الضرائب المفروضة على هذه التجارة مورداً هاماً من موارد المالية المصرية ، وظل الأمر كذلك حتى شاهد العالم

التحول الواضح من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وعندما فتح هذا الطريق الجديد فى عام ١٤٩٨ ، حاول مماليك مصر يؤيدهم فى ذلك البنادقة الذين عانوا أيضاً من جراء هذا الكشف ، أولاً بالوسائل الدبلوماسية ثم بالحرب ، القضاء على هذا الخطر البرتغالى . ولكن جهودهم باءت بالفشل ؛ إذ إستطاع البرتغاليون إيقاع الهزيمة بالأساطيل المصرية ، وتوغلوا حتى الخليج العربى والبحر الأحمر . وفى عام ١٥١٥ وقعت مسقط وهرمز والبحرين فى أيدى البرتغاليين .

على أية حال لم يستطع الشرق العربى استعادة طرق مواصلاته مرة أخرى حتى القرن التاسع عشر . ولقد نتجت عن تحول التجارة آثار متعددة ؛ إذ أقفرت أسواق القاهرة والأسكندرية من تلك الحركة التجارية الهائلة ، وحرمت حكومة مصر من تلك الضرائب التى طالما تمتعت بها ؛ كما فقد الأهالى الفوائد الكثيرة التى كانوا يجنونها من نقل هذه المتاجر . وبينما أخذت دول غرب أوروبا فى التوسع والاستعمار ازدادت مصر ضعفاً واضمحلالاً وانتهى الأمر بالاحتلال العثمانى لها فى ١٥١٧ .

أما حياة سورية الاقتصادية ، فكانت عرضة لتدهور متواصل نتيجة لهذه الكشوف الجغرافية . واضطرالتجار السوريون بعد ذلك أن يجعلوا جل اعتمادهم على التجارة البرية . وأخذت من ثمّ مدينة حلب فى طريق الازدهار ؛ إذ كانت رأس الخط التجارى الذى ينتهى إلى بغداد فالبصرة . وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق إلى حين ، بينما استطاعت الإسكندرونة وطرابلس أن تنتزعا من بيروت مكانة مرفأها التجارى ، بل إن حلب بقيت حتى فى القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأوسط .



الفصل الرابع

الحروب الإيطالية

(أو التنافس الدولى بين فرنسا وأسبانيا)

١٤٩٤ - ١٥٥٩

تعتبر الحروب الإيطالية التى نشبت بين فرنسا وأسبانيا فيما بين عامى ١٤٩٤ و ١٥٥٩ مظهراً من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ فى أوروبا ، والرغبة فى التوسع الإقليمى داخل القارة . ولقد كانت شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً لتصارع الدولتين خلال المراحل الأولى من مراحل الحرب ، غير أنها تطورت بعد ذلك إلى صراع أوروبى اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية . وكانت إيطاليا ، كما أشرنا من قبل ، مجرد تعبير جغرافى ، ولم تتمكن من إقامة الوحدة السياسية حتى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر .

ولقد أدى تفتت إيطاليا السياسى إلى حدوث آثار بعيدة المدى فى السياسة الدولية ، وفى السياسة الإقليمية الخاصة بالدويلات الإيطالية . أما من ناحية السياسة الدولية ، فقد ارتبط التفتت السياسى بالضعف العسكرى ، ومن ثمّ تطلعت الدول الموحدة إلى غزو شبه الجزيرة الإيطالية التى أصبحت مطمعاً للدول ومسرحاً للصراع الدولى . وانعكست هذه الأطماع على العلاقات الدولية ؛ فنشطت الدول فى الدخول فى أحلاف عسكرية وإيجاد تكتلات دولية ، وظهر مبدأ سياسى سيكون السمة البارزة فى السياسة الدولية فى أوروبا فى القرن السادس عشر ، ونقصد بذلك مبدأ المحافظة على التوازن ، أو توازن القوى بين الدول The Balance of Power (Equilibre des Pouvoirs) ، ومعنى هذا المبدأ هو

أنه إذا بلغت إحدى الدول الأوروبية درجة من القوة والسيطرة تهدد أمن الدول الأخرى والسلام العام ، فإنه يجب على هذه الدول أن تتحالف فيما بينها ضد الدولة الأولى .

أما من ناحية العلاقات السياسية بين الدويلات الإيطالية ، فقد كان هناك نزاع مستمر بينها ، كان مبعثة المنافسة والبغضاء مثل النزاع الذى حدث بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك رومانا Romagna الواقع بينهما، وأرادت البندقية امتلاك دوقية ميلان لوفرة محاصيلها وغزارة مواردها ، وتطلعت البابوية فى فترات معينة إلى ضم فلورنسة إليها . ولقد لجأت الدويلات الإيطالية إلى تطبيق مبدأ التوازن الدولى فى إيطاليا للحيلولة دون تفوق وسيطرة دويلة على باقى الدويلات الأخرى . ومن ذلك يتضح أن مبدأ توازن القوى قد طبق فى القرن السادس عشر فى نطاقين : نطاق دولى على مستوى القارة الأوروبية وبين دولها الكبرى ، وفى نطاق محلى داخل إيطاليا بين الدويلات الإيطالية .

الوضع الدولى فى أوروبا عند قيام الحرب الإيطالية :

كانت فرنسا وأسبانيا قد تطلعتا إلى إيطاليا لتحقيق هدفين هما : التوسع الإقليمى بالإستيلاء على ممتلكات جديدة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، ثم السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الأوروبية . وسعت الدولة الوطنية الحديثة ذات الحكومة المركزية التى تكونت فى كل من فرنسا وأسبانيا على تحقيق ذلك أنه كان لفرنسا بعض المزاعم يدعيها ملكها بخصوص وراثة عرش ميلان ونابولى ، وأنه كان لأسبانيا كذلك إدعاءات فى وراثة عرش نابولى ؛ كما أنها كانت تطمع فى إمتلاك ميلان لثروتها وغناها .

واختلفت مواقف الدول الأوروبية الأخرى من الحروب الإيطالية طبقاً للقدر الذى يمس مصالحها مباشرة ؛ فانجلترا كانت لا تزال تحتفظ منذ أيام حروب المائة

عام بثغر كاليه في الأراضي الفرنسية ، وكان ملكها هنري الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) يخشى ضياع كاليه إذا قويت فرنسا وتمكنت من إجلاء الإنجليز عنها. وكان هنري الثامن يبغي من التدخل في الحرب الإيطالية الحصول على زعامة سياسية لانجلترا بين الدول . أما الإمبراطور مكسمليان الأول (١٤٩٣ ـ ١٥٩١٩) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فكانت أملاكه في إقليم التيرول متاخمة لجمهورية البندقية ، ولذلك كان يخشى أن تتأثر مصالحه بأي تغيير سياسي يقع في شبه الجزيرة الإيطالية . وكان يخشى تفوق نفوذ جمهورية البندقية أو تسلط دولة كبرى على شبه الجزيرة الإيطالية . كما وجد أهل سويسره في الحرب مجالاً للعمل أمام أبنائها للإنخراط في الجيوش المحاربة كجنود مرتزقة . وكان السويسريون أشهر جنود مرتزقة في أوروبا ، وأصبحوا مضرب الأمثال في الشجاعة والإقدام وتحمل المصاعب والتمسك بالنظام ، مما جعل منهم قوة عسكرية ضاربة رهيبة نافست الدول المتحاربة في أوروبا على استخدامهم في جيوشها كجنود مرتزقة ، وأصبحوا أعظم المحاربين مقدرة وأشدهم بأساً على الإطلاق في أوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر . وأما بالنسبة للدويلات الإيطالية ، فلم تقف موقفاً سلبياً إزاء الصراع العنيف الذي خاضته الدولتان المتنافستان ، فقد انضمت بعض الدويلات إلى أسبانيا ، وانضم البعض الآخر إلى فرنسا .

وعندما بدأت الحروب الإيطالية مرت في دورين ، بدأ أولهما من سنة ١٤٩٤ وانتهى في عام ١٥١٥ ، وقد حاولت فرنسا في هذا الدور تحقيق إدعاءاتها في وراثة عرش كل من ملكة نابولي ، ودوقية ميلان ، فوقع الهجوم الفرنسي الأول على مملكة نابولي في عهد شارل الثامن ملك فرنسا ، ووقع الهجوم الثاني على دوقية ميلان في عهد الملك لويس الثاني عشر ، وقد اتخذت هذه الحرب شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً لها .

أمـا الـدور الثـانى فـقـد بـدأ فى عـام ١٥١٥ ، أى بارتقـاء فـرنسـوا الأول عـرش فـرنسـا ، وانتـهى فى عـام ١٥٥٩ بتـوقـيع مـعـاهدة كـاتو ـ كمبريسيـس (Cateau - Cambrésis) ، وقـد دار فيـه النزاع بين الأسـرتين الكبيـرتين اللتين تنازعتـا السيطرة والتـفـوق السيـاسـى فى أوروبا وهمـا أسـرة الهابسبرج Hapsburg النمسوية والتى اشتد بأسـهـا عندما انتخب شارل ملك أسبانيا امبراطوراً على الامبراطورية الرومـانية المقدسة عام ١٥١٩ ، وأسرة الڤالو Valois الفـرنسـية ذات الأطمـاع الواسعـة فى إيطاليـا . وحول هذا النزاع بين الهابسبرج والڤالو ، توزعت جميع الدول الأخرى ، تبعاً لمبدأ التوازن الدولى ، ولذلك انتـقلت الحروب الإيطاليـة ، فى هذا الدور ، من مـجـرد حـوادث مـحلية مسرحها إيطاليا ، إلى نضال أوروبى واسع النطاق فى ميادين متعددة

الدور الأول (١٤٩٤ ـ ١٥١٥) :

عندما تولى عرش فرنسا الملك شارل الثامن (١٤٨٣ ـ ١٤٩٨) بعد وفاة لويس الحادى عشر ، كانت الملكية الفرنسية قد وطدت دعائمها وسيطرت على موارد الدولة إلى حد فاق سيطرة أية دولة أخرى فى أوروبا على مواردها . وكانت لفرنسا قوات مسلحة تدين بالولاء العميق له ، كانت تحت تصرفه ، كما طورت فرنسا سلاح المدفعية الفرنسية أثناء الحروب التى خاضتها ضد انجلترا بحيث وصل هذا السلاح إلى درجة من الكفاية والقوة لم يبلغها أى جيش فى أوروبا فى ذلك الوقت .

وكـان شـارل ذا أطمـاع واسعة ، إذ أراد أن يقوم بأعمـال يبهر بها أعين معاصرية ويخلد ذكراه فى التاريخ مستغلاً فى ذلك قوة السلاح الرهيب الذى فى يده ، ونقصد بذلك سلاح المدفعية وتجاهل شـارل الثـامن مطالب السيـاسة الداخلية والخارجية ، واهتم بإيطاليا ، لأنه كان لها بريق فى نظره ؛ فهى أرض التاريخ القديم ، وهى البلاد التى شهدت مولد النهضة الأوروبية ، واعتقد أن

الإيطاليين سوف يرحبون به كمنقذ لهم من الاستبداد الذى يئنون منه ، وأن البلاد الإيطالية سوف تغمر خزائنه بالأموال والخيرات ، وسيكون فى استطاعته إعادة الحكم الجمهورى إلى فلورنسة وتخليص نابولى من نير الأسرة المالكة فيها.

وهكذا تكاتفت عدة عوامل لتجعل من المغامرة الإيطالية مشروعاً محبباً إلى شارل الثامن . بالإضافة إلى ذلك كان للأسرة الحاكمة فى فرنسا إدعاءات بخصوص وراثة العرش فى نابولى ووراثة العرش فى ميلان ؛ ولم تكن هذه الإدعاءات تقوم على أسانيد قوية ولكنها كانت سبباً دبلوماسيا وعسكرياً كافياً لأن يولى شارل الثامن وجهه شطر الجزيرة الإيطالية ، ولكى يستطيع العمل بحرية تامة فى إيطاليا ، فقد رأى من الأفضل عقد سلسلة من المعاهدات مع انجلترا وأسبانيا والدولة الرومانية المقدسة ، و سجل على نفسه فى هذه المعاهدات تنازلات مالية وإقليمية استرضاءاً لهذه الدول .

وقد سنحت الفرصة لملك فرنسا للتدخل العسكرى فى إيطاليا عندما تنازع على السلطة فى إيطاليا مغامر عسكرى له أطماع سياسية واسعة ، ويدعى لودڤيكو سفورزا Ludovico Sforza مع چان جاليازو Jean Galeazzo ، فاستنجد الأول بشارل الثامن ملك فرنسا . بينما استنجد الثانى بفرديناند الأول ملك نابولى. وأوفد لودوڤيكو سفورزا بعثة دبلوماسية إلى ملك فرنسا طلبت إليه ممارسة حقوقه على عرش مملكة نابولى . ولقد كانت هذه الإدعاءات تقوم على أساس أن شارل كونت مين وبروڤنس Main et Provence هو الوارث الشرعى لعرش نابولى ، وأنه قد تنازل فى عام ١٤٨١ عن حقه فى الوراثة إلى لويس الحادى عشر ملك فرنسا، وقد ورثها عن هذا الأخير ابنه شارل الثامن ملك فرنسا فى ذلك الوقت .

وشجعت الوعود التى قطعتها بعثة لودوڤيكو على نفسها شارل الثامن ، فقرر التدخل وزحف على إيطاليا عبر جبال الألب . وفى سبتمبر ١٤٩٤ ، نزل الجيش الفرنسى فى بيدمونت ، واجتاح الجيش الفرنسى فلورنسة وليڤورن وبيزا

دون أن يلقى مقاومة تذكر ، وأطاح بحكم أسرة ميدتشى ، وكان الحاكم وقتذاك هو بيير دى ميدتشى Pierre (Piero) de Medici ، وأعلن قيام النظام الجمهوى فى فلورنسة . وباشر الراهب الثائر سافونا رولا نشاطه الدينى فى ظلال الجمهورية كما أسلفنا . وواصل الجيش الفرنسى زحفه على العاصمة الإيطالية ، وفى ٣١ ديسمبر ١٤٩٤ دخل شارل مدينة روما ، ثم غادرها فى طريقه إلى نابولى التى دخلها فى ٢٢ فبراير عام ١٤٩٥ . هكذا أصبحت فرنسا سيدة الموقف فى شبه الجزيرة الإيطالية بعد هذه الحروب الخاطفة التى اعتبرها البعض نزهة حربية .

وأدت الانتصارات السريعة التى أحرزها شارل الثامن فى إيطاليا إلى قيام تحالف دولى ضد فرنسا . فتكتلت الولايات الإيطالية لكى تتخلص من السيطرة الفرنسية ، فكونت فى مارس عام ١٤٩٥ حلف البندقية league of Venice ، وكان أعضاء هذا الحلف هم البندقية وميلان والبابا اسكندر السادس ومكسمليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وفرديناند الثانى ، ملك أسبانيا ؛ ويلاحظ أن لودوڤيكو سفورزا حاكم ميلان ، الذى استنجد بملك فرنسا ، وشجعه على الزحف على إيطاليا ، قد انقلب عليه ، لأنه حدث أثناء الزحف الفرنسى أن توفى منافسه فى حكم الدوقية فجأة (جان جليازو) ، فخلا الجو أمامه ، وانتفت بذلك مبررات التدخل العسكرى الفرنسى . أما بالنسبة للإمبراطور مكسمليان ، فقد ساءه هذا الكسب السياسى والعسكرى الذى نالته فرنسا فى شبه الجزيرة الإيطالية . أما فرديناند الكاثوليكى فقد كانت له هو الآخر ادعاءات فى عرش نابولى .

علم شارل الثامن بهذه المحالفة ، وكان فى نابولى فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت مفاجأة أليمة له إذ أن مركزه أصبح فى غاية الحرج . وأدرك شارل أن الموقف يزداد خطورة وتعقيداً إذا مكث فى إيطاليا ، فقرر العودة إلى فرنسا ، وخرج

من نابولى فى ٢٠ مايو عام ١٤٩٥ . والتقى الجيش الفرنسى أثناء إنسحابه بجيش الحلف عند فورنوڤو Fornovo ، ولكنه تمكن من مواصلة الانسحاب إلى فرنسا . ولقد كانت هذه المعركة كسباً لاشك فيه للقضية الإيطالية ، لإنها خلصت البلاد من الاحتلال الفرنسى ، أو حالت على أقل تقدير دون جعل إيطاليا منطقة نفوذ فرنسى ، وأخليت نابولى والمراكز الأخرى من الحاميات الفرنسية . وعندما مات شارل فى أبريل ١٤٩٨ لم يكن لفرنسا شئ من المكاسب الإقليمية فى إيطاليا . أما حلف البندقية ، فقد تفككت عراه بعد أن حقق هدفه ، ولأن الخلافات بين الدول الأعضاء فى الحلف عادت أعنف ما تكون بعد خروج الفرنسيين من شبه الجزيرة الإيطالية .

وتولى عرش فرنسا بعد وفاة شارل ابن عمه لويس الثانى عشر (١٤٩٨ ـ ١٥١٥) ، وكانت يطلق عليه قبل توليه العرش دوق أورليان . وانتهج الملك الفرنسى الجديد نفس السياسة الخارجية التوسعية ، أى المضى فى تنفيذ المشروعات الإيطالية التى كان قد تبناها سلفه شارل الثامن . وكانت حملته الأولى على دوقية ميلان تحت ستار الإدعاء بأن له حقاً فى وراثة عرش هذه الدوقية ، إذ كان ينتمى من جهة جدته ڤالنتين ڤيسكونتى Valentine Visconti إلى أسرة ڤيسكونتى ، وكانت هذه الأسرة تحكم دوقية ميلان قبل أسرة سفورزا . وكانت الظروف الدولية مهيأة للتدخل العسكرى الفرنسى فى إيطاليا ؛ فالعلاقات كانت قد تدهورت بين جمهورية البندقية وبين لودوڤيكو سفورزا حاكم ميلان ، وانضمت البندقية إلى فرنسا ، وكذلك حدث تقارب بين البابا اسكندر وبين فرنسا تحول إلى اتفاق بينهما على المصالح . ونجح لويس الثانى عشر فى عقد اتفاق مع كل من انجلترا وفرنسا لتقفا على الحياد فى الصراع المرتقب ؛ كما عقد هدنة مع مكسمليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وبعد أن أتم لويس الثانى عشر هذه الإجراءات السياسية والعسكرية ، عبر

الجيش الفرنسي جبال الألب في أغسطس ١٤٩٩ ، واتجه نحو ميلان التي احتلها الجيش الفرنسي دون صعوبة تذكر ، واستخلصوها من دوقيكو سفورزا الذى وقع أسيراً فى أيدى الفرنسيين ، وتمكنت فرنسا باستيلائها على دوقية ميلان من السيطرة على شمالى إيطاليا . ولكن ما لبث أن تحول لويس الثانى عشر بأطماعه إلى مملكة نابولى ، يبغى ضمها إليه حتى تستكمل فرنسا سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية ، شماليها وجنوبيها . ولكن الطريق إلى مملكة نابولى لم يكن معبداً ، فقد وجد أن فرديناند الكاثوليكى ، ملك أسبانيا ، يريد الاستيلاء عليها لنفس الأسباب التى يتذرع بها لويس الثانى عشر ، وهى أن له الحق فى وراثة عرش نابولى .

غير أن ملكى فرنسا وأسبانيا تجنبا الصراع الحربى ، وعقدا معاهدة سرية تحت رعاية البابا اسكندر السادس وتسمى معاهدة غرناطة Grenada فى نوفمبر عام ١٥٠٠ ، واتفقا فى هذه المعاهدة على إرسال حملة عسكرية مشتركة لغزو مملكة نابولى واقتسامها بعد النصر عليها ؛ كما اتفقا على أن يتخذ ملك فرنسا لنفسه أيضاً لقب ملك نابولى وأن يتخذ فرديناند ، ملك أسبانيا ، لنفسه لقب الدوق الكبير .

ولم تستطع نابولى مقاومة الغزو العسكرى ، فعندما بدأ الفرنسيون هجومهم تساقطت تباعاً مدن مملكة نابولى ، بما فيها العاصمة ، ووقع ملك نابولى فى الأسر ، وتنازل عن جميع حقوقه للويس الثانى عشر ملك فرنسا . ولما انتهت العمليات العسكرية بانتصار فرنسا وأسبانيا ، تصادمت مصالح هاتين الدولتين السارقتين ، واشتعلت الحرب بينهما ، وهكذا تحول حلفاء الأمس إلى خصوم ألداء . ومنى الفرنسيون بهزائم متعاقبة ، وطردوا من نابولى التى انفرد الأسبان بالاستيلاء عليها . واعترف الفرنسيون فى مارس عام ١٥٠٤ بامتلاك الأسبان لنابولى ، وعندئذ بات الفرنسيون لا يملكون فى إيطاليا غير ميلان وحدها .

غير أن الموقف السياسى تغير بعد ذلك بصورة أدت فى النهاية إلى ضياع ميلان ذاتها من الفرنسيين . فبعد وفاة البابا اسكندر السادس ، اعتلى كرسى البابوية فى أول نوفمبر ١٥٠٣ بابا طموح هو يوليوس الثانى Julius II (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) ، ترك بصماته قوية سواء فى إيطاليا أو فى الحياة السياسية الدولية ؛ فأراد هذا البابا أن يقوم بدور إيجابى فى الحياة السياسية فى إيطاليا ، وكان من نتائج محاولته أن تزاحمت على إيطاليا المحن والكوارث . وكان يوليوس الثانى من أصل جنوى ، ومن المعروف أن جنوه كانت من الدويلات الإيطالية التى نافست البندقية فى ميدان التجارة الشرقية منافسة قوية ، ولذلك كان البابا يشعر نحو جمهورية البندقية بحقد دفين فى نفسه ، ورأى أنها بسطت سلطانها على أراض فى شبه الجزيرة الإيطالية كانت فى يوم ما ضمن الممتلكات البابوية . وكان هذا البابا حريصاً غاية الحرص على أن يزيد من رقعة مساحة الولايات البابوية ، كما أن حكومة جمهورية البندقية كانت تمارس فى إدارة شئون كنيستها سلطات استقلالية دون الرجوع إلى كنيسة روما ، وهو أمر كان يتعارض مع السياسة العليا للبابوية على عهد يوليوس الثانى . ولهذه الأسباب أخذ يوليوس الثانى منذ وصوله إلى كرسى البابوية يعمل لتأليف محالفة ضد البندقية. وفى ديسمبر عام ١٥٠٨ تألفت ضد جمهورية البندقية محالفة كمبراى League of Cambrai من البابا وفرديناند الكاثوليكى ، والامبراطور مكسمليان ، ولويس الثانى عشر ، ملك فرنسا ، وبعض الدويلات الإيطالية ، وبقيت فلورنسة على الحياد .

ولقد لقيت سياسة البابا يوليوس الثانى استجابة من معظم الدول الأوروبية لأنها كانت لها أطماع فى البندقية . فبالنسبة للويس الثانى عشر ، ملك فرنسا ، كانت البندقية حلماً جميلاً يراود خياله ، ورأى فى السيطرة عليها تعويضاً عن الخسارة التى لحقت به فى مملكة نابولى . أما مكسمليان الأول ، امبراطور الدولة

الرومانية المقدسة ، فقد رأى أن البندقية قد مدت أملاكها فى القارة الأوروبية أكثر من اللازم ، وأنها وضعت يدها على أراض كانت أصلاً تتبع الدولة الرومانية المقدسة . وانضمت فلورنسة مؤخراً إلى هذا التحالف لحقدها على البندقية ؛ فلقد كان لفلورنسة نشاط واسع ومتعدد فى عالم المال ودنيا الاقتصاد ، واشتهر أبناؤها ببراعتهم فى الأعمال المصرفية ، ووجدوا منافسة عنيفة من البندقية فى المواطن التى امتد إليها نشاطهم ونفوذهم مثل الأراضى المنخفضة ومنطقة البحر الأسود .

وكانت فرنسا أولى الدول الأعضاء فى هذا الحلف استعداداً للدخول فى الحرب ، فأرسلت جيشاً كبيراً تمكن من أن يوقع هزيمة ساحقة بجيش البندقية فى معركة أجنادلو Agnadello فى مايو عام ١٥٠٩ ، وحاولت البندقية عقد الصلح ، ولكن رفض كل من البابا وملك فرنسا وامباطور الدولة الرومانية المقدسة الاستجابة إلى هذا الطلب . ولكن الحظ وقف بجانب البندقية فقد أنقذها من الفناء وقوع الخلاف بين الحلفاء بعد انتصارهم ، ثم تحول البابا عن خطته بعد أن أدرك خطأ السياسة التى انساق إليها حين دعا دولاً أجنبية لغزو الأراضى الإيطالية . كما وجد أنه نجح فى تحقيق أهدافه من حلف كمبراى إذ استولى على المواقع والمناطق التى أراد أن يجعل منها مراكز أمامية للدفاع عن ممتلكات البابوية ؛ فأصبح الاستمرار فى الحرب بالنسبة له ضد جمهورية البندقية غير ذى موضوع ، وأدرك أن بقاء جمهورية البندقية بأسطولها البحرى المتفوق يعتبر بمثابة درع يحمى المسيحيين وإيطاليا وبقية أوروبا من خطر الأتراك العثمانيين . كما أن موقع البندقية الذى يتيح لها السيطرة على معظم المداخل الشمالية لإيطاليا من وسط أوروبا يجعل منها مركزاً استراتيجياً هاماً يحمى شبه الجزيرة الإيطالية من الغزو الفرنسى أو الألمانى . وكانت ميلان ، وهى على مقربة من البندقية ، مطمح أنظار ملكى فرنسا وأسبانيا ، يريد الأول تثبيت دعائم الحكم الفرنسى فى ربوعها ، ويبغى الثانى الاستئثار بها دون الفرنسيين . ورأى البابا ضرورة الإبقاء على

البندقية، وقال في هذا الصدد : إذا لم تكن البندقية قد وجدت على وجه الأرض فيجب بناء بندقية أخرى . ولكل هذه الأسباب ، عقد البابا صلحاً منفرداً مع البندقية في أبريل عام ١٥١٠ ، وبذلك انفرط عقد محالفة كمبراى .

وقد أثار هذا التحول غضب مكسمليان الأول ، امبراطور الدولة الورمانية المقدسة ، ولويس الثانى عشر ، ملك فرنسا ، اللذين اعتبرا هذا التصرف من جانب البابا لوناً من ألوان الغدر والتخلى عن القضية التى حاربا من أجلها . وقرر الامبراطور والملك المضى فى الحرب . وقد رد البابا عليهما بإعلان عزمه على طرد هؤلاء المتبربرين من إيطاليا ، وظهر البابا أمام الإيطاليين بطلاً من أبطال القومية الإيطالية . ووقفت إلى جانبه فى هذه المرحلة البندقية وأسبانيا . ولكن لويس الثانى عشر استدعى الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما ، وبدا فى الأفق بوادر انقسام دينى خطير يتهدد كنيسة روما . وفى ١٠ أكتوبر ١٥١٠ ، قامت الجيوش الفرنسية بمحاصرة البابا فى مدينة بولونا فى شمال إيطاليا حيث كان يقيم . ولكى يتخلص من هذا الموقف الحرج ، طلب الصلح كسباً للوقت ، وتراجعت الجيوش الفرنسية دون أن تخوض المعركة . ولكن الهجوم الفرنسى استؤنف مرة أخرى فى مايو عام ١٥١١ ، واضطر البابا إلى التقهقر إلى روما أمام الفرنسيين ، وأخطأ الفرنسيون عندما توقفوا عن مطاردته إلى روما ، واتخذوا بدلاً من ذلك تدبيراً آخر ، هو دعوة مجلس من الكرادلة فى بيزا ليعلن عزل يوليوس الثانى من البابوية .

ووجه الخطأ فى ذلك أن هذه الحركة الإنفصالية فى الكنيسة ساعدت على تقوية مركز يوليوس، بدلاً من إضعافه ، وقد استطاع البابا أن يستميل إليه الأعوان ليعقد محالفة جديدة موجهة ضد فرنسا هذه المرة . وبذلك أذاع البابا فى ٥ أكتوبر عام ١٥١١ نبأ تكوين ما أطلق عليه اسم الحلف المقدس The Holy League ، وتكون من فرديناند الكاثوليكى ، ملك أسبانيا ، وهنرى الثامن ، ملك

انجلترا ، وجمهورية البندقية والقوات السويسرية المرتزقة ، ثم انضم إلى الحلف بعد قليل الإمبراطور مكسمليان الأول .

وتلخصت أهداف هذا الحلف فى المحافظة على سيادة الكنيسة والقضاء على الحركة الإنفصالية التى أوجدها مجلس الكرادلة فى بيزا ، وإستيلاء البابا على الأقاليم والمدن التى يطمع فى إمتلاكها أو فى استرجاعها (مثل بولونا وفرارا) ، واستيلاء ملك أسبانيا على إقليم نافار حتى تستكمل أسبانيا حدودها الطبيعية من ناحية جبال البرانس ، ثم طرد الفرنسيين من شبه جزيرة إيطاليا كلها إلى ما وراء جبال الألب تطبيقاً لمبدأ التوازن الدولى . ونُصَّ فى قرار إنشاء الحلف ضد فرنسا على الإجراءات التنفيذية التالية :

أولاً : يقوم ملك أسبانيا بمهاجمة فرنسا فى جبهتين : شمال إيطاليا وفى إقليم نافار ، فى أقصى الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا ، وبذلك يضطر لويس الثانى عشر ، ملك فرنسا إلى تشتيت قواته المسلحة .

ثانياً : يتكون جيش الحلف المقدس من ٣٦ ألف مقاتل .

ثالثاً : يدفع البابا ودوق البندقية كل شهر عشرين ألف قطعة من العملة الذهبية المسماة دوقا Ducats لمساندة المجهود الحربى .

رابعاً : تقديم جمهورية البندقية أربع عشرة سفينة ، وتقدم أسبانيا اثنتى عشر قطعة من أسطولها البحرى .

خامساً : يتولى القيادة العامة لقوات الحلف المقدس نائب ملك أسبانيا فى نابولى واسمه ريموند دى كاردونا Raymond de Cardona

ونجح الحلف المقدس فى تحقيق أغراضه ، فأخلى الفرنسيون ميلان (ما عدا قلعتها) ، وتساقطت أملاك فرنسا فى شمال إيطاليا ، وعبرت فلول الجيش الفرنسى جبال الألب فى طريق عودتها إلى فرنسا . واستولى

الأسبـان على نافار (١٥١٢) . وإذا كان يوليوس الثانى قد نجح فى طرد القوات الفرنسية من شمال إيطاليا ، فقد ظل فى شبه الجزيرة الإيطالية جنود سويسريون وأسبان وجنود ألمان تابعون للإمبراطور . ولقد لفت أحد الكرادلة نظر البابا إلى إكتظاظ إيطاليا بالجنود الأجانب ، فثارت ثائرته على هذه الملاحظة وقال أنه سوف يطرد الأسبان من نابولى . ولعله كان يفكر فى عقد أحلاف جديدة وتفجير حروب جديدة ، ولكن الموت كان أقرب إليه من هذه المشروعات ، فتوفى فى ٢١ فبراير عام ١٥١٣ .

وكانت المشكلة التى واجهها البابا الجديد ليو العاشر Leo X (١٥١٣ ـ ١٥٢١) هى تحديد موقفه من فرنسا وأسبانيا . وكان التزام الحياد بين هذين المعسكرين أمراً متعذراً ؛ فالأسبان وطدوا أقدامهم فى جنوب إيطاليا وشمالها ، وكانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو دوقية ميلان تريد إسترجاعها لنفسها . وعلى أية حال ، كانت تصرفات لويس الثانى عشر ملك فرنسا هى التى حددت للبابا الجديد الخط الذى يسير فيه ؛ فقد عقد ملك فرنسا فى مارس ١٥١٣ حلف بلوا League of Blois مع جمهورية البندقية تقرر فيه قيام تحالف عسكرى يستهدف التوسع الإقليمى للدولتين معاً فى شبه الجزيرة الإيطالية ، فتسترد فرنسا سهل لمبارديا ، وتستعيد البندقية ممتلكاتها القديمة التى كانت لها فى القارة الأوروبية . ورد البابا على هذا الحلف بحلف مضاد عقده فى نفس السنة وهو حلف مالين Malines ، وتكون من الولايات البابوية ومكسمليان الأول وفرديناند ، ملك أسبانيا ، وهنرى الثامن ، ملك انجلترا . وكان هذا الحلف موجهاً ضد فرنسا ، وسرعان ما اشتعلت الحرب فى مايو عام ١٥١٣

زحفت فرنسا والبندقية على شمال إيطاليا متجهة نحو ميلان ، ولكن الجيش الفرنسى لقى فى يونيو ١٥١٣ هزيمة منكرة على مقربة من مدينة نوفار Novare على يد جيش من الجنود السويسريين ، وانسحب الجيش الفرنسى عائداً إلى فرنسا . أما جيش البندقية قد تقهقر إلى مدينة بادوا ، وظلت البندقية

تكافح سنة كاملة قوات الامبراطور . وفى نفس الوقت ، كانت فرنسا تلقى هزائم أخرى على أرضها على يد الانجليز فى إقليم نورماندى فى شمال فرنسا ؛ ولكن عندما فشل الفرنسيون فى استرجاع ميلان ، عقد لويس الثانى عشر صلحاً مع البابا الجديد ليو العاشر ، ثم مع أسبانيا والإمبراطور ، وأخيراً مع ملك انجلترا فى أغسطس ١٥١٤ . وقد تقرر فى هذا الصلح الأخير أن يتزوج لويس الثانى عشر الأميرة مارى ، الأخت الصغرى لملك انجلترا ، لتغدوا ملكة على فرنسا . ولم ينعم لويس بهذا الزواج أكثر من ثلاثة أشهر ، إذ توفى فى الأول من يناير عام ١٥١٥ .

وبوفاة لويس الثانى عشر ينتهى الدور الأول فى الحروب الإيطالية الذى يمكن تحديد نتائجه على النحو التالى :

أولاً : أخفقت فرنسا فى سياسة التوسع الإقليمى فى إيطاليا ، فهى لم تفشل فى بسط سيطرتها على إيطاليا فحسب ، بل خرجت هى نفسها من شبه الجزيرة الإيطالية .

ثانياً : نالت أسبانيا أقاليم ذات مواقع استراتيجية هى نابولى ، واقتسمت ميلان مع السويسريين ، كما أنها أغارت على نافار الواقعة على حدودها الشمالية .

ثالثاً : امتلكت البابوية إقليم رومانا ولم تلبث أن حققت نصراً سياسياً حين عادت أسرة ميدتشى مرة أخرى إلى الحكم فى فلورنسة ، وكان البابا ليو العاشر ينتمى إلى هذه الأسرة ، فظفر بالسيطرة على فلورنسة التى قطعت علاقاتها مع فرنسا .

الدور الثانى من الصراع بين فرنسا وأسبانيا (١٥١٥ - ١٥٥٩) :

استغرق الدور الثانى من أدوار الحرب أربعة وأربعين عاماً ، ولذلك سنقسمه إلى أربعة مراحل حتى يمكن تتبع أحداثها .

المرحلة الأولى :

وتبدأ بارتقاء فرنسوا الأول عرش فرنسا عام ١٥١٥ حتى انتخاب شارل الأول ، ملك أسبانيا ، امبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس عام ١٥١٩ . اعتلى فرنسوا الأول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) عرش فرنسا فى عام ١٥١٥ بعد وفاة لويس الثانى عشر ، وكان من أسرة ڤالوا ـ أورليان ، أى الفرع الأصغر لأسرة ڤالوا ، وتذرع بحقوق له موروثة فى دوقية ميلان ، ولم يجد له فى هذه المغامرة الإيطالية من حليف سوى جمهورية البندقية ، بينما تحالفت ضده الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا والبابوية ، واستخدم هؤلاء الحلفاء الجنود السويسريين المرتزقة . ولكن فرنسوا انتصر على الحلفاء فى موقعة مارينانو Marignano بالقرب من ميلان فى ١٣ سبتمبر عام ١٥١٥ ، ولقد أسفرت هذه المعركة عن عدة نتائج هامة تتلخص فيما يلى :

١ ـ اتفاق بولونا Le Concordat de Bologne :

عقد فرنسوا الأول مع البابا ليو العاشر اتفاقاً فى أغسطس عام ١٥١٦ ، وبمقتضاه تعهدت فرنسا بدفع الأموال الكنسية إلى البابا ، إذ كانت فرنسا قد توقفت عن دفعها منذ عام ١٤٣٨ ؛ كما تقرر فى هذا الإتفاق تخويل ملوك فرنسا الحق فى تعيين رجال الدين فى المناصب الكنسية العليا فى فرنسا . وقد عاد هذا الإتفاق بالنفع على الجانبين ، فقد حصلت البابوية على مورد مالى ضخم كانت محرومة منه طيلة قرن من الزمان تقريباً ، وفى نفس الوقت إزداد نفوذ الملكية الفرنسية . وظل الإتفاق معمولاً به إلى نهاية القرن الثامن عشر ، أى إلى قيام الثورة الفرنسية .

٢ ـ أعجب السويسريون بشجاعة فرنسوا وعقدوا معه معاهدتين فى عام ١٥١٥ و عام ١٥١٦ ، تعهدا فيهما السويسريون بألا يشتركوا فى أى حرب ضد

ملك فرنسا فى مملكته ، أو فى ميلان أو فى إقليم آخر تابع له . ودفع لهم ملك فرنس النفقات التى تكبدها الجنود السويسريون فى هذه الحرب .

٣ ـ حقق فرنسوا الأول تفوقاً ونفوذاً فى شمال إيطاليا ، فقد عقد فى أغسطس عام ١٥١٦ معاهدات مع الإمبراطور مكسمليان الأول ومع البندقية كفلت له الاحتفاظ بميلان وجنوه ،وأصبحت له سيطرة تامة فى إقليم لمبارديا فى شمال إيطاليا . وفى أعقاب هذه الإتفاقات أبرم فى ١٣ أغسطس ١٥١٦ معاهدة نويون (Noyon) مع شارل ، أرشيدوق النمسا ووارث عرش أسبانيا منذ وفاة مليكها فرديناند الكاثوليكى . وقد جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية ، وأن يكون صداق هذا الزواج الجزء الخاص من مملكة نابولى الذى يدعيه فرنسوا الأول لنفسه .

ولكن لم تمض سنوات على هذا الهدوء الذى ساد العلاقات بين فرنسا وأسبانيا بعد موقعة مارينانو حتى وقع حادث هام أدى إلى تصعيد الصراع بين هاتين الدولتين ، إذ شغر منصب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة بوفاة الإمبراطور مكسمليان الأول فى ١٢ يناير عام ١٥١٩ . وكان هذا المنصب يشغل بطريق الانتخاب لا الوراثة ، وكانت عملية انتخاب الإمبراطور مقصورة على سبعة من حكام المقاطعات الألمانية الهامة أطلق عليهم اسم « الناخبين » Electors، وجرى العرف على أن يكون الإمبراطور الذى يشغل هذا المنصب من أصل جرمانى أصيل ، غير أنه ظهر اتجاه جديد يقول أنه لا يوجد أساس قانونى أو دستورى يجعل هذا المنصب مقصوراً على الجنس الجرمانى ، بحيث تستبعد من الترشيح لهذا المنصب الخطير العناصر أو الأجناس الأخرى . وتمشياً مع هذا الاتجاه ، رشح فرنسوا الأول نفسه لمنصب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ونافسه فى هذا الترشيح شارل الأول ملك أسبانيا، وكان قد تولى عرشها عام ١٥١٦ . كما زج هنرى الثامن بنفسه فى معركة الانتخابات ، ولكنه آثر بعد قليل الانسحاب منها ،

وأصبحت المنافسة محصورة بين شارل الأول ، ملك أسبانيا ، وبين فرنسوا الأول ، ملك فرنسا .

وبذل الملكان المتنافسان الوعود للناخبين السبعة ، وتأرجح موقف بعضهم بين ملك فرنسا وملك أسبانيا إزاء إغراء المال والمطامع السياسية . وعلى أية حال ، اجتمع المجلس الإمبراطورى ، أو الدايت (Diet)، فى فرانكفورت فى يونيو عام ١٥١٩ ، وتغلبت الوطنية الألمانية على الناخبين السبعة ؛ فانتخبوا بالإجماع فى ٢٨ يونيو من نفس العام كبير أسرة الهابسبرج النمساوية وهو شارل الأول ، ملك أسبانيا ، إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، وأطلق على نفسه اسم الإمبراطور شارل الخامس .

المرحلة الثانية :

يأخذ الصراع فى هذه المرحلة (١٥١٩ ـ ١٥٢٩) مظهر النضال بين أسرة الهابسبرج ممثلة فى إمبراطور الدولة الرومانية وبين فرنسا . ورأت فرنسا أن انتخاب شارل ، ملك أسبانيا إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة قد أتاح لأسبانيا سيادة عابرة فى العالم فى أوائل العصر الحديث ؛ كما أنها اعتبرت ذلك إخلالاً خطيراً بمبدأ التوازن الدولى ؛ إذ أصبح شارل الخامس يحكم أكثر من نصف أوروبا الغربية عدا الممتلكات الشاسعة فى العالم الجديد ، وغدا قوة رهيبة تتهدد فرنسا ؛ لأن أملاك الإمبراطور أصبح تحيط بفرنسا من كل جانب ، فضلاً عن تنافس هذين العاهلين على أملاك برجنديا (وهى دوقية تقع شرق فرنسا وعاصمتها ديجون Dijon) ، وتسابقهما على دوقية ميلان .

ونتيجة لذلك تحولت أنظار العاهلين إلى هنرى الثامن ، ملك انجلترا ، وأخذ كل منهما يسعى لضمه إلى جانبه فى الصراع المرتقب . وانتهز الإمبراطور شارل الخامس فرصة سفره بحراً من أسبانيا إلى الأراضى المنخفضة ليتسلم التاج

الإمبراطورى فى مدينة أكس لاشابل ، فتوقف فى ميناء دوفر حيث أجرى مفاوضات مع الملك هنرى الثامن ، وتمكن الإمبراطور من استمالته إلى جانبه نظير بعض العروض الإقليمية المغرية ؛ فعرض الإمبراطور على ملك انجلترا الانضمام إليه فى مقابل استيلائه على نورماندیا وبيكارديا فى شمال فرنسا . كما سارع ملك فرنسا ، من ناحية أخرى ، إلى إجراء إتصالات تمهيدية مع ملك انجلترا لضمه إلى صفه ، ولكن ملك انجلترا رفض أن يرتبط بوعد صريح بقيام تعاون عسكرى بين البلدين فى ذلك الوقت .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين شارل الخامس وفرنسوا الأول فى عام ١٥٢١ ، ودفعت فرنسا بجيشها إلى شمال إيطاليا وكان يضم جنوداً مرتزقة سويسريين ، ولكن هذا الجيش اضطر إلى إخلاء ميلان نتيجة لعنف هجوم القوات الإمبراطورية ، وأبيد الجيش الفرنسى على مقربة من ميلان فى ٢٧ أبريل عام ١٥٢٢ . وبعد هذه الهزيمة أعلنت إنجلترا فى ٢٩ مايو ١٥٢٢ انضمامها إلى جانب الإمبراطور . وفى تلك الفترة أيضاً عقد الإمبراطور إتفاقاً مع الكونستابل شارل دوق بوربون ، قائد عام الجيش الفرنسى ، وأحد النبلاء الإقطاعيين الثائرين بتحريك ثورة فى فرنسا للإطاحة بحكم فرنسوا الأول فى الوقت الذى يهاجم فيه شارل الخامس وهنرى الثامن ، ملك انجلترا ، الأراضى الفرنسية .ونص الإتفاق أيضاً على أن يستولى هنرى الثامن ، ملك انجلترا ، على مقاطعات معينة فى فرنسا ثم يتوج فى باريس ، كما يسترد الكونستابل الأراضى التى انتزعت منه ، ويضيف إليها أراض جديدة تكون هذه وتلك نواة لإنشاء مملكة مستقلة فى جنوب فرنسا تشمل بصفة مبدئية مقاطعتى بروفانس Provenceودوفينيه Dauphiné.

وأعد فرنسوا الأول خطة لمهاجمة إيطاليا والزحف على ميلان غير أنه تلقى هزيمة كبيرة فى بافيا فى ٢٤ فبراير عام ١٥٢٥ ، والتى تعتبر أشهر معركة فى تاريخ أوروبا فى القرن السادس عشر . كما أن نتائج المعركة كانت بمثابة كارثة

قومية نزلت بفرنسا ، إذ وقع الملك فرنسوا فى الأسر ، وأرسل إلى أسبانيا حيث أرغم هناك على توقيع معاهدة مدريد فى ١٤ يناير ١٥٢٦ . وقد جاءت الصياغة القانونية للمعاهدة فى خمسين مادة ، على أننا نوجز هنا أهم ما جاء فيها على النحو التالى :

أولاً : يتنازل فرنسوا الأول عن أراض فرنسية واسعة فى شرق فرنسا هى دوقية برجنديا (وهى غير مقاطعة كومتيه برجنديا أو فرانش كومتيه) .

ثانياً : يتنازل فرنسوا الأول عن كل إدعاءاته على ميلان وجنوه ونابولى وفلندرا وأرتوا .

ثالثاً : يتعهد فرنسوا الأول بعدم مساعدة نافار .

رابعاً : يسترد الكونستابل شارل دوق بوربون جميع الأراضى التى صادرها منه ملك فرنسا .

خامساً : يقدم فرنسوا الأول ولديه ، وهما ولى عهده والإبن الثانى هنرى ، الذى تولى عرش فرنسا فيما بعد باسم هنرى الثانى ، ليقيما فى أسبانيا كرهينة أو كضمان لتنفيذ أحكام المعاهدة تنفيذاً سليماً .

سادساً : يتعهد فرنسوا الأول فى حالة عدم تنفيذ المعاهدة بأن يسلم نفسه فوراً للسلطات الإمبراطورية تمهيداً لإعادته للأسر .

سابعاً : يتزوج فرنسوا الأول شقيقة شارل الكبرى إليانور .

ثامناً : يتم تنفيذ المعاهدة فى خلال ستة أسابيع ، وبذلك أطلق سراح الملك فعاد إلى فرنسا فى مارس ١٥٢٦ .

وهكذا أعطت معركة بافيا ومعاهدة مدريد للإمبراطور تفوقاً سياسياً واسعاً لم تشهد له أوروبا مثيلاً منذ أيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وقد قضى ذلك

الموقف على مبدأ التوازن الدولى فى أءوروبا ، وجعل حلفاء الإمبراطور يعيدون النظر فى موقفهم من الإمبراطور نفسه . ومن ناحية أخرى ، ضج حكام الإمارات الإيطالية من الإجراءات الاستبدادية التى كان يلجأ إليها قادة الجيش الإمبراطورى، كما ثار السكان فى كل أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية بسبب الجرائم المنكرة التى كان يرتكبها فى وضح النهار جنود الإمبراطور . وعمل أيضاً على زيادة هذا السخط البابا كلمنت السابع Clement VII (١٥٢٣ ـ ١٥٣٤) وكان شديد الرغبة فى دعم قبضته على الولايات الإيطالية ، وفى تطهير شبه الجزيرة ، وإعادة التوازن الدولى فى غرب أوروبا ، ولهذا وقع حكام الإمارات الإيطالية فى ٢٣ مايو ١٥٢٦ حلف كونياك League of Cognac ، لتخليص إيطاليا من نفوذ الإمبراطور ، ووقفت إلى جانب البابا البندقية وفلورنسة وأسرة سفورزا فى ميلان وسائر الإمارات الإيطالية الأخرى . وقد انضمت فرنسا وانجلترا إلى هذا الحلف .

وتجدد الصدام المسلح ، ولكن أثناء ذلك ثار جنود شارل بسبب تأخر مرتباتهم ؛ فنهبوا روما فى مايو ١٥٢٧ ، وحاصروا البابا فى حصن سان أنجلو . ومع أن فرنسوا الأول أحرز بعض الانتصارات ، وأمكنه تخليص البابا من الأسر ، إلا أنه هزم فى النهاية فى موقعة لاندريانو Landriano شمالى فرنسا فى ٢١ يونيو ١٥٢٩ ، واضطر إلى عقد الصلح مع الإمبراطور شارل الخامس فى كمبراى فى ٣ أغسطس ١٥٢٩ . ولقد أطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم سلم السيدات ذلك لأن المفاوضات دارت فى مدينة كمبراى تولتها عن الجانب الفرنسى الملكة الوالدة لويز Louise ، وعن الجانب الإمبراطورى مارجريت النمساوية ، عمة الإمبراطور شارل الخامس وحاكمة الأراضى المنخفضة . ولقد إطاحت هذه المعاهدة بمبادئ هامة جاءت فى معاهدة مدريد ، وكان من أهم ما جاء فيها :

١ ـ يتخلى الإمبراطور شارل الخامس عن إدعاءاته فى برجنديا ، وتحتفظ فرنسا لنفسها بهذا الإقليم مما يعتبر نقضاً صارخاً لمعاهدة مدريد .

٢ ـ يتخلى الملك فرنسوا الأول عن إدعاءاته فى إيطاليا ، وعن حقوقه الإقطاعية فى أرتوا وفلندرا ، وأن تكف فرنسا عن التفكير فى أية محاولة لاسترداد مدينتى ليل ودوويه (Douai) .

٣ ـ يطلق الإمبراطور سراح الأميرين الفرنسيين من الاعتقال فى مقابل دية كبيرة بلغت مليونى قطعة ذهبية من فئة الكورونا .

٤ ـ يتزوج الملك فرنسوا الأول إليانور أرملة ملك البرتغال وشقيقة الإمبراطور .

وعلى أية حال يعتبر صلح كمبراى كسباً للإمبراطور شارل الخامس ، فقد حقق أهدافه فى غرب الراين وجنوب الألب ، وأصبحت له السيطرة على إيطاليا . كما سادت العلاقات الودية بين الإمبراطور شارل الخامس والبابا كلمنت ، الذى قام بتتويج الإمبراطور شارل الخامس فى مدينة بولونا فى شمال إيطاليا . وتفرغ الإمبراطور ، أيضاً ، لتدبير شئون أسرته ، فرشح أخاه فرديناند خلفاً له على عرش الإمبراطورية ، كما عين ابنه فيليب خلفاً له على عرش أسبانيا ومستعمراتها فى العالم الجديد .

المرحلة الثالثة :

وتشمل هذه المرحلة الصراع بين أسرتى الڤالوا والهابسبرج خلال السنوات الأخيرة من حكم فرنسوا الأول (١٥٣٠ ـ ١٥٤٧) . لقد كان من أهم المظاهر التى طرأت على السياسة الدولية بعد صلح كمبراى ظهور الإمبراطور شارل الخامس على مسرح السياسة الأوروبية بمظهر الإمبراطور فقط ؛ فقد ترك جانباً ، وبصفة مؤقتة ، المنافسات القديمة التى كانت بين أسبانيا وفرنسا ، وصرف جهوده لإعادة الوحدة الدينية إلى أجزاء الإمبراطورية بالقضاء على المذاهب الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكى ، والمحافظة على حقوق ونفوذ ومصالح أسرة الهابسبرج فى

كل من ألمانيا وإيطاليا . وقد تمثلت المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهها الإمبراطور فى تفاقم حركة الإصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى ألمانيا ، وفى إزدياد خطر الأتراك العثمانيين سواء فى القارة الأوروبية أو حوض البحر المتوسط ، وفى إغارة سكان شمال أفريقيا ، الذين جمعوا صفوفهم تحت إمرة خير الدين بربوسة ، على شواطئ أسبانيا ونابولى .

ومن ناحية أخرى ، لم يؤد صلح كمبراى إلى إيجاد تسوية سياسية دائمة للعلاقات بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبين فرنسا . فلم يقبل فرنسوا الأول أن يتنازل عن كل ادعاءاته فى إيطاليا بوجه عام وفى دوقية ميلان بوجه خاص ، بل إنه عقد قران ابنه الأمير هنرى فى عام ١٥٣٣ على كاترين دى ميدتشى ، وهى إيطالية ، ولها أطماع سياسية بعيدة ، واعتبرت هذه الزيجة بمثابة ضربة سياسية موجهة إلى شارل الخامس فى إيطاليا ، لأنها تؤدى إلى تدعيم النفوذ الفرنسى فى إيطاليا ، وبخاصة أن العروس كانت من أسرة البابا كلمنت السابع . ومما أدى إلى تصعيد الموقف بين الإمبراطور وملك فرنسا أن الأخير فقد ابنه الأكبر وولى عهده عام ١٥٣٦ ؛ فانتقلت ولاية العهد إلى الإبن الثانى الأمير هنرى ، زوج كاترين دى ميدتشى . ولذلك كانت معاهدة كمبراى أقرب ما تكون إلى هدنة مؤقتة ؛ فتجدد الصراع بين الإمبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الأول على أثر وفاة فرنشيسكو سفورزا دوق ميلان فى نوفمبر عام ١٥٣٥ ، وادعى كل منهما أن له الحق فى هذه الدوقية . وقامت بينهما الحرب ، ولكن عقد الطرفان فى ١٨ يونيو عام ١٥٣٨ هدنة فى نيس Nice لمدة عشر سنوات غير أنه لم يمر أربع سنوات على هذه الهدنة حتى استؤنف القتال من أجل دوقية ميلان أيضاً ، وذلك عندما أعطى شارل الخامس هذه الدوقية لإبنه فيليب فى عام ١٥٤٢ .

ومع أن الفرنسيين أحرزوا فى بادئ الأمر بعض الانتصارات العسكرية مثل معركة سيريزول Cerisoles فى بيدمونت فى ١٤ أبريل عام ١٥٤٤ ، فقد تقدمت

جيوش الإمبراطور وحليفه هنرى الثامن ، ملك انجلترا ، في لكسمبورج ، على حدود فرنسا الشرقية وهى من ممتلكات شارل الخامس ، وزحفت على الأراضى الفرنسية حتى اقتربت من باريس . وهنا رأى شارل الخامس أن يعقد صلحاً مع فرنسوا ، لأنه لم يكن مطمئناً لحليفه هنرى الثامن ، وبسبب مشاغله الدينية فى ألمانيا كذلك . وفى ١٨ سبتمبر عام ١٥٤٤ أسفرت مفاوضات الصلح عن عقد معاهدة كرسبى Crespy التى اشتملت على ما يلى :

١ ـ تترك فرنسا بيدمونت وسافوى .

٢ ـ يتنازل الإمبراطور شارل الخامس عن كل إدعاءاته فى برجنديا .

٣ ـ حل المشكلة الشائكة التى طالما أدت إلى إشعال الحرب بين الدولتين، ونعنى بها مشكلة ميلان . ويقوم هذا الحل على تدبير زواج سياسى بين الإبن الأصغر لملك فرنسا ، وهو الدوق أورليان ، وبين إبنة الإمبراطور أو إبنة أخته ، وتكون الأراضى المنخفضة هى الصداق الذى تقدمه العروس فى الحالة الأولى ، ودوقية ميلان فى الحالة الثانية ، وبذلك تحقق فرنسا آمالها فى ميلان ، أو فى التوسع الإقليمى فى اتجاه الشمال الشرقى . ولكن هذه الترتيبات لم يقدَّر لها النجاح ، إذ توفى الدوق أورليان فى العام التالى لتوقيع المعاهدة ؛ وفى مارس عام ١٥٤٧ توفى فرنسوا الأول ، وخلفه على عرش فرنسا إبنه هنرى الثانى (١٥١٩ ـ ١٥٥٩) .

المرحلة الرابعة :

تمتد هذه المرحلة منذ تولى هنرى الثانى عرش فرنسا عام ١٥٤٧ وحتى توقيع معاهدة كاتو كمبريسيس عام ١٥٥٩ . فبعد وفاة فرنسوا الأول ، اعتلى ابنه هنرى الثانى (١٥١٩ ـ ١٥٥٩) عرش فرنسا ، وكان قدتزوج فى عام ١٥٣٣ من كاترين دى ميدتش (١٥١٩ ـ ١٥٨٩) ، وهى من فلورنسة

وتنتمى إلى أسرة ميدتشى التى حكمت فلورنسة أيضاً . وكان هنرى كاثوليكياً متعصباً لمذهبه يتعقب الخارجين على هذا المذهب وينكل بهم ، ولكنه فى سياسته الخارجية كان نصيراً للبروتستانت فى ألمانيا نكاية فى شارل الخامس ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

كانت أول مشكلة خارجية واجهت هنرى الثانى بعد اعتلائه العرش ، هو مواجهة نتائج الانتصار العسكرى الذى أحرزه الإمبراطور شارل الخامس فى معركة مهلبرج (Muhlberg) فى ٢٤ أبريل عام ١٥٤٧ على الأمراء الألمان البروتستانت. وبدا الآن أن كل ألمانيا ، بل أوروبا ، أصبحت فى قبضة الإمبراطور الأمر الذى أوجد حالة خطيرة فى الموقف الدولى . وساد الاعتقاد فى ذلك الوقت بأن الإنقسام الدينى الذى كان يهدد ألمانيا أصبح فى طريق الزوال ، وستعود ألمانيا إلى الوحدة الدينية فالسياسية . وقد أثار ذلك مخاوف ملك فرنسا الذى لم يكن يتصور قيام دولة ألمانية موحدة على الحدود الشمالية الشرقية لفرنسا، وتكون مصدر خطر على بلاده . ولذلك كان الخوف من قيام الوحدة السياسية فى ألمانيا من ناحية ، والرغبة فى المحافظة على التوازن الدولى فى القارة من ناحية أخرى ، من أهم المسائل التى دفعت ملك فرنسا إلى صدام عسكرى مع الإمبراطور شارل الخامس .

وفى نفس الوقت تدهورت العلاقات بين الإمبراطور شارل الخامس وبين البابا بول الثالث (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩) ، إذ أزعج انتصار الإمبراطور فى معركة مهلبرج البابا ، لأنه خشى أن يؤدى هذا الانتصار إلى توطيد نفوذ الإمبراطور فى أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية وإخضاع الكنيسة والولايات البابوية لسلطة الإمبراطور . وفى العام التالى ، تفاقم الخلاف بينهما وبلغ الذروة عندما أصدر الإمبراطور فى ١٣ مايو عام ١٥٤٨ نظام العقيدة المؤقت (Interim) لإنهاء النزاع الدينى فى ألمانيا . وكان هذا النظام يهدف إلى التقريب بين البروتستانت

والكاثوليك ، ولذلك اشتمل على بعض التساهل المحدود إرضاء للبروتستانت ؛ فغضب البابا وأراد قبل كل شئ ، تحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية ذاتها . ودخل البابا فى مفاوضات مع هنرى الثانى للقيام بحرب ضد الإمبراطور فى إيطاليا بعد أن كان البابا من أول الساعين لوقف الصراع بين الدولتين . ووافق ملك فرنسا على أن يعمل على طرد قوات الإمبراطور من بارما وبياكنزا اللتين اغتيل حاكمهما ، وكان إبناً غير شرعى للبابا بول ، وتنصيب أحد أفراد أسرة البابا محله .

ولكن هنرى الثانى كان مشغولاً فى ذلك الوقت فى الحرب مع انجلترا ؛ وقامت تلك الحرب لأن البلاط الاسكتلندى الكاثوليكى ، الخاضع لنفوذ مارى لورين ملكة اسكتلندا وهى فرنسية الأصل ، امتنع عن تنفيذ خطوبة مارى استيوارت (إبنة جيمس الخامس ملك اسكتلندا ومارى لورين) إلى إدوارد السادس ملك انجلترا ، الدولة البروتستانتية . وردت انجلترا على ذلك بإرسال حملة عسكرية أوقعت الهزيمة بالاسكتلنديين فى موقعة بيانكى (Piankie) فى سبتمبر ١٥٤٧ . وتطلعت اسكتلندا إلى مساعدة فرنسا بسبب الروابط التى كانت تربط بينهما . وعقدت الملكة مارى لورين خطوبة ابنتها ، التى كانت تبلغ من العمر ثمانى سنوات ، على ولى عهد فرنسا فى أغسطس عام ١٥٤٨ وبعثت بها إليه . وقاومت انجلترا هذا التقارب خوفاً من أن ينضم التاج الإسكتلندى إلى التاج الفرنسى ، فقامت الحرب بين فرنسا وانجلترا واستمرت حتى مارس عام ١٥٥٠ . وخسرت انجلترا فى هذه الحرب ثغر بولونى فى شمال فرنسا ، فى مقابل حصولها على مبلغ من المال من فرنسا . وكان لهذا الانتصار أثر كبير فى تشجيع هنرى الثانى بعد ذلك على القيام بعمل حاسم ضد الإمبراطور شارل الخامس .

عمل هنرى الثانى إذن على إثارة المتاعب فى وجه الإمبراطور ، ورفض أن يتعاون معه لإنجاح المجمع المسكونى العام المنعقد فى مدينة ترنت لتسوية الخلاف

الدينى الكاثوليك والبروتستانت ؛ كما شجع الأمراء الألمان البروتستانت على مقاومة الإمبراطور . واختار هنرى الثانى ميداناً جديداً للحرب غير شبه الجزيرة الإيطالية ، هو حوض نهر الراين ونهر موزيل Moselle ، أحد فروع نهر الراين . وكان هذا الاختيار من جانب هنرى الثانى ، لأنه يكفل له الحصول فى يسر على عون الجماهير الألمانية البروتستانتية ومساعدة الأمراء الألمان . وعقد هنرى الثانى مع الأمراء الألمان محالفة فى شامبورد (Chambord) فى يناير ١٥٥٢ ؛ ثم وقع موريس ، ناخب سكسونيا ، المعاهدة نهائياً مع فرنسا فى فريدوالد (Friadwald) فى ١٤ فبراير عام ١٥٥٢ . وترجع أهمية هذه المعاهدة إلى أنها أول اختبار حقيقى لسياسة المحافظة على توازن القوى فى أوروبا . وقد ظهرت هذه السياسة خلال المائة سنة التالية ، وكان من أهم نتائجها إنقاذ فرنسا من خطر الهابسبرج فى النهاية وتحطيم قوة هذه الأسرة . أما الأهمية الثانية لهذه المعاهدة ، فهى قد نصت على أن يستولى ملك فرنسا بكل سرعة ممكنة على المدن التى كانت فى أملاك الإمبراطور دائماً ، رغم أن اللغة الألمانية لم تكن اللغة المألوفة بها ، وهى مدن كمبراى وتول ومتز وفردان . وقد علق أحد المؤرخين الفرنسيين على تلك المادة التى نصت على أن يحتفظ ملك فرنسا بهذه المدن ، بصفته نائباً أو وكيلاً للإمبراطورية ، بقولة أنها بمثابة الميثاق الذى يسجل لفرنسا حقوقها الطبيعية والتى لا تسقط بالتقادم ، أو بمضى المدة على جميع أرجاء إقليم اللورين الفرنسى . وهكذا كانت تلك المعاهدة صفقة رابحة فى تاريخ فرنسا القومى ، لأنها مدت نفوذ فرنسا إلى الألزاس Alsace واللورين ، وجعلت ضم هذين الإقليمين إلى فرنسا مطلباً قومياً لا يحيد عنه ساسة فرنسا منذ ذلك الوقت حتى الوقت الحاضر .

وفى ١٢ فبراير عام ١٥٥٢ أعلن هنرى الثانى الحرب على الإمبراطور شارل الخامس ، واستولى الجيش الفرنسى بسهولة على تول ومتز وفردان ،

واستولى موريس ، ناخب سكسونيا ، على أجزبرج ، وصار يطارد الإمبراطور في التيرول ؛ فالتجأ الإمبراطور شارل الخامس إلى حماية أخيه فرديناند الذى كان يحكم فى ألمانيا ، ونال منذ عام ١٥٣١ لقب ملك الرومان King of the Romans تمهيداً لانتخابه إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة بعد وفاة أخيه شارل الخامس . وقد توسط فرديناند بين الإمبراطور والأمراء الألمان الذين أدركوا مغبة تغلغل فرنسا فى الأراضى الألمانية ، وتدهور نفوذ الإمبراطور فيها ، وتقطيع أوصال الإمبراطورية الرومانية . وانتهت هذه الوساطة بعقد معاهدة بساو (Passau)في أغسطس عام ١٥٥٢ بين الإمبراطور والأمراء الألمان على أساس منح هؤلاء الأمراء استقلالاً فى المسائل الدينيية والسياسية .

فشل الإمبراطور بمساعدة الأمراء الألمان فى استرداد مدينة متز ، وسارت الحرب عموماً مع فرنسا ضد مصلحة الإمبراطور حتى اضطر شارل إلى عقد هدنة فى ڤوسيل (Vaucelles) مع الفرنسيين فى ٥ فبراير ١٥٥٦ لمدة خمس سنوات، ووافق بمقتضاها الإمبراطور على أن يترك فى يد الفرنسيين جميع فتوحاتهم من متز إلى كورسيكا . وبذلك واجه الإمبراطور « الوجود » الفرنسى فى منطقة كان يعتبرها إقليمياً ألمانياً خالصاً ، وعجز عن إزالة هذا الوجود ، وكان إخفاقه الحربى أمام أسوار متز آخر معركة فى حياته ؛ فقد قرر التنحى عن الحكم والتنازل عن العرش وقضاء البقية الباقية من حياته فى عزلة دينية فى أحد الأديرة . وفى أكتوبر عام ١٥٥٦ تنازل عن الحكم نهائياً على أن يخلفه ابنه فيليب الثانى فى حكم أسبانيا وإيطاليا والأراضى المنخفضة والممتلكات التى جاءت بها الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد . كما تنازل الإمبراطور لأخيه فرديناند عن تاج الإمبراطورية ، وترك له حكم ألمانيا والنمسا .

حمل فيليب الثانى الذى تولى عرش أسبانيا عام ١٥٥٦ عبء الصراع ضد فرنسا . وبجانب هذا الصراع خلف له والده ملكاً شاسعاً فى أسبانيا ،

والأراضى المنخفضة .هى بلجيكا وهولندا ، ونابولى وميلان فى شبه الجزيرة الإيطالية ، ومستعمرات أسبانيا فى جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

وعلى أية حال لم يستمر السلام طويلاً ، لأن البابا الجديد بول الرابع Paul الذى ارتقى كرسى البابوية فى عام ١٥٥٥ ، كان يكره الأسبان عموماً والإمبراطور خصوصاً ، ويريد أن يطهر إيطاليا من كل سيطرة أجنبية ، وأن يجعل من اللغة الإيطالية اللغة الوحيدة المستعملة فى أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية . ولذلك طلب البابا بول الرابع مساعدة فرنسا له فى محاربة الأسبان ، ولقى هذا الطلب استجابة فورية وحارة من هنرى الثانى ، ملك فرنسا ، على الرغم من أن هدنة ڤوسيل ، التى كانت قد عقدت بين هنرى الثانى وبين الإمبراطور فى ٥ فبراير ١٥٥٦ ، لم يكن قد انقضى أجلها . وزحف الجيش الفرنسى على مملكة نابولى ، وبذلك كانت فرنسا هى الدولة البادئة بنقض الهدنة . وتحرك القائد الأسبانى الدوق ألفا Alva من مملكة نابولى نحو روما ، ولكن نزعته الدينية القوية واحترامه العميق للبابا حالت دون إقدامه على تدمير مدينة روما ، وعرض شروط وقف القتال وإبرام الصلح وقبلها البابا وكان أهمها :

١ ـ يقبل البابا بول الرابع وضع إيطاليا تحت الحماية الأسبانية .

٢ ـ إنهاء المحالفة المعقودة بين البابا وفرنسا .

٣ ـ يقبل البابا استقبال فيليب الثانى ملك أسبانيا كابن بار مطيع من أبناء الكنيسة .

وبذلك تدعم نفوذ فيليب الثانى فى أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية .

أما النصر الثانى الذى حققته أسبانيا على فرنسا ، فكان على الأرض الفرنسية نفسها ، فبادرت فرنسا بإعلان الحرب على أسبانيا فى آخر يناير

عام ١٥٥٧ ، وفاة فيليب الثانى ،ملك اسبانيا بزيارة انجلترا ليستميل ملكها وزوجته مارى تيودرور إلى الوقوف بجانبه فى الحرب واستجابت انجلترا ، وأعلنت الحرب على فرنسا فى يوليو ١٥٥٧ وانهزمت الجيوش الفرنسية هزيمة بالغة بالقرب من سان كانتان San Quentin فى ١٠ أغسطس ١٥٥٧ ، وانفتح الطريق إلى باريس نفسها . ولكن ذلك لم يتحقق لعدة عوامل ، كان فى مقدمتها أن فيليب لم يزحف على باريس مباشرة ، بل انصرف لإحكام الحصار حول مدينة سان كانتان والهجوم عليها ، وبذلك أضاع وقتاً ثميناً ، وأصبح لدى فرنسا من الوقت متسع لإعادة تنظيم قواتها العسكرية . ومن ناحية أخرى ، انتشر التذمر بين الجنود المرتزقة الذين اشتركوا مع الجيش الأسبانى بسبب تأخر صرف مرتباتهم . وأبدت الفرق الإنجليزية التى كانت مع الجيش الأسبانى رغبتها فى العودة إلى انجلترا .

وظفر الفرنسيون بنصر حاسم على الإنجليز ، إذ حاصروا ثغر كاليه بعد أن استطال احتلال الإنجليز له لمدة قرنين . وسقط الثغر فى أيدى الفرنسيين ، ورفع العلم الفرنسى عليه فى ٨ يناير عام ١٥٥٨ . وبذلك تمكن الفرنسيون من طرد الإنجليز من آخر معاقلهم فى الأراضى الفرنسية التى كانت قد تبقت لهم بعد حرب المائة عام . وعلى الرغم من ذلك ، فقد هزم الفرسيون هزيمة بالغة ، وذلك بالقرب من جراڤلين Gravelines فى يوليو عام ١٥٥٨ ، وكان بعد هذه الهزيمة أن بدأت مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والأسبان .

ومما سهل الإتفاق بين الطرفين ، وفاة الملكة مارى تيدور فى نوفمبر ١٥٥٨ ، واعتلت عرش انجلترا الملكة اليزابيث ، ولم تعد هناك حاجة تدعو فيليب الثانى إلى التمسك بضرورة إرجاع كاليه إلى انجلترا . وأدركت الملكة إليزابيث أن أسبانيا ليست متحمسة لمساعدة انجلترا على استرجاع كاليه من

الفرنسيين ، يضاف إلى ذلك وجود عدد كبير من النبلاء الفرنسيين أسرى فى أيدى الأسبان بعد إستيلائهم على مدينة سان كانتان . وبذلك تضافرت كل الظروف الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية على خلق الجو الصحى لإجراء مفاوضات الصلح ، وبدأت هذه المفاوضات فى أكتوبر عام ١٥٥٨ بعد هزيمة الفرنسيين فى جراڤلين . وانتهت بتوقيع معاهدة كاتو كمبريسيس (Cateau - Cambresis) فى ٣ أبريل عام ١٥٥٩ . وتعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة أوروبية فى التاريخ الحديث . ولقد تضمنت هذه المعاهدة بعض المبادئ الهامة التى نجملها فيما يلى :

أولاً : تنازلت فرنسا عن كل إدعاءتها فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وسلمت بالنظام الذى أرسى قواعده من قبل شارل الخامس للحكم الأسبانى فى إيطاليا ؛ فظلت أسبانيا محتفظة بكل من ميلان فى شمالى إيطاليا ونابولى فى جنوبيها . وبذلك أخلت فرنسا الطريق أمام أسبانيا لإحكام سيطرتها الفعلية على شبه الجزيرة الإيطالية . كما وافقت فرنسا على التنازل عن سافوى وبيدمونت إلى القائد العسكرى الذى كان يقود الجيش الأسبانى ، واجتاح به شمال فرنسا فى عام ١٥٥٧ ، وهو دوق سافوى ويسمى عمانويل فيليبرت Emmanuel Philibert. وقد اهتمت المعاهدة بأمر تزويجه ، فنصت على أن يتزوج من أخت ملك فرنسا ، وأن يكون الصداق الذى تقدمه العروس إلى زوجها هو تنازل فرنسا له عن دوقية سافوى ، وكانت تشمل إقليمى سافوى وبيدمونت . ويعتبر هذا الدوق هو المؤسس الحقيقى لدولة بيدمونت ، وكانت تسمى أيضاً مملكة سردينيا . وقد قامت هذه الدويلة إلى حد كبير وبمضى الأيام كدولة حاجزة بين فرنسا وإيطاليا ، وستلعب دوراً حاسماً فى حركة الوحدة الإيطالية فى القرن التاسع عشر .

وكان التنازل عن سافوى وبيدمونت خسارة كبيرة لفرنسا لاسيما أنهما

بمثابة بوابة كبيرة تتسلل منها فرنسا إلى شبه الجزيرة الإيطالية . وقد قيل فى تبرير تنازل فرنسا عنهما ، أن فرنسا كانت فى حاجة ماسة إلى السلم لتسترد أنفاسها من حروب مضنية استطال أمدها ؛ كما قيل أن الإنقسام الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والهوجونوت ، وهم بروتستانت فرنسا ، كان قد تفاقم خطره وبات يتطلب تركيزاً من اهتمام هنرى الثانى لمواجهته .

وتقرر فى المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بمدينتى تورينTurin وكاسال Casal وبعض الأماكن لفترة زمنية كضمان لتنفيذ المعاهدة . وفى الواقع فإن ما قررته بخصوص الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية كان نصراً رائعاً لأسبانيا بقدر ما كان إخفاقاً بالنسبة لفرنسا .

ثانياً : لم يرد ذكر فى المعاهدة للأسقفيات الثلاث : متز وتول وفردان ، وهى ذات أهمية استراتيجية بالغة . وكان سبب هذا الصمت بالنسبة لهذه الأسقفيات الثلاث هو مسألة قانونية بحتة ؛ فهذه الأسقفيات من الناحية الرسمية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ولم تكن هذه الدولة طرفاً فى المعاهدة . وإنما كانت المعاهدة مبرمة بين فيليب الثانى ملك أسبانيا ، وبين هنرى الثانى ملك فرنسا ، ولا يملك أولهما الحق فى تقرير مصيرها بصفة رسمية . ويلاحظ أيضاً أن فرديناند الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، قد وقف موقفاً سلبياً إزاء هذه المسألة الهامة . ولذلك طبق الطرفان سياسة الأمر الواقع على هذه الأسقفيات الثلاث ، وتنحصر هذه السياسة فى استمرار احتلال فرنسا لها ، ونجم عن ذلك أن استمرت الأسقفيات الثلاث من الناحية الإسمية والقانونية والشكلية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ومن الناحية الفعلية تابعة لفرنسا . وعلى أية حال كان احتلال فرنسا لهذه المراكز كسباً عسكرياً واقتصادياً كبيراً لفرنسا ، فهو تدعيم للنفوذ الفرنسى بها

ثالثاً : قررت المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بثغر كاليه لبضع سنين ثم يعاد النظر في وضع هذا الثغر .

رابعاً : قررت المعاهدة عقد زواجين سياسيين استكمالاً للتسوية السياسية وضماناً لتنفيذها على أكمل وجه . وكانت العروسان هما ابنة ملك فرنسا وأخته، فنصت المعاهدة على أن يتزوج فيليب الثانى ، ملك أسبانيا ، عروساً جديدة هى اليزابيث ابنة هنرى الثانى ، ملك فرنسا ، وكاترين دى ميدتشى . ويلاحظ أن فيليب كان فقد زوجته مارى تيودور ملكة انجلترا ، ولم يكن قد مضى على وفاتها سوى بضعة شهور . وقد استهدف الزواج الجديد توثيق عرى الصداقة بين فرنسا وأسبانيا ، ومع ذلك فقد توفيت اليزابيث عام ١٥٦٨ . وتقرر أيضاً فى المعاهدة زواج دوق سافوى من مرجريت أخت ملك فرنسا ، ولكن شرط الزواج الذى وضع ضماناً لتنفيذ المعاهدة كان سبباً غير مباشر فى مصرع هنرى الثانى ملك فرنسا ، إذ مات فى يوليو ١٥٥٩ أثناء مباريات المبارزة التى أقيمت بمناسبة عقد القرانين الملكيين . ثم يختطف الموت الملكة اليزابيث زوجة فيليب الثانى ، ولحقت هذه الزوجة الفرنسية بالزوجة الإنجليزية مارى تيودور ملكة انجلترا ، وأصبح فيليب الثانى مرة أخرى أرملاً ينشد زواجاً ثالثاً جديداً .

ولم يؤد صلح كاتو كمبريسيس إلى قيام تحالف بين فرنسا وأسبانيا كما كان يرتجى ، فظلت العداوة والشكوك بين الدولتين أكثر من قرن ونصف قرن ، ولم تكن هناك وحدة هدف أو وحدة مصالح بين الدولتين ، وقد ظلت تلك العداوة العامل المؤثر فى السياسة الأوروبية طوال هذه الفترة .

ويتضح مما سبق أن الحروب الإيطالية لم تكن معارك حربية بقدر ما كانت معارك دبلوماسية تمثلت فى سعى المعسكرين المتحاربين سعياً حثيثاً لتكوين محالفات سياسية وأحلاف عسكرية . وقد نشطت الدبلوماسية الأوروبية نشاطاً واسعاً امتد إلى الدول والدويلات التى انزلقت إلى ميادين الصراع الحربى ،

أو تلك التى التزمت الحيدة فى بعض مراحل الحروب . وإذا كانت الحروب الإيطالية تمثل مرحلة هامة فى فن الخطط الحربية (التاكتيك الحربى) ، مثل تطوير استخدام سلاح المشاة وسلاح المدفعية ، فإنها تمثل بدرجة أكبر الدبلوماسية الأوروبية فى القرن السادس عشر ، وما اقترنت به من إرساء مبادئ فى بعض الأحيان ، وتقاليد فى أحيان أخرى ، وعلى سبيل المثال نذكر من المبادئ : **التوازن الدولى ، ومن التقاليد ، عقد الزيجات السياسية بين أعضاء الأسرات الحاكمة فى الدول الأوروبية كوسيلة للتقريب بين دولتين أوغلتا فى الخصومة .**



الفصل الخامس
حركة الإصلاح الدينى
The Reformation

بعد سنتين من موقعة مارينانو Marignano سنة ١٥١٥ ظهرت فى ألمانيا حركة كان لها فى أوروبا نتائج أكثر من النتائج التى خلفتها الحروب الإيطالية ففى سنة ١٥١٧ بدأ الصراع بين مارتن لوثر ضد مزاعم البابوية وقوة الكنيسة الكاثوليكية . على أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن حركة الإصلاح الدينى لم تحدث فى أوروبا فجأة ، أو أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تعيش فى استقرار وهدوء . كان الأمر غير ذلك ؛ إذ تعرضت الكنيسة الكاثوليكية منذ نشأتها الأولى إلى أخطار متعددة . ولقد تمثل الخطر الأول الذى تعرضت له الكنيسة فى عصورها الأولى فى شكل الجدل الذى أثير حول طبيعة المسيح ، وإنتشار الإسلام وسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين . ولكن هذه الأخطار لم تضعف الكنيسة ، بل كانت من عوامل تماسكها وقوتها ، حتى تتمكن من مواجهة الضغط الموجه ضدها من الخارج .

وفى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين ، وجهت ضربات عنيفةللكثير من النظم التى سادت فى العصور الوسطى ؛ فالإمبراطورية البيزنطية التى احتلت المكان الأول فى العصور الوسطى حتى منتصف القرن الحادى عشر فى النواحى السياسية والاقتصادية والفكرية ، قد أخذت فى الضعف والانحلال إلى أن انهارت كليةً أمام غزوات العثمانيين التى انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ . أما البابوية التى ظلت أمداً طويلاً فى العصور الوسطى ، ولها المنزلة الأولى فى شتى نواحى الحياة دينياً ودنيوياً ، وبلغت منتهى قوتها فى عهد البابا

جريجورى السابع Gregory VII ، ثم البابا إينوسنت الثالث Inocent III الذى قال « إنه لا خلاص لإنسان فى العالم ما لم يخضع للبابا ؛ فأنا قيصر والإمبراطور الحقيقى صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض » قد انتابتها فى هذه الفترة الأخيرة الكثير من التغيير . حقيقة إنها لم تسقط وتطوى صفحتها مثلما كان الحال مع الإمبراطورية البيزنطية ، إذ أن بقاءها قد دام إلى زماننا هذا ، إلاّ أن سلطانها قد ضعف ضعفاً كبيراً عما كان عليه من قبل ، ولم يصبح لها من السيادة الكنسية ما كان لها فى السابق .

وعندما انتقل البابا من روما إلى مدينة أڤينيون Avignion ، بجنوب فرنسا، أثناء صراع البابوية مع الإمبراطور ، أصبحت البابوية بالتالى تحت نفوذ ملوك فرنسا . واستمر الأمر على هذا النحو من عام ١٣٠٥ إلى عام ١٣٧٨ ، وسميت هذه الفترة باسم مدة الأسر البابلى Bebylonic Captivity . وقد عرّضها هذا الوضع الجديد لكثير من الإنتقادات ، وبالتالى لإضعاف شأنها ونفوذها . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل جاء ما يعرف باسم The Great Schism (أى الإنشقاق الدينى الكبير) ، وقد استمر من عام ١٣٧٨ حتى عام ١٤٤٧ حيث وجد بابا فى أڤينيون وآخر فى روما ، وانقسم العالم الكاثوليكى إلى معسكرين متنازعين الأمر الذى أدى إلى قيام حركة المجالس الدينية الكبرى Conciliar Movement؛ وهى حركة هامة اشترك فى القيام بها القيام بها جماعة من المخلصين من رجال الكنيسة الكاثوليكية لإصلاح حال الكنيسة الغربية ، ولكنها باءت بالفشل فى عدد من الأمور التى قامت تلك الحركة من أجل معالجتها . وأثناء ذلك ، وجهت الإنتقادات للبابوية ، كما قامت عدة جماعات من المسيحيين الغربيين بالخروج على سلطانها ، ونبذ مبادئها ، إلى أ ن جاء القرن السادس عشر الميلادى، وقامت الثورة البروتستانتية التى تسببت فى خروج نسبة كبرى من سكان أوروبا الكاثوليك على سلطان البابوية ، وتأسيس كنائس مستقلة

عنها ، وضياع سلطان البابوية نهائياً فى أجزاء كبيرة من أوروبا .

لقد انكمشت البابوية إلى مجرد إمارة إيطالية ذات مصالح محدودة ومحلية، ففى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر اعتبر البابوات أنفسهم أمراء لروما والولايات البابوية فقط ، بعد أن كانت لهم مكانة عالمية . وبذلك لا يكون من المغالاة فى شئ أن نقول بأن فشل حركة المجالس فى تحقيق الإصلاح الكنسى قد عجل بقيام الثورة البروتستانتية فى القرن السادس عشر .

وفى الفترة التالية ، أى منذ إعتلاء نيقولا الخامس كرسى البابوية عام ١٤٤٧ إلى وقت قيام حركة الإصلاح الدينى بزعامة مارتن لوثر ، اشتدت المطالبة بالإصلاح . وقد اتجهت تلك المطالبة إلى محاولة إصلاح الرأس والأعضاء، أى البابا ورجال الكنيسة ؛ لأن فضيحة الإنشقاق الدينى الكبير كانت أمراً لا يحتمل، ولأن الناس ضجوا من ضخامة الإيرادات التى تمتّع بها رجال الكنيسة ، ومن جسامة الأموال التى كانت تؤخذ منهم ، لتنتقل بعد ذلك إلى جيوب رجال الدين . ولقد كانت البابوات فى المدة ما بين ١٤٤٧ ، ١٥١٨ أى الوقت الذى قامت فيه حركة الإصلاح ، مسئولين إلى حد كبير عن إثارة تلك الحركة فى غرب أوروبا ، ولا نعنى بذلك أن البابوات جميعاً فى هذه الفترة كانوا منغمسين فى الرذيلة ؛ إذ من الثابت أن من بين عشر بابوات اعتلوا كرسى البابوية فيما بين عامى ١٤٤٧ و ١٥١٣ كان ثمة اثنان منهم فقط هما اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) ويوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٥) ، يعتبران بحق مسئولين عن معظم الضرر الذى لحق بمركز البابوية قبل قيام حركة الإصلاح الدينى مباشرة ، ولو أن جميع البابوات قد آثروا مصلحة الأسرة التى ينتمى إليها كل منهم على مصلحة الكنيسة . ومما أثار غضب الناس من البابوية ، وجعلهم ينقدونها بشدة ، هو أن البابوية فقدت تلك الصفة العالمية التى كانت لها من قديم الزمن فى العالم المسيحى .

وقد لاحظنا أثناء عرضنا للحروب الإيطالية من تدخل البابوات فى الشئون السياسية ، مما ترتب عليه وجود أحزاب متضاربة أساءت إلى العلاقات بين الولايات الإيطالية المختلفة . فتدخل الكنيسة فى الشئون السياسية قد أضر بمصالح إيطاليا وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا . ولقد دفع عصر النهضة الناس إلى التحرر والنقد ، وطبقوا ذلك أيضاً على الدين ، فناقشوا أقوال الكنيسة وتصرفاتها ، وظهر ذلك فى ألمانيا بصفة خاصة لأسباب متعددة .

تبلورت مفاسد الكنيسة فى ألمانيا فى اتجاهها الدينى والاقتصادى ؛ فاحتدمت فيها فكرة فكرة الإصلاح الدينى . ومن خلال هذه الظروف الخاصة بألمانيا ، بدت الكنيسة بتعاليمها طغياناً مثيراً ، يشل نمو الحياة الفردية ، وقد تهيأت ألمانيا حينذاك بعوامل خاصة مكنتها من التعبير عن الإتجاه للإصلاح الدينى ، حتى انتقل على يديها من مجرد الفكرة إلى صورة الحركة الثائرة البناءة، التى تجدّ فى فرض الإصلاح الدينى والاقتصادى على الكنيسة ، وتمكّن المجتمع من التوازن فى مجرى تقدمه الحضارى . وكانت ألمانيا فى تكوينها السياسى ، محرومة من الحكم المركزى القوى ، أى من السلطة التى تحميها ضد طغيان الكنيسة واستغلال الدين من أجل الاقتصاد ، بينما كان غيرها من دول غرب أوروبا ينعم بالتقدم الاقتصادى ، ويتمتع بالحكم المركزى ، الذى قطع شوطاً كبيراً فى الحدّ من سلطات الكنيسة فيه . فبتطور الدولة ووجود الحكومة المركزية بدأ الإنفصال بينهما ، وكان يرجع ذلك إلى قدرة الحكام على إخضاع الكنيسة لهم ، وبدأ ذلك قبل ظهور مارتن لوثر ممثلاً فى وجود الكنائس الوطنية فى انجلترا وأسبانيا مثلاً .

أما ألمانيا فقد كانت مرتعاً لخرافات ولسلطات رجال الدين الاقتصادية ، ولم يكن ثمة ما يحول دون إيقاف ادعاءاتهم ، وقد زادت سيئاتهم حدة فى نظر الناس عندما أخذت حياتهم الاقتصادية فى الانحطاط ، سيما بعد ارتفاع الأسعار

فى القرن السادس عشر ، كنتيجة لتدفق عنصرى الذهب والفضة المستوردين من الخارج نتيجة للتوسع الأوروبى وللكشوف الجغرافية ، فى وقت حرمت فيه ألمانيا من السلطة المركزية التى تحول دون تمادى رجال الدين فى فرض الضرائب ، والاستغلال المالى ، وناءت فيه كواهل ألمانيا بعبء التدهور الاقتصادى .

حقيقة كان ثمة لون من الوعى القومى المحدود ، ممثل فيما كان للحكام إذ ذاك من سلطات ، فى المقاطعات والمدن الحرة . إذ كانت لها نفس السلطات التى كان يمارسها الملوك الوطنيون ، ولكنها لم تكن من القوة بشكل يوقف هذا التيار الغاصب من الكنيسة ، ولا كانت من القدرة حتى تحول دون اتخاذ الخرافات الدينية والاستغلال الاقتصادى . لذلك كان انعدام الحكم المركزى فى ألمانيا ، من الأسباب الرئيسية التى مهدت لقيام الثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية لحاجة ألمانيا لمن يحول دون فساد وادعاءات هذه الكنيسة ، كما كان للملكيات الناشئة مثلاً .

وبينما كانت الكنيسة تتمتع بالثراء وتنقل إيراداتها إلى إيطاليا لعبث رجال الدين ، كانت ألمانيا تعانى من هذا الاضطراب الاقتصادى الكبير الذى نجم عن انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية ، من الشمال الغربى لأوروبا إلى غربها . فمنذ أن بدأت تلك السلسلة تنتقل تدريجياً إلى أوروبا الغربية ، كانت الطبقة المتوسطة التى سلبت منها ثروتها عند بداية هذا الإنتقال ، تواجه مشكلة خطيرة هى مشكلة التوفيق بين فقرها الناجم من انتقال مراكز الثروة إلى الغرب ، وبين أملها فى استعادة المركز الاجتماعى المحترم ، الذى كان لها فى العصور الوسطى ، عندما كانت ألمانيا وأوروبا الوسطى لا تزال غنية عموماً ، لذلك شمل التذمر هذه الطبقة من الأوضاع الجديدة ، هذا فضلاً عن أن الفقر الذى أصاب الطبقة المتوسطة ، لم يلبث أن أدرك أيضاً طبقة الفرسان فى ألمانيا ، التى كانت تتألف آنذاك من المقاتلين والمحاربين فى العصور الوسطى . وعندما تفككت ألمانيا فى بداية العصور

الحديثة إلى إمارات محلية تحت سيطرة الأمراء ، فقد الفرسان أهميتهم القديمة ، ونزلت مرتبتهم إلى مجرد مقاتلين يعتمدون فى عيشهم على النهب والسلب ، وبذلك امتلأت نفوس الفرسان أيضاً بالتذمر . أما عن الأمراء فكثرت مطالبهم المالية لسد نفقات الإدارة وغيرها فى إماراتهم ، وقد اشتد تذمرهم عندما وجدوا أن أغلب موارد الأرض فى إماراتهم قد أصبحت فى يد كنيسة أجنبية عنهم ، كانت تحرم الناس من خيرات بلادهم . وأما طبقة الفلاحين فى ألمانيا ، فلم تكن أقل فى تذمرها عن تذمر هذه الطبقات عندما وقع على كاهلهم عبء المطالب المالية بأجمعها لسد حاجات الأمراء والفرسان والطبقة المتوسطة . لقد كانت الكنيسة تمتلك ثلث مساحة الأرض فى ألمانيا ، وجعل ذلك لها سلطاناً كبيراً فى تلك البلاد .

وكان البحث فى ألمانيا عن إقناع دينى للإجابة عن سؤال عام وهو : How can I be saved ? (كيف يمكن أن أنقذ) أقوى فى ألمانيا عنه فى أى مكان آخر ، ولقد وجد ذلك تعبيراً فى شكل النقد الخطير للكنيسة ورجالها لفشلهم فى تحقيق هذا الاقتناع . كما استاءت مجموعة كبيرة من العلمانيين المتعلمين من القيود التى فرضتها الكنيسة ، ومن نظمها المتوارثة التى فرضت عليهم ، ولقد بدأ الناس يشعرون أن المساوئ المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت إذ ذاك على جانب كبير من الخطورة . واستطاع الرجل العلمانى أن يقرأ لنفسه بعد أن أصبح فى مقدوره أن يتعلم اللاتينية ، وهى اللغة الرسمية للإكليروس الرومانى ، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس؛ ومن هنا لم يكن هناك بد من أن تظهر فكرة أن العلمانى الفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهّان .

لهذا فقد اتجه النشاط الألمانى إلى مقاومة التدخل الأجنبى فى صورة البابا، ومحاولة إبعاده أو القضاء عليه ، فظهرت حركة الإصلاح الدينى كأحسن تعبير

عن روح المقاومة الألمانية لنفوذ الكنيسة الدخيل . ولم تكن حركة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر في ألمانيا هي أولى الحركات التي قامت لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية . فلقد دفعت الكنيسة قبل ذلك عدداً من المسيحيين الأتقياء لاتباع حياة من التقشف والزهد سعياً وراء حياة خيّرة ، وأخذ آخرون في المجاهرة بانتقاد البابوية . وفاقت ، كلا من هاتين الجماعتين ، جماعة ثالثة تشككت في سلطة البابوية وبعض المبادئ التي فرضتها الكنيسة ، وانتهى بها الأمر بالخروج عن الكنيسة والتحول إلى جماعات هرطقية بالنسبة لوجهة نظر الكنيسة ، وذلك مثلما حدث في حالتي جون ويكلف John Wycliffe وجون هس John Huss .

والواقع أنه إذا كانت الأحوال السياسية والاقتصادية في أوروبا أكثر ملاءمة ، لكان من المحتمل جداً أن يكون Wycliff الإنجليزي أو Huss البوهيمي مؤسسي الثورة البوتستانتية (Protestant Revolt) بدلاً من مارتن لوثر ، ولكن الأحوال الأوروبية لم تكن ملائمة بعد ؛ كما أن المصلحين السالفي الذكر كان في آرائهما تطرف وبعد عن المبادئ الكنسية المعترف بها بين كاثوليك عصرهما .

ثم إن ثورة لوثر ، التي كانت في بادئ أمرها ذات طابع محافظ ، قد صادفت نجاحاً في القرن السادس عشر الميلادي ، أي في ذلك الجو الذي انتشر فيه عدم الرضا عن البابوية والكنيسة بسبب انغماسهما في المتع الدنيوية ، وبسبب انتشار المفاسد بين رجالها ، أما آراء ويكلف وهس فكانت منذ بادئ أمرها تعد متطرفة بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر الذي عاشا فيه ؛ ذلك المجتمع الذي كان لايزال يرجو إجراء إصلاحات من داخل الكنيسة على أيدي المشتركين في المجالس الدينية العامة . وعلى كل حال ، فقد كانت لآرائهما آثارها في تكوين آراء المصلحين الذين جاءوا من بعدهما أمثال مارتن لوثر وكلفن Calvin . **وهكذا نمت الثورة البروتستانتية في تربة ممهدة مهدها تعاليم وآراء المهرطقين الذين جاءوا في القرن الرابع عشر الميلادي .**

چون ويكلف John Wycliffe :

كان ويكلف (١٣٣٠ ـ ١٣٨٤) أستاذاً فى جامعة أكسفورد ، وأحد كبار المشتغلين بعلم اللاهوت ؛ ،قبل أن يصبح هرطقياً اشتهر أمره بانجلترا ، وكان يعد أحد كبار العلماء والوعاظ فيها . ومن الممكن أن نحدد المراحل المختلفة لتطور آرائه المتطرفة فى علم اللاهوت حتى عام ١٣٧٤ . كان موقف ويكلف لا غبار عليه بالنسبة للكنيسة ، وكان يشغل منصب أستاذ علم اللاهوت فى جامعة أكسفورد ، وكان أول دافع دعاه لمعارضة البابوية أمراً سياسياً فى طابعه ، فلقد عارض الإنجليز بشدة ميول بابوات أفنيون للملكية الفرنسية التى كانت على عداء مع إنجلترا فى ذلك الوقت (كانت مشتركة معها فى حرب المائة عام) ، وصدر المرسومان Statutes المشهوران ، وهما مرسوم برايمونير Praemunire ومرسوم بروڤيزرز Provisors ، فى أواخر القرن الرابع عشر ، وحرم بمقتضاهما على البابوية حق تعيين رجال الكنيسة الإنجليزية ، كما حرم على أولئك الالتجاء للبابوية للبت فى القضايا والمنازعات كما جرت عليه العادة من قبل .

ومنذ حرب المائة عام ، امتنعت انجلترا عن دفع مبلغ السبعمائة مارك ، التى كانت انجلترا تدفعها للبابوية كجزية سنوية منذ أن اعترف الملك يوحنا بالبابا إنوسنت الثالث Inocent III كسيد إقطاعى له . وفى عام ١٣٧٤ ، وقع الاختيار على ويكلف ليكون أحد سفراء الإنجليز فى الإجتماع الذى عقد مع ممثلى الحكومة الفرنسية والبابوية للمفاوضة وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا . وعند عودته من هذه البعثة ، أصدر أول مؤلفاته التى جعلته هرطقياً بالنسبة للكنيسة، وفى هذا المؤلف يقول ويكلف فى نص مشهور عنه « إن حق الملكية الإنجليزية فى حكم البلاد يرجع لحق الغزو ، وإن ذلك لم يكن فى أصله منحة من البابوية، وإن البابوية بعد أن أثبتت فشلها فى الدفاع عن تابعها الإقطاعى ضد أعدائه (الفرنسيين) قد أخلّت بالعقد الإقطاعى القائم بينهم ، واتهمها ويكلف بأنها

عاونت ذلك العدو ضد ملك انجلترا ؛ وقال بأن البابوية قد أصبحت تدين بالتبعية الإقطاعية لملك فرنسا عن الأراضى التى كانت تملكها الكنائس فى انجلترا . كما قال بأن البابا أنوسنت الثالث عندما تسلم انجلترا من الملك يوحنا كان بهذا العمل يعتبر كشخص مرتش ، وأن عمل يوحنا لم يكن قانونياً ، إذ لم يكن له الحق فى تسليم البلاد على هذا الشكل بدون موافقة نبلاء البلاد .

واختتم كتابه بقوله « إنه لا يمكن القول بأن يكون دفع انجلترا مبلغ ٧٠٠ مارك للبابوية عن جزية سنوية ، ذلك أن هذا المبلغ لا يتناسب أبداً لكى يكون جزية سنوية عن بلاد عظيمة كإنجلترا ، وقال بأن هذه كانت فى أصلها مجرد هبة من انجلترا للبابوية . وصادفت هذه الآراء رواجاً كبيراً بين الإنجليز الذى كان شعورهم ثائراً ضد الملكية الفرنسية وبالتالى البابوية فى أفينيون ، التى كانت تتعرض من وقت لآخر لنفوذ هذه الملكية ، وهكذا أصبح ويكلف بطلاً للقضية القومية .

كانت هذه الآراء التى جاء بها ويكلف تعتبر هرطقة بالنسبة للكنسية الإنجليزية القائمة . ولقد أمر رئيس أساقف كانتربرى Canterbury بأن يودع ويكلف السجن إلى أن تدرس حالته أمام البلاط البابوى . وقد درست كلية اللاهوت فى جامعة أكسفورد كتاباته ، وقررت صحة آرائه ، وإن كانت قد خانه التعبير عنها . ويبدو أن مهاجمة البابوية والكنيسة لآرائه ، قد دفعته إلى التطرف فى تلك الآراء ، وقال بأن الأصل فى الكنيسة هو عبارة عن هيئة من المؤمنين الأتقياء عامة ، وليس فقط رجال الكنيسة . وذهب إلى أبعد من هذا فقال بأنه لا البابا ولا القس يمتلك أن يصدر قرار الحرمان ، وأن الإله وحده هو الذى يمتلك سلطة الحرمان . كما قال بأن سلطة الغفران ترجع للإله فقط ، وأنه لا يمكن لأى رجل من رجال الكنيسة أن يدعى أنه يستطيع أن يغفر الخطايا ؛ كما أنكر شرعية الاعتراف ، وسبق مارتن لوثر فى القول بأن التوبة الحقيقية فى قلب المؤمن

المخطئ تكفى بأن يغفر الله له الذنوب ، وأنه لا يلزم لتحقيق ذلك أن يلجأ المخطئ لرجل الكنيسة ويعترف له .

إن الكثير من هذه الآراء تتفق مع ما هو معترف به فى المبادئ البروتستانتية فى عصرنا هذا ، لكنها فى القرن الرابع عشر كانت تعتبر متطرفة للغاية . وعلى كل فقد صادفت آراء ويكلف قبولاً عظيماً بين الكثيرين ، ونظمت جماعة تلاميذ ويكلف عرفوا باسم The Poor Priests ، واشتهروا باسم اللولارديين Lollards ، أى المصلحين الإنجليز ، وانتشروا فى انجلترا داعين إلى اعتناق آرائه ومبادئه . وفى عام ١٣٨٢ حاكم رئيس أساقفة كانتربرى ويكلف ، وأعلن بعض آرائه هرطقة والبعض الآخر غير صحيح . ولقد أبدى ويكلف فى آخر أيام حياته استعداده للذهاب إلى روما استجابة لأمر بابوى بإرساله إلى روما لمحاكمته هناك ، ولكنه لم يستطع القيام بذلك بسبب الشلل الذى نزل به ، وتوفى أخيراً فى عام ١٣٨٤ . وبعد موته تعرضت مؤلفاته للمحاكمة ، وأمر بإحراقها فى بداية القرن الخامس عشر .

چون هس John Huss :

وإذا كانت حركة ويكلف قد قضى عليها فى انجلترا ، إلا أن مبادئها قد انتقلت من القارة الأوروبية إلى بوهيميا ، حيث أصبحت أساساً لتعاليم هس (١٣٧٣ ـ ١٤١٥) . ووجدت فى بوهيميا فى الجزء المتأخر من القرن الرابع عشر حركة رد فعل تشيكية ، نتيجة لاعتداءات وتصرفات رجال الكنيسة ، والتجار ، ورجال السياسة من الجرمان ، الذين جاءوا إلى البلاد مع حكم الأسرة اللكسمبرجية . وقد امتزجت تعاليم هس مع الشعور القومى التشيكى ؛ ولذا فقد صادف هذا الرجل نجاحاً كبيراً هناك . وربما كان من الصعب فى بادئ الأمر فهم الأسباب التى أدت إلى انتشار الهرطقة الإنجليزية فى بوهيميا دون فرنسا أو ألمانيا ، ولكن لتعليل ذلك نذكر أن Ann of Bohemia ، وهى أميرة من البيت

الملكى فى بوهيميا ، قد تزوجت من ريتشارد الثانى Richard II، ملك انجلترا ، وأخذت معها إلى هناك جماعة من القساوسة البوهيميين ؛ وبعد موتها عادت هذه الجماعة ، وأحضرت معها مؤلفات وآراء چون ويكلف

وقد اهتم أساتذة جامعة براغ Prague بهذه التعاليم والآراء ، ومن هؤلاء الأساتذة كان چون هس ، أستاذ الفلسفة فى هذه الجامعة ، وكان واعظاً محبوباً . وقد تركت كتابات ويكلف أثراً قوياً فى نفس هس الذى ترجم الكثير من آراء المصلح الإنجليزى إلى اللغة التشيكية . وفى عام ١٤٠١ أمر البابا بجمع كل كتابات ويكلف التى وجدت فى بوهيميا ، وقرر حرقها ، ولما اعترض هس على ذلك ، أصدر الباب ضده قرار الحرمان . غير أن هس أصر على موقفه ، وواصل نشر تعاليمة ، ولما حاول رئيس الأساقفة فى بوهيميا قمع حركته لم يصادف فى ذلك نجاحاً بفضل مساعدة ملك بوهيميا .

وفى عام ١٤١٢ تطور أمر هس عندما أصدر البابا يوحنا الثالث والعشرون صكوك الغفران Indulgences لبيعها ، وذلك لكى يجمع الأموال للصرف منها على حروبة ضد نابولى ، ولكن هس ، وإن لم يعترض على نظرية صكوك الغفران مثلما فعل مارتن لوثر فى القرن السادس عشر ، إلا أنه ندد بالصكوك التى تصدر لغرض كهذا ، واعترض على استعمالها فى هذا الشأن . وقد كتب كتاباً عن الكنيسة ، ضمنه معظم مبادئه وآرائه ، وبشكل عام كانت تماثل آراء ومبادئ ويكلف فيما يختص بعدم شرعية الطقوس الدينية التى كان يباشرها رجال الكنيسة. كما قال « بأنه لا يجوز أن يكون للبابوات أى قوة دنيوية ، ويجب ألا يتدخلوا فى السياسة وألا يشنوا الحروب » . وقد جاء هس بآراء خاصة حيث قال: « إن الكنيسة لا تتكون من رجال الدين ، بل من كل من يختارهم الله لإنقاذ أرواح البشر من أحياء وأموات » . كما أدخل هس فى الكنيسة مبدأ « القضاء والقدر »؛ ذلك المبدأ الذى أدانته الكنيسة كهرطقة فى القرن التاسع الميلادى

والذى اعترف به كلفن فى القرن السادس عشر .

على أن خصوم هس وجهوا إليه تهمة الهرطقة (الزندقة) ، وعقد مجلس كنسي خاص هو مجلس كونستانس Council of Constance من ١٤١٤ إلى ١٤١٥ فى مدينة كونستانس . وقد شمل جدول أعمال هذا المجلس ثلاثة أمور رئيسية ، وهى القضاء على الإنقسام الدينى ، والإصلاح الكنيسى، والقضاء على حركات الهرطقة المنتشرة وقتذاك ؛ وحاكمه وأمر بإعدامه ، وإحراق كل كتبه ، وسلمه إلى أمير مدينة كونستانس الذى نفذ فيه حكم الإعدام فى عام ١٤١٥ .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر جاء دور مصلحين آخرين سلطوا الأضواء على مخازى الكنيسة وفضائحها وأبرزوها للرأى العام . وكان من أشهر المهاجمين للكنيسة عنفاً الراهب سافونا رولا (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) الذى سبق الإشارة إليه ، إذ كتب يقول : « إن الفساد يبدأ فى روما ، ثم يمتد ليشمل رجال الدين عن بكرة أبيهم » ، ويمضى يصف فى إسهاب الإنحراف الخلقى الذى تردى فيه أفراد هذه الطبقة ، ويذهب فى هجومه على البابوية إلى إتهام البابا اسكندر السادس بأنه غير مسيحى ، وأنه ملحد لا يؤمن بوجود الله . وهكذا فقدت الكنيسة المكانة العالية التى كانت قد تبوأتها ، واهتز الأساس الروحى والأخلاقى الذى أقامت عليه نفوذها ، بل جبروتها فى العصور الوسطى . وبات المسيحيون فى دول غرب أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة ، والقضاء على الانحرافات الخطيرة التى ظهرت بين رجالها ، وتطوير نظمها ، وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحى .

وكان هناك اتجاهان لإصلاح الكنيسة : الإتجاه الأول هو أن يقوم رجال الكنيسة أنفسهم بإصلاح الكنيسة من المفاسد التى لوثتها ، ويسمى هذا الإتجاه الإصلاح من الداخل . وكان قوام هذا الإتجاه عقد المجامع الكنسية تباعاً وفى

فترات متقاربة نوعاً ما ، ويطلق عليها « حركة المجامع الكنسية » ، غير أن هذه الوسيلة فشلت ، وكان على رأس المطالبين بإصلاح الكنيسة دون الخروج عليها ، أو الإنفصال عنها ديزيديروس إرزمس Desiderius Eramus (١٤٦٧ ـ ١٥٣٦)، زعيم الدراسات الإنسانية بلا منازع . ولقد شن حملة عنيفة على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية ، إذ كان هذا الرجل عالماً وداعية ،صاحب رسالة يهتم اهتماماً زائداً بالسلوك الأخلاقى لدى الفرد ، قبل اهتمامه بأيه صفة أخرى ، قد تضفى عليه ثراء أو جاهاً . ولم يكن فى أوروبا عالم يدانيه فى قوة تأثيره على أفراد جيله ، فقد أوتى موهبة فى استخدام الأسلوب التهكمى فى كتاباته التى وضعها فى لغة لاتينية سهلة ، وسخر موهبته هذه فى الحديث عن فضائح ومعايب رجال الدين ، وجعلهم موضوعاً للتهكم والسخرية والاحتقار والتسلية . وكان لكتاباته سلطان استهوى أفئدة معاصريه ، وكان إرزمس معاصراً لمارتن لوثر ، وسار معه فى نفس الاتجاه الإصلاحى ، ولكن سرعان ما افترقا بعضهما عن بعض ؛ قاد لوثر حركته الدينية وانتهى بالخروج على كنيسة روما ، بينما ظل إرزمس على ولائه لهذه الكنيسة معتقداً أنه فى الإمكان إصلاح نظمها وقوانينها ورجالها ، وألاّ يفرض عليها الإصلاح من خارج الكنيسة ، ،بل يجئ إليها من داخلها ، أى من رجال الدين أنفسهم ، ولم يدر بخلد إرزمس أن يخرج على الكنيسة . ولكن كتاباته أساءت إلى الكنيسة ، لأنها كشفت عن نواحى الضعف ، بل التدهور الذى أصاب رجالها ، وجعل الدعوة إلى الإصلاح والتغيير تجد استجابة سريعة من الرأى العام الأوروبى .

أما الاتجاه الثانى فهو أن يفرض الإصلاح على الكنيسة فرضاً على أيدى رجال من خارجها ، ويسمى هذا الاتجاه الإصلاح من الخارج . وكان على رأس الداعين إلى الأخذ بهذا الاتجاه مارتن لوثر فى ألمانيا ، وزونجلى فى زيورخ بسويسرا، وكلفن فى فرنسا ، ثم فى جنيف بسويسرا .

وهكذا تضافرت عدة عوامل على قيام وانتشار حركة مارتن لوثر مثل تدهور الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وروح النقد والتحرر من القيود التى فرضتها الكنيسة على حرية البحث والتفكير ، وموقف حكام ألمانيا فى الوحدات السياسية العديدة ، وهو موقف أملته رغبتهم فى التخلص من سيطرة كنيسة روما ، وتدخل البابا من ناحية ، وتطلعهم إلى الاستئثار بأموال الكنيسة وممتلكاتها الشاسعة من ناحية ثانية ، وصكوك الغفران . وكانت هذه الصكوك هى السبب المباشر فى قيام الحركة الدينية التى حمل لواءها مارتن لوثر ، وتطورت تطوراً سريعاً إلى حركة دينية ثورية .

مارتن لوثر وحركة الإصلاح البروتستنتى (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) :

ولد مارتن لوثر فى العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ فى آيزليبن Eisleben ، وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة سكسونيا بألمانيا ، وكان والداه فقيرين يشتغلان بفلاحة الأرض . وقضى طفولته وصباه فى حياة تزاحمت فيها عليه أسباب التعاسة والفقر والبؤس ، ولكن أتيح له ، حين بلغ أشده ، أن يلتحق بجامعة إرفورت Erfurt ، حيث درس القانون . وكانت هذه الجامعة قد أدخلت على مناهجها الدراسات الإنسانية القديمة ، كما نظمت فى رحابها دراسات دينية متعمقة . وظل لوثر فى هذه الجامعة أربع سنوات ، وحصل على درجته الجامعية، ثم بدا له أن يغير طريقه فجأة ، فدخل فى يونيو ١٥٠٥ ديراً يتبع طائفة القديس أوغسطين ، وأصبح راهباً ينتمى إلى هذه الطائفة الدينية ، وكان عمره إذ ذاك اثنين وعشرين عاماً ، وتوفر على العبادة من صوم وصلاة ، وأخذ نفسه بأسباب الزهد والتقشف وتعذيب النفس ابتغاء التخلص من خطاياه ، والظفر برحمة الله ، وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة مستفيضة ، وكذلك كتابات القديسين أوغسطين وبرنار .

وفى عام ١٥٠٨ تسلطت عليه رغبة جامحة فى الإلتحاق بجامعة وتنبرج Wittenberg ليستكمل دراساته فى اللاهوت . وكانت مشاعره الدينية والقومية

هى التى أوحت إليه بالاتجاه إلى هذه الجامعة ، فقد كانت تحت إشراف الطائفة الدينية التى ينتمى إليها وهى طائفة القديس أوغسطين . وكان فردريك ناخب سكسونيا هو الذى أنشأ هذه الجامعة عام ١٥٠٢ ، وكانت وقتذاك أحدث وأصغر جامعة فى ألمانيا ، ثم هى جامعة نشأت فى المدينة التى ينتمى إليها لوثر . ولكن هذه الجامعة واجهت صعوبة بعد إنشائها من قلة عدد طلابها ، فالمدينة التى قامت الجامعة فى رحابها كانت مدينة صغيرة ، لا يتجاوز تعدادها ثلاثة آلاف نسمة ، ولا يستطيع هذا العدد الصغير من السكان أن يمد الجامعة بأعداد كافية من الطلاب ، إذ بلغ عدد طلابها فى إحدى السنوات ستة وخمسين طالباً ؛ ومع ذلك فقد كانت الأقدار تدخر لمدينة وتنبرج وجامعتها مستقبلاً زاهراً ، أما المدينة فقد قامت بدور قيادى لإحدى حركات الإصلاح الدينى فى العالم . وهكذا أصبحت جامعة وتنبرج مركز الإشعاع الفكرى فى ألمانيا للتعاليم اللوثرية ، والمعهد العلمى الأول لهذه الدراسات فى أعلى مستوياتها . وكانت الحركة اللوثرية قد جاءت بمبادئ مستقاة من الإنجيل رأساً ، ونبذت الخرافات والتقاليد التى درجت عليها الكنيسة فى روما عصوراً وأدهاراً . ومما هو جدير بالذكر ، أن بعض أعضاء هيئة التدريس فى جامعة كمبردج فى انجلترا ، قد استهوتهم تلك الآراء والمبادئ والتعليم التى تجد لها سنداً فى نصوص الإنجيل ، وكان دور هؤلاء الأساتذة من العوامل التى ساعدت على تحول انجلترا إلى المذهب البروتستنتى .

وأتيحت لمارتن لوثر فرصة زيارة مدينة رروما حين أوفد فى عام ١٥١١ فى مهمة رسمية ممثلاً لطائفة القديس أوغسطين ، وعين رئيساً لمنطقة ديرية تضم أحد عشر ديراً من الأديرة التابعة لهذه الطائفة . وفى أثناء مهمته فى روما تبرك بزيارة كل الأماكن المقدسة فيها ، ولكن انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين ، ومن بينهم البابوات ؛ جعلته يعلق على ما رآه فى روما بجملة معبرة فقال : « إن كل من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى

تصيبه من جراء ما يرى هناك » . وعاد لوثر إلى وتنبرج ، وقلبه مفعم بالسخط على رجال الكنيسة . وفي السنة التالية ١٥١٢ ، عين أستاذاً لكرسي اللاهوت في جامعة وتنبرج ، وجعل رسالته الأولى في الحياة التدريس والوعظ ، وقد أصاب في كلا الميدانين نجاحاً رائعاً . وهداه تفكيره أثناء قيامه بالتدريس الجامعي إلى أن الإنسان مليء بنوازع الشر ، وليس في مقدور الإنسان أن يكون متصلاً بالله إلا إذا كان قلبه عامراً بالإيمان بالله ، وأن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً ، إذا تاب الإنسان المؤمن إليه ، وأنه لا خلاص للإنسان إلا بالإيمان برحمة الله ، وأن الغرض من الصلاة وسائر أنواع العبادات ليس التخلص من الذنوب ، ولكن إسداء الحمد والشكر للإله الرحيم . وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة « التبرير بالإيمان » Justification by Faith . وقد أخذ لوثر على الكنيسة أنها ، في أحسن حالاتها وأفضلها ، تحض الناس على الأعمال الصالحة ، ولكنها تهمل إرشادهم إلى الإيمان الصحيح .

وسنحت الفرصة لإظهار هذه العقيدة بشكل حاسم في عام ١٥١٧ ، عندما أخذ الراهب يوحنا تتزل Tetzel ، وهو من أتباع الطائفة الدينية التي تسمى الدومنيكان ، يبيع صكوك الغفران لحساب البابوات ولحساب بعض الأمراء . ولقد أمسك تتزل بالصكوك في يده ولوح بها في الهواء ، وقال مخاطباً الفلاحين السذج الذين التفوا حوله أنهم إذا ما أسهموا عن طواعية ، واشتروا صكوك الغفران ، فإن كل تلال مدينة أنابورج Annaburg ، وهي مدينة ألمانية في مقاطعة سكسونيا ، ستستحيل إلى كتلة هائلة من فضة صافية . وبلغت الوقاحة بهذا الراهب مداها حين قال أيضاً الجماهير : إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها ، فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل . وأثارت هذه التصريحات مكامن السخط في نفس مارتن لوثر ، فتحرك لمهاجمة صكوك الغفران ، وانتهز فرصة اجتماع الأهالي على عادتهم في كنيسة وتنبرج

فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، وهو يوم الاحتفال بعيد الشهداء ، وعلق على باب الكنيسة إحتجاجاً ، يتضمن خمسة وتسعين بنداً ضد صكوك الغفران . وذاع أمر هذه الوثيقة وطبعت بمعرفة صديق له ، ووزعت فى طول البلاد وعرضها . وفى هذه الوثيقة هاجم لوثر الغفران كعملية دينية تمارسها الكنيسة الكاثوليكية فى صورة تتنافى مع المسيحية الحقة . وهاجم الأركان الثلاثة التى أقامت عليها الكنيسة فكرة الغفران ، وهى التوبة والندم Repeatence والاعتراف بالذنوب Confession وتكفير الذنب Satisfaction . وقرر لوثر فى جرأة مثالية أن البابا لا يستطيع غفران الدنوب ، وأن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعاً . وفى أثناء المناقشة التى تمت بين لوثر وبين الراهب يوحنا تتزل ، صرح لوثر بأن الكتاب المقدس وحده هو المصدر ، وهو القانون الذى يجب الاعتماد عليه فى تفسير جميع المسائل الدينية . وهكذا لم يطالب لوثر بإصلاح نظم الكنيسة فحسب ، بل طالب بإصلاح العقيدة الكاثوليكية ذاتها ، فكأنه هاجم الكنيسة فى نفوذها ونظمها وثرائها غير المشروع ، وفى عقيدتها معاً . وكان لهجومه على هذه الصكوك صدى بعيد فى نفوس المسيحيين ؛ لأن مساوئ رجال الدين كانت قد استشرت وفاحت رائحتها ، بحيث لم يكن فى استطاعة أحد الدفاع عنها دفاعاً خالصاً بريئاً من الأغراض النفعية .

وقد بذلت محاولة لإلقاء القبض على لوثر وترحيله إلى روما ، ولكن هذه المحاولة أخفقت بفضل تدخل فردريك ناخب سكسونيا الذى لم يقبل إطلاقاً أن يحاكم أحد من رعاياه فى روما . ورأى البابا أن يسلك مع لوثر طريق الإقناع ، وفعلاً أرسل إليه الكاردينال كاجيتان Cajetan ، وحاول أن يقنعه بأخطائه فى مهاجمة الكنيسة ، كما حاول أن يغريه على أن يتعهد بعدم العودة إلى ترديد آرائه ؛ وأجاب لوثر بأنه على استعداد لتحكيم إحدى الجامعات الكبرى فى النزاع الذى شجر بينه وبين البابا . ومضت سنة ١٥١٨ فى محاولات ومفاوضات

ومناظرات للتوفيق بين لوثر وبين كنيسة روما ، ولم تسفر عن نجاح ، وأطلق على هذه الحركة اسم « مشادة الرهبان » . وفى السنة التالية ظهر ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الانفصال عن كنيسة روما أصبح أمراً لا مفر منه ، ونظمت مناظرة بين لوثر وبين حنا إيك Ech وهو أحد كبار أنصار الكنيسة الكاثوليكية ، واختيرت مدينة ليبزج مقراً للمناظرة ، وقد أقيمت فى خلال شهر يوليو ١٥١٩ ، وجرت المناقشة حول نقطتين أساسيتين : رياسة البابا لكنيسة روما ، والمدى الذى تصل إليه سلطات البابا الروحية والمدنية على العالم المسيحى . وصرح لوثر بأن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة لم تكن معروفة على عهود الرسل الأولين ، وقرر أيضاً أن المجامع الكنسية وغيرها من المجالس الدينية ليست معصومة من الخطأ .

واتخذ لوثر تباعاً عدة خطوات عملية لتنفيذ الإصلاح الدينى ؛ فوجّه فى سنة ١٥١٩ الدعوة إلى حكام الولايات الألمانية من الأمراء ومن إليهم ، كى يتزعموا هذ الحركة صلاحية . ومعنى هذه الدعوة أن مارتن لوثر قد صحت عزيمته على إرغام الكنيسة على قبول الإصلاح على أيدى أناس من غير رجالها، أى إصلاح الكنيسة من الخارج ، طالما أنها لم تستجب للدعوات المكررة بإصلاح نفسها . وكان عدد كبير من حكام المقاطعات فى ألمانيا معداً من قبل لتأييد هذه الحركة الإصلاحية ، بل الترحيب بها قلباً وقالباً ، نظراً للمكاسب السياسية والمادية التى تعود عليهم من ورائها .

وحدد لوثر عدة مبادئ لحركة الإصلاح الدينى التى دعا إليها ، وكان من بين هذه المبادئ :

أولاً : إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية .

ثانياً : ليس للبابا الحق فى احتكار تفسير الإنجيل .

ثالثاً : إباحة الزواج للقسس ، وقد تزوج لوثر فيما بعد عام ١٥٢٥ بإحدى الراهبات واسمها كاترين بورا Bora.

رابعاً : إباحة الطلاق للمسيحيين .

خامسا : عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء عدد من الأديرة القائمة ، وتحويل نزلائها إلى الحياة المدنية ؛ ثم أعلن إلغاء الديرية والرهبنة ، وكان زواجه تطبيقاً عملياً وتدعيماً لهذا الإلغاء .

وكان المبدأ الأول ذا أهمية قصوى ، فهو إحياء الشعور القومى فى ألمانيا ، لأن إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية يؤدى إلى مزيد من النفوذ السياسى لحكام المقاطعات الألمانية ، ومزيد من أموال المؤسسات الدينية ، سواء المؤسسات الكنسية أو الديرية ، فى ألمانيا يذهب إلى خزائن أولئك الحكام ، ينفقون منها على شئون الحكم والإدارة وما إلى ذلك ، بدلاً من تحويلها إلى كنيسة روما التى أصبحت فى نظر الشعب الألمانى كنيسة أجنبية ، فقدت طابعها العالمى وتحولت إلى كنيسة إيطالية .

ولقد اتخذ لوثر خطوة أخرى ، إذ أراد أن يحسم الموقف كتابة بدلاً من المناظرات ؛ فوضع فى عام ١٥٢٠ ثلاث رسائل تسمى « الرسائل الثلاث العظمى فى حركة الإصلاح الدينى » . كانت الرسالة الأولى عبارة عن نداء وجهة باللغة الألمانية إلى قادة الفكر من غير رجال الدين فى ألمانيا ، حثهم هذا النداء على الشروع فى إصلاح الكنيسة بأنفسهم ، دون الاعتماد على رجال الكنيسة ، وهو ما يعبر عنه بالإصلاح من الخارج . وكان عنوان هذه الرسالة « إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحى » . وكانت الرسالة الثانية قد وضعها باللاتينية وهى رسالة غريبة عنوانها « حرية الرجل المسيحى » ، ووجه الرسالة إلى البابا ليو العاشر على أنها نداء للسلام . وكانت الرسالة الثالثة

باللغة اللاتينية أيضاً وجهها إلى رجال الفقه الديني ، ووضع عنواناً لها « مقدمة عن الأسر البابلي الكنسي » . وإزاء هذا التحدي السافر الذي بدأ من لوثر وإصراره على موقفه ، أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان Excomunication ضده .

مجلس ورمس Worms (١٥٢١) :

طلب البابا إلى شارل الخامس ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، تنفيذ قرار الحرمان البابوي تأسيساً على أن لوثر يقيم في إقليم سكسونيا الداخل في أراضي هذه الدولة . ورأى الإمبراطور أن يعرض الموضوع على المجلس الإمبراطوري (الدايت Diet) ، فوجه الدعوة لاجتماع المجلس في مدينة ورمس ، وهي مدينة ألمانية تقع على نهر الراين ، ودعا لوثر كي يحضر أمام المجلس في ١٧ أبريل ١٥٢١ ، ومنحه الإمبراطور أماناً شخصياً يتيح له السفر من مدينة وتنبرج إلى مدينة ورمس ، والإقامة في المدينة الأخيرة في أثناء فترة إنعقاد المجلس الإمبراطوري ، ثم العودة إلى بلدته دون أن يلقى القبض عليه أو يتعرض له أحد بسوء .

واستجاب لوثر لهذه الدعوة ، ومع ذلك فقد أقام حفلاً كبيراً في ميدان أحد الأسواق العامة في مدينة وتنبرج ، وذلك في ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ وأمام الجمع الحافل الذي حضر الحفل أحرق لوثر قرار الحرمان البابوي الصادر ضده ؛ كما أشعل النار في مجلدات عديدة تشمل مجموعات كاملة من المراسيم البابوية والقوانين الكنسية ، بينما كان الطلبة وسائر الحاضرين يرتلون الأناشيد الدينية شكراً لله . وبهذا الإجراء بلغ التحدي مداه ، وانقلبت حركة لوثر إلى حركة قومية، تقف في وجه كنيسة أجنبية وهي كنيسة روما ، وسرعان ما أصبح لوثر زعيماً وطنياً .

كانت هناك مسائل أخرى غير مسألة لوثر مدرجة فى جدول أعمال المجلس الإمبراطورى فى ورمس ، ولكن مسألة لوثر احتلت مكان الصدارة فى اعتبار الجميع . ومن جهة أخرى كانت هذه هى أول مرة يحضر فيها إلى ألمانيا شارل الخامس بعد انتخابه وتتويجه إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة . وزاد فى حرج موقفه أنه لم يكن أمامه سبيل للاختيار بين موقفين : إما أن يؤيد حركة دينية اتخذت سريعاً الطابع القومى الألمانى ، ويكون الإمبراطور فى هذه الحالة زعيماً لثورة ألمانية قومية ضد كنيسة روما ، وإما أن يتصدى لسحق هذه الحركة على أساس أنه سليل أسرة هابسبرج ، وملك أسبانيا الكاثوليكية ، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . والحق أن تقاليد أسرته وتقاليد منصبه الملكى فى أسبانيا ومنصبه الإمبراطورى فى ألمانيا ، وتربيته المحافظة وعاطفته الدينية ، كل أولئك لم يترك له مجالاً للاختيار ، بل إن كل هذه الاعتبارات أملت عليه خطة العمل وهى ضرورة القضاء على الحركة باعتبارها هرطقة فى نظرة ، وتلاقت رغبة الإمبراطور فى هذا الصدد مع رغبة معظم أعضاء المجلس .

وكان من حسن حظ لوثر أن الدستور الألمانى كان فى معظم فصوله حبراً على ورق ؛ فقد ظل حكام الوحدات السياسية العديدة فى ألمانيا يناضلون قروناً متعاقبة من أجل الإبقاء على البعثرة السياسية فى ألمانيا حفاظاً على امتيازاتهم وإستقلالهم ، وأصبح كل أمير حراً تجاه قرارات المجلس الإمبراطورى ، ينفذ ما يروقه منها ، ويتجاهل ما عداها . وعلى ذلك فإن زمام الموقف ، فيما يختص بلوثر، كان فى يد فردريك ناخب سكسونيا ، وقد صحت عزيمته على إحاطة لوثر بسياج من الحماية ، فلا تمتد يد بسوء إلى شخصه .

كان توجيه الدعوة إلى مارتن لوثر للحضور أمام المجلس الإمبراطورى فى ورمس مثار استياء رجال الدين . وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى أنه ليس هناك

داع لمساءلته من جديد ، أو سماع أقواله بعد أن أدانه البابا بإصدار قرار الحرمان ضده . أما الامبراطور فكان له رأى آخر هو وجوب إعطاء لوثر فرصة أخيرة لعله يتذكر أو يخشى . وقد ظهر لوثر أمام المجلس الإمبراطورى مرتين : وجهت إليه فى المرة الأولى ـ وكانت فى ١٧ أبريل ١٥٢١ ـ عدة أسئلة من بينها : هل الكتب الموضوعة على المنصة من تأليفه ؟ وهل ترغب فى التراجع عن الآراء الواردة فيها ؟ وقد طلب لوثر إمهاله فرصة للرد على الأسئلة . وفى اليوم التالى أعلن أنه لا يستطيع التراجع عن أى موضوع تعرض له فى كتاباته . ولم يمض وقت طويل حتى أصدر الإمبراطور بياناً مؤرخاً ١٩ أبريل ١٥٢١ أعلن فيه سخطه على الحركة اللوثرية ، واتهم لوثر بأنه يبغى أن يزعزع إيمان المسيحيين بدينهم ، وهو إيمان تمسكوا به منذ أكثر من ألف سنة . وفى ٢٦ مايو ١٥٢١ صدر قرار ورمس Edict of Worms بطرد لوثر خارج القانون ، وإهدار دمه باعتباره هرطقياً عنيداً مشاغباً يعرض أمن الدولة الداخلى والخارجى لأخطار فادحة ، كما تضمن قرار ورمس حظر تداول كتب لوثر ومنع قراءة جميع كتاباته .

وتزايدت الأخطار المحدقة بمارتن لوثر بصدور قرار مجلس ورمس ، وعادت إلى الأذهان النهاية المفجعة التى انتهت إليها حياة المصلح الدينى التشيكى هس Huss ، فقد أظهر الإمبراطور للسلطات المحلية رغبته فى احترام الأمان الممنوح لمارتن لوثر طوال الفترة المحددة له ، وأذن له فى أن يبرح آمناً مدينة ورمس ، ولما انقضت مدة الأمان طلب الإمبراطور من الأمراء حكام المقاطعات الألمانية ألا يمتنعوا فحسب عن تقديم أية مساعدة للوثر ، بل طالبهم بإلقاء القبض عليه وتسليمه للسلطات الإمبراطورية . وفى هذا الوقت العصيب أعطى فردريك ناخب سكسونيا حمايته لمارتن لوثر فأنزله فى قلعة ورتبرج Wartburg ، وهى قلعة أقيمت فيها تحصينات محكمة . وقد ظل هذا الناخب حتى وفاته فى عام ١٥٢٥

وفياً لمبدأه مقيماً على عهده ، وهو عدم التضحية بمارتن لوثر فأضفى عليه حماية جعلته بمنأى عن بطش البابوية والإمبراطورية معاً .

وقضى لوثر فى مخبئه ـ قلعة ورتبرج ـ تسعة أشهر فى تفكير عميق ونشاط ذهنى جم ، فقام بترجمة الإنجيل كله إلى اللغة الألمانية . وأتاحت هذه الترجمة لعامة الشعب الألمانى قراءة الكتاب المقدس فى يسر وسهولة ، فتذوقوه ديناً ولغة وأدباً . وكان لهذه الترجمة أثر كبير فى إحياء الأدب الألمانى ، وجعلت من لوثر أحد الرواد الأعلام فى النهوض باللغة الألمانية ، وأحد واضعى دعائمها . وفى أثناء عزلة لوثر فى قلعة ورتبرج اتصل به فيلسوف ألمانى متعمق فى الدراسات الإغريقية وهو فيليب ملانكتون Mellancton ، وتوثقت الصلات بينهما حتى أصبح أقرب أصدقاء لوثر ، وقد كان له نعم المساعد فى وضع فلسفة واضحة للإصلاح اللوثرى ، وقد أطلق عليه لقب أب الكنيسة اللوثرية ولم يكن فى طباعه ذلك العنف الذى عرف عن لوثر .

وإذا كانت الظروف السياسية التى أحاطت بألمانيا قد ساعدت على إنتشار الحركة اللوثرية ، فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى سادت أرجاء ألمانيا جعلت الحركة تأخذ فى مسارها اتجاهات معينة وأوضاعاً معينة فيخرج من أنصارها طوائف من السكان ، وتلتصق بها طوائف أخرى ورأى بعض الألمان فى الحركة اللوثرية الفرصة لتنفيذ آراء خاصة كانوا يؤمنون بها ، ثم جاءت هذه الحركة التحررية الدينية فشجعتهم على المجاهرة بها . ورأى غيرهم ـ وهم كثرة عددية ساحقة ـ فى الحركة اللوثرية فرصة مواتية لتحقيق مغانم لهم ، أو تحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية . وقد لجأ هؤلاء وأولئك إلى العنف وسيلة لتحقيق مطالبهم ، ووقعت مصادمات انقلبت إلى ثورات هادرة أريقت فيها الدماء، وانزعج لوثر من هذا التطور الذى لحق بحركته ، وكان حريصاً على تحريرها من الأغراض الأخرى ، واضطر إلى الخروج من مخبئه لكبح جماح

الجماهير . وكان من أهم حوادث الاضطرابات ثلاث حركات : المطالبون بإعادة التعميد ، وحركة الفرسان ، وثورة الفلاحين .

١ ـ المطالبون بإعادة التعميد :

لقد طالبت هذه الطائفة بعدم الإكتفاء بتعميد الأطفال ، والتعميد هو ، تغطيس الطفل فى الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الآب والابن والروح القدس . وقالت هذه الطائفة أن تعميد الأطفال وهم فى سن مبكرة لايتمشى مع تعاليم الإنجيل . ولذلك طالبت فى ١٥٢٥ بإعادة تعميدهم مرة أخرى حين يبلغون سن الحلم ؛ وكانت حجة أفراد هذه الطائفة فى إعادة التعميد أن أركان الحياة الدينية الصحيحة لا تتوافر إلا فى التعميد المتأخر . وقد أطلق على رجال هذه الطائفة اسم « المطالبون بإعادة التعميد » . وقد نادوا بآراء أخرى غير إعادة التعميد وإن ظلت التسمية الأولى عالقة بهم . ومن هذه الآراء أنه لا يجوز للمسيحى أن يشهر السلاح فى وجه مسيحى ، كما لا يجوز لمسيحى أن يقاضى أخاه المسيحى ، بل يجب أن تسوى المشكلات بينهما بالتراضى ، وتحريم أداء اليمين . وقد بدأت هذه الحركة أول الأمر فى جنوبى ألمانيا ثم اتخذ أصحاب هذه الحركة مدينة مونستر مركزاً لنشاطهم ، وانضم إليهم آلاف الفقراء والسذج البائسون ، وامتدت الحركة إلى أنحاء شتى من أملاك الإمبراطورية ، وتطرف بعض زعماء الحركة فنادى أحدهم بالشيوعية وتعدد الزوجات ، وجعل من نفسه قدوة لأنصار الحركة فكانت له ست عشرة زوجة .

وقد تطرفوا فى حركتهم ولجأوا إلى أعمال العنف ، ووقعت اضطرابات دامية عرضت الحركة اللوثرية وأنصارها للخطر . وقد تعاونت السلطات وعلى رأسها الأمراء البروتستانت مع الهيئات الدينية فى سحق هذه الحركة وضرب القائمين بها دون شفقة أو هوادة .وقد تخلصت مدينة مونستر ـ قلعة القائمين

بهذه الحركة ـ منهم فى يونيو ١٥٣٥ . ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين إلى القول بأن المطالبين بإعادة التعميد كانوا بمثابة العناصر اليسارية المتطرفة فى الحركة اللوثرية .

٢ ـ حركة الفرسان Knights :

اعتاد الفرسان أن يعيشوا على الحروب ، وأن يحققوا لأنفسهم عن طريقها مكاسب وإمتيازات . ولما فقدت طائفة الفرسان الكثير من هيبتها وقوتها وإمتيازاتها بسبب إنحلال نظام الإقطاع ، أخذت فى مهاجمة الفلاحين ، ونهب ثروات التجار ، حتى أمسوا أخطر طبقة فى ألمانيا تهدد الحياة الاقتصادية ، وتهدد الأمن والسلام فى البلاد . وعندما قامت الحركة اللوثرية وجدوا فيها فرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم ، واتخذ الفرسان من لوثر ذريعة لمهاجمة الكنيسة والإستيلاء على أملاكها من ناحية ، والتحلل من سيطرة الأمراء عليهم من ناحية أخرى . ومن ثم قاموا بحركة ثورية أضفوا عليها الطابع الدينى . فاقتحموا الكنائس ، وحطموا ما كانت تزخر به من تماثيل وصور وزخارف . وقد تزعم هذه الثورة فارسان ألمانيان هما فرانز فون سيكنجن Frenz Von Sickingen والريك فون هوتن Ulrich Von Huten ، وقد وضع الاثنان خطة حربية للهجوم على مدينة تريف Treves، واستنجدا بالمدن المجاورة ، ولكن لم يجدا استجابة ولذلك فشل الهجوم على تريف، كما امتنع لوثر عن تأييدهم ، بسبب الشدة والعنف الذى اتصفت به حركتهم ، وسرعان ما اتحد الأمراء (كبار النبلاء) فيما بينهم كى يدفعوا عنهم هذا الخطر بالقوة المسلحة ، ثم أن حركة الفرسان هذه لم تجد أى عطف عليها من جانب الفلاحين الذين كرهوا الفرسان بسبب ما أنزله هؤلاء بهم من إرهاق شديد . وأخيراً فشلت حركتهم عندما قتل سيكنجن وهرب هوتن إلى سويسره سنة ١٥٢٣ ومات بها .

٣ ـ حركة الفلاحين :

كانت ثورة الفلاحين أعنف الحركات الثلاثة على الإطلاق ، وقد قام بها الفلاحون الألمان ، ولم تكن هذه الثورة هى الأولى من نوعها فى ألمانيا ، فقد سبق أن قامت ثورات على شاكلتها قبل ظهور الحركة اللوثرية لدفع المظالم التى إنهالت على الفلاحين فى ظل الأوضاع السائدة فى المجتمعات الألمانية وقتذاك . أما الثورة التى نشبت فى سنتى ١٥٢٤ و ١٤٢٥ عقب ظهور حركة مارتن لوثر فقد كانت ترجع إلى حالة الفلاحين الألمان ، الذين كانوا لا يزالون يعانون من قيود الإقطاع كرقيق الأرض ، فقد كانت أموالهم وجهودهم وأعمالهم موزعة بين الأمراء ورجال الدين والفرسان يؤدون لهؤلاء وأولئك شتى أنواع الضرائب نقداً وعيناً وعملاً ، ويحرم عليهم ممارسة كثير من الحقوق ؛ وعلى سبيل المثال كان يحال بينهم وبين صيد الأسماك فى الأنهار والقنوات ، وصيد الحيوانات فى الغابات ، بينما كانت تنتهك أراضيهم وبيوتهم وأعراضهم . فلما جاءت الحركة اللوثرية علق الفلاحون عليها أعذب الآمال ، إذ كانت قد ترامت إلى أسماعهم المبادئ والآراء التى كان ينادى بها لوثر مثل الحرية والإنسانية ، والإخاء الجرمانى ، والمساواة بين جميع الناس ، فاستهوتهم هذه الآراء ، كما طابت لهم مهاجمة لوثر لرجال الدين ، وكان الفلاحون يشكون منهم مر الشكوى بسبب إسرافهم فى فرض ضريبة العشور وغيرها من ضرائب ورسوم مختلفة الأسماء والفئات والأنواع . لقد اعتقد الفلاحون أن الحركة اللوثرية ستؤدى إلى تحريرهم من الرق كخطوة أولى لتغيير أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية نحو نظام أفضل . ويلاحظ أن لوثر فى بدء حركته لم يكن معادياً للفلاحين بل كان يعتمد عليهم ، وكان يفاخر بأنه ينحدر من أبوين اشتغلا بفلاحة الأرض .

ومن العوامل التى أدت إلى إستفزاز الفلاحين ارتفاع أسعار حاجيات المعيشة إرتفاعاً فاحشاً ، كما أن الاقطاعيين استغلوا هذا الغلاء ، وأصروا على أن يتقاضوا ضرائبهم عيناً أى من نفس المحاصيل الزراعية .

ونتيجة لذلك وضع الفلاحون بياناً صدر فى مارس ١٥٢٥ ضمنوه مطالبهم، وتمثلت فى اثنتى عشرة مادة كانت فى مجموعها تستهدف الإلغاء الفورى لكثير من الإلتزامات الإقطاعية المفروضة عليهم . وعلى الرغم من أن معظم هذه المطالب كانت تتسم بالطابع المادى إلا أن الفلاحين كانوا يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن إصلاح أحوالهم المعيشية لن يتأتى إلا إذا تم إصلاح الكنيسة ، وعلى غرار ما فعل مارتن لوثر طالب الفلاحون أن تنظر مطالبهم فى ضوء ما ورد الكتاب المقدس .

بدأت ثورة الفلاحين فى الجنوب الغربى من الغابة السوداء ، وأخذت أول الأمر الطابع المحلى احتجاجاً على إسراف السلطات الحكومية فى فرض نظام السخرة على الفلاحين . ولكن سرعان ما انتشرت الثورة فى نطاق واسع ، وأخذت الطابع العام ، وبلغت عنفوانها فى الأقاليم الواقعة فى الجنوب الغربى فى ألمانيا وفى الحوض الأعلى لنهر الراين وحوض الدانوب الأعلى ، ثم امتدت صوب الشرق فى إقليم التيرول وكارنثيا إحدى مقاطعات النمسا ، ثم اتجهت صوب الشمال فى الأراضى السكسونية مسقط رأس مارتن لوثر والمقاطعة التى شهدت مولد حركته الدينية التحررية . وبلغت الثورة الذروة من الخطورة حين اندست عناصر أخرى فى صفوف الثوار تزعمتها وحولتها إلى ثورة شيوعية جامحة . وكان فى مقدمة هذه العناصر الدخيلة المطالبون بإعادة التعميد ـ وقد سبق أن تكلمنا عنهم ـ وكان على رأسهم توماس مونزر Munzer حاكم زويكو Zwichau ، وهى مدينة ألمانية، وكان قد نصب نفسه زعيماً لثورة الفلاحين ووضع إمكانياته كلها لإنجاح الثورة ، وسرعان ما استبان أن تأييده المطلق للثورة كان لتحقيق أهداف أخرى .

لقد أقام مونزر فى إحدى مدن ألمانيا (مولهاوسن) مجتمعاً شيوعياً صارخاً يحرم الملكية الفردية، ويقوم على المساواة المطلقة بين الأفراد،وعلى شيوعية الملكية، وغير ذلك من مبادئ لقيت استجابة سريعة من الفلاحين الذين نادوا بإستخدام القوة الكاسحة على أساس أنها الوسيلة الوحيدة لإقامة المجتمع الشيوعى.

أما لوثر فقد انزعج إنزعاجاً شديداً من هذه الثورة ورأى فيها خطراً يتهدد حركته الإصلاحية الدينية ، فبدأ يقاومها بكل شدة لأن المطالب التى أرادوا تحقيقها هى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية ، كما أن المبادئ التى نادوا بها كانت فى نظره مطالب ومبادئ لا تمت بصلة لحركته الإصلاحية الدينية ، ومن شأنها أن تعرض هذه الحركة الإصلاحية إلى أكبر الأخطار . فوصف لوثر الثوار بأنهم « الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء » . وكانت هذه الثورة لذلك من أهم الأسباب التى جعلته يخرج من مخبأه . وأخذ لوثر يخطب فى الناس ، ويطلب من الأمراء (كبار النبلاء) أن يعملوا للقضاء على هذه الثورة . وسرعان ما اجتمعت قوة كبار النبلاء وصغارهم (الفرسان) ضد ثورة الفلاحين . وأخفقت هذه الثورة تماماً عندما انهزم الثوار فى موقعة فراكنهوزن Frankenhausen فى مايو ١٥٢٥ ، وأعدم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة .

وإذا كان مارتن لوثر قد حقق غرضه بإخماد ثورة الفلاحين ، فإن سحق الثورة لم يقض على العداء الطبقى بين أفراد الشعب الألمانى ، بل أنه أدى إلى تعميق الفروق بين طبقات المجتمع . ويهمنا هنا أن نقرر أن قطع دابر الثورة ترك آثاراً عميقة فى مستقبل الحركة اللوثرية ، وفى التشكيل الاجتماعى لأنصار هذه الحركة ، وفى دمغها بطابع العنف والاضطهاد الدينى والتنكيل بالخصوم . لقد قام الفلاحون بثورتهم وعلقوا آمالهم على لوثر ، ولكنهم لم يجدوا منه عوناً أو استجابة ، بل على النقيض مما كانوا يتوقعون ، لقوا معارضة وصلت إلى حد تحريض الأمراء وكبار الحكام على ضرب الفلاحين بكل قسوة وعنف . ومنذ هذا

الوقت ـ سنة ١٥٢٥ ـ فقدت الحركة اللوثرية هذه السمة التى لازمتها فى سنواتها الأولى ، ونعنى بها الشعبية العريضة ، كما فقدت الفرصة كى تكون حركة قومية بالمعنى المعروف ، وتهاوى مركز لوثر كزعيم شعبى ، واضطر أن يسقط من حسابه هذه القوة الشعبية الهائلة ، وأن يعتمد على أفراد الطبقة الوسطى وهم سكان المدن ، وعلى الأمراء الذين طالما ندد بمطالبهم وضعفهم ، كما اعتمد على الحكومات . أما الفلاحون ـ الكادحون فى سبيل لقمة العيش ـ فقد افتقدتهم الحركة اللوثرية التى وصمت نفسها بأنها حركة متعصبة ، بل مسرفة فى تعصبها الدينى ، فمما لا شك فيه أن حركة الفلاحين الذين اشتركوا فيها على أنهم ثوار سياسيون . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن دوافع لوثر فى مهاجمة ثورة الفلاحين كانت دوافع دينية أكثر منها دوافع سياسية .

وعلى الرغم من سحق ثورة الفلاحين ، فإن المشكلة الدينية لم تحرز أى نجاح فى سبيل إيجاد تسوية لها ، مما دعا شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة إلى توجيه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطورى ـ الدايت ـ فى مدينة سبير Speire فى بافاريا فى يونيه ١٥٢٦ لبحث المسألة الدينية ، والنظر فى موضوع تنفيذ القرار الذى اتخذه المجلس الإمبراطورى الذى عقد فى ورمس فى يناير ١٥٢١ بطرد لوثر خارج القانون وإهدار دمه وتحريم تداول مؤلفاته . وقد اتخذ المجلس قرارين : أولهما وجوب عقد مجلس أو جمعية وطنية فى وقت قريب لإيجاد حل « للشرور الكثيرة التى لا تتحمل تأخيراً » . وكان هذا القرار محاولة لتأجيل بحث المشكلة الدينية، ويتمشى مع الشق الأول من الإقتراح الذى ورد فى بيان الإمبراطور . أما القرار الثانى فقد انطوى على مفاجأة إذ جاء فيه أن « لكل أمير الحق فى أن يعيش وأن يسلك فى موضوع قرار ورمس المسلك الذى سوف يسأل عنه أمام الله وأمام حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور » . وكان هذا القرار يعنى أنه قد صار لكل أمير الحق فى أن يختار المذهب الدينى الذى يريده فى إمارته . وعلى هذا فقد

أصبح لأنصار لوثر فى ألمانيا بفعل هذا القرار أيضاً مركز معترف به . وكان هو السبب فى صدور هذا القرار . أما السبب الثانى لصدور هذا القرار فهو أن الإمبراطور كان يريد إيجاد نوع من المهادنة مع اللوثرين حتى تبقى الجبهة الداخلية فى ألمانيا سليمة فى الوقت الذى كان فيه الأتراك العثمانيون يقرعون بشدة أبواب المجر . وقد تحقق لهم بالفعل النصر المبين فى معركة موهاكس فى ٢٨ أغسطس ١٥٢٦ .

ولكن الموقف لم يلبث أن تغير ، إذ تفاقم الموقف فى ألمانيا بالنسبة للكاثوليك لأن كان حليفاً قوياً لأتباع لوثر ، ولذلك رأى الإمبراطور شارل الخامس أن يخطو خطوة أخرى نحو حل المشكلة الدينية ، التى باتت تهدد البلاد الألمانية بإنقسام دينى مذهبى خطير ، فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطورى مرة أخرى فى سبير فى مارس ١٥٢٩ وهو الذى يطلق عليه دايت سبير الثانى . وفى هذا المجلس تقرر أن تكون قرارات ورمس الصادرة فى ١٥٢١ نافذة المفعول ، كما قام بإلغاء الحرية التى أعطيت للأمراء فى مجلس سبير الأول لاختيار المذهب الذى يريدونه .

وقد جاءت قرارات المجلس الإمبراطورى الثانى المنعقد فى سبير ضربة أليمة للوثريين، فقد عصفت بالمركز القانونى الذى ظفروا به ، وأطاحت بمكاسبهم ، وجعلت الغرم عليهم والمغنم للكاثوليك ، ولذلك قرروا ـ إيماناً منهم بعدالة قضيتهم وتمسكاً بمبادئهم ـ تحدى الإمبراطور ، فاحتجوا على قرار مجمع سبير الثانى وقالوا أننا نحتج Nous Protestons - We Protest وكان ذلك هو السبب فى أنهم صاروا يسمون بالمحتجين Protestants حتى الوقت الحاضر .

وفى ذلك الوقت كان الإمبراطور شارل الخامس لا يزال عند رأيه السابق ، وهو ضرورة تكوين جمعية وطنية بهدف البحث فى جذور المشكلة الدينية ، وإيجاد حل نهائى لها يرتضيه جميع الأطراف حفاظاً على الوحدة الدينية للبلاد الألمانية .

ولكن الظروف الدولية التى أحاطت بالإمبراطور كانت تحول بينه وبين بذل مزيد من التركيز والاهتمام بهذه المسألة ، فإن خطر الأتراك العثمانيين بسبب زحف قواتهم الضاربة فى وسط أوروبا كان لا يزال ماثلاً ، كما كان التقارب بين سليمان القانونى وبين فرنسوا الأول ملك فرنسا يتهدد ممتلكات الإمبراطورية من الشرق والغرب . ولهذا آثر الإمبراطور أن يمضى فى سياسته السلمية تجاه المشكلة الدينية ، وكان قد عقد معاهدة كمبراى أو سلم السيدات فى ١٣ أغسطس ١٥٢٩ فوجه شارل الخامس الدعوة لعقد المجلس الإمبراطورى ـ الدايت ـ فى مدينة أوجزبرج Augsburg ، وانعقد المجمع فى يونيو ١٥٣٠ للوصول إلى حسم الخلافات الدينية . وفى هذا المجلس وضع فيليب ملانكتون مبادئ العقيدة اللوثرية بكل حذر واعتدال فيما يعرف باسم اعتراف أوجزبرج Confession of Augsburg ، ولكن الإمبراطور ـ الذى كان متأثراً بآراء الذين كانوا من حوله من رجال الدين الكاثوليكى فى المجلس ـ إنحاز إلى هؤلاء ، فرفض المجلس إعتراف أوجزبرج ، وصدرت أوامر الإمبراطور بتنفيذ قرارات مجلس ورمس الأول سنة ١٥٢١ الذى يتضمن القضاء على البروتستنتية . وفى أواخر عام ١٥٣٠ انفض مجلس أوجزبرج بعد أن أعطى الإمبراطور البروتستنت مهلة قصيرة حتى يتخلوا عن آرائهم حقناً للدماء . وقد أجاب الأمراء البروتستنت على هذا الإنذار بأن ألفوا فيما بينهم إتحاداً للدفاع عن مصالحهم ولرد القوة بمثلها ، وعرف هذا الاتحاد باسم حلف شمالكد Schmalkalic League فى سنة ١٥٣١ .

وكان تكوين حلف شمالكد تحدياً صريحاً من المقاطعات الألمانية البروتستانتية لسلطة الإمبراطور شارل الخامس . وكان هذا الإمبراطور فى موقف لا يسمح له بإنتهاج خطة حربية لضرب البروتستانت ، فقد أخذ خطر الأتراك العثمانيين يزداد بعد فترة قصيرة من الهدوء النسبى ، وكانت الأحوال فى أسبانيا مضطربة ، كما كان فرنسوا الأول ملك فرنسا يكيد للإمبراطور كيداً لأنه لم

يرض عن خروج فرنسا من شبه الجزيرة الإيطالية ، والنزول عن كل إدعاءاته عليها وعن أقاليم أخرى تقررت فى معاهدة كمبراى فى أغسطس ١٥٢٩ .

ولذلك سعت الدبلوماسية الفرنسية إلى إيجاد تقارب بين فرنسا وبين البروتستانت من ناحية وبين فرنسا والدولة العثمانية من ناحية أخرى . ولهذه الأسباب أحجم الإمبراطور عن مناوأة البروتستانت ، واتبع حيالهم سياسة اللين والمهادنة بهدف بقاء الجبهة الداخلية سليمة ومتماسكة حتى يجتاز بسلام هذه الأخطار الخارجية التى تتهدده عن يمين وشمال .

وفى هذا الوقت العصيب برزت روح دينية مسيحية عالية فى ألمانيا ، طالبت بتناسى الأحقاد والخلافات ، والوقوف صفاً واحداً ، وتوجيه نشاط البلاد كلها لتدعيم المجهود الحربى ضد الأتراك العثمانيين . وبدأت هذه الروح فى جلسات المجلس الإمبراطورى الذى عقد فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٣٣ ، وصدرت عنه وثيقة هامة أطلق عليها وثيقة سلام نورمبرج ، وتمثلت فيها العاطفة الوطنية كأروع ما تكون . لقد وصفت الوثيقة الأتراك العثمانيين بأنهم الخطر الداهم الذى يواجهه المسيحيون عن بكرة أبيهم لا فرق بين كاثوليكى وبروتستانتى ، ومضت الوثيقة تقول أنه يجب أن تتوقف فوراً جميع المشاحنات والحروب الدينية داخل نطاق الإمبراطورية ، وأن يتناسى الجميع الماضى بخلافاته ، وأن يصرف النظر عن الإجراءات القانونية التى اتخذت ضد ناخب سكسونيا وأصدقائه . وكانت هذه العبارة تعنى إلغاء قرار مجمع ورمس بإعدام مارتن لوثر وإلغاء الإجراءات التأديبية ضد ناخب سكسونيا الذى تزعم فكرة حلف شمالكو .

وعلى هذا النحو فإن مجمع نورمبرج قد خلق جواً صحيحاً لنمو وإنتشار الحركة البروتستنتية ، فقد كان من أولى نتائج هذا المجمع أن دخلت عدة مدن كبرى زاهرة تباعاً إلى حظيرة المذهب البروتستانتى ، ومنها أوجزبرج وفرانكفورت

وهامبـرج وهانوفـر وردمبـرج وبادن ، الأمـر الذى أدى إلى تدعـيم المعـسكر البروتستانتى تدعيماً قوياً تجاه المعسكر الكاثوليكى .

وعلى أية حال فقد شهدت السنوات السابقة لعام ١٥٤٦ ـ وهو العام الذى اندلعت فـيـه الحـرب الأهليـة فى ألمانيـا ـ العـديد من المحـاولات للتـوفـيق بين البـروتسـتـانت والكاثوليك ، ولكن عناد الطرفين المتنازعين وقف حجر عثرة فى سبيل ذلك ، فقد كان البروتستانت يدركون أن حركتهم قد اكتسحت معظم الأقاليم الألمانية ، وأصبحوا يرفضون التساهل فى أية مسألة تعرض للبحث ، كما كان الكاثوليك أكثر تشدداً وتصلباً من خصومهم ، ويعتمدون على مجد قديم تعيش كنيسة روما على اسمه .

ومن المحـاولات التى بذلت فى تلك السنوات نذكـر مـحـاولتين : تمثلت الأولى فى المجلس الإمـبـراطورى الذى عـقـد فى مـدينة راتزبون Ratisbon عـام ١٥٤١ ، وحضر الإمبراطور بنفسه جلسات هذا الدايت يحدوه أمل قوى فى أن حـضـوره قـد يسـاعـد على التـوصل إلى تسـوية سلمـيـة . ولكن فض المجلس الإمبراطورى جلساته دون نتيجة إيجابية تذكر . أما المحاولة الثانية فقد لاحت حين وجه البابا بول الثالث الدعوة للكاثوليك والبروتستانت لعقد مجمع دينى يسمى المجمع المسكونى ، أى المختص بالعالم المسيحى فى مدينة ترنت Trent فى إقليم التيرول عام ١٥٤٥ . وقد رفض البروتستانت تلبية الدعوة لأنهم رأوا أن الكاثوليك مسيطرون على هذا المجمع المسكونى ،وعند ذلك قرر الإمبراطور أنه لا مناص من الإشتبـاك المسلح للقـضـاء على الإنقسـام الدينى الذى شطـر البـلاد الألمانيـة شطرين . وكان من بين العوامل المشجعة له على إتخاذ هذا القرار ، أن الموقف الدولى قد بات هادئاً بعد أن عقد صلح كنسى مع ملك فرنسا فى سبتمبر عام ١٥٤٤ ، وبعد أن قل خطر الأتراك العثمانيين ، ولذلك قرر الإمبراطور نهائياً أن يستخدم القوة للقضاء على الإنقسام الدينى الذى هدد ممتلكاته ، فأخذ يعبئ

جيوشه . وبينما كانت الحشود العسكرية تأخذ طريقها إلى ساحات القتال مات مارتن لوثر فى ليلة ١٨/١٧ فبراير عام ١٥٤٦ ، ولكن النزاع بين البروتستانت والكاثوليك استمر فى الأعوام التالية ، حتى أمكن الوصول إلى تسوية فى صلح أوجزبرج فى فبراير عام ١٥٥٥ .

ولقد انقسم البروتستانت بعد وفاة لوثر ، فانحاز موريس دوق سكسونيا وهو قريب فردريك ناخب سكسونيا إلى جانب الإمبراطور لوجود عداء بينه وبين أعضاء حلف شمالكو ، فخسرت جيوش البروتستنت بذهابه قائداً مدرباً ، وحلت بها الهزيمة فى موقعة مهلبرج Muhlberg فى ٢٤ أبريل ١٥٤٧ ، ووقع قواد الجيش البروتستنتى فى الأسر ، وباتت ألمانيا بأسرها تحت رحمة الإمبراطور .

كان هذا النصر الساحق فرصة ذهبية أمام الإمبراطور لإنهاء المشكلة على النحو الذى يريده ، ولكنه حاول تسوية المشكلة ودياً بين الكاثوليك والبروتستنت ، وكان من أسباب هذا الموقف الجفاء الشديد بينه وبين البابا بول الثالث الذى صار من أكبر المتخوفين من الآثار التى سوف تترتب على انتصار الإمبراطور فى مهلبرج، كما كان يخشى أن يؤدى هذا الانتصار إلى إخضاع الكنيسة لسيطرة الإمبراطور من جهة وإلى توطيد نفوذ الإمبراطور فى إيطاليا من جهة أخرى ، فأخذ يتفاوض من أجل التفاهم مع هنرى الثانى ملك فرنسا ضد الإمبراطور . ويمكن أن نضيف بعض اعتبارات أخرى جعلت الإمبراطور يجنح للسلم فقد كانت هناك قطاعات كبيرة من الرأى العام فى ألمانيا لا تزال على ولائها للمذهب البوتستنتى ، وكان أمراء ألمانيا جد حريصين على الإبقاء على إستقلالهم وإمتيازاتهم ، وكانوا مستعدين لتأييد الحركة لتبرير أثر الانتصار الذى أحرزه الإمبراطور فى موقعة مهلبرج ، كما أن الدول المتاخمة لألمانيا ما كانت لتقبل إنشاء حكومة مركزية قوية فى ألمانيا تحت حكم أسرة الهابسبرج .

وعلى ذلك فقد دعا الإمبراطور (الدايت) للاجتماع فى أوجزبرج فى

مايو ١٥٤٨ ، وعرض فيه النظام الذى أراد أن يفرضه على البروتستنت والكاثوليك معاً ، والذى أراد أن يسرى العمل به فى ألمانيا مؤقتاً ، وهو نظام ينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لإرضاء البروتستنت فى مسائل زواج القسس ، وتناول القربان ، والتبرير بالإيمان .وقد سمى هذا النظام المؤقت Interim ، ولكن البابا استنكر هذا النظام ورفضته معظم المقاطعات الألمانية سواء البروتستانتية أو التى احتفظت بولائها لكنيسة روما ، فالمقاطعات الكاثوليكية رفضت رفضاً باتاً أن تمنح الرعايا البروتستانت المقيمين فى أراضيها التسهيلات التى جاء بها النظام المؤقت ، ومن ناحية أخرى عارضت المقاطعات البروتستانتية معارضة عنيفة ممارسة الطقوس الكاثوليكية فى أى جزء الأراضى التابعة لها ، واعتقد الفريقان أن التنازل أو التساهل فى نقط الخلاف معناه التنازل عن كل شئ ، فازداد كل منهما استمساكاً بآرائه وتصلباً فى موقفه وتشدداً فى مطالبه . وعلى ذلك أخفقت المحاولة السلمية التى بذلها الإمبراطور بعد انتصاره فى مهلبرج لإنهاء النزاع ودياً بين الكاثوليك والبروتستانت بعد أن رفض كل من الفريقين « النظام المؤقت » ودخل الإمبراطور تجربة جديدة وهى فرض النظام المؤقت بالقوة المسلحة على المقاطعات البروتستانتية واستخدام قوات مسلحة أسبانية لضرب البروتستانت فى جنوبى ألمانيا . أما فى شمالى ألمانيا فقد واجه الإمبراطور مقاومة عنيفة من البروتستانت بزعامة مدينة مجدبرج ، وهكذا اشتعل الموقف الداخلى ، وازداد تصدع الجبهة الداخلية فى وقت كان فيه الموقف الخارجى يتدهور من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للإمبراطور ، كما كان موريس دوق سكسونيا الذى لم يفد بشئ من انضمامه إلى الإمبراطور فى مقدمة الذين احتجوا على هذا النظام المؤقت ، ولم يلبث أن عاد إلى صفوف البروتستنت ، فكسب هؤلاء بعودته إليهم قوة جديدة .

وقد سارت الحوادث بعد ذلك فى صالح البروتستانت ، وذلك لعدة أسباب

من أهمها : إنشغال الإمبراطور بمسألة الوراثة فى أملاكه ، بين ابنه فيليب وأخيه فرديناند ، ثم انضمام الأمراء البروتستانت إلى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبورد ١٥٥٢ وفريد والد ١٥٥٢ . وقدسبق أن ذكرنا كيف اضطر الإمبراطور إلى الالتجاء إلى أخيه فرديناند ، الذى توسط فى عقد معاهدة بساو Passau مع موريس فى يوليو ١٥٥٢ ، وقد نص هذا الصلح ضمن شروطه على دعوة المجلس الإمبراطورى للإنعقاد فى غضون ستة شهور للوصول إذا أمكن إلى حل وتسوية لجميع المسائل المختلف عليها نهائياً ، ووافق شارل الخامس على عقد هذه المعاهدة . وفى النهاية عهد الإمبراطور (شارل) إلى أخيه فرديناند الوصول إلى تسوية حاسمة مع خصومه ، وفى فبراير عام ١٥٥٥ دعى للإنعقاد فى أوجزبرج ذلك المجلس الإمبراطورى الذى سبق النص على دعوته فى معاهدة بساو، وترأس فرديناند جلساته لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستنت ، وفى هذا المجلس تم صلح أوجزبرج .

وكان من أهم المبادئ التى قررها هذا الصلح حق كل إقليم فى اختيار عقيدته الدينية ، ويتفرع من هذا المبدأ الإمتناع عن كل محاولة لفرض مذهب دينى واحد على جميع المقاطعات الألمانية ، وأصبح لكل حاكم الحق فى إختيار المذهب الذى يريده فى إقليمه دون تدخل من جانب الإمبراطور أو المجلس الإمبراطورى . كما نص الصلح على تحريم استخدام العنف ضد أية ولاية فى الإمبراطورية اعتنقت المذهب اللوثرى وكذلك الحال بالنسبة للولايات التى ظلت على ولائها لكنيسة روما معتنقة المذهب الكاثوليكى . وقرر أوجزبرج كذلك أن أحكام هذا الصلح لا تسرى إلا على الكاثوليك واللوثرين ، كما قرر أن كل فرد لا يرضى بالمذهب الدينى الذى يقرره حاكم المقاطعة التى يقيم فيها هذا الفرد ، فعليه أن يهاجر منها إلى ولاية أخرى تدين بالمذهب الدينى الذى يعتنقه ، وله أن يأخذ معه أمواله ، ولا يمنع عن بيع أمتعته قبل رحيله ، ولا يؤذى فى شرفه .

ومن المسائل الدقيقة التى أثارت مزيداً من الاهتمام تحديد مركز الأساقفة ومن إليهم من رجال الدين الذين كانوا يحكمون مقاطعات ألمانية ثم اعتنقوا المذهب البروتستنتى فإنه لما ظهرت الحركة اللوثرية كان هناك إغراء قوى أمام هؤلاء الحكام كى يتحولوا عن الكاثوليكية ، لأن اعتناقهم المذهب البروتستنتى كان يتيح لهم عديد من الفرص للإفادة من الوضع الجديد ، إذ أنه فى ظل النظام البروتستنتى يصبحون حكاماً علمانيين يرث أبناؤهم وحفدتهم مناصبهم فى الحكم، وتصبح الولايات التى يحكمونها ذات نظام وراثى تؤول أملاك الكنيسة فى هذه الولايات إليهم وتنقطع صلتهم بكنيسة روما ، وقد استهوى هذا الإغراء المادى عدداً كبيراً من هؤلاء الحكام من رجال الدين الكاثوليك ، وزاد من خطورة هذه الظاهرة كثرة عدد المقاطعات الألمانية التى كان يحكمها رجال الدين الكاثوليك ، وقد تشعب البحث بخصوص هذه المسألة فأصبح التساؤل هو : ماذا يكون مصير ممتلكات الكنيسة فى المقاطعات الألمانية التى كان يحكمها حكام أساقفة ثم نبذوا الكاثوليكية واعتنقوا المذهب اللوثرى ؟ وعلى أية حال قرر صلح أوجزبرج فى النهاية أن أملاك الكنيسة فى المقاطعات التى تحولت إلى اللوثرية قبل عام ١٥٥٢ تظل فى حوزة حكامها اللوثريين ، وأما أملاك الكنيسة التى أخذت منها بعد عام ١٥٥٢ فهذه تعود إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما . وصلح أوجزبرج إذ يخول للأساقفة الحق فى إختيار المذهب الدينى الذى يريدونه فهو يشترط على كل أسقف يتحول إلى المذهب البروتستنتى أن يترك أسقفيته ويفقد وظائفه الدينية ، وتبقى ممتلكات الكنيسة تابعة لروما ، وفى هذه الحالة يتم إنتخاب أسقف آخر كاثوليكى يباشر سلطات منصبه ، ويستولى على إيرادات وممتلكات الكنيسة للإنفاق منها فى الأوجه المخصصة لها .

إن النظرة التحليلية لصلح أوجزبرج تبين أنه كان محاولة لتسوية أخطر مشكلة واجهتها ألمانيا فى مطلع العصر الحديث وهى المشكلة الدينية. وقد أثبتت

الأحداث التى تتابعت أن هذه التسوية لم تعمر طويلاً ، فقد نجحت مدة ناهزت ثلاثاً وستين سنة فى إيجاد جو من التعايش السلمى بين الكاثوليك والبروتستنت ، ثم قامت الحرب الدينية عنيفة مدمرة اشتركت فيها ألمانيا والدانمرك والسويد وفرنسا ، وهى الحرب التى يطلق عليها حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ـ ١٦٤٨)، وعلى ذلك يعتبر صلح أوجزبرج نهاية مرحلة من مراحل الصراع الدينى بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى أوروبا .

ويضفى بعض المؤرخين والباحثين الأوروبيين على صلح أوجزبرج مبادئ سامية ، بعيدة عن نصوصه وروحه كل البعد ، فضلاً عن أنها لم تدر فى أذهان واضعيه فهم يقررون ـ خطأ بلا شك ـ أن هذا الصلح قد أرسى قواعد التسامح الدينى ، وأنه قرر مبدأ الحرية للفرد . والحق أن الحرية الدينية التى جاء بها صلح أوجزبرج كانت مقصورة على حكام المقاطعات الألمانية ، ولم يعتنقوا مذهب الحاكم إذا رغب فى البقاء فى موطنهم ، فإذا اختلف مذهبهم عن مذهب الحاكم ولم يرضوا عن مذهبهم بديلاً كان عليهم أن يهاجروا من ولايتهم إلى ولاية أخرى . وفى الواقع فإن هذه الهجرة الإجبارية من أجل العقيدة هى أبعد ما تكون عن الحرية الدينية للفرد ولا يخفف من وطأتها ما يردده بعض المؤرخين من إنقسام ألمانيا إلى ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين وحدة سياسية جعل أمر الهجرة أكثر سهولة وأقل متاعب من هجرة تتم فى دولة تنعم بالوحدة مثل فرنسا أو أسبانيا . ولقد جاء صلح أوجزبرج متمشياً مع المبدأ القائل : « الناس على دين ملوكهم » .

ويلاحظ أيضاً على صلح أوجزبرج أنه لم يعترف إلا بمذهب واحد خارج على كنيسة روما وهو المذهب اللوثرى ، فأصبح الاختيار أمام حكام المقاطعات الألمانية محصوراً بين المذهب الكاثوليكى وبين المذهب اللوثرى ، وتجاهل صلح أوجزبرج أنصار المصلحين الدينيين الآخرين مثل زونجلى الذى ظهر فى سويسرا ،

وكذلك كلفن الذى ظهر فى فرنسا ، وكان له أنصار عديدون فى جنوبى ألمانيا وغربيها ، وبذلك لم ينشئ صلح أوجزبرج مركزاً قانونياً لأنصار كلفن فى ألمانيا .

وقد تضمن الصلح أحكاماً كان إعمال النص فيها أمراً متعذراً ، ونذكر على سبيل المثال أنه لم تكن هناك سلطة تنفيذية جبرية ترد إلى الكنيسة أملاكها التى انتزعت منها بعد سنة ١٥٥٢ ، فصلح أوجزبرج لا يعدوا أن يكون إتفاقاً بين الولايات الألمانية صدر فى صورة قرار من المجلس الإمبراطورى . ودل تاريخ هذا المجلس على أن حكام المقاطعات الألمانية كانوا لا يلتزمون إلتزاما حرفياً بتنفيذ قراراته ، وكانوا ينفذوا منها ما يتمشى مع مصالحهم ويهملون ما يتعارض معها . وفى الحالة التى نحن بصددها أهمل تنفيذ هذا النص ومضت على قدم وساق عمليات انتزاع ممتلكات كنيسة روما . وكان هذا التصرف من أهم الأسباب التى أدت إلى إندلاع الحرب الدينية المعروفة باسم حرب الثلاثين سنة . ولقد دعم هذا الصلح الإنقسام الدينى بين الشعب الألمانى ، وجاء هزيمة للبابوية ولكنيسة روما ، فقد انسلخ عنها نصف ألمانيا ، ولذلك يعتبر صلح أوجزبرج أحد معالم تاريخ أوروبا الحديث .



الفصل السادس

إنتشار حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا

شقت الحركة اللوثرية طريقها فى وسط المصاعب والأخطار والمنافسات السياسية بين حكام المقاطعات الألمانية وكوارث الحروب الدينية ، حتى انتهى بها الأمر إلى الإستقرار فى شمالى ألمانيا بوجه عام وعدد من المدن الهامة فى شمالى ألمانيا وجنوبها ، كما استقر المذهب اللوثرى فى الممالك الإسكندنافية الشمالية (الدانمرك والسويد) ، واعتنق عدد كبير من المقاطعات السويسرية المذهب البروتستنتى ، وحذت هولندا هذا الحذو ، كما دخلت حركة الإصلاح الدينى انجلترا واسكتلندا وانفصلت هذه البلاد عن كنيسة روما ، أما الكاثوليكية فقد بقيت فى النمسا وإقليم الراين وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها . وعلى الرغم من ذلك لم يكن من نصيب اللوثرية الذيوع والإنتشار فى كل أوروبا لأسباب منها :

١ ـ صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التى عجز كثيرون عن تفسيرها ، خصوصاً فى مسائل تناول القربان ، والتبرير بالإيمان .

٢ ـ اعتماد لوثر على تعضيد الأمراء فقط وأمثالهم من أهل الطبقات الوسطى والدنيا فى أول الأمر ، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله.

٣ ـ عدم اهتمام لوثر بمسألة تحديد وتعريف العقيدة الجديدة .

٤ ـ عدم تفكيره فى نشر هذه العقيدة خارج ألمانيا . وقد أدى ذلك إلى وقوع الخلاف فى صفوف اللوثرين أنفسهم بعد وفاة لوثر من جهة ، ثم لصعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة وبخاصة عندما امتنع لوثر عن الإلتجاء إلى

القوة والعنف فى نشر مذهبه . وقد ظهرت هذه النتيجة بجلاء عندما أخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظم شئونها وتصلح مساوئها ، وتستعد للنضال من أجل نشر مذهبها وتعاليمها بكل وسيلة .

ولكن النجاح الذى لقيه الإصلاح الذى نادى به مارتن لوثر بالطرق السلمية لم يلبث أن شجع على ذيوع وإنتشار دعوات أخرى للإصلاح فى أنحاء أوروبا على أيدى مصلحين كانوا يترددون فى استخدام العنف والقوة فى نشر العقائد والمذاهب الجديدة . وكان فى طليعة هؤلاء الريك زونجلى الذى انتشر مذهبه فى سويسره وألمانيا الجنوبية ، وجون كلفن الذى انتشر مذهبه فى الجزء الباقى من أوروبا الوسطى والغربية ، وخصوصاً فى فرنسا والأراضى المنخفضة واسكندناوة إلى جانب سويسرة أيضاً .

زونجلى Ulrich Zwingli (١٤٨٤ - ١٥٣١) وإنتشار الزونجلية Zwinglianism

تدين حركة الإصلاح التى ظهرت فى سويسرة لرجل سويسرى يسمى الريك زونجلى الذى اتخذ من مدينة زيورخ فى سويسرة مركزاً لدعوته . وتختلف نشأته عن نشأة مارتن لوثر ، إذ كان والد زونجلى هو عمدة المقاطعة ، وعمل أحد أعمامه رئيساً لأحد الأديرة ، كما اشتغل عم له آخر قسيساً فى إحدى المدن . وأتيح لزونجلى أن يتلقى تعليمه فى مدارس وجامعات برن وفيينا وبال وتأثر بالمعاصرين له من رجال الدراسات الإنسانية وبخاصة إرزمس ، وكانت تربطه به علاقات شخصية وثيقة . وتحت تأثير عمه انخرط فى سلك رجال الإكليروس ، وترامت شهرته فى الخطابة إلى مدينة زيورخ فاستدعى إليها ، وأسند إليه فى ديسمبر ١٥١٨ منصب واعظ الكنيسة الكبرى فى مقاطعة زيورخ ، وبرز اسمه منذ ذلك التاريخ بروزاً واضحاً قوياً فى الأوساط الدينية والسياسية والاجتماعية فى المقاطعة ، وتبؤ مكاناً علياً .

وكانت مدينة زيورخ فى مقدمة المدن السويسرية ثراءاً وإزدهاراً ، نافست به مدينة بال فى نشاطها التجارى ، وفى علاقاتها الاقتصادية مع ألمانيا ومن ثم كان معظم السفراء والأمراء الأجانب والسياح الأثرياء يفدون إلى مدينة زيورخ ويقضون أوقاتاً ممتعة على ضفاف بحيرة زيورخ ، وينفقون بسخاء على ملذاتهم ولهوهم . وقد لمس زونجلى ـ بسبب إقامته فى زيورخ وعمله واعظاً لكنيستها الكبرى ـ المتناقضات الموجودة فى المدينة ، واستبدت به الرغبة فى القضاء على المساوئ ، وسرعان ما قاد حركة إصلاح دينى انتهت إلى نتيجة هامة لا تزال قائمة حتى اليوم ، وهى إنشقاق مقاطعات بأسرها من مقاطعات الإتحاد السويسرى على كنيسة روما ، وإنقسام سويسرا إلى فريقين : فريق بروتستنتى من أنصار زونجلى ، وفريق كاثوليكى ، ويهمنا هنا أن نشير إلى حقيقتين : أولاهما أن الحركة البروتستنتية فى سويسرة لا تدين فى نشأتها لمارتن لوثر بل كانت فى حقيقة أمرها حركة سويسرية تزعمها زونجلى ، وقامت مقاطعة زيورخ بدور بارز فى قيادة هذه الحركة سنوات طوالا . ولا ريب أن حركة الإصلاح الدينى فى سويسرة وإن كانت قد تأثرت بالأحداث الكبرى التى وقعت فى ألمانيا إلا أنها احتفظت لنفسها بطابع خاص . أما الحقيقة الثانية فإن الحركة الإصلاحية التى قادها زونجلى كان لها إلى جانب صبغتها الدينية اهتمام عميق بالمشكلات السياسية ، وعناية كبيرة بالنواحى الاجتماعية والإنتصاف للطبقات الكادحة من الحكام المترفين الذين عاشوا بمعزل عن الشعب ، وعلى ذلك فإن حركة زونجلى لم تكن مجرد رد فعل لمساوئ الكنيسة ، بل كانت فى مجموعها حركة دينية سياسية اجتماعية قومية .

وقد وجه زونجلى نشاطه أول الأمر لمحاربة الظاهرة التى كانت قد تفشت بين الشباب السويسرى ، واستهوت أفئدتهم وهى انصرافهم إلى العمل جنوداً مرتزقة فى صفوف جيوش الدول الأوروبية نظراً للمرتبات العالية التى كانوا يحصلون عليها ، وأعلن أنه من العار أن تهدر دماء السويسريين فى غير مصلحة

قومية . ولقد لقيت هذه الآراء التى كان يرددها زونجلى استجابة من سكان زيورخ، الذين عاهدوا أنفسهم على ألا يكونوا أتباعاً مأجورين لملك فرنسا أو لإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أو للبابا نفسه .

ولقد انتقلت حركة الإصلاح التى قام بها زونجلى إلى عدد من مقاطعات الإتحاد السويسرى وإلى الأقاليم السويسرية التى لم تكن قد انضمت بعد إلى الإتحاد ، فانضمت إلى الحركة الدينية الجديدة برن Bern فى عام ١٥٢٨ وتبعتها فى السنة التالية بازل Basel ، كما انتشرت فى الأودية الإيطالية وفى ألمانيا . وفى الوقت الذى تكونت فيه عصبة شمالكلد The League of Schmalkalden فى فبراير ١٥٣١ ، بدأ زونجلى يعتقد بأنه نبى الله الذى اختاره لنشر هذا المذهب ، وبدأ يستعد لاستخدام الوسائل السياسية من أجل إنتشار مذهبه فى زيورخ وفى كل أنحاء سويسرة ، وتمكن من السيطرة على مجلس مدينة زيورخ ، وإدارة شئونها الخارجية والداخلية بطريقة أوتوقراطية ، ومن أجل نشر هذا المذهب الجديد ، كان زونجلى قد قام بعقد عدد من المعاهدات تعرف باسم Burgrechte أو Christian Civil Alliances (أى الحلف المسيحى المدنى) مع المقاطعات الأخرى ، ففى عام ١٥٢٧ تحالفت زيورخ مع مدينة كونستانس Constance، وتلتها محالفة بين كونستانس وبرن . وفى عام ١٥٢٩ انضمت كثير من المدن السويسرية إلى الحلف المسيحى المدنى . وكان رد الفعل فى الدوائر الكاثوليكية سريعاً إذ كونت المقاطعات الكاثوليكية فى أبريل ١٥٢٩ ما عرف باسم الإتحاد المسيحى The Christian Union . وبدأ زونجلى يجهز خططاً للقيام بالحرب ، وبذلك قامت الحرب الأهلية فى سويسرة . ففى يونيو ١٥٢٩ سارت قوات زيورخ البالغ عددها حوالى ٤٠٠٠ جندى إلى كابل Kappel وهى تقع على حدود زيورخ حيث قابلتها مجموعة من القوات الكاثوليكية ، ولكن عقدت هدنة بين الطرفين ، وتلى ذلك صلح كابل الأول فى ٢٦ يونيو ١٥٢٩ .

وقد تقرر فى هذا الصلح أن يكون لكل مقاطعة مطلق الحرية فى إختيار مذهبها الدينى، وجعل هذا النص مقصوراً على الثلاث عشرة مقاطعة التى كونت الإتحاد السويسرى . أما الأقاليم السويسرية التى لم تنضم إلى الإتحاد وقامت بعض المقاطعات بغزوها وحكمها بالتناوب ، فقد تقرر بالنسبة لها عدة مبادئ هامة نذكر منها هذين المبدأين :

١ ـ لا يكره أحد على تغيير مذهبه الدينى .

٢ ـ يختار سكان كل منطقة أو إقليم مذهبهم الدينى ويعتبر المذهب الذى يقع عليه اختيار الأغلبية المذهب الرسمى للإقليم ، وللأقلية فى هذه الحال الخيرة بين أن تخضع لرأى الأغلبية ، وبين أن تهاجر إلى منطقة أخرى تدين بالمذهب الذى ارتضته الأقلية .

ولكن هذا الصلح لم يضع حداً لهذا الإنقسام ، فقامت الحرب من جديد فى أكتوبر عام ١٥٣١ ، وقتل زونجلى فى معركة كابل الى انتصر فيها الكاثوليك ، وكان من نتائج هذه المعركة أن فقدت مقاطعة زيورخ ، بمصرع زونجلى ، زعامتها للحركة الإصلاحية فى سويسرة ، وأصبحت المقاطعة مهددة بالغزو من جيش المقاطعات الكاثوليكية ، ولكن تغلبت على الجميع روح الحكمة، وعقد صلح كابل فى ٢٠ نوفمبر ١٥٣١ ، ويعرف هذا الصلح باسم صلح كابل الثانى . وقد تم عقد هذا الصلح بين زيورخ ومقاطعات الغابات الخمس The Five Forest Cantons (أى الولايات التى كان يتألف منها الإتحاد المسيحى وهو أورى Uri ، وشفيتس Schwys ، وأنتر ڤالدن Unter Valedein وزوج Zug ، ولوسرن Lucerne واتفق على ما يلى :

١ ـ سمح للولايات الخمس بالإبقاء على عقيدتها المسيحية ، كما سمح لمدينة زيورخ بالإبقاء على المذهب البروتستانتى .

٢ ـ تعهد الطرفان بالتخلى عن المعاهدات التى وقعاها مع الدول الأجنبية .

٣ ـ أجبرت الولايات البروتستنتية على إلغاء التحالفات المسيحية المدنية ، ودفع نفقات الحرب وتعويضاتها .

وقد قام هذا الصلح على المبدأ القائل بحق كل إقليم أو مقاطعة فى إختيار مذهبها الدينى ، ولذلك يعتبر هذا الصلح مثالاً احتذته الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد ربع قرن من الزمن حين عقدت صلح أوجزبرج عام ١٥٥٥ لتسوية المشكلة الدينية التى كانت تتفاقم يوماً بعد يوم بين الولايات البروتستانتية والولايات الكاثوليكية فى ألمانيا .

وقد فقدت الحركة البروتستنتية السويسرية بوفاة زونجلى وبعقد معاهدة كابل الثانية الروح العسكرية التى اعتمدت عليها . وتحت زعامة أنريك بولينجر Heinrich Bullinger (١٥٠٤ ـ ١٥٧٥) ـ وهو زوج ابنة زونجلى وخليفته ـ لم تعد زيورخ هى مركز التجمع السويسرى البروتستنتى ، بل أخذت مدينتا برن وجنيف تظهران بالتدريخ كمركزين رئيسيين للحركة البروتستنتية .

جون كلڤن John Calvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) وإنتشار الكلڤينية فى فرنسا وجنيف :

بينما اقتصرت اللوثرية بدرجة كبيرة على ألمانيا والدول الاسكندنافية حيث ضعفت قوتها المحركة ـ أصبحت الكلفينية ـ التى تطورت فى فرنسا بفعل الدراسات الإنسانية التى انتشرت فى باريس وجنيف قوة عدوانية تغلغلت فى أجزاء كثيرة من غرب أوروبا وألمانيا . وبدأ نمو هذه الحركة خلال الحقبة الأخيرة من حياة لوثر ، واستمر نموها بقوة خلال الجزء الأخير من القرن السادس عشر ، كما فعلت اللوثرية خلال النصف الأول من هذا القرن .

ولد جون كلفن فى ١٠ يوليو ١٥٠٩ فى نويون Noyon فى بكاردى

Picardy ، وهى تبعد ٦٠ ميلاً فى الشمال الشرقى من مدينة باريس . وتولى والده Gérard Cauvin مناصب هامة فى نويون ، وأرسل أبناءه ومن بينهم جون إلى المدرسة فى المدينة حيث ظهر اهتمام جون بالدراسات الدينية .وفى عام ١٥٢٣ عندما بلغ جون الرابعة عشر أرسله والده إلى جامعة باريس ، وبعد إتمام دراسته ذهب إلى السوربون Sorbonne حيث بدأ اهتمامه بالإنجيل والدراسات الدينية . وبناء على رغبة والده ـ ونتيجة لظروفه المالية ـ ذهب جون فى عام ١٥٢٨ إلى أورليانز Orleans حيث تحول إلى دراسة القانون . وفى أورليانز بدأ جون يهتم بالحركة الإنسانية . وفى ١٥٢٩ ذهب إلى بورج Bourges لكى يستمع إلى محاضرات أحد أساتذة القانون الذى استخدم الطرق الإنسانية فى تعليمه ، وكان لإقامته فى هذه المدينة أهمية بالغة إذ تعرف على العالم اليونانى الألمانى فولمار Melchior Wolmar والذى كانت له ميول لوثرية .

وفى عام ١٥٣١ عاد كلفن إلى باريس ، وأثناء وجوده هناك علم بمرض والده الخطير ، فذهب إلى نويون ولكن والده مات بعد ذلك بقليل . وكان لقرار الحرمان الذى صدر ضد والده من الكنيسة ـ بسبب الاضطرابات فى حسابات الكنيسة التى أشرف عليها والده ـ أثر كبير فى نفسه . وبعد وفاة والده لم يستمر كلفن فى دراسة القانون ، وبدأ يهتم بالدراسات الإنسانية التى انتشرت فى باريس بتشجيع من الملك فرانسوا الأول ، واستمر فى دراسة اللغتين اليونانية والعبرية ونشر على نفقته الخاصة تعليقه على رسالة سينكا الفيلسوف وكان بعنوان :

Commentary on Senc as Treatise on Clemency (1532) .

(وسينكا هو أحد الفلاسفة ورجال الدولة المشهورين فى عهد الإمبراطور نيرو Nero) ، ولا يوجد فى التعليق الذى نشره أى دليل عن إتجاهاته البروتستنتية ، وعلى ذلك يمكننا القول بأن كلفن لم يظهر أى تعاطف نحو البروتستنتية قبل عام ١٥٣٣ ففى هذه السنة ارتبط ارتباطاً

وثيقـاً بـ Gerard Roussel الذى سمح له فرانسوا الأول بعرض آرائه الخاصة عن الإنجيل على جمهور فى اللوفر Louvre واتصل أيضاً بجماعة الإنسانية من أمثال Nicholas Cop . وعندما طلب القبض على كوب بسبب هجومه على علماء السوربون الدينيين هرب إلى بازل وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن كلفن كان له اتصال بكتاب كوب (Cop) ، ولما طلب القبض عليه هو الآخر ذهب إلى سانتون Saintonge حيث زار جاك لوفيفر Jacques le Fèver أحد المصلحين الإنسانيين المسنين فى نيكار Necar عاصمة نافار الفرنسية ، ولكنه عاد بعد ذلك إلى نويون .

وفى عام ١٥٣٤ عندما قامت حركة اضطهاد البروتستنت الفرنسيين هرب كلفن إلى استرازبورج Strassburg عن طريق ميتز Metz ، واستقر نهائياً فى بازل . وفى هذه المدينة التى أصبحت مدينة بروتستنتية منذ عام ١٥٢٩ اتصل كلفن ببعض الشخصيات البروتستنتية المهمة من أمثال Walfang Capito أحد الأساتذة الإنسانيين ، وانريك لوينجر خليفة زونجلى . وفى بازل عكف على دراسة اللغة العبرية ، وقام بنشر الطبعة الأولى من كتابه « تعاليم الدين المسيحى » Institutes of the Christian Religion فى مارس ١٥٣٦ وهو يتضمن أحوال العقيدة الكلفينية ، وأصول النظام الذى أراد كلفن إنشاء الكنيسة الجديدة على أساسه .

ويبدو أن النصف الثانى من كتابه يعتمد إلى حد ما على كتاب لوثر « الأسر البابلى » The Babylonian Captivity ، وفى الفصلين الأخيرين من الكتاب قام بهجوم شديد على الكاثوليكية ، وطبع هذا الكتاب مرة ثانية ، وزيدت فصوله إلى ١٧ فصلاً ونشر باللغة اللاتينية فى استرازبورج فى عام ١٥٣٩ . وقام كلفن بأول ترجمة فرنسية لهذا الكتاب فى عام ١٥٤١ . وكان لنشر هذا الكتاب أثر هام وواضح ، إذ بدأ البروتستانت الفرنسيون يشعرون بوجود زعيم لهم قادر على أن يتحدث باسمهم .

وأخيراً استقر به المقام فى جنيف حيث عمل على توطيد دعائم مذهبه الجديد ، وظل مقيماً بها حتى توفى فى عام ١٥٦٤ . ويتلخص مذهب كلفن فى المبادئ الآتية .

١ ـ الكتاب المقدس ـ وحده دون سواه ـ هو المرجع الذى يعتمد عليه فى جميع المسائل الدينية .

٢ ـ السيد المسيح وحده هو الذى يشفع للناس لدى الله .

٣ ـ التبرير يكون بالإيمان وليس بالأعمال . ولقد اتفق مذهب كلفن مع مذهب لوثر فى هذه المبادئ الثلاثة .

٤ ـ الإيمان بقضاء الله وقدره ، فالله سبحانه وتعالى قد كتب جميع الأعمال التى تصدر عن كل إنسان منذ مولده حتى وفاته فلا سبيل إلى تغييرها ، ويسمى هذا المبدأ بالقدرية .

٥ ـ الفصل بين الكنيسة والدولة فلا تتدخل الدولة فى شئون الكنيسة .

وكان كلفن يرى أن للكنيسة مهمة روحية ، وهى بذلك تختلف كل الاختلاف عن الحكومة التى لها مهمة علمانية أى غير دينية مباشرة . وتأسيساً على مبدأ الفصل بين الكنيسة والحكومة تكون الكنيسة مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، وهى التى تقرر نظامها وقانونها وطقوسها ، ولا تكون الكنيسة فى ظل هذا النظام الكلفنى مؤسسة خاصة برجال الدين دون سواهم، بل هى مؤسسة الجميع إنها الجمهورية المسيحية ، ويشترك العلمانيون مع رجال الدين فى إدارة شئون الكنيسة. والشعب هو الذى يختار القس . وقد قسم كلفن مهام الكنيسة ورجال حكومتها بحيث ضمت العلمانيين ورجال الدين معاً على النحو الآتى :

أ ـ الوعظ والإرشاد ويقوم به القس .

ب ـ تفسير الكتاب المقدس ويعهد به إلى كبار العلماء من رجال الدين ، وأطلق عليهم الدكاترة .

جـ ـ مراقبة الجوانب الخلقية فى حياة الأفراد ، ويقوم بها علمانيون .

د ـ رعاية الفقراء ويقوم بها علمانيون أيضاً .

٦ ـ إن وجود الحكومة العلمانية أمر لا مناص منه فى المجتمع المسيحى للذود عن تعاليم الدين الصحيح . ولم يكن كلفن يهتم كثيراً بالشكل الدستورى الذى تأخذه الحكومة العلمانية ، فسواء عنده إذا كانت هذه الحكومة جمهورية أو ملكية ، ديمقراطية أو استبدادية ، طالما كانت تحقق الأهداف التى قامت من أجلها . وفى مقدمة هذه الأهداف الاهتمام بالدين وغرس مبادئه فى نفوس الأفراد . وقرر كلفن أن من الواجب على المسيحى الخضوع التام للحكومة الزمنية طالما كانت هذه الحكومة ملتزمة بحدود الدين . وكان معنى هذا الشرط أنه إذا حادت الحكومة العلمانية عن الحق وخرجت عن أوامر الدين ، كان من حق رعاياها أن يثوروا عليها ، وهذا ما حدث فعلاً عندما نظم أتباع كلفن مقاومة عنيفة فى فرنسا وفى الأراضى المنخفضة ضد الحكومة فى كل من هذين الإقليمين .

ولقد أتيحت الفرصة لأن توضع تعاليم كلفن موضع التنفيذ لأول مرة فى جنيف ، وذلك عندما طلب وليم فارل Farel وهو أحد دعاة الإصلاح بهذه المدينة من كلفن أن يعاونه فى تنظيم الكنيسة بها ، فاستقر كلفن بجنيف فى أواخر عام ١٥٣٦ ، ولكن سرعات ما صار الناس ينفرون من كلفن وفارل وينفضون من حولهما بسبب شدة أو صرامة نظام الكنيسة التى أراد كلفن تأسيسها ، وعنف التعاليم التى أراد تطبيقها . فاضطر كل من كلفن وفارل إلى مغادرة جنيف عام ١٥٣٨ ، ولكن لم يلبث أن عاد إليها كلفن مرة أخرى عام

١٥٤١ بسبب استدعاء شعبها له ، فبقى بها حتى مات كما ذكرنا قبل ذلك .

أما السنوات الأخيرة من حياة كلفن فهى لا تتصل إتصالاً وثيقاً بمدينة جنيف ، فقد امتد نشاطه لتشمل حركة الإصلاح الدينى فى إتساعها وشمولها شتى أنحاء أوروبا . وأصبح كلفن هو القوة الموجهة لحركة الإصلاح الدينى فى فرنسا والأراضى المنخفضة وانجلترا واسكتلندا وبولندا . وفى خلال السنوات الأخيرة التصق به رجل يصغره بعشرسنوات هو تيودور دى بز de Beze كان قد نزح إلى جنيف عام ١٥٤٨ وأصبح الساعد الأيمن لكلفن ، وكان أول رئيس للأكاديمية التى نجح كلفن فى إنشائها عام ١٥٥٩ وسيقوم هذا الرجل بدور بارز فى صفوف بروتستانت فرنسا (١٥١٩ ـ ١٦٠٥) .

وكانت الكلفينية بسبب شدة وصرامة تعاليمها ، وبسبب كفاحها ضد مخالفيها وبفضل النظام الدقيق الذى وضعه كلفن لكنيستها ، منبع القوة الدينية التى استعدت أن تصمد فى النضال الطويل ضد الكاثوليكية بعد أن انتعشت كنيسة روما . وقد حقق أتباع كلفن النصر فى حروب الهوجونوت فى أنحاء شتى من الأقاليم الفرنسية ، وهم الذين أنشأوا الكنيسة البروتستنتية فى فرنسا ، وهم الذين انتزعوا بكفاحهم المرير استقلال هولندا من أسبانيا ، وأمتد أثرهم إلى انجلترا واسكتلندا ، وأخذت المقاطعات البروتستنتية فى سويسرة الشرقية بالحركة الكلفينية، وجاب أتباع المذهب الكلفينى البحار والمحيطات فقاموا برحلات إلى شمالى أمريكا وجنوبى أفريقيا حيث أسسوا المستعمرات ، وبرز أثرهم فى الأقاليم الشرقية الساحلية فى أمريكا الشمالية منذ قامت السفينة ماى فلور Mayflower برحلتها المشهورة عام ١٦٢٠ حاملة المضطهدين من البيوريتان على عهد جيمس الأول ملك انجلترا (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥) وأسسوا الأقليم الذى عرف باسم انجلترا الجديدة New England ، كما كانت الحركة الكلفينية أيضاً مصدراً استقى منه الفقه البروتستانتى مبادئ واضحة محددة تحديداً دقيقاً .



الفصل السابع

حركة الإصلاح الكاثوليكى أو الإصلاح الدينى المضاد

The Counter - Roformation (La Contre - Réforme)

حققت البروتستنتية مكاسب كبرى واكتسحت أمامها الكاثوليكية ، فإن ثلاثة أرباع ألمانيا قد نبذت ولاءها لكنيسة روما ، وقطعت انجلترا علاقاتها التى كانت تربطها بروما ، واعتنقت الدانمرك والسويد والنرويج الحركة اللوثرية ، وانتقلت حركة الإصلاح الدينى إلى فرنسا وهولندا ، واجتذبت الآراء الجديدة جموعاً غفيرة من سكان بولندا وبوهيميا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فإن شبه الجزيرة الإيطالية لم تخل من أنصار يؤيدون البروتستانتية قلباً وقالباً . وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى أوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا .

ولما استفاق الكاثوليك على الحقيقة التى كانت مروعة بالنسبة لهم ، وهى انتشار البروتستنتية فى أوروبا طولاً وعرضاً ، أدركوا أنه لم يعد فى الإمكان تأجيل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما تنادى إليه المصلحون قبل ظهور مارتن لوثر ومن بعده ، واتخذت البابوية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر إجراءات عملية لإصلاح الكنيسة ، وكان هذا الإصلاح هو رد فعل لحركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين ، ولذلك يطلق على حركة الإصلاح الكاثوليكى عبارة الإصلاح الدينى المضاد ، أو الثورة الدينية المضادة فى القرن السادس عشر وتطلق عليها المراجع الإنجليزية (Roman Catholic Reaction) .

كان الإصلاح الدينى المضاد يختلف إختلافاً تاماً عن الإصلاح الدينى

الذى بدأ فى ألمانيا على يد لوثر ثم انتشر إلى أصقاع أخرى فى أوروبا ، لقد كان الإصلاح الأخير حركة ثورية تناولت أساس العقيدة ونظم الكنيسة وطقوسها . أما الإصلاح الدينى المضاد فكان يهدف إلى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من ضروب الفساد فى أنظمتها وسلوك رجالها ، على أن يمتد الإصلاح فيشمل البابا ومن دونه من جميع فئات رجال الدين ، أو حسب التعبير الذى تردد على ألسنة دعاة الإصلاح فى ذلك العصر الرأس والأعضاء . وكان هناك إجماع فى الأوساط الكاثوليكية على أن المجتمع الكنسى ينضح بهذه الصورة المعتمة من الإنحلال والفساد ، وكانت هذه الأوساط ترى إصلاح الكنيسة عن طريق القضاء على هذه المساوئ ابتغاء الإبقاء على وحدة الكنيسة ، واسترداد مواقعها التى فقدتها ، واستعادة المكانة السامية التى تبوأتها البابوية فى العصور الوسطى ، ولكنها كانت حريصة على ألا يؤدى الإصلاح المنشود إلى إضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا ، فهو نائب المسيح على الأرض وخليفة القديس بطرس ، فلم يكن هدف حركة الإصلاح الدينى المضاد هدفاً ثورياً هو الإطاحة بالكنيسة والبابوية ، إذ كانت حركة اتسمت بالطابع المحافظ الذى يحرص على إبقاء القديم على قدمه ، مع الاهتمام بإصلاح النظم الكنسية ، وتجنب إدخال تغييرات أساسية فى العقيدة . وهكذا كانت نظرة الكاثوليك إلى إصلاح كنيستهم : العمل على إيجاد إدارة أمينة مخلصة على درجة عالية من الكفاءة والنزاهة والاتصاف بالدين .

لجأت البابوية فى سبيل إنهاض الكنيسة إلى وسائل مشروعة ووسائل غير مشروعة ، فمن الوسائل المشروعة عقد المجمع المسكونى لتحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية ، وتطوير نظم الكنيسة للقضاء على المساوئ والمفاسد التى لوثت سمعتها . وكانت الوسيلة الثانية إصلاح المنظمات الدينية بعد أن لحقها التدهور ، وإنشاء هيئات دينية جديدة لدعم نفوذ البابوية ، والتمكين للمذهب الكاثوليكى

بالوعظ والإرشاد والتعليم ، وكان على رأس هذه المؤسسات جماعة اليسوعيين أو الجزويت . أما الوسائل غير المشروعة فكان من بينها الفهرس ، وهو عبارة عن سجل يحوى أسماء الكتب والرسائل والمنشورات التى تعتبرها البابوية خروجاً على المذهب الكاثوليكى ، ولم تقنع البابوية بتحريم تداولها بين الجماهير بل عملت على إحراقها . ويعتبر هذا الإجراء بشقيه حجراً على حرية الرأى والنشر والنقد . ولجأت البابوية أيضاً إلى محاكم التفتيش التى كانت أداة تقتيل وتنكيل بالخارجين على كنيسة روما .

١ ـ مجمع ترنت :

كان من مظاهر سياسة التراضى التى اتبعتها البابوية أول الأمر إزاء الحركة اللوثرية أن البابا كلمنت السابع (١٥٣٣ ـ ١٥٣٤) ـ وهو من أسرة ميدتشى ـ هادن الحركة اللوثرية بسبب العداوة الشديدة التى اضطرمت بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس . ولما توفى هذا البابا فى عام ١٥٣٤ انتخب مكانه اسكندر فارنيس Farnese ، واتخذ لنفسه اسم البابا بول الثالث (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩) ، وكان دبلوماسياً ذا دهاء ، وله دراية واسعة بإدارة الكنائس وأعمال الديوان البابوى مدة ناهزت الأربعين عاماً .

وبإعتلائه كرسى البابوية ينتهى عهد بابوات النهضة ، ويبدأ عهد آخر تعاقب فيه عدد من البابوات ، عكف معظمهم على إصلاح الكنيسة والدفاع عن الكاثوليكية ومهاجمة البروتستنتية، والكفاح ضد الأتراك العثمانيين بحيث لم ينته القرن السادس عشر حتى كان المد البروتستنتى قد توقف ، واستطاع معظم أولئك البابوات ، بما توفر لديهم من أدوات ووسائل أن ينقلوا نشاطهم إلى أرض البروتستانت ، وأن يستعيدوا للكنيسة الكاثوليكية بعض مواقع كانت قد فقدتها .

وقد نبذ بول الثالث سياسة أسلافه بابوات النهضة وكرس وقته لإصلاح

الكنيسة وعين عدداً من الكرادلة الجدد ، عرف من ماضيهم بأنهم دعاة الإصلاح المخلصين ، وشكل لجنة ضمت صفوفا من أعلام رجال الدين لاقتراح الإصلاحات المطلوبة ، وأوفد فى عام ١٥٣٥ إلى ألمانيا مبعوثاً ليعرض على الإمبراطور شارل الخامس عقد مجمع مسكونى يدعى إليه ممثلون للبروتستانت فضلاً عن الكاثوليك . وقد واجه البابا عدة صعاب فى سبيل عقد هذا المجمع المسكونى ، كان فى مقدمتها موقف كل من فرنسوا الأول ملك فرنسا وبروتستانت ألمانيا من هذا المجمع المقترح عقده ، ثم اختيار المدينة التى يعقد فيها المجمع جلساته . وفى عام ١٥٤٢ وقع الاختيار أخيراً على مدينة ترنت Trent ومع ذلك فإن العداء الشديد بين الإمبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الأول قد أخر اجتماع المجلس، فلم يعقد جلسته الإفتتاحية إلا فى ١٣ ديسمبر عام ١٥٤٥ ، وعقد المجمع تحت رعاية البابا والإمبراطور . ولم يحضر البابا جلسات المؤتمر على الرغم من تصريحاته المتكررة بعزمه على الاشتراك فيه شخصياً ، وقد حضره نيابة عنه ثلاثة كرادلة ترأسوا جلساته .

وقد تعرض المجمع المسكونى لأزمات عنيفة ، وتوقفت أعماله عدة مرات بلغت فى إحداها عشر سنوات ، واهتز مركزه اهتزازاً شديداً ، وكادت تتبدد الآمال التى علقها عليه أنصار البابوية ، مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فقد استمر ثمانية عشر عام (١٣ ديسمبر ١٥٤٥ ـ ٤ ديسمبر ١٥٦٣) ، وعاصر خمسة بابوات تعاقبوا على كرسى البابوية فى هذه الفترة .

وتنقسم قرارات المجتمع إلى مجموعتين : مجموعة تتعلق بإصلاح نظام الكنيسة ، ومجموعة تختص بتحديد العقيدة الكاثوليكية . وتتصل قرارات المجموعة الأولى بالبابا والكرادلة والأساقفة والقسس والرهبان ومن إليهم من طوائف السلم الكهنوتى ، وتنظيم حياتهم ، وتزويدهم بثقافات متخصصة . قرر المجمع أن سلطة

البابا مستمدة من المسيح ، وتأسيساً على ذلك ، يكون للبابا السلطة العليا فى الكنيسة الكاثوليكية ، وقرر المجمع أن يكون الحد الأدنى لسن الأسقف ثلاثين عاماً ولسن القسيس خمسة وعشرين عاماً ، وحرم زواج القسس ، وحتم على القسس والرهبان أن يتحلوا بالصلاح والتقوى ، وأن يكونوا قدوة طيبة فى أقوالهم وتصرفاتهم وأسلوبهم فى الحياة ، وجعل للأساقفة الحق فى مراقبة سلوك القسس وتوقيع العقوبات عليهم إذا ارتكبوا ما يخل بقوانين الكنيسة أو يتنافى مع الآداب العامة ، وحتم المجمع على الأساقفة أن يقيم كل منهم فى مقر أسقفيته . وطبق هذا المبدأ على كافة رجال الدين على اختلاف درجاتهم ، وحرم الجمع بين عدد من الأبرشيات ، فى يد شخص واحد ، وقرر استخدام اللغة اللاتينية فى الصلاة ، وإنشاء مدارس كانت بمثابة معاهد تدريب دينية يتلقى فيها رجال الدين ثقافة واسعة ليكونوا على علم عميق بواجباتهم رفعاً لمستواهم الخلقى .

أما قرارات المجموعة الثانية فانصبت على تحديد المذهب الكاثوليكى ، لتمييزه عن المذهب البروتستنتى تمييزاً تاماً . لقد رفض المجمع عقيدة التبرير بالإيمان التى نادى بها لوثر ، كما رفض المجمع مذهب القدرية الذى أخذ به كلفن . ورفض أيضاً ما كان يدعو إليه أتباع لوثر وكلفن من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده فى تفسير العقيدة وغيرها من مسائل الفقه الدينى . وقرر المجمع أن عقائد الكنيسة تستند أساساً إلى الكتاب المقدس ثم إلى التقاليد الكنسية القديمة ، وقرر أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس والتى تعرف باسم Vulgate هى النسخة الوحيدة المعتمدة . كما تعرض المجمع لطائفة من المسائل تتصل بصميم العقيدة الكاثوليكية .

خرجت البابوية منتصرة من مجمع ترنت ، فقد جدد هذا المجمع تعاليمها ووطد نظامها وقضى على عدد من المساوئ التى استشرت فى مجتمع الكنيسة الكاثوليكية ، وأنهى المناقشات الفقهية الدينية التى كانت تثار من وقت إلى آخر

فى أوساط الكاثوليك ، وتثير بينهم الضغائن ، واستعادوا ثقتهم بأنفسهم ، ودبت منذ ذلك الوقت روح من الحماس تدفقت فى أوساط الكاثوليك سواء رجال الدين أو العلمانيين ، وعقدوا العزم على الكفاح ـ فى شتى صوره وأشكاله ـ ضد البروتستانت . وقد قضى المجمع على كل محاولة لحسم الخلاف المذهبى بين الكاثوليك والبروتستنت أو التقريب بينهم ، إذ فصل المجمع فصلاً حاداً بين المذهبين ، ووضع حداً لمحاولات التوفيق وإعادة الوحدة إلى كنيسة روما . وتبعاً لذلك فقد تعذر على المجمع إعادة البروتستانت إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن النيات لم تكن خالصة ، وكان كل من أنصار المذهبين متمسكاً بآرائه لا يبغى عنها حولاً ، وقد كانت للبابوية أغلبية فى المجمع ، وكان مندوبو البابا هم الذين يرأسون جلساته ، ونسقوا خططهم داخل أروقة المجمع وخارجه ، ولم يصدر قراراً إلا بموافقتهم . وكثيراً ما أحبطت مشروعات قرارات كانت تتعارض مع وجهات نظر البابا . والحق أن هذا المجمع قد أسدى خدمة خليلة لقضية الكاثوليك، ولقد اعتمدت عليه الكنيسة الكاثوليكية فى نشر العقيدة الكاثوليكية الصريحة ، ومقاومة العقائد المصلحة الأخرى ، ومحاولة بسط سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على أوروبا من جديد معتمدة على الأدوات الآتية : جماعة الجزويت ، والفهرس ، ومحاكم التفتيش .

٢ ـ الجزويت (Jesuits) أو اليسوعيون :

كان من دلائل انتعاش الكاثوليكية نشاط الطوائف ، أو الجماعات الدينية القديمة مثل الفرنسيسكان ، والدومينكان ، ثم ظهور غير هذه من الطوائف والأحزاب الجديدة ذات الأثر البعيد فى المحافظة على كيان الكنيسة . ولقد نشأت حركة الجزويت فى أسبانيا ، وهى بلاد عرفت بأنها بلاد الرهبان . ومن بين الشعب الأسبانى المتعصب لكاثوليكيته ظهر رجل تكمن فى نفسه روح صليبية عارمة ، أنشأ جماعة اليسوعيين أو الجزويت ويسمى دون أنيجو لوبيز دى ركالدى

Don Inigo Lopez de Recalde ، وقد اشتهر فى التاريخ باسم اجناتيوس ليولا Ignatius Loyola (١٤٩١ ـ ١٥٥٦) .

ولد ليولا من أسرة شريفة أسبانية ، واشتغل فى مطلع حياته فى بلاط الملك فرديناند الكاثوليكى صاحب أراجونه ، ثم التحق بخدمة الجيش الأسبانى على عهد الإمبراطور شارل الخامس ، وجرح فى إحدى المعارك فى عام ١٥٢١ ، فأجبره هذا الجرح الذى قضى عليه بالعرج طوال حياته على الإعتكاف مدة قرأ خلالها كتب حياة أو سيرة القديسين ، حتى إذا شفى من جرحه فى السنة التالية (١٥٢٢) عزم على أن يكرس حياته لخدمة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء . ثم حج إلى بيت المقدس عام ١٥٢٤ وتوفر فى السنوات التالية على التزود من العلم والثقافة . فدرس فى جامعات برشلونة والكالا ، ثم التحق فى عام ١٥٢٨ بجامعة باريس ، وقضى فيها سبع سنوات درس خلالها الفلسفة وعلم اللاهوت وحصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٥٢٤ . وكان ليولا قد بدأ يفكر فى تأسيس جماعته المعروفة منذ أن اعتزم الحج إلى بيت المقدس ، وكان غرضه الظاهر استخدام هذه الجماعة فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين . وفى باريس جمع ليولا الأعوان حوله . وفى أغسطس ١٥٢٤ تألفت نهائياً الجماعة الجديدة ، وكان عدد أعضاؤها وقت تأسيسها سبعة فقط ، أما مبادؤهم فكانت الطهر والعفاف ، ونبذ الثروة والعيش فى فقر . وتعهد الأعضاء بمجرد الفراغ من دراستهم بأن يرحلوا إلى بيت المقدس فى خدمة السيد المسيح ، فإذا تعذر ذلك عليهم قدموا أنفسهم لخدمة البابا على أساس الطاعة التامة لجميع أوامره ونواهيه . وعلى ذلك فإنه عندما تعذر على الجماعة أن تحج إلى بيت المقدس بسبب الحرب الدائرة مع العثمانيين ، عرض ليولا خدماته ، وخدمات جماعته على البابا على اعتبار أن المسيحية مهددة بسبب انتشار المذاهب البروتستنتية الجديدة بأخطار أقرب فى آثارها المباشرة على الكنيسة من خطر العثمانيين . وكان مجئ حركة البابا بول

الثالث الإصلاحية تنبئ بتغيير ظاهر فى موقف الكنيسة التى صارت تريد الآن الإصلاح جدياً ، ما دام هذا الإصلاح لا ينال شيئاً من نفوذ وسلطات البابوات أنفسهم . وعلى ذلك فقد رحب البابا به وبإخوانه ، وأجاز لهم الخطابة والوعظ والدعوة للإرشاد فى روما . وفى ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ أصدر البابا بول الثالث مرسوماً بابوياً بالموافقة على جماعة الجزويت ، وعلى نظامها . وكان من خصائص هذا النظام الطاعة والولاء للبابا ، وتكريس حياة أفراد الجماعة لخدمة الكنيسة ، وفى أى مكان يطلب منهم ذلك ، ثم الطاعة والولاء كذلك لقائدهم الأعلى ، والخضوع لنظام الحزب ، وعلى ذلك صار لقائد الجزويت الأعلى حسب هذا النظام السلطة التامة على بقية الأعضاء ، وعلى أن يستمع فى المسائل العامة إلى رأى مجلس يتألف من أكبر عدد مستطاع من الأعضاء قبل الفصل فيها . وفى أبريل عام ١٥٤١ انتخب أجناتيوس ليولا رئيساً للجماعة ، ولقد بقى ليولا فى قيادة الجماعة حتى وفاته فى ٣١ يوليو ١٥٥٦ .

ولقد تنوعت طرق الجزويت فى محاربة البروتستنتية . كان بعضهم يشتغل بالسياسة لخدمة البابوية ، فكان منهم مستشارون ووزراء ذوو نفوذ ، على أن أكبر ميدان أصابوا فيه نجاحاً رائعاً كان ميدان التربية والتعليم . لقد رأى أجناتيوس ليولا أن البروتستنت اعتمدوا فى مهاجمة كنيسة روما على دعامتين كبيرتين هما جهل رجال الدين الكاثوليك ، وفسادهم . ولهذا وضع خطته على أساس معالجة هذين الداءين بالتعليم السليم المتزن بين أعضاء الجزويت ، ثم رأى أن يمد جهوده التعليمية خارج هذا النطاق المحدود ، رغبة فى إعداد أجيال من الشباب الكاثوليكى يجمعون إلى الثقافة الدينية ، كفاية عملية تأكيداً للصلة بين الدين والحياة ، وربطاً بين العقيدة والسلوك . وقد جاءت خطط التعليم ومناهج الدراسة التى وضعها الجزويت بحيث تحقق للطالب ثقافة دينية عميقة وواعية ، إلى جانب ثقافة مهنية تؤهله للمشاركة فى أنواع النشاط والريادة والقدوة الطيبة . ولذلك

كانت مدارس الجزويت من أنجح المدارس التى شهدتها أوروبا إذ امتازت بإدارتها الحازمة ونظمها التعليمية ، وقد تفانى مدرسوها فى مهنة التدريس حتى فاقوا علماء النهضة الذين كانوا وقتئذ يحتكرون العلم .

وكان من أثر جهودهم أن انتعشت الكنيسة الكاثوليكية ، وثبتت سيادتها فى أوروبا ، وانتشر المذهب الكاثوليكى فى أنحاء نائية من العالم مثل بعض جهات فى أمريكا والشرق الأقصى ، كما نجحوا فى وقف تيار البروتستنتية بدرجة كبيرة فى كل من فرنسا وبولندا وأملاك الهابسبرج ، ونجحوا كذلك فى القضاء على البروتستنتية عموماً فى إيطاليا وأسبانيا ، فبقيت كل منهما خاضعة للكنيسة الكاثوليكية .

٣ ـ الكتالوج أو الفهرس (Index) :

كان منع تسرب الأفكار الدينية الحديثة إلى الكاثوليك من أولى الوسائل غير المشروعة التى اتخذتها البابوية لدعم كنيسة روما . وقد أثيرت هذه المسألة أمام المجمع المسكونى العام المنعقد فى مدينة ترنت ، وقد اتخذت مناقشات الأعضاء إتجاهاً معيناً هو بحث التدابير التى تؤدى إلى منع تداول الكتب التى تتعارض مع المذهب الكاثوليكى ، أو التى ترمى إلى تغيير القوانين الكنسية أو التشكك فيها . وقد أطلق عليها اسم الكتب المهرطقة ومعناها الكتب التى تحمل بين طياتها كفراً وزندقة . ولم يتخذ المجمع المسكونى قراراً محدداً فى هذا الموضوع ، بل أحاله إلى البابا يتصرف فيه بما يتمشى مع المبادئ الكاثوليكية التى أقرها المجمع . ولكن المجمع أفصح فى نفس الوقت عن رغبته فى وضع كتالوج أو فهرس يضم أسماء جميع الكتب التى تحرم قراءتها على جميع الكاثوليك .

ولم تغب هذه المسألة عن أذهان رجال الكنيسة فى روما ، فقد كان البابوات فى أواخر القرن الخامس عشر يفرضون العقوبات على المؤلفين وأصحاب

دور الطباعة والنشر ، وكل من يضبط حائزاً لكتاب من هذا القبيل . ومنذ عام ١٥١٥ فرضت البابوية رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية ، ثم تكفلت محاكم التفتيش بهذه الرقابة منذ عام ١٥٤٢ ، وأصبحت الرقابة صارمة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان . كما ضمت أيضاً مؤلفات ميكيافيللى وإرزمس وكان المعنى المستفاد من إندراج الكتب فى الفهرس أو الكتالوج هو وجوب إحراق هذه الكتب .

وفى أثناء الفترة التى توقفت فيها جلسات مجمع ترنت ، وامتدت عشر سنوات (١٥٥٢ ـ ١٥٦٢) وضع البابا بول الرابع سنة ١٥٥٩ كتالوجاً أو فهرساً اسمه Index Libroium Prohibitoium أى فهرس الكتب المحرمة ، ضم أسماء الكتب التى تحرم قراءتها أو تداولها بين جميع الكاثوليك ، وإنذار البابا كل فرد يضبط لديه كتاب منها بقرار الحرمان يصدر ضده تأسيساً على أنه ارتكب خطيئة كبيرة ، وكان من ضمن الكتب التى أدرجت فى هذا الكتالوج رسائل مارتن لوثر وزونجلى وكلفن وغيرهم من قادة حركة الإصلاح الدينى . ولقد انتقد مجلس ترنت هذا الفهرس لقصوره ونقص محتوياته . وعلى ذلك فقد أعد فهرس جديد فى عام ١٥٦٤ ، ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس مرات متعددة حتى عام ١٥٩٦ ، واستمر معمولاً بهذا الفهرس الأخير مع بعض إضافات عليه من وقت لآخر حتى أواسط القرن الثامن عشر .

وكان لنشر هذه الفهارس آثار ظهرت على وجه الخصوص بين الأمم الكاثوليكية القوية ، فى أسبانيا والبرتغال ، وبافاريا ، وإيطاليا وبلجيكا وحالت دون الإطلاع على ثقافة وعْلم الأمم الشمالية البروتستنتية ، الأمر الذى قد عطل تقدم الحضارة ، لأن العمل بهذه الفهارس كان حائلاً خطيراً دون إنتشار العلم والمعرفة. وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها إدارة الكنيسة ـ والأخرى هى محاكم التفتيش ـ فى تعقب الخارجين على الكاثوليك واضطهادهم .

٤ ـ محاكم التفتيش (Inquisition):

كانت الوسيلة الأخرى غير المشروعة التى لجأت إليها كنيسة روما فى حركة الإصلاح الدينى المضاد هى محاكم التفتيش ، وتخويلها سلطات واسعة فى تعقب المخالفين للمذهب الكاثوليكى ، والتنكيل بهم بعد تعريضهم لأقصى أنواع التعذيب ، وإهدار آدميتهم إعتقاداً منها أن هذا التنكيل سوف يؤدى إلى القضاء قضاءً تاماً على المذاهب الدينية الخارجة عليها .

ولم تكن محاكم التفتيش بدعة استحدثتها البابوية فى القرن السادس عشر فى كفاحها ضد البروتستنت وغيرهم ، فهى نظام قديم استعانت به فى العصور الوسطى للقضاء على الحركات الدينية التى خرجت على تعاليم كنيسة روما ، واستخدمها البابا أنوسنت الثالث ـ ١١٩٨ ـ ١٢١٦) كوسيلة من الوسائل التى اعتمد عليها فى سحق حركة الاليجانس (نسبة إلى مدينة البى Albi بفرنسا) فى جنوبى فرنسا فى مطلع القرن الثالث عشر . وفى بداية العصور الحديثة شهدت أسبانيا بعث محاكم التفتيش للقضاء أولاً على اليهود ، إذ كان الأسبانيون يمقتونهم مقتاً شديداً ، وكانوا يقومون من وقت إلى آخر بمذابح جماعية لليهود. كما لقى المسلمون أقسى أصناف الاضطهاد فى أسبانيا . فبعد سقوط غرناطة فى ١٤٩٢ ، تعرضت البقية الباقية من المسلمين الذين ظلوا فى البلاد لأقسى صنوف الاضطهاد ، ثم صدرت الأوامر بإحالتهم إلى محاكم التفتيش لحسم مشكلتهم . ومنذ أن عقد زواج فرديناند حاكم أراجونة على إيزابيلا حاكمة قشتالة عام ١٤٦٩ ، وتم توحيد التاجين ، طلبا من البابا فى ذلك الوقت الإذن لهما فى إدخال نظام محاكم التفتيش فى بلادهما لمكافحة المسلمين واليهود فى شبه جزيرة أيبيريا ، ولقد لقى هذا الطلب استجابة فورية من البابا فى نوفمبر ١٤٧٧ .

وفى القرن السادس عشر حين استفحل أمر الحركات الدينية الإنفصالية عن

كنيسة روما ، رأى البابا بول الثالث أن يتخذ من محاكم التفتيش سلاحاً فتاكاً لوأد هذه الحركات ، فأصدر فى عام ١٥٤٢ مرسوماً بإنشاء محاكم التفتيش . وكان المرسوم البابوى يقول أن أعمال المجمع المسكونى تتعثر بينما تزداد موجة الهرطقة يوماً بعد يوم ، ويستفحل خطرها ، ولذلك بات الموقف يتطلب إجراءات معينة . وكان من بين هذه الإجراءات تعيين ستة من الكرادلة خولهم المرسوم سلطات واسعة بصفتهم وكلاء أو مندوبين للبابا فى جميع أنحاء أوروبا الكاثوليكية ، بما فيها شبه الجزيرة الإيطالية نفسها وما وراء جبال الألب ، وجعل المرسوم منهم أيضاً أعضاء فى محاكم التفتيش ولهم الحق فى محاكمة المتهمين بالهرطقة ، وكذلك الأفراد الذين يساندونهم . ولهم الحق فى إيداعهم السجون قبل محاكمتهم ، وإذا ثبتت التهمة عليهم ، صدرت بحقهم الأحكام بتوقيع العقوبات المقررة فى القانون الكنسى ، ومصادرة ممتلكاتهم .

ولقد لقيت محاكم التفتيش دفعة قوية على عهد البابا بول الرابع ، ونظر إليها على أنها وسيلة فعالة يجتث بها جذور الديانات والمذاهب التى تتعارض مع المذهب الكاثوليكى . وكانت هذه المحاكم ذات طابع دينى بحيث تستمد سلطانها من البابا ، وكان قضاتها من الكرادلة المعروفين بتعصبهم الشديد للمذهب الكاثوليكى ، ولم يكن للحكومات دخل فى أعمال المحاكم إلا فى قيامها بتنفيذ الأحكام الصادرة عنها .

وكان نجاح محاكم التفتيش نجاحاً هزيلاً ، فهى لم تنجح نجاحاً تاماً فى القضاء على المذاهب المخالفة للكاثوليكية إلا فى إيطاليا وأسبانيا . وكان هذان الإقليمان أقل البلاد تقبلاً للمذاهب الجديدة ، ولذلك كان أتباع هذه المذاهب من قلة العدد بحيث كان تأثيرهم ضعيفاً جداً فى المجتمعات الإيطالية والأسبانية ، وفيما عدا ذلك فقد أثارت محاكم التفتيش بإجراءاتها الشاذة وأحكامها القاسية مزيداً من الضغائن والعداوة فى نفوس البروتستانت فى شمالى أوروبا وفى غربيها ،

وجعلتهم يصرون على الابتعاد عن كنيسة روما ، ومقاومة المحاولات التى كانت تبذل لإرجاعهم إلى حظيرة الكاثوليكية . ولذلك يقرر معظم المؤرخين أن جهود جماعة الجزويت ، وقرارات مجمع ترنت هى التى أسهمت إلى حد كبير فى النجاح الذى حققته حركة دعم الكنيسة الكاثوليكية فى نهاية القرن السادس عشر . أما محاكم التفتيش فلم يكن لها أدنى أثر فى هذا النجاح ، وفضلاً عن ذلك فقد استخدمت محاكم التفتيش كأداة سياسية لتأييد مصالح الملكية كما حدث فى أسبانيا ، وفى هذا خروج على أهدافها التى أنشئت من أجلها كما أن النشاط الزائد الذى بذلته فى الأراضى المنخفضة أدى إلى انفجار الثورة وضياع هولندا من يد أسبانيا . وأخيراً فقد أساءت محاكم التفتيش إلى الكنيسة الكاثوليكية التى استخدمت هذه المحاكم حيناً ، وحيناً آخر استجابت لرغبات الملوك فى الإذن لهم باستخدامها كأداة للعسف والظلم والقمع والأخذ بوسائل التعذيب مجانبة للعدالة .



الفصل الثامن
عهد الصراع الدينى فى أوروبا

أوجد ظهور المصلحين الذين ما كانوا يحجمون عن المقاومة ويدافعون بكل الطرق عن عقائدهم ، ويعملون على نشرها ، قوتين ظاهرتين كانتا على أكمل ما يكون من ضروب التنظيم والإستعداد للدخول فى كفاح طويل من أجل العقيدة . كانت إحدى هاتين القوتين بروتستنتية كلفينية ومقرها فى جنيف ، والأخرى كاثوليكية ومقرها روما ، وسرعان ما أدى ظهور هاتين القوتين المنظمتين إلى الزج بأوروبا فى حروب دينية عنيفة ، استمرت من أواسط القرن السادس عشر إلى الثلث الأول من القرن السابع عشر تقريباً . ولقد زاد من شدة هذا النضال ونشوبه أن الدولة الوطنية الحديثة كانت تخشى من أن تؤدى الإختلافات الدينية إلى إنقسامات داخلية سياسية ، فتتعرض وحدتها إلى الزوال .

ولم تشتبك الكاثوليكية والكلفينية فى هذا العهد فى نضال صريح بين كنيستين متخاصمتين ، إحداهما منتعشة وهى الكاثوليكية ، والأخرى مهاجمة وعنيفة وهى الكلفينية ، بل إن هذا النضال كان يقع تحت ستار رغبة الدولة الوطنية الحديثة ، فى أن تجتمع لديها أسباب السلطة الكاملة ، أو أنه كان يقع تحت ستار رغبة هذه الدولة ذاتها فى تحقيق أغراضها الوطنية ، أو محاولة المحافظة على التوازن الدولى فى أوروبا ، ولذلك فقد اندمج النضال الدينى بالنضال السياسى فى هذه الفترة ، وإستمر الحال على ذلك إلى أن استطاع أن يتحرر هذا الصراع تدريجياً ، أثناء حروب الثلاثين سنة فى الثلث الأول من القرن السابع عشر ـ من الإعتبارات الدينية ، وعندئذ أصبح صراعاً سياساً توجهه أغراض الدول، من وطنية وقومية فى الداخل والخارج على السواء .

١ ـ الحروب الدينية فى فرنسا :

لم تكن فرنسا فى معزل عن حركة الإصلاح الدينى ، ففى عهد فرنسوا الأول (١٥١٥ ـ ١٥٤٧) بدأت المذاهب الدينية الجديدة وخصوصاً اللوثرية تنتشر فى فرنسا . ومع أن فرنسوا شجع هذه الحركة فى بادئ الأمر فإنه بعد عام ١٥٢٨ ، صار يضطهد البروتستنت فى فرنسا اضطهاداً شديداً ، ولكن البروتستنتية سرعان ما تحولت إلى حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين منذ عام ١٥٣٥ تقريباً ، أى منذ الوقت الذى رفع فيه جون كلفن رسالته المشهورة إلى الملك فرنسوا الأول ، ونشر كتابه عن (تعاليم الدين المسيحى) ، فقد لقيت كتابات هذا الفرنسى آذاناً صاغية من مواطنيه الفرنسيين . وانضم إلى البروتستنتية عدد من الأشراف ومن الطبقات المتوسطة الغنية . ومن ذلك الحين بدأ عهد جديد فى تاريخ البروتستنت الكلفينين فى فرنسا .

وفى عهد هنرى الثانى (١٥٤٧ ـ ١٥٥٩) تأسست أول كنيسة كلفينية فى مارس عام ١٥٥٥ ، ثم تلى ذلك تأسيس غيرها من الكنائس . وفى عام ١٥٥٨ بلغ عدد الأماكن المخصصة لعبادة البروتستنت ٢٠٠ تقريباً ، وعدد المتعبدين بها حوالى ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، وهما أهم زعمائهم أنطوان بربون ملك نافار ثم أخو الأصغر أمير كونديه Condé ، وكان يمتان بصلة قرابة للأسرة المالكة أسرة فالوا. ومن الأسر العريقة كان الأميرال جاسباردى كولينى Gouspard de Coligny . ولكن الخوف من حدوث الثورات الدينية الداخلية نتيجة لحدوث الإنقسام الدينى ، ثم الخوف من النجاح الذى أحرزته اللوثرية فى ألمانيا لم يلبث هذا كله أن أدى إلى إتفاق سرى بين فرنسا وأسبانيا للقضاء على الهرطقة . وعندما توفى هنرى الثانى فى عام ١٥٥٩ ، وخلفه ابنه فرنسوا الثانى (١٥٥٩ ـ ١٥٦٠) بدأ الإنقسام الذى كان يخشاه الملك المتوفى .

وقبل أن نتتبع الصراع الدينى العنيف الذى استمر خلال النصف الثانى

من القرن السادس عشر ، يجدر بنا أن نعرف شيئاً عن بعض الشخصيات والأحزاب التى ظهرت فى هذه الفترة ، وأثرت بدرجة كبيرة فى هذا الصراع ، وتنحصر هذه الشخصيات والأحزاب فيما يلى :

أ ـ كاترين دى ميدتشى Catherine de Medici ، زوجة هنرى الثانى وأم أبنائه الثلاثة الذين تولوا العرش من بعده بالتعاقب ، وكان الأبناء الثلاثة ألعوبة فى يدها الوالدة كاترين التى مارست بعد وفاة زوجها نفوذاً كبيراً فى فرنسا عن طريق هؤلاء الأبناء . وكانت تحاول تحقيق أغراضها وسياستها بكل وسيلة مهما كانت صورتها .

ب ـ آل جيز Guise ، من الأسر العريقة الكاثوليكية فى فرنسا ، وكانوا يمتون بصلة القربى لملكة اسكتلندة ، مارى استيوارت زوجة فرانسو الثانى . ومن أبرز شخصيات أسرة جيز فرانسيس ، وكان قائداً حربياً ، وكان شقيقه هو شارل كاردينال اللورين ، وكانا من المتعصبين للمذهب الكاثوليكى ، وكانا يهدفان إلى تنصيب مارى استيوارت الكاثوليكية ملكة على انجلترا بدلاً من اليزابيت البروتستنتية والتى كانا يعتبرانها ملكة غير شرعية .

جـ ـ النبلاء الفرنسيون : وقف النبلاء الفرنسيون فى وجه آل جيز ، وكان على رأسهم عائلة البربون Bourbons ، لأنهم كانوا يكرهون تلك الأسرة . ولقد دفع هذا الموقف الكثيرين من النبلاء الفرنسيين إلى أحضان الهوجونوت ، (أى البروتستنت) وهو الإسم الذى كان يطلق على الكلفينيين رمزاً للإحتقار . ونتيجة لذلك اكتسبت حركة الهوجونوت صفة أرستقراطية سياسية لا سيما بعد أن أصبح أنتونى بربون Antony Bourbon كلفينياً بتأثير زوجته، وكان هو زعيم البربون فى ذلك الوقت ، وأقرب وريث للتاج الفرنسى بعد أبناء هنرى الثانى . وعندما تولى فرانسوا الثانى العرش كان صغيراً ، ووقع تحت تأثير أسرة جيز، وقبلت الملكة الوالدة هذه السيطرة ، الأمر الذى أغضب الأسرة البروتستنتية النبيلة.

تولى الملك شارل التاسع (١٥٦٠ ـ ١٥٧٤) العرش ، ولكنه كان قاصراً فتولت أمه شئون الدولة ، وأتبعت سياسة التوازن بين الأحزاب حتى تضمن بقاء السلطة النهائية في يدها . وفي عهد شارل التاسع أشتد اضطهاد الكاثوليك للهوجونوت . وفي أول عهده حدث نزاع بين أعضاء مجلس طبقات الأمة States General ، فوقف النبلاء وممثلوا الشعب يشكون من الكنيسة ، ويطالبون بإصلاح حقيقي ، بينما طالب رجال الدين باضطهاد الهوجونوت ، فبدأت كاترين ميدتشي تعمل للتوفيق بين البروتستنت والكاثوليك ، فمنعت إقامة شعائرهم الدينية بطريقة علنية ، ومنعت في الوقت نفسه تعطيل عبادتهم إذ هم أقاموها في داخل منازلهم ، وجمعت الفريقين في مؤتمر انعقد في بواسي Poissy في سبتمبر ١٥٦١ للتوفيق بينهما ولكن دون جدوى ، وعندئذ أصدرت مرسوماً في يناير ١٥٦٢ ، سمح بإقامة طقوس الهوجونوت بين عائلات النبلاء في الريف ، وفي المدن التي بدون أسوار . ولكن هذا المرسوم أغضب الكاثوليك والبروتستنت على حد السواء . البروتستنت لتسامحه المحدود والكاثوليك بسبب هذا التسامح نفسه .

ولكن حدث هذا بعد أن اضطرمت النفوس ، وحطمت الصور الدينية ، وشوهت الكنائس ، وهوجم الأكليروس والمبشرون ، ثم ذبحت قوات آل جيز عدداً من الهوجونوت (١٥٦٢) وهم يتعبدون في مدينة فاسي Vassy ، فأنفجرت الحرب الأهلية إنفجاراً عنيفاً مفاجئاً بعد أن أمكن تجنبها هذا الوقت الطويل . وقد إتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير ، بل إنه تميز أيضاً بأنه كلما قامت الحرب أعقبها السلام بعد وقت قصير . وليس سبب ذلك توقيع الطرفين تسوية يقبلانها حقاً ، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدى المتحاربين من المال ، أو مقتل قائد ، أو حدوث تخازل أو ضعف مفاجىء في الشعور الذى كان لا يزال كامناً بوحدة فرنسا بإعتبارها كنزاً لا يجوز تبديده بسهوله ، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الأحقاد الدينية أو

الشخصية العنيفة لذلك العصر . ولم يتورع كلا الطرفين عن الإلتجاء إلى المعونة الأجنبيـة ، فـقـد ولى الكاثوليك وجـوههـم شطر أسبـانيـا ، على حين ولى الهوجونوت وجوههم شطر انجلترا ، بل لقد ذهبوا فى الحرب الأولى إلى حد وضع الهافر فى يد الانجليز ، ووعدوهم بثغر كاليه ، ومع ذلك فإنهم لم يعقدوا قط حلفاً مع دولة بروتستانتية وعندما قامت هذه الاضطرابات أصدرت كاترين ميدتشى مرسوماً فى يوليو ١٥٦٢ أعلن عصيان الهوجونوت ، وطردهم خارج القانون . وعلى هذا النحو قامت الحروب الدينية فى فرنسا .

استمرت الحروب الدينية من عام ١٥٦٢ إلى عام ١٥٩٣ وتنقسم إلى دورين : الأول وينتهى فى عام ١٥٧٢ ، والثانى وينتهى فى عام ١٥٩٣ . وكان عدد هذه الحروب ثمانية . وتولى قيادة الكاثوليك جيز ومونتمورنس ، وكان يقود الهوجونوت كولينى وكونديه .

وفى الحرب الأولى انتصر الكاثوليك فى بداية النضال ، ولكن كاترين ميدتشى خشيت من زيادة نفوذهم ، فاستطاعت الإتفاق مع كونديه فأصدرت مرسوم امبواز Edict of Amboisé فى مارس عام ١٥٦٣ ، وبه صار مسموحاً للهوجونوت العبادة فى منازل النبلاء وعلية القوم وفى أملاكهم وفى ضاحية واحدة فى كل إقليم . ولكن كولينى والهوجونوت عموماً لم يرضوا بهذا المرسوم، وعارضوه بشدة ، واتهموا كونديه بخيانة عهد الله . ومع ذلك فقد نتج عن إصدار هذا المرسوم أن سادت فترة سلام لمدة خمس سنوات . ولكن استحكمت الأزمة بين الهوجونوت والكاثوليك فى فرنسا عندما عقد اجتماع فى بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) بين كاترين وأختها إيزابيلا ملكة أسبانيا التى كان يصحبها دوق الفا . وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسى هو السعى لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos ابن فيليب الثانى ملك أسبانيا ، ولكن نوقشت أيضاً فى هذا الاجتماع مسائل أخرى ، وبخاصة تعاون

فرنسا وأسبانيا ضد الأراضى المنخفضة وكان فى ذلك ما يكفى لإثارة مخاوف كولينى أنشط محركى حزب الهوجونوت . وحين علم أن الفا Alva يزحف صوب الأراضى المنخفضة على طول فرنسا الشرقية على رأس جيش أسبانى ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الأميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاد من المؤامرات الأسبانية . ووضعت خطة لاختطاف شارل التاسع ، وكان فشلها معجلاً بنشوب القتال من جديد .

وقد يكون من الممكن اعتبار الحربين التاليتين هما سلسلة واحدة من العمليات، إذ لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumean القصير الأمد ١٥٦٨ . ولهاتين الحربين أهميتهما لعوامل ثلاثة : ففى هذه الفترة بالذات برزت لاروشل La Rochelle لأول مرة باعتبارها حصناً بحرياً بروتستانتياً عظيماً قادراً على أن يصمد للحصار ، وفى هذه الفترة أيضاً برز هنرى نافار ابن الملك أنطوان ، وهو الذى قدر له فيما بعد أن يصبح هنرى الرابع ملك فرنسا ـ باعتباره قائداً بروتستانتياً ، ولكن أهم ما يلفت النظر فى خصائص هذه الفترة أن النصر النهائى كان من نصيب كولينى ، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية ، وأسر كونديه ومقتله فى جرناك Jarnac ، وتغطية ساحة مونكنتور Moncontour فى أكتوبر عام ١٥٦٩ الملطخة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهوجونوت . ولقد قام هذا القائد المحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشاً جديداً ، زحف به على باريس ، حيث وجد البلاط خلواً من كل قوة ، فأرهب أعداءه ، وسيطر على الملك ، وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ، الذى قامت على تنشئته مربية بروتستانتية على استعداد للتفاهم ، فاعترف صلح سان جرمان St. Germain (٨ أغسطس ١٥٧٠) ـ أكثر من أى وقت مضى ـ بأهمية حزب الهوجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا ، وسمح لكبار النبلاء ـ كما كان الحال من

قبل ـ بأن يقيموا الصلوات ـ طبقاً لمذهب الهوجونوت ـ في قلاعهم لكل من يرغب في حضورها ، ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية في كل المدن التي تمارس فيها فعلاً ، وفي مدينتين في كل مقاطعة إدارية في فرنسا ، ووضعت ضمانات لمنع المظالم التي تتخذ شكل القانون ، كما وضعت في يد الحزب ـ لمدة سنتين ـ أربعة أماكن لها أهمية حربية عظيمة ، وذلك ضماناً لتنفيذ المعاهدة . وهذه الأماكن هي لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Conganc ولاشاريتيه La Charité .

وهكذا انفسح المجال أمام الهوجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية في دفاعها عن القضية الكاثوليكية . وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير، على استعداد للإلتجاء إلى أسبانيا طلبا للمعونة ، فقام كولين الآن يمهد الطريق لأنقلاب سياسي كامل ، وكانت خطته تتمثل في إشعال حرب قومية ضد أسبانيا في الأراضي المنخفضة . ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا ، وتسانده كل من انجلترا وهولندا وتسكانيا والبندقية ، وربما الأتراك ، والهدف منه إقرار السلام في البلاد ، وضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك التاج الفرنسي. وكانت المعاهدة الدفاعية التي وقعها كوليني مع انجلترا في بولوا Blois في ١٩ أبريل ١٥٧٢ هي الحجر الأول في البناء الدبلوماسي الجديد.

وبين التدابير التي اتخذت في هذه الفترة التي أرتفع فيها نفوذ الهوجونوت مشروع قدر له أن يؤثر تأثيراً قوياً في الموقف الداخلي في فرنسا ، فقد تمت المباحثات في أمر زواج أبرم بالفعل في ١٨ أغسطس ١٥٧٢ بين مرجريت فالوا، أخت الملك لهنري نافار ؛ فقد استدرج هذا الابن الريفي ، لفارس من البرانس وأم هوجونوتيه متعصبة من مقاطعته البعيدة وزوج بإحدى أميرات الأسرة الفرنسية المالكية الكاثوليكية . وكان هذا الزواج المختلط هو الأول من نوعه . ولقد استبانت

كاترين ما طرأ على الموقف السياسى من تغيير : فقد كانت تعلم أن الأغلبية العظمى من الشعب الفرنسى لا يزال مخلصاً للعقيدة القديمة ، رغم أن ما يقرب من ثلث النبلاء أصبحوا من الهوجونوت . كانت كاترين تخشى الحرب وسطوة أسبانيا ونفوذ كولينى على ابنها ، كما كانت تخشى أن يوجه آل جيز ضربتهم إذا ما بقيت هى ساكنة ، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا . لكل هذا استقر رأيها على تدبير مقتل كولينى . ولكن الهجوم على الأمير فشل ، ومن ثم أصبح مركز الملكة الوالدة دقيقاً ، وكانت باريس مزدحمة بالسادة الهوجونوت الذين أتوا إلى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى ، وقد استشاطوا عضباً للإعتداء الآثم على زعيمهم وموضع حبهم وتقديرهم العميقين . وحتى لا يتطور الأمر من سيء إلى أسوأ صممت الملكة على إعادة الكرة ، ليس ضد كولينى وحده فى هذه المرة ، ولكن ضد كل الزعماء البروتستانت ، وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهوجونوت ، وأمكن إقناعه بالموافقة .

واستطاع المتآمرون أن يدبروا مذبحة سان بارتلميو ، التى وقعت فى عيد هذا القديس يوم الأحد ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ . ولم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس حيث قتل حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف من الهوجونوت ، بل لقد تعدتها إلى الأقاليم أيضاً ، وقد فاقت بكثير أقصى ما كان يقدره رجال البلاط ـ وحين سرت أخبار التخلص من مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين ، أمر البابا بنقش ميدالية تخليداً لهذا العمل ، ورأس فيليب الثانى ملك أسبانيا صلاة شكر ، فلم يكن أحدهم يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكى العظيم ، فلقد مات كولينى ، ووقع كونديه وهنرى نافار فى يد الملك ، وأكدت الآلاف من جثث الهوجونوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية .

وبدلاً من أن تقضى مذبحة سان بارتلميو على الهوجونوت ، كانت مقدمة لحرب رابعة . فقد تحدى الهوجونوت القوات الملكية ، وهددوا وحدة فرنسا من

عاصمتهم الغربية لاروشل يؤيدهم عدد كبير من السياسيين Les Politiques ، وهم من الكاثوليك المعتدلين الذين لم ينحازوا إلى أنصار العقيدتين المتنازعتين ، ولكنهم أصروا على منح الحرية الدينية . وكان منهم ـ لفترة من الوقت ـ الأخ الأصغر للملك . ولكن الكاثوليك ـ وخاصة جماهير باريس الديمقراطية ـ لم يغتفروا للهوجونوت هذا العناد العنيف المستمر الذى كان يؤثر تأثيراً سيئاً على حركة المعاملات ، والذى كان يتنافى مع الوطنية (إذ كان الهوجونوت على اتصال بانجلترا) ، وكان المتعصبون يريدون السير بالحرب إلى النهاية ، ولكنهم رأوا أن الملك والملكة الوالدة لا يزالان يتابعان سياستهما المألوفة : عرض سلام أو هدنة على العصاة فى كل مناسبة ، وإنهما لا يزالان تسيطر عليهما فكرة إمكان إيجاد مكان يتعبد فيه الهوجونوت أحراراً فى غير خفاء فى دولة كاثولكية . وبدا لهم أن المعاهدة التى وقعت فى عام ١٥٧٦ ، وهى معاهدة بوليو Bealieu تكاد أن تكون تسليماً. ولهذا تكون إتحاد كاثوليكى ـ عرف عادة باسم «العصبة» ـ يرعاه البابا وملك أسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا .

وفى عام ١٥٨٤ توفى الأخ الأصغر للملك ، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة . ولما كان الملك لم ينجب نسلاً ، فلا مناص من أن يكون هنرى نافار الوريث التالى للعرش . وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين أن « الجمهورية خير من تولى ملك من الهوجونوت » ، وأصبح هنرى الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٨٩) لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز ، فأحنى الملك رأسه ، بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية ،وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس (١٢ مايو ١٥٨٨)، حين رفضت باريس ـ فى ولائها لهنرى دوق جيز ـ أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة ، كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة ـ فى اجتماعة فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين ـ سلسلة من

القوانين التى كان من شأنها ـ لو نفذت ـ أن تؤدى إلى إفلاس الخزانة ، وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها . ولقد حاول الملك أن يتخلص من هذه المهانات فلجأ إلى الإغتيال : فقتل دوق جيز وأخوه كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض أتباع الملك . وهكذا أعتقد الملك بأنه قد تخلص بذلك من أخطر منافس له .

ولكن مقتل دوق جيز كان خطأ جسيماً ، فقد تزايد الهياج فى باريس ضد الملك ، وأعلنت الكنائس سخطها عليه . وأصدر البابا قرار الحرمان ضده ، وأعلنت جامعة السوربون أن الشعب فى حل من نبذ ولائه للعرش ، وتشكلت حكومة مؤقتة ، وتزعم مايين Mayenne شقيق دوق جيز الاتحاد الكاثوليكى . وعندما توفيت كاترين ميدتشى فى يناير عام ١٥٨٩ فقد الملك أكبر نصير له فارتمى فى أحضان الهوجونوت وهنرى نافار . وكان هذا الأمير قد كشف عن صفات حربية باهرة : فقد أثبت فى موقعة كوترا Coutras (١٥٨٧) أن باستطاعة جيش من الهوجونوت حسن القيادة أن يهزم قوات التاج من الكاثوليك فى معركة نظامية . كما أن أعمال الفروسية العديدة التى شاعت عنه ، وحرصه الريفى وروحه المرحة ـ كل ذلك كان مما قربه إلى رجل الشعب . واشترك الهوجونوت مع أنصار الملك فى الزحف على باريس حتى بلغوا أسوارها فى جيش مؤلف من حوالى أربعين ألفاً فى يوليو ١٥٨٩ ، وشرعوا فى حصارها . وعندئذ استطاع رجل من الجزويت وهو جاك كليمنت Jacques Clement الوصول إلى معسكر الملك فى سان كلو ، وقتله فى أول أغسطس عام ١٥٨٩ . ولكن الملك قبل وفاته كان قد اعترف بأن هنرى نافار هو الوريث الشرعى له ، وطلب منه أن يعتنق الكاثوليكية . وبوفاة هنرى الثالث انتهى حكم أسرة الفالوا الطويل فى فرنسا ، وانفتح باب الصراع المباشر بين هنرى نافار و « العصبة » .

وحكمت فرنسا باسم العصبة لجنة من ستة عشر بإشراف دوق مايين

Mayenne ، الأخ الأصغر لهنرى جيز . وقد فرضت نظاماً من الإرهاب يشبه حكم لجنة الأمن العام فى عام ١٧٩٤ . وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الإعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنة أن يقلل من فرص الإنقسام . ولما كانت فرنسا لا تقبل حكم أميرة أسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة ، فإن الكتلة الرئيسية الأرستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربونى . ولكن التعصب كان لا يزال حاداً بلغ من حدته أن هنرى ـ حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستنتية فى كنيسة سان دنيس (٢٥ يوليو ١٥٩٣) اضطر إلى الإنتظار مدة ثمانية شهور خارج أسوار باريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدنية .

وفى ٢٢ مارس ١٥٩٤ سلمت باريس، وفتحت أبوابها للملك الكاثوليكى وتلى ذلك تسليم بقية المدن والمعاقل ، وسلك هنرى الرابع (١٥٨٩ ـ ١٦١٠) طريقاً حكيماً مع النبلاء الكاثوليك ، فاستمال إليه عدداً من أعضاء الإتحاد الكاثوليكى . ثم تأيد مركزه عندما رفع عنه البابا كليمنت الثامن حرمان الكنيسة فى سبتمبر ١٥٩٥ ، وأعترف به ملكاً على فرنسا . ولكن كان على هنرى قبل أن يتمكن من قمع الفوضى ، وتحسين الزراعة ، وترويج التجارة ، وإعادة السلام إلى فرنسا أن يواجه مشكلتين ملحتين هما الأسبان والهوجونوت . وقد استطاع ببعض العون من الملكة اليزابيث أن يطرد جيشاً أسبانياً من أميان ، وأجبر أسبانيا ـ طبقاً لمعاهدة فرفان Vervine الموقعة فى ٢ مايو ١٥٩٨ على أساس معاهدة كاتو كمبريسيس ـ على التخلى عن كاليه وبلافيه Blavet فى بريتانى ، وهما القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت أسبانيا قد وضعت يدها عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية . أما الهوجونوت فقد كانوا يثيرون صعوبة أخطر من ذلك بكثير . فهم كانوا رجالاً أقوياء تحدوا التاج الفرنسى لأكثر من ثلاثين عاماً ، وكان بوسعهم فى أى وقت أن ينزلوا إلى الميدان جيشاً من خمسة وعشرين ألف

رجل ـ لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم ، بل كانوا فى مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند . ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت Edict of Nantes (الذى صدر فى ١٣ أبريل ١٥٩٨) مرسوماً ملكياً بالعفو تفضل به الملك ، كما أنها لم تكن إعلاناً فلسفياً للتسامح . إنما هى معاهدة لم يكن الوصول إليها إلا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتاً طويلاً ، ثم قبلت بعد تردد كضرورة فرضتها ظروف كريهة لا يمكن تجنبها . ولقد سمحت هذه التسوية للهوجونوت بإقامة شعائرهم الدينية فى المدن التى سبق النص عليها فى معاهدة برجراك Bergrac فى سبتمبر ١٥٩٧ (بين الكاثوليك والهوجونوت) ، وعددها خمس وعشرون ، ومنها لاروشل وجرينوبل ومونبلييه وغيرها ، وصار كذلك للهوجونوت الحق فى تولى المناصب العامة العسكرية والمدنية على قدم المساواة مع الكاثوليك . ثم أنشئت لهم محكمة قضائية خاصة ضمن برلمان باريس ومحاكم شبيهة لها فى المقاطعات . وزيادة على ذلك صار لهم الحق فى عقد مجلس تمثيل عام ينعقد مرة كل ثلاث سنوات للبحث فى شئونهم ، وتقديم التقارير اللازمة عن أحوالهم وعن مطالبهم . وفى الواقع سمح مرسوم نانت لدولة هوجونوتية صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية أن تقوم وتعمل فى قلب فرنسا .

ولمرسوم نانت مكان ملحوظ فى تاريخ الحضارة باعتباره أول إعتراف عام بأنه من الممكن أن تقوم أكثر من طائفة دينية واحدة فى نفس الدولة ، فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الدينى جزءاً من القانون الدستورى لفرنسا ـ قبل الإعتراف به فى انجلترا وألمانيا ـ لوقت طويل . وهكذا انتزع الهوجونوت قوة وإقتداراً من خصومهم الكاثوليك إمتيازات ما كان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضع نقاش . ومنذ ذلك الوقت وضعت الأسس لأزهى فترة فى تاريخ فرنسا انتعشت فيها الملكية ، وسما قدرها ، واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل

ملحوظ، ودبت الحياة فى الكنيسة الكاثوليكية ، وأثرت حياتها بفضل تحدى عقيدة الهوجونوت لها ، ووجودها معها جنباً إلى جنب . ولكن كتب لهذه المزايا أن تتبدد أمام التعصب الأعمى والجشع القاتل . كان هنرى سمح النفس فى المسائل الدينية ، وقد ورث كاترين ميدتشى فى خطة التسامح ، ولكنه استدعى اليسوعيين الذين قدر لنفوذهم فى البلاد ولتأثيرهم فى التعليم الفرنسى - وهو التأثير المطبوع بروح التعصب - أن يؤديا إلى طرد الهوجونوت ، ونقض مرسوم نانت الذى كان أعظم ما قام به هنرى .

ولكن فى عهد الملك لوى الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣)، أثيرت خواطر الهوجونوت بسبب حوادث الخصام والنزاع بين الملك وأعوانه والملكة الوالدة مارى ميدتشى الإيطالية وأعوانها ، ثم ازدادت هواجسهم بسبب قيام حروب الثلاثين سنة ، وإحتدام المناقشات الدينية التى برهنت على أن الشعور الدينى فى فرنسا لا يزال قوياً بالرغم من السكون الظاهرى الذى يسود البلاد منذ إصدار مرسوم نانت . وتحت تأثير هذين العاملين ، قرر الهوجونوت الإقدام على عمل كان من شأنه إصابتهم بالخسارة الكبيرة فى النهاية ، فقد شرع الهوجونوت فى هذه الآونة يعملون بكل همة ونشاط فى تحصين مدنهم المسورة ، وينشئون بها حكومات من طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية ، ثم ألفوا بين هذه المدن التى كانت بمثابة حكومات محلية ، وأنشأوا منها اتحاداً قوياً ، فأصبح الهوجونوت عبارة عن دولة فى داخل دولة . ولم تلق هذه الإتجاهات الإنفصالية أية معارضة جديدة من جانب الحكومة المركزية لأن هذه كانت مشغولة ببعض المسائل ، ولكن بمجرد أن تم الإتفاق بين مارى ميدتشى ولويس الثالث عشر ، استطاع الملك أن يتفرغ لمسألة الهوجونوت ، وبعد نضال استمر حتى عام ١٦٢٢ عقد الملك الصلح مع الهوجونوت فى أكتوبر من النفس العام ، وهو المعروف بمعاهدة مونبلييه (Montpellier) على أساس أنه يمتنع على المصلحين - أى

الهوجونوت ـ عقد المجالس ، وعلى أن يتم الإستيلاء على مدنهم الحصينة ما عدا مونتبان ولاروشل . ومع أن مرسوم نانت تأيد مرة ثانية بمقتضى هذا الصلح ، فقد كان واضحاً أن الهوجونوت قد بدأوا يفقدون جانباً كبيراً من قوتهم القديمة .

ولم يرض الهوجونوت عن صلح مونبلييه الذى أعتبروه تهديدا لمصالحهم فانتهزوا فرصة تغير العلاقات بين فرنسا وأسبانيا ، وتحصنوا فى لاروشل ، واستؤنف النضال بينهم وبين الحكومة ، وآزرهم الإنجليز بأسطول كبير عند لاروشل . ولكن ريشلييه (١٦٢٤ ـ ١٦٤٣) وزير فرنسا ألحق بهم الهزيمة وألقت قواته الحصار على لاروشل مدة ١٥ شهراً ، حتى سلمت للملك فى أول نوفمبر ١٦٢٨ ، ثم تلى ذلك سقوط مونتبان آخر معاقل الهوجونوت . وفى ٢٧ يونيه ١٦٢٩ تم عقد الصلح فى آليه Alais الذى انحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة أو حزب سياسى، وفقدوا إمتيازاتهم السياسية ، بينما أبقيت لهم حرية العقيدة ، ثم المساواة التامة مع الكاثوليك . وأكد ريشلييه من جديد مرسوم نانت ، وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون . ثم استمر تعيين الهوجونوت فى وظائف الدولة وفى الجيش وفى القضاء . وأظهر ريشلييه فى هذا العمل كياسة وفطنة لأن الهوجونوت الذين أطمأنوا إلى الحكم الجديد اندمجوا فى صفوف مواطنى الدولة ، وساهموا فى إنعاشها .

٢ ـ انجلترا ونظام الكنيسة الإنجليكانى :

انتهت حروب الوردتين (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥) بتولى أسرة تيودور عرش انجلترا. وتوج هنرى تيودور دوق ريتشمند ملكاً على انجلترا بإسم هنرى السابع (١٤٩٥ ـ ١٥٠٩). ولما اعتلى هنرى السابع العرش وجه عنايته إلى المملكة التى كانت قد أضعفتها الحرب الأهلية ،وقوى فيها الأشراف، وإنتشرت فيها الفوضى، وقد رأى أن خير وسيلة لأستتباب الأمن والعدل فى البلاد ، هى كسر شوكة من بقى من الأشراف، وتشجيع الطبقة الوسطى وتقليدها المراكز العمومية المهمة ،

فعين منهم وكلاء الملك فى الأقاليم ، ثم كبح جماح الأشراف فحرم عليهم جمع وتسليح أتباعهم وإلباسهم شارات خاصة . وألقى هنرى نظرة على القانون فرأى أن الغنى والقوى يمكنه أن ينال أغراضه بترغيب المحلفين أو تهديدهم ، فأنشأ « محكمة غرفة النجم » Star Chamber عام ١٤٨٧ من أعضاء يعينهم الملك مباشرة للحكم على كل من يتدخل فى سير القضاء . ومن إصلاحاته القضائية أنه حتم على رجال الدين أن يحاكموا ـ فى القضايا الجنائية ـ أمام المحاكم الأهلية بعد أن كانوا يحاكمون أمام محاكم الكنيسة . ومات هنرى عام ١٥٠٩ بعد أن نظم المملكة داخلياً ، وأحيا الصناعة والتجارة فيها ، وجعل لها منزلة سياسية فى الخارج وساعد على تقوية الملكية ، وإضعاف الأشراف ، والتقليل من عقد البرلمان .

وسار الإبن هنرى الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) على نهج أبيه من ناحية إضعاف الأشراف ، وعدم دعوة البرلمان للإنعقاد إلا نادراً ، والاعتماد على الطبقة الوسطى فى حفظ النظام الداخلى . وما أن أعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الأرجونية ، وهى سيدة جادة دمثة الأخلاق تكبره بست سنوات ، وكانت أرملة لأخيه الأكبر آرثر الذى توفى فجأة بعد زواج دام أربعة أشهر (وكانت كاترين ابنة لفرديناند وإيزابيلا) . وكان البابا يوليوس الثانى قد أصدر فى عام ١٥٠٣ فتوى أقرت الزواج من أرملة أخ متوف . وقد أهتم الملك الشاب بأمره ، فكان مغرماً بالبحر وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء أسطول ملكى ، ووسع أساس قوة انجلترا فى البحر . وكان أول ملك انجليزى له أسطول على أحدث طراز بمعنى الكلمة. أما الأمر الثانى الذى أهتم به الملك فهو المسائل الدينية التى كانت قد أصبحت ـ كما أصبح الإقتصاد فى أيامنا ـ أساساً لدراسة السياسة . فكتب بحثاً نشر فى عام ١٥٢١ رداً على لوثر كان من نتيجته أن أنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامى العقيدة. وكان كلما تقدمت به السن إزداد اهتمامه

بنفسه، ونما شعوره بالثقة في عقيدته. أما الشعب الإنجليزى فكان على عكس ملكه ـ وعلى عكس الشعب الاسكتلندى ـ غير مبال بالبحوث الدينية .

وعلى أية حال لم يستمر حسن التفاهم بين البابا والملك هنرى الثامن . فلقد أراد هنرى أن يطلق كاترين عندما تغيرت العلاقات بينه وبين الأمبراطور شارل الخامس وكانت كاترين عمة الأمبراطور ، خلال الحروب الإيطالية ، ولأنها أيضا لم تنجب ولداً يرث العرش من بعده . كما أن هنرى كان قد وقع من مدة في حب إحدى سيدات البلاد وهى آن بولين Anne Boleyn ، وعزم على أن يحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقلبة فيتخذها زوجة شرعية له في عام ١٥٢٧ . وأستند الملك في طلب « الطلاق » من كاترين إلى عدم إرتياح ضميره لمعاشرة كاترين بسبب صلة الرحم الدقيقة بينهما ، ولأنه يريد ولداً ذكراً يرث العرش من بعده ، ولم يكن لكاترين سوى ابنة واحدة وهى مارى .

وكانت أسبانيا هى العقبة التى تعترض تحقيق هذه الأمنية . ولو لم يكن البابا أميراً إيطالياً ضعيفاً تهيمن عليه أسبانيا ، لربما تم إلغاء زواج كاترين دون أن تترتب عليه نتائج ما . ولكن البابا كليمنت كان مسلوب الإرادة ، فرغم أن وزير الملك الكاردينال ولزى Wolsey وكان آخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا انجلترا ـ حذر البابا من أن ولاء إنجلترا لكنيسة روما قد أضحى بأسره في الميزان فإنه خشى إغضاب الإمبراطور . وهكذا لم يستطع هنرى أن يظفر من البابا بشيء ، وتعقدت المسألة تعقيداً بالغاً ، وشاعت أخبارها بأرجاء أوروبا . ولقد غضب الملك على الكاردينال ولزى وعزله ، وصادر أملاكه ، وأتهمه بالخيانة لأنه كان صاحب الرأى في الإتفاق مع روما لاستصدار قرار الإلغاء . وشغل جانباً من المكان الذى شغر بسقوط ولزى رجل علمانى هو توماس كرمويل Cromwell الذى كان في خدمة ولزى . ولقد نظر كرمويل إلى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب في إيطاليا ، وقرأ الأمير لميكافيللى ، وشعر بأن تيار

الأحداث يتجه نحو تجريد السياسة من الطابع الدينى . واستطاع كرمويل أن يقنع الملك فى مقابلة معه بإتباع الخطة التى أسفرت فى آخر الأمر عن فصل الكنيسة فى إنجلترا عن كنيسة روما ، ووضعها تحت سيادة الملك . فأشار على الملك أن يحذو حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ، ونبذوا سياسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأسسوا كنيسة أهلية ، فيسعى الملك بمساعدة البرلمان لإنشاء كنيسة أهلية وطنية يكون الملك رئيسها ، وعندئذ تستطيع هذه الكنيسة المنفصلة تحقيق رغباته فى مسألة الطلاق من كاترين . فقرر هنرى العمل بهذه الخطة . ومن ذلك يلاحظ أن الإصلاح الدينى فى إنجلترا سار فى كل خطواته بحسب توحيد الدولة وهذا ما جعله يتخذ شكلاً خاصاً به ، وينطبع على الأقل بالصورة التى رسمت له ، وهى صورة متفقة مع التكوين السياسى والإجتماعى. وأول ذلك أن الإصلاح الدينى تم على يد الملك وبمشورة البرلمان. إذ عمل هنرى الثامن على مشاركة الدوائر السياسية الكبرى فى المسئولية معه ، ورأت تلك الدوائر ـ ممثلة فى أعضاء مجلس اللوردات ونواب مجلس العموم ـ أن تكون له معيناً وظهيراً . ولذا كان البرلمان الإنجليزى هو الذى قام على وضع التشريعات اللازمة ، وصوغها ، والموافقة عليها .

دعا هنرى البرلمان فى عام ١٥٢٩ إلى مساندته فى نضاله مع الكرسى البابوى ، واستبقى دورة إنعقاده سبع سنوات ، وأصدر عن طريق اللوردات والعموم اللوائح التى اقتضاها إستقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما ، وإخضاعها للتاج . ففى عام ١٥٣١ أصدر البرلمان قانوناً بإخضاع رجال الدين فى إنجلترا لسلطة الملك ، وأعطى لقب خاص للكنيسة ورجال الدين والرئيس الأعلى وحده للكنيسة ، ولرجال الدين فى إنجلترا بالدرجة التى تسمح بها قوانين المسيحية . وفى عام ١٥٣٢ أشتدت الحملة لإخضاع رجال الكنيسة لسلطة الملكية ، فأصدر البرلمان عدة قوانين لمنع إرسال الأموال إلى روما ، ولمنع الكنيسة فى إنجلترا من

استصدار أية قوانين أو أوامر أو تنظيمات متعلقة بالكنيسة من غير موافقة الملك . وفى عام ١٥٣٣ عين هنرى توماس كرانمر (Cranmer) ـ من تلامذة كمبردج المتبحرين فى اللاهوت ـ رئيساً لأساقفة كانتربرى على الرغم من إمتناع البابا كلمنت السابع من الموافقة على ذلك . ولما كان هنرى الثامن قد تزوج من آن بولين سراً منذ يناير ١٥٣٣ ، ومن المنتظر أن يوافق كرانمر على هذا الزواج ، ويريد الملك أن يمنع زوجته القديمة كاترين الأرجونية من إرسال قضيتها إلى روما للفصل فيها ، فقد أصدر البرلمان قانوناً لمنع إستئناف القضايا Appeals Act فى روما . وفى ٢٣ مايو ١٥٣٣ أعلن كرانمر إلغاء زواج هنرى الثامن من كاترين . وبعد ذلك بخمسة أيام قرر كرانمر مشروعية زواج الملك من آن بولين . وقد توجت هذه ملكة على إنجلترا ، وفى يوليو من نفس العام أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنرى الثامن ، وأعلن فى مارس ١٥٣٤ أن زواج هنرى الثامن من كاترين لا يزال قائماً .

ولقد رد هنرى على ذلك بأن استصدر أولاً من البرلمان فى سبتمبر ١٥٣٤ قانوناً يجعل الوراثة من بعده لإليزابيث ، ابنته من آن بولين وألغى بذلك حق ابنته مارى من زوجته الأولى كاترين الأرجونية . وفى نوفمبر فى العام التالى استصدر من البرلمان أيضاً قانون السيادة The Act of Supremacy الذى يعلن أن الملك « عدلاً وشرعاً هو ، وكما يجب أن يكون ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إنجلترا» . وقد أعطى هذا القانون إلى الملك كل السلطات القانونية والسياسية التى كان البابوات يتمتعون بها سابقاً بإنجلترا. ومع أن هنرى الثامن لم يتطلع بفضل هذا القانون إلى ممارسة حق تغيير العقيدة ذاتها ، فقد كان من ناحية أخرى يرى أن من حقه إصلاح القانون الكنسى ، والسيطرة على التشريع فى الكنيسة ، والاستئثار بملاحظة النظام والهيمنة على شئون الكنيسة . وقد تدعم هذا القانون بقانون آخر يعتبر من الخيانة مناقشة هذه السلطات ، أى معارضتها ، ويعاقب فى صراحة كل من ينتقد بشيء شخصى الملك والملكة .

ثم تلا تلك الخطوة حل الأديرة بأنحاء إنجلترا ، وصودرت الكنيسة فى أراضيها ، وأغلبية مادون ذلك من أملاك كثيرة وثروة طائلة . وليس من المغالاة أن يوصف ما حدث وقتذاك بأنه كان ثورة اقتصادية، إذا استولى التاج على ما يقرب من خمس الأراضى الزراعية بالبلاد ، فضلاً عن مقادير هائلة من الثروة المنقولة ، وأنشأت الحكومة ديواناً خاصاً بضبط ذلك كله ، وإدارته فجاء عملها دليلاً على الكفاية الإدارية للدولة القومية الجديدة . وقد هيمن توماس كرمويل ، كما أشرنا، على تلك الخطوات الأولى من حركة الإصلاح الدينى بإنجلترا ، فدبر كل خطوة منها تدبيراً ، وأشرف على تنفيذها فى دقة وتفصيل ولا غرو فإنه كان رأساً سياسياً متوقداً ، بصيراً بأعقاب الأمور ، لا يرى لرأيه نقضاً ولا تبديلاً ، مع القدرة على إدارة شئون الدولة فى جرأة وإقدام .

على أن النتائج الإقتصادية التى ترتبت على حل الأديرة أحدثت بالبلاد إنقلاباً جوهرياً ، بعيد الأثر ، وأول ذلك أنها أدت إلى إزدياد قوة الملكية . ثم أن الدولة صرفت ما استولت عليه من أموال الكنيسة على تهيئة ما حاجها من مظاهر المنعة والهيبة . فبنى هنرى الثامن أسطولاً قوياً ، وحصن الشواطىء ، بل استطاع أن يقوم بحرب ضد فرنسا (١٥٤٣ ـ ١٥٤٦) لتنضم إلى سلسلة الحروب التى كلفت انجلترا كثيراً فى غير جدوى . على أن كثرة النفقات اللازمة لشئون الحكم ، وتضخمها بسبب ارتفاع الأسعار فى أنحاء العالم ، نتيجة لتدفق الفضة الأمريكية على أوروبا عن طريق أسبانيا والبرتغال ، أدى إلى بيع أراضى الكنيسة تدريجياً إلى طبقات الملاك والمزارعين . واستمرت تلك العملية خلال القرن السادس عشر الميلادى والقرن التالى له ، حتى استقرت أغلبية الأراضى الزراعية بإنجلترا نهائياً فى أيدى أعيان الأقاليم ، فعكف هؤلاء على استغلالها ، وزادوا فى خصبها وإنتاجها بفضل تفتح الأبواب لإستثمار الأموال . ومعنى ذلك أن طبقة الملاك والمزارعين صارت على جانب عظيم من الثروة وقوة

النفوذ ، مما حدا بأفرادها إلى التطاول على السلطة السياسية بالبلاد ، بل تعداه إلى مهاجمة الملكية نفسها ، بعدئذ بقرن من الزمان . وقد كان من أثر ذلك أيضاً أن ازدادت قوة الإنتاج فى كل ناحية من نواحى الحياة الإقتصادية بالبلاد ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة ، ونمت الثروة العامة ، وتضاعف النشاط الذى منه نبعت الأعمال العظيمة التى تمت فى عهد الملكة اليزابيث .

ومن الطبيعى أن تلك التطورات التى هزت أوروبا ، وجلجلت فى أرجائها بأمثال الثورة الخطيرة التى قام بها الفلاحون فى ألمانيا سنة (١٥٢٥ ـ ١٥٢٦)، لم تخل من أصداء وأحداث مشابهة لها فى انجلترا ، حيث تأخر حل الأديرة الكبرى بسبب الثورة التى عرفت بإسم حج الغفران (Pilgrimage of Grace) عام (١٥٣٦ ـ ١٥٣٧) ـ وهى الثورة الكبرى التى نشبت فى الشمال رداً على حل الأديرة ـ وشلت يد الحكومة لعدة شهور . على أن الملك هنرى الثامن هب لإنقاذ الموقف ، إذ تذرع بعدة وسائل من الإغراء والمكر السياسى ، والتهديد بإستخدام القوة حتى قضى على تلك الثورة الكاثوليكية بشمال إنجلترا ، بأقل ما يمكن من خسارة فى الأرواح . هذا وقد ساعد هنرى على المضى قدماً فى سياسته العامة ما لقيه من معاضدة مدينة لندن والأقاليم الجنوبية الشرقية ، والمزراعين وأهل الطبقة الوسطى بمختلف المدن ، فأستطاع لذلك أن يأخذ العناصر المحافظة التى عمدت إلى مقاومة السياسة الجديدة بأنواع الشدة والصرامة، سواء أكانوا من الأعيان أم من رجال الدين أم من الفلاحين . وذهب كثير من أبناء الأسر الإقطاعية العتيدة إلى خشبة الإعدام ، كما ذهب إليها أمثالهم من بعدهم طوال عهد التيودوريين دون أن يرتفع صوت بالشكوى أو بالإحتجاج إلا قليلاً . وقد ذهب السير توماس مور فى ذلك العصر مع الذاهبين شهيداً فى سبيل المبدأ الدينى ، وهو أنبل الشخصيات الإنجليزية التى تصدت للدفاع عن فكرة الكنيسة العالمية .

ولقد ترك هنرى صورة لا تمحى من عقول رعيته ، إذ عبر بشخصيته الصاخبة عما تكنه الأمة الفتية من زائد الثقة بنفسها ومستقبلها . ونادى بأن السلطة الملكية لا تتجزأ ، وسار في حكمه على هذا المبدأ . وأدركته المنية وهو في وسط مشاريعه لضم اسكتلندا إلى التاج الإنجليزى ، حيث كانت سياسته قد تعثرت بمعارضة زعماء الحزب الاسكتلندى الكارهين لفكرة الضم ، اعتماداً منهم على مؤازرة فرنسا لاسكتلندا في ذلك الوقت .

وفى عهد إدوارد السادس (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) ، ابن هنرى الثامن تطورت حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا إلى سرعة ملحوظة وإنطلاق مشهود ، فقد مضت فئة البروتستنتيين المحيطة بالملك الصغير فى مصادرة أملاك الكنيسة ، وإدخال المذهب البروتستنتى فى آن واحد ، ومن ذلك إصدار كتاب الصلوات العامة (The English Book of Common Prayers of 1549) باللغة الإنجليزية ، وهو الكتاب الذى طبع الكنيسة البروتستنتية نهائياً بطابع قومى ، وجعل الصلوات الجديدة جامعة ، للناس أنفسهم فيها أكثر مما للقسيس المكلف بأمور الدين . ومما يلاحظ دائماً أن جميع التغييرات والتطورات ، وجميع الخطوط الجريئة التى تمت وقتذاك كانت كلها من عمل الدولة نفسها ، إذ تولت الحكومة شأنها ، وأشرفت عليها ، واستطاعت أن تصل بذلك إلى أقصى غاية من الإنسجام القومى ، وأن تحافظ على الوحدة القومية بعكس ما تمخض عنه الإصلاح الدينى فى مختلف البلاد الأوروبية من عوامل التفرقة حتى صار الكثير منها إلى التفكك والإنحلال ، ولا سيما فى ألمانيا . أما انجلترا فقد اجتازت تلك المرحلة دون أن يحدث بوحدتها العامة شيء ، وذلك بفضل ما للدولة بها من قوة وسلطان .

ومع هذا فلم يخل الأمر من بعض حوادث محلية بأطراف البلاد ، ومنها قيام الثورة بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية على الكتاب الجديد

للصلوات العامة سنة ١٥٤٩ . غير أنه مما يدعو إلى الإنتباه أن موانىء تلك الأقاليم بدت من قبل ذلك شديدة العطف على البروتستنتية ، والمضى فى طريق التجديد، وأن هذه الموانى هى التى ساهمت فى عصر الملكة اليزابيث بنصيب كبير . وفى تلك السنة نفسها هبت ثورة أخرى بإقليم زيست ، وبعض جهات الأقاليم الوسطى بسبب اضطراب ميزان الحياة الزراعية تحت جملة من العوامل الإقتصادية، كإرتفاع الأسعار بالقارة الأوروبية ، وغش النقود فى انجلترا منذ أيام هنرى الثامن، وانتقال ملكية الأراضى من الكنيسة والأديرة إلى الدولة وغيرها من الملاك ، وتحول المساحات الزراعية الكبرى إلى حقول مسورة لتربية الأغنام ، وما يتبع ذلك من استغلال الأراضى استغلالاً جيداً . وفى عام ١٥٦٠ وقعت الثورة الأخيرة من تلك الثورات الإقطاعية الكبرى بالأقاليم الشمالية ، وتزعمها الأعيان الإقليميون من اللوردات الذين بقوا على المذهب الكاثوليكى ، وتعصبوا للملكة مارى الاسكتلندية ضد الملكة اليزابيث. غير أنه مما يسترعى النظر فى جميع تلك الثورات، وغيرها من ثورات البروتستانتيين ضد مارى التيودورية ملكة انجلترا بعد إدوارد السادس ، أن واحدة منها لم تستطع أن تظفر بنصرعلى الحكومة مع خلو البلاد من جيش نظامى ثابت ، والسر فى ذلك أن الحكومة فى انجلترا أضحت ثابتة الدعائم ، وأن الدولة صارت إلى قوة لا تستطيع معها فورة من الفوضى المحلية أن تظل طويلاً أو قصيراً ، وهذا ما جعل انجلترا تختلف وقتذاك كل الإختلاف عن فرنسا التى مزقتها الحروب الدينية ، مما ضيع على الفرنسيين فرصة المشاركة فى معركة السبق إلى العالم الجديد .

على أن أخطر أوقات الرجعية التى هددت حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا زمن التيودوريين ، هو حكم الملكة مارى (١٥٥٢ ـ ١٥٥٨) ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى كاترين الأرجونية ، وذلك لما اتصفت به مارى نفسها من شدة التدين والتمسك بالكاثوليكية ، ولارتباط انجلترا بسلسلة المحالفات

والمصالح الأسبانية ، بسبب زواج الملكة من قريبها فيليب الثانى ملك أسبانيا ، على حين توجهت البلاد إلى الاستقلال بشئونها ومصالحها الخاصة . ولقد أعلنت الملكة مارى وزوجها فيليب وابن عمها الكاردينال بول عودة انجلترا رسمياً إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، فلم يعد ذلك أن يكون فوزاً عميقاً ، لأن السلطات المدنية ظلت محتفظة بأراضى الكنيسة وثروتها . ثم أن إنكباب الملكة مارى على صنوف الإضطهاد التى أنزلتها بالبروتستانتيين ، لم تود إلى شىء سوى أنها زادتهم عدداً بكثرة الداخلين فى المذهب البروتستنتى ، بل إنها بإحراقها الأسقف كرانمر Cranmer قد أمدتهم بشهيد يضارع السير توماس مور، شهيد الكاثوليكية العظيم. والخلاصة أن الاضطهاد الذى لجأت إليه الملكة مارى كان غلطة سياسية قضت على حكمها وطريقتها فى الحكم قبل أن تقضى هى نحبها ، لأنه لم يكن باستطاعتها التغلب على القوى الفتية التى انتشرت وقتئذ بأنحاء البلاد ، ولأن حزبها لم يضم إلا فئة من الطاعنين فى السن، البعيدين عن روح العصر الجديد ، بالإضافة إلى أن مارى نفسها امرأة عاقر .

ولكن خليفة مارى على عرش انجلترا ـ وهى أختها اليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) قد جمعت فى شخصها كل المؤهلات الكفيلة بالتعبير عن تلك القوى الفتية الجديدة ، والسير بها إلى النصر فى ظروف محفوفة بأنواع الحرج والخطر . وكانت اليزابيث شخصية سياسية من الطراز الأول ، هذا بالإضافة إلى ما أجتمع لديها من موهبة ونبوغ ، كالمعرفة باللغات والعلم ، وحب الموسيقى والرقص ، وهى فى الواقع إحدى عباقرة السياسة ، وقد دلت الأيام ، على أن عهدها أسعد العهود وأمجدها فى التاريخ الإنجليزى ، يكفى برهاناً على ذلك أن تاريخ انجلترا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى يطلق عليه « عصر اليصابات» (اليزابيث) .

وقد عملت هذه الملكة منذ بداية حكمها على أن تجمع إليها رجال العصر

الجديد وأن تربط بينها وبينهم برباط وثيق ، وفى طليعة هؤلاء وليم سيسل Cecil الذى ظل إلى جانبها متولياً رياسة الحكومة إلى ما قبل خمس سنوات من وفاتها. وقد خلفه من بعده ابنه روبرت ، فجرى على سياسة أبيه حتى عام ١٦١٢ . وقد جرت اليصابات (اليزابيث) فى سياستها الدينية على نحو ما جرى فى عهد إدوارد السادس بأن عادت إلى استعمال كتاب الصلوات البروتساتنتية ، وفصلت الكنيسة الإنجليزية فصلاً تاماً عن روما ، وأعلنت قيام الكنيسة القومية المستقلة مرة أخرى بالبلاد . غير أنها سارت ـ فيما عدا ذلك ـ على سياسة المحافظة على القديم ومسايرة الظروف ، وقصدت بتلك الطريقة صون الوحدة القومية بقدر الإمكان . ولذا قل الاضطهاد الدينى فى السنوات العشر الأولى من حكمها ، وظل النظام الداخلى للكنسية على ما هو عليه منذ العصور الوسطى يترأسه أساقفة معينون من قبل الدولة ، وبقى الميدان متسعاً لصنوف المذاهب المختلفة من كاثوليكية ولوثرية وكلفينية .

وهكذا استطاعت اليصابات أن تجعل من انجلترا بلداً بروتستانتياً فى النهاية، بفضل الموقف الوسط الذى وقفته بين متطرفى البروتستنت والكاثوليك على السواء ، واستطاعت فى النهاية إقامة صرح للكنيسة المعروفة بأسم النظام الإنجليكانى أو نظام اليزابث الكنسى (The Anglican or Elisabethan Church System) وكان أهم القوانين التى قام عليها هذا النظام قانونان : قانون السيادة العليا ، وقانون المذهب الواحد وكلاهما صدر فى عام ١٥٥٩ . وكان من أوضح صفات نظام الكنيسة الأنجليكانى أنه كاثوليكى المظهر ، بروتستنتى العقيدة . وبوفاة اليصابات انتهى عهد التيودور فى انجلترا وبدأ عهد أسرة جديدة هى أسرة استيوارت ، وفى عهد هذه الأسرة الجديدة بقيت المسألة الدينية تشغل الأذهان فى انجلترا ولو أن النضال الداخلى فى عهد هذه الأسرة الجديدة كان نضالاً دستورياً فى جوهره ، من أجل تقييد سلطة الملكية ، وإقرار حق الشعب الممثل فى البرلمان .

٣ - ثورة الأراضى المنخفضة :

حجزت جبال البرانس أسبانيا عن بقية أجزاء أوروبا ، وساعد هذا الحاجز الطبيعى أسبانيا على أن تعنى بشئونها بشئونها الداخلية ، وتمكن ملوكها الكاثوليك من تأسيس الملكية ذات الحكومة الموحدة القومية . وفى نهاية القرن الخامس عشر تخلصت أسبانيا من عزلتها القديمة ، وأدعت لنفسها حقوقاً فى صقلية ونابولى ، وربطت مصيرها بمصير الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) عندما تزوجت جوانا Joanna الأسبانية فيليب ابن مارى البرجندية ومكسمليان النمسوى. وبذلك سيطرت أسبانيا على إمبراطورية واسعة ، وحققت طموحاتها . ولكن المسئوليات الواسعة التى تحملتها فى ذلك الوقت تعتبر من أهم العوامل الرئيسية التى أدت إلى إنهيارها فيما بعد .

ولكن يجب ألا نضع فى إعتبارنا عند تلك المرحلة المبكرة إنهيار أسبانيا وضعفها ، ففى خلال القرن السادس عشر والجزء الأكبر من القرن السابع عشر، كانت أسبانيا دولة قوية مزدهرة ، وأعتبر جنودها لمدة قرن من الزمان أحسن جنود أوروبا ، وقامت سفنها باكتشاف العالم الجديد ، وبالتالى أتيحت الفرصة لأسبانيا بأن تقوم بنشاط تجارى واسع ، ولكن التجربة أظهرت فيما بعد وجود خلل فى كل هذه المميزات إذ استلزمت ممتلكاتها الأمريكية نفقات باهظة ، كما أعطى حماس الشعب الدينى محاكم التفتيش مجالاً واسعاً للحركة بحيث قضت على حرية الفكر ، وأبعدت أسبانيا عن الحركة الفكرية الحرة التى سادت بقية أوروبا . أما الإمبراطورية الواسعة التى كونتها أسبانيا فقد دفعتها إلى خوض غمار حروب لا طائل لها ، شلت مواردها الإقتصادية بدرجة كان لا يمكن التغلب عليها

وكان حكم شارل الخامس فاشلاً فى ألمانيا ، ولكنه كان حكماً مجيداً ، بالنسبة لأسبانيا . ولقد تدعم نفوذ الملكية بالتغلب على جميع القوى المنافسة ، وتم وضع نظام لإدارة المستعمرات الأمريكية . وتزايدت قوة أسبانيا بدرجة كبيرة

فى إيطاليا ، كما تميز حكمه بالنجاح والشعبية فى الأراضى المنخفضة . وعندما عزل شارل الخامس الملك فى عام ١٥٥٦ ، كان من نصيب ابنه فيليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) الحكم فى أسبانيا ، وفى أملاكها الأخرى التى ورثها عن أبيه فى الأراضى المنخفضة ونابولى ، وميلان وصقلية ، إلى جانب إمبراطورية أسبانيا الإستعمارية .

وغالباً ما يقال بأن حكم فيليب الثانى قد فشل فشلاً ذريعاً ، وكان فيليب يبدو دائماً بأنه على وشك تحقيق عمل عظيم ، وحانت لحظات ظهر فيها بأنه فى إمكانه ضم انجلترا وفرنسا إلى ممتلكاته ، ولكن جهوده لم تتوج بالنجاح . غير أن إنفصال جزء كبير من الأراضى المنخفضة ، وتحوله إلى دولة بروتستانتية مستقلة، كان من أسوء الضربات جميعاً التى وجهت إلى حكمه . وعلى الرغم من ذلك لم يخل حكم فيليب الثانى من تحقيق بعض الانتصارات . ففى عام ١٥٧١ قاد دون جون النمساوى ـ وهو أخ غير شرعى للملك ـ قوة بحرية كبرى من الدول الكاثوليكية ، وأوقع بالأسطول العثمانى هزيمة فادحة عند ليبانتو Lepanto فى خليج كورنث ، ولم يسترد العثمانيون بعد تلك الهزيمة قوتهم البحرية . كما كان أعظم انتصار حققه فيليب فى عام ١٥٨٠ عندما أدعى بنجاح أحقيته فى عرش البرتغال بعد وفاة ملكها ، وهكذا لم يحكم كل شبه جزيرة أيبيريا فحسب ، بل ضم إلى ممتلكاته أيضاً الممتلكات البرتغالية الشاسعة فى أمريكا والهند .

ولكن الثورة التى قامت فى الأراضى المنخفضة تعتبر من أعنف الضربات التى وجهت إلى أسبانيا فى عهد فيليب الثانى ، فلم تؤد هذه الثورة إلى إضعاف أسبانيا فحسب ، ولكنها أدت كذلك إلى ظهور دولة بروتستانتية جديدة وحرة فى أوروبا . وكانت الأراضى المنخفضة تتكون من سبع عشرة مقاطعة منفصلة انتقلت ملكيتها إلى فيليب الثانى كجزء مما ورثه عن شارل حاكم برجنديا ، وكان لكل

شكل من الأشكال على الرغم من أن شارل الخامس قد حاول ـ دون أن يفشل تماماً ـ وضع نظام إدارى مشترك ، وكونت هذه المقاطعات من الناحية الأسمية جزءاً من الإمبراطورية . ولكن الإرتباط بينها كان ضعيفاً كما كان الحال فى الإتحاد السويسرى . وكانت المقاطعات عبارة عن خلية مزدحمة بالنشاط التجارى والصناعى ، وأعطت مدنها وموانيها الكبرى ـ ومن أهمها انتورب وجنت وبروكسل وامستردام ـ ملك أسبانيا دخلاً كبيراً أكثر مما حصل عليه من الهند . ولم يكن من السهل حكم هذه المقاطعات ، وواجهت شارل الخامس بعض المصاعب الخطيرة ، ولكنها فى معظم الأحيان أيدته بإخلاص .

أما فيليب الثانى فلم يتمتع بخبرة والده وميوله العالمية ، فقضى معظم حياته تقريباً فى أسبانيا ، وأدار شئون إمبراطوريته الواسعة من مدريد عن طريق المراسلات الكثيرة . وكان فيليب الثانى مجتهداً ، صبوراً ، يشعر بالواجب الملقى عليه ، وكان مخلصاً إخلاصاً حقيقياً وعظيماً للديانة المسيحية ، ولكن من النادر أن جاء حاكم فى تاريخ أوروبا كرهه معاصروه وخلفاؤه كفيليب الثانى ، لأنه اصطدم مع كل ما يمثل الحرية والتقدم ، واجتهد فى القضاء عليهما بعنف واستهتار .

وكانت سياسته إزاء الأراضى المنخفضة تتمشى فى نواح كثيرة مع الإتجاه العام السائد فى ذلك العصر . وأراد فيليب أن يمنح المقاطعات السبعة عشر فى الأراضى المنخفضة وحدة حقيقية تحت التاج الأسبانى ، كما أراد أن يطمس الكثير من حريتهم المحلية والمنفصلة ، وأن يحكم الأراضى المنخفضة بنفس السلطة المطلقة التى حكم بها أسبانيا ، وحكمت بها كل من اليزابيث وهنرى الرابع انجلترا وفرنسا . وبالإضافة إلى ذلك اعتقد فيليب ـ كما أعتقد الكثيرون غيره فى ذلك العصر ، أن الوحدة السياسية من الصعب تحقيقها بدون وجود وحدة دينية . وعقد العزم نتيجة للدوافع السياسية والدينية على القضاء على الحركة البروتستانتية

التى انتشرت من قبل وعلى وجه الخصوص فى المقاطعات الشمالية وكانت الأراضى المنخفضة قد تأثرت بحركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا . فعرف مذهب لوثر ومذهب كلفن بحرية العقيدة

وبدأ الصراع مع تلك المقاطعات تقريباً عقب تولى فيليب الثانى العرش وقد تمنى سكان الأراضى المنخفضة أن يعين فيليب أحد كبار نبلائهم نائباً عنه فى حكم بلادهم ، واقترح الرأى العام اسم كونت إجمونت Egmont أو وليم William of Orange) الملقب بوليم الصامت) (*) . وكان الأخير من أصل ألمانى ، على الرغم من أنه حصل على لقبه نسبة إلى مقاطعة أورنج الصغيرة فى فرنسا ، وكانت له ممتلكات كثيرة فى الأراضى المنخفضة ، وارتبط بسكانها ارتباطاً وثيقاً . ولكن فيليب تخطى إجمونت ووليم ، وعين على حكم البلاد أخته غير الشرعية مارجريت بارما فى عام ١٥٥٩ ، وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على أعوانها ومستشاريها من الأسبان . وحدث الإحتكاك بعد ذلك بسبب المسائل الدينية ، إذ أراد فيليب أن يقيم أسقفيات جديدة ، وأن يسحق البروتستانتية عن طريق تنفيذ إجراءات استثنائية . وأعلنت المقاطعات أن هذا يعتبر تعدياً على إمتيازاتهم ، ودارت مفاوضات كثيرة بهذا الشأن ، ولكن لم يمكن التوصل إلى نتيجة . وصمم فيليب على أن يحسم الأمر ، فأرسل فى عام ١٥٦٧ الدوق ألفا Alva أعنف قواده على رأس جيش أسبانى كبير من المرتزقة الإيطاليين والأسبان لسحق المعارضة وتنفيذ الإجراءات بالقوة . وبمجرد وصوله بدأ يضرب بعنف وشدة . فأعدم إجمونت فى عام ١٥٦٨ ، أما وليم أورنج فأنقذ نفسه بالهرب وكون ألفا مجلساً أطلق عليه سكان الأراضى المنخفضة اسم مجلس الدم لمحاكمة جرائم الخيانة والهرطقة . وتم التغلب على كل المحاولات التى بذلت للقيام بالثورة . وفى عام ١٥٦٩ أصبحت البلاد فى قبضة ألفا ولكن رغم ذلك حدثت ثورة عنيفة بعد ثلاث سنوات لم تتمكن أسبانيا من إخمادها

(*) لقب بذلك لأنه اعتصم بالصمت

كان الجهل والعنف الذى اتسمت به سياسه ألفا المالية هما السبب الرئيسى لقيام الحركة الجديدة . فقد فرض فى عام ١٥٦٩ ضرائب هددت التجارة بالخراب ، وعارضه فى ذلك الوقت حتى أولئك الناس شديدى التعلق بأسبانيا . وتأجل دفع الضرائب لبعض الوقت ، ولكن كان لابد من جمعها فى عام ١٥٧٢ ، ولقد شجعت المساعدات الخارجية ، أو مجرد وجود أمل فى الحصول عليها ، شجعت السكان المضطهدين على المخاطرة بكل شىء من أجل القيام بثورة . وكانت الملكة اليزابيث صديقة لهم ، وحقدت فرنسا على أسبانيا بسبب الانتصارات التى أحرزتها على حدودها الشمالية . وفى أبريل عام ١٥٧٢ استولى الشحاذون من رجال البحر Sea Beggars (*) الهولنديين الذى تركوا البلاد بسبب سياسة ألفا ، وكانوا قد أغاروا قبل ذلك على ثغرى بريل Brill وفلاشنج Flushing فى ساحل زيلند Zeeland واستولوا عليهما ، وأعلنت مقاطعتا هولندا وزيلند الحرب على ألفا ، وقامتا باستدعاء وليم أورانج لتولى الحكم . وهكذا بدأت حرب الاستقلال الحقيقية التى استمرت لمدة أربعين عاماً وأثبتت هذه الحرب بأنها خليج لا نهاية له ألقت فيه أسبانيا بجيوشها وأساطيلها وثروتها . ولم يقضى على أسبانيا سوى المجهود الطويل المضنى الذى بذلته لإخضاع الأراضى المنخفضة .

أتخذ أورانج مقره فى بريدا Breda ، وأنضمت إليه المقاطعات الشمالية (هولندا وأوترخت وزيلند وفريسلد) ، وأعترفت به حاكماً عليها مع الإحتفاظ فى نفس الوقت بولائها لملك أسبانيا . ثم أنضمت إليها المقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية وهى جلدرلاند وجروننجن وأوفريسل ، ومن هذه المقاطعات السبع إذن تكونت هولندا الحديثة . واستمرت المقاطعات الشمالية فى كفاحها حتى توجت مجهوداتها بالنصر . وكان صراعاً مدهشاً . ويمكننا أن نتلمس

(*) كانوا قد اضطروا إلى ترك البلاد والإغارة على السفن الأسبانية .

أسباب فشل أسبانيا ، فلقد تشتت جهودها بسبب المشاريع العديدة ، وعانت من نقص رؤوس الأموال ، الأمر الذى انتهى إلى حدوث الإفلاس التام . ولم تقم أسبانيا بالإضافة إلى ذلك ، بأى مجهود فعلى للقضاء على قوتها أو إضعافها . ولم يكن سكان الأراضى المنخفضة نداً للأسبان فى المعارك البرية ، ولكنهم استماتوا فى الحرب خلف حوائط مدنهم ، وقاموا فى الأوقات الحرجة بقطع السدود أمام مياه البحر لطرد العدو . ويجب أن نذكر الخدمات الجليلة التى قدمها وليم الصامت . ولم يكن وليم جنديا عظيماً ، ولكنه بث شجاعته فى قلوب مواطنيه ، ونجحت دبلوماسيته الضعيفة فى الإبقاء على نوع من التحالف بين العناصر الكثيرة المزعزعة فى الثورة ، ولا تدين دولة بالفضل إلى أى حاكم مثلما تدين هولندا إلى « وليم الصامت » .

وأستدعى ألفا ، وغادر الأراضى المنخفضة فى عام ١٥٧٣ ، وخلفه دون لويس Don Louis الذى أحرز عدة انتصارات . ولكن لم تظهر أى بوادر لإنهاء هذا الصراع . وأدت وفاة دون لويس فى عام ١٥٧٦ ، دون أن يحرز نجاحاً حاسماً إلى نتائج على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ الحركة القومية فى الأراضى المنخفضة . فبعد وفاة الحاكم مباشرة قام الجنود الأسبان بالثورة بسبب تأخر مرتباتهم ، ونهبوا مدينة أنتورب ، وتلك هى الحادثة المعروفة باسم الغضبة الأسبانية Spanish Fury (١٥٧٦) . ولقد سهلت هذه الأحداث على وليم أورانج مهمة توحيد المقاطعات الشمالية والجنوبية ، واختفت بذلك إلى حين هذه الناحيه الدينية ، وتناسى سكان الشمال والجنود الإختلافات الدينية (*) ، وطغت قضية الوطن الكبرى على ما عداها من قضايا ، وجمع أورانج الشمال والجنوب فى اتحاد أطلق عليها اسم سلام جنت The Pacification of Ghent فى نوفمبر

(*) كانت المقاطعات الشمالية بروتستانتية وتتحدث اللهجة الألمانية وكانت المقاطعات الجنوبية تتحدث الفرنسية ، وحتى ذلك الوقت كانت المقاطعات الشمالية هى التى قامت وحدها بمقاومة الأسبان .

عام ١٥٧٦ على أساس الإعتراف بسلطان فيليب الثانى فى مقابل طرد الجنود الأسبان من البلاد ، ونشر التسامح الدينى ، وتأليف مجلس من المقاطعات يقوم بأعباء الحكومة .

وعين دون جـون Don John خلفـاً لدون لويس فى حكم الأراضى المنخفضة ، وسلم بالمطالب التى أجمعت عليها البلاد ، وامتثل لوحدة الشمال والجنوب ، فأكد تسوية جنت ، ووعد بسحب القوات الأسبانية . ولكن الإتحاد بين الشمال والجنوب بدأ يتصدع ، ولم يتمكن وليم أورانج من الاحتفاظ بالنصر الذى كسبه . فالخلافات الدينية عادت إلى الظهور بين الشمال والجنوب ، وروابط الإتحاد التى تمت كانت من الضعف بحيث لم تقو على الصمود أمام أول محنة . ورغم محبة الشعب لوليم أورانج ، فقد كان نبلاء الجنوب ينظرون إليه بعين الحسد . وهكذا تجدد النزاع بين الشمال والجنوب ، وفيه استعان نبلاء الجنوب بالنمساويين ، واشترك دون جون فى ذلك النزاع ، وتمكن من الإنتصار فى معركة جمبلو Gembluox فى عام ١٥٧٨ . وهذه معركة مهمة فى تاريخ الأراضى المنخفضة ، فبعدها استقر لكل من هولندا وبلجيكا وجودهما السياسى المنفصل .

وفى عام ١٥٧٨ توفى دون جون وخلفه دوق بارما (ابن مرجريت بارما) وقد سار بارما على سياسة سلفه محدثاً الفرقة بين الشمال والجنوب . وأسف وليم أورانج لذلك ، وأقتصر التأييد الذى حصل عليه على المقاطعات الشمالية البروتستانتية . وفى عام ١٥٧٩ كونت تلك المقاطعات الشمالية السبع اتحاداً يعرف باسم اتحاد أوترخت The union of Utrecht الذى جمع هذه المقاطعات فى شكل حكومة فيدرالية مفككة ، وواصلت الحرب ضد أسبانيا . وبفضل سياسة الدوق بارما تكون اتحاد أراش Union of Arrass من المقاطعات الجنوبية للدفاع عن الكاثوليكية . هكذا انقسمت المقاطعات إلى قسمين منفصلين ، لم يمكن التوفيق بتاتاً بين مصالحهما بعد ذلك .

استمر اتحاد أوترخت يعترف بالسلطة الرسمية لفيليب ، ولكن فيليب قام بطرد أورانج خارج القانون وإهدار دمه . وعندئذ قررت المقاطعات الشمالية الأنفصال عن أسبانيا فى لاهاى عام ١٥٨١ . ولما كانت تلك المقاطعات حتى هذا الوقت لا تفكر فى الاستقلال الكامل ، وتخشى من انتقام أسبانيا فقد حاول أورانج أن يستميل فرنسا إلى مساعدته . ونجحت مساعيه عندما قبل الدوق أنجو شقيق ملك فرنسا هنرى الثالث أن يحكم فى المقاطعات الشمالية فى عام ١٥٨٢ . ولكن هذه التجربة باءت بالفشل لأن أنجو أراد إنشاء حكومة مستقلة لنفسه ، فأحتل جنوده فجأة عدداً من المدن ، وأوقعوا بالأهالى الذين قاوموهم فى أنتورب ـ مقر وليم أورانج ـ مقتلة عظيمة حتى صارت تعرف هذه الفظائع باسم الغضب الفرنسى The French Fury على غرار الغضب الأسبانى ـ وذلك فى يناير عام ١٥٨٣ . وأمام مقاومة البلاد اضطر أنجو إلى مغادرة الأراضى المنخفضة ـ ومات فى فرنسا عام ١٥٨٤ ، أما انجلترا فكانت صديقة للمقاطعات ، وعمل الانجليز كمتطوعين فى القوات الهولندية ، ولكن انجلترا لم تقدم إلى المقاطعات مساعدة صريحة أثناء حياة وليم أورانج .

ولقد حرمت المقاطعات من مساعدة وليم أورانج الفعالة ، بعد أن أهدر الملك دمه مباشرة . إذ شجعت المكافأة المالية التى قدمها فيليب كثيراً من السفاحين بالتربص لإغتياله ، وفعلاً تم إغتياله فى عام ١٥٨٤ ، وبدا كما لو أن إغتيال وليم أورانج سيقضى على هدف الأراضى المنخفضة . فأخذ بارما أنتورب ، وقدمت الملكة اليزابيث بعض المساعدات فأرسلت جيشاً بقيادة الأيرل ليستر . ولكن التغير الذى حدث فى الموقف الأوروبى قد أحدث نتائج هامة فلقد أثرت هزيمة الأرمادا الأسبانية على أيدى الانجليز فى عام ١٥٨٨ على قوة أسبانيا وعظمتها . وبعد ذلك تولى العرش فى فرنسا هنرى نافار البروتستانتى وعدو أسبانيا اللدود . وهكذا تحالفت انجلترا وفرنسا ضد أسبانيا ، وتبدد الأمل بالنسبة

لأسبانيا فى الحصول على النصر . وتولى موريس بن وليم الصامت قيادة الجيوش الهولندية ، وأظهر مهارة حربية كبيرة تفوق مهارة والده . وأخيراً هزم الجيش الهولندى الجيوش الأسبانية عند ترنهوت Turnhout فى عام ١٥٩٧ . واستمرت الحرب لعدة سنوات ومع أن أسبانيا ظلت تناضل فترة إلا أن قواتها لم تلبث أن تضعضعت بسبب هذا الكفاح الطويل . وأفلست خزائنها ، وتحملت خسارة كبيرة وخصوصاً عندما حطم الهولنديون أسطولها فى البحر المتوسط فى عام ١٦٠٧ . ولذلك اضطرت أسبانيا إلى قبول الهدنة فى عام ١٦٠٩ على أساس الإعتراف بهولندا ، وإغلاق نهر الشلدت لتعطيل تجارة الجزء الجنوبى ، ولتعطيل منافسة أنتورب . ثم تركت أسبانيا للهولنديين حرية التجارة مع أملاكها فى الهند الغربية ، وأمتنعت منذ ذلك الحين عن التدخل لنجدة الكاثوليك فى هولندا . وفى معاهدة فستفاليا صار الإعتراف رسمياً بإستقلال هولندا فى عام ١٦٤٨ .



الفصل التاسع

حرب الثلاثين عاماً

١٦١٨ - ١٦٤٨

بدأ الصراع الدينى فى القرن السادس عشر بعد ظهور حركة الإصلاح الدينى بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، ولما انقسمت البروتستانتية إلى مذاهب زادت حدة الصراع بينها وبين الكاثوليكية . وما أن انتهى القرن السادس عشر حتى كان كل مذهب قد استقر فيما انتشر فيه من ساحة أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى دعم الثقة بين الكاثوليك والبروتستانت ، إذ كانت نيران الحقد والقلق لا تزال كامنة بين الطرفين ، ويتهيأ كل منهما لتلاحم جديد عندما تسنح الفرصة.

وهكذا بدأ القرن السابع عشر وفى طياته نظرة كان من شأنها إنهاء هذا الصراع ، وإنهاء اعتبار الدين عاملاً ذا أهمية فى تشكيل أو توجيه سياسة الدول الخارجية بفضل عودة الاستقرار والتوازن فى داخل الدولة ذاتها عندما اختفت الإنقسامات الدينية الداخلية . حتى أصبح فى استطاعتها العمل على تحقيق أغراضها دون أن تبنيها على دعوى العقائد والمذاهب . وبذلك كان عمر ما ورثه هذا القرن من سابقه من اتجاه نحو استتباع الصراع الدينى قصيراً بوجود نقيضه الجديد القائم على الرغبة فى إنهاء هذا الصراع ، والقضاء على كل إنقسام ، يصيب كيان الدولة السياسى .

ولذلك فما كاد طرفا هذه الثنائية يلتحمان فى مطلع القرن السابع عشر فى صورة صراع دينى ، حتى انقلب الصراع من حرب دينية إلى حرب سياسية لخدمة المصالح القومية ، ومن ثم قضى نهائياً على هذا اللون من الصراع . ولقد

أخذت أصول الصراع الديني تنمو وتستشرى بعد عقد صلح أوجزبرج فى عام ١٥٥٥ الذى حاول التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت على السواء . ولكن صلح أوجزبرج لم يكن من القدرة على حسم النزاع الدينى بين المذاهب الجديدة من ناحية ، وبين الكاثوليكية من ناحية أخرى . وكان من أهم أسباب إخفاق صلح أوجزبرج ما جاء فيه بشأن المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا، ومنع السلطة الزمنية والعلمانية عموماً من الإستيلاء عليها ، وحرمان الكنيسة منها . ذلك أن أملاك الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما صارت بعد هذا الصلح موضع أطماع البروتستانتية المنتصرة . وكان هذا الاعتداء من جانب البروتستانت على أملاك الكنيسة الكاثوليكية من أسباب التذمر وغضب أتباع البابوية المستمر فى ألمانيا .

وبالإضافة إلى ذلك ، لم يتح صلح أوجزبرج الفرصة للكلفينية التى انتشرت فى أوروبا وفى ألمانيا ، فلم يعترف بهذه العقيدة الجديدة أو بمبدأ التسامح الدينى عموماً . وعلى ذلك استمرت الكلفينية فى ألمانيا تفتقر إلى سند قانونى تستند إليه . وبالتالى أصبحت معرضة للأخطار التى هددتها فى وجودها نفسها .

ورغم هذا القصور وهذا الضعف فى صلح أوجزبرج ، نعمت ألمانيا بفترة سلام طويلة ، وربما يرجع السبب إلى خشية الجماعات الثلاث : الكاثوليك واللوثريين والكلفينيين بعضهم لبعض ، والخوف من أن يؤدى الاصطدام بينهم إلى أوخم العواقب . وقد كانت هذه الهدنة الطويلة بعد صلح أوجزبرج فى صالح البروتستانت ، حيث استطاع اللوثريون والكلفينيون العمل على نشر مذاهبهم دون مواجهة معارضة حقيقية حتى جاءالوقت الذى أصبحت فيه ألمانيا الشمالية بروتستانتية ، بينما تسربت العقائد الكلفينية إلى الجنوب ، إلى النمسا وبافاريا وكانتا تعتبران معاقل منيعة للكاثوليكية .

غير أن البروتستانت لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم ، بل وعجزوا عن

تنظيم صفوفهم . أما الكاثوليك فلم يكن منتظراً أن يظلوا مستكينين مدة طويلة ، سيما بعد إنتعاش كنيستهم . بل كان نجاح مجلس ترنت محدداً بداية الرغبة ، التي ظهرت جدياً من جانب الكاثوليك بزعامة الجزويت اليسوعيين ، لإرجاع ألمانيا بأسرها إلى أحضان الكاثوليكية . وتمكنت حركة الجزويت من استرداد الكثيرين من أنصارها ممن تحولوا إلى المذهب البروتستنتي . وهكذا أصبحت حركة الجزويت فى نظر البروتستانت حركة خطيرة هدفها القضاء على المذهب الجديد.

وكان نشاط الجزويت أهم ما تميز به عهد الإمبراطور رودلف الثانى Rudolph II (١٥٧٦ ـ ١٦١٢) . وكان رودلف قد تربى فى بلاط فيليب الثانى ، وتشبع بالأفكار الأسبانية فى الدين والسياسة ، فصار يهتم كثيراً بعظمته الشخصية ، ولا يكن أى احترام لمعتقدات رعاياه الدينية أو لمصالحهم السياسية . وقام رودلف بطرد المبشرين البروتستانت من فيينا واستطاع الجزويت فى عهده أن ينفذوا إلى كل بيت من بيوت الأسر الكاثوليكية . وجعلوا مركز نشاطهم الرئيسى فى فيينا وميونخ يوسعون منه دائرة نشاطهم تدريجياً ، فى مثابرة ونشاط . فأسسوا المدارس ، وبعثوا بمبشريهم إلى كل مكان ، ونشطوا فى تدعيم الكاثوليكية . وفعلاً أمكن إعادة الكثيرين إلى حظيرة الكاثوليكية بعد أن نبذوا البروتستانتية .

وكان نجاح الجزويت فى بداية القرن السابع عشر كبيراً لدرجة أن البروتستانت وجدوا أنه من الضرورى درء هذا الخطر ، فأسسوا فى عام ١٦٠٨ الاتحاد البروتستانتى The Protestant Union من الأمراء البروتستانت ، وبعض المدن للدفاع عن مصالحهم المشتركة . ورغم أن ذلك الاتحاد لم يضم كل اللوثريين الألمان ، فقد أسرع الكاثوليك فى العام التالى بتكوين عصبة كاثوليكية The Catholic League ، حصلت على تأييد الإمبراطور . ومنذ ذلك الوقت انقسمت ألمانيا إلى معسكرين كبيرين ، وسعى كل فريق إلى تنظيم قواته الحربية ، وموارده المالية ، وتكوين حلفاء من الخارج يؤيدونه . وسهل مهمة الكاثوليك

إنقسام البروتستانت إلى معسكرين متنافرين (كلفينيين ولوثريين) ، ولم يعضد البروتستانت تعضيداً كاملاً رئيس الاتحاد البروتستانتي وهو فريدريك الخامس ناخب (كونت) البلاتاين Palatine وكان كلفينياً . أما الكاثوليك فكانوا أقوى تنظيماً برئاسة دوق بافاريا ، وكان صاحب مقدرة وكفاءة .

وفي بوهيميا بدأت حرب الثلاثين عاماً ، وكانت امتداداً للثورة التي قامت في بوهيميا ضد الإمبراطور رودولف الثاني ، عندما أراد تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانيا . وكانت وسيلته هي القضاء على الإنقسام الديني حتى يمكن القضاء على الإنقسام السياسي ، وإنهاء الخلافات الدينية . وقد حاول رودولف أن يفعل ذلك في بوهيميا التي كانت من أملاك الهابسبرج . فأدى ذلك إلى الإصطدام مع العناصر الدينية . ومن ثم انبعث النذير الأول لحرب أوروبية شاملة ، وكان أهل بوهيميا من السلاف والتشيك والجرمان ، وكانت البروتستانتية اللوثرية قد انتشرت فيها . واتجه الإمبراطور ينفذ خطته فأساء ذلك من بعده أخوه الإمبراطور ماتياس (١٦١٢ ـ ١٦١٩) معاملتهم ، واتخذت الوسائل الكفيلة للقضاء عليهم ، على اعتبار أن القضاء على كل إختلاف ديني من شأنه أن يدعم سلطان الإمبراطورية . فلما ضاقت السبل إزاء ذلك بالبروتستانت ، قاموا بالثورة عام ١٦١٨ فهاجموا مقر الحكومة في قلعة براج ، وانقضوا على الأعضاء الكاثوليك ، وأنصار الإمبراطورية وألقوا بهم من النافذة ، ثم شكلوا حكومة جديدة من أعوانهم . وفي يوم ٢٦ أغسطس عام ١٦١٩ وهو اليوم الذي انتخب فيه فرديناند الثاني إمبراطوراً (١٦١٩ ـ ١٦٣٨) بعد وفاة ماتياس أعلن أهل بوهيميا خلعه من حكمهم ، وأقاموا مكانه ملكاً على بوهيميا ، كان هو رئيس الاتحاد البروتستانتي فريدريك الخامس ، وبهذا انتقلت المقاومة من النضال المحدود إلى ثورة أهلية ، ومن ثم أخذ مجراها ينحدر نحو حرب أوروبية شاملة .

وبدأت حرب الثلاثين عاماً ، إذن على شكل نضال محلي ، ثم أخذ يتسع

نطاقها حتى شملت أوروبا كلها ، فقد امتدت من بوهيميا إلى ألمانيا الجنوبية ثم إلى ألمانيا الشمالية فجذبت إليها أيضاً الدول المجاورة البروتستانتية . ثم أخذت دولة بعد أخرى تخوض غمار الحرب . حتى عدت هده الحرب فى النهاية حرباً غير ألمانية . وبهذا اتخد الأمر فى بادئه مظهر نضال بين البروتستانتية والكاثوليكية ثم انتهى أخيراً إلى نزاع بين الأسرتين الكبيرتين الهابسبرج الألمانية ، والبربون الفرنسية من أجل السيطرة الأوروبية . ويمكننا أن نقسم الأدوار التى مرت بها الحرب إلى أربع أدوار نجملها فيما يلى :

١ ـ الدور البوهيمى (١٦١٨ ـ ١٦٢٣) :

فى أوائل الدور الأول من أدوار الحرب قادها البوهيميان الكونت ثورن Thurn والكونت مانسفيلد Mansfeld ، وأحرز الثوار بعض الإنتصارات على قوات الإمبراطور ماتياس . وبعد انتخاب فرديناند الثانى إمبراطوراً فى عام ١٦١٩ وكان كاثوليكياً متعصباً ، عمل على إخضاع بوهيميا . ونشطت العصبة الكاثوليكية وعلى رأسها مكسميليان ناخب باڤاريا لنصرة قضية الهابسبرج .

وانهزم البروتستانت فى موقعة التل الأبيض فى نوفمبر عام ١٦٢٠ ، أمام قائد المعسكر الكاثوليكى تيلى Tilly وفتحت بلاد فردريك ملك بوهيميا واضطر إلى الفرار وكادت الحرب تنتهى عند هذا الحد ، ولكن الإمبراطور أنزل أنواع الاضطهاد بأهل بوهيميا ، وأعلن خلع فردريك . ثم جرده من أملاكه ليأخذها مكسميليان . وتحولت بوهيميا من منطقة بروتستانتية إلى كاثونيكية ، وازداد نفوذ الكاثوليك فى ألمانيا .

ولقد أفزع البروتستانت فى أوروبا هزيمة بروتستانت ألمانيا وخصوصاً بعد تجريد فردريك الخامس (رئيس الاتحاد البروتستانتى) من أملاكه . وكان فى مقدمة المتعاطفين مع فردريك ملك انجلترا جيمس الأول وهو الذى كان قد زوج

ابنته اليزابيث من فردريك الخامس ناخب البلاتاين لكن جيمس لم يرد التدخل في الحرب حتى لا يغضب أسبانيا الكاثوليكية ، وكان حريصاً على إقامة تماهم بين أكبر دولة بروتستانتية وهى انجلترا وأكبر دولة كاثوليكية وهى أسبانيا من أجل تحقيق السلام فى أوروبا . ولذلك فضل جيمس حل المسألة سلمياً وبالمفاوضات . وأخذ يرجو أسبانيا التدخل لإنهاء هذا النزاع فى ألمانيا لصالح صهره ، ولكن لم تنجح هذه المساعى . ومن ناحية أخرى أدى الخطر المحدق بالبروتستانت واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستانتى إلى إنضمام ملك الدانمرك كريستيان الرابع . وهنا يبدأ الدور الثانى من أدوار الحرب .

٢ ـ الدور الدانمركى (١٦٢٥ ـ ١٦٢٩) :

وجد الملك كريستيان الرابع نفسه مهتماً أكثر من غيره بهذه الأحداث من وجهة النظر الدينية والسياسية معاً . فهو فضلاً عن كونه ملك الدانمرك فقد كان دوقاً لهولشتين Holestein أيضاً ، وهذا يعنى أنه كان أميراً من أمراء الإمبراطورية . وانتصار الكاثوليكية كان تهديداً أيضاً لمصالح عائلته . وكان من الممكن أن يتحالف ملكا السويد والنرويج لدرء الخطر المشترك ، ولكن إنشغال جوستاف ، ملك السويد ، فى بولندا ، بالإضافة إلى أن عوامل الحسد بينهما حالت دون ذلك . وفى عام ١٦٢٦ كان كريستيان مستعداً للتدخل فى ألمانيا تساعده أموال إنجليزية ، ويخدم فى جيشه بعض الإنجليز .

وبدت المصاعب أمام الإمبراطور فى أول الأمر . فكانت هناك جيوش الملك الدانمركى ، ومانسفيلد أمير برنسويك Brunswick وجابور Gabor . وأمام هؤلاء لم يكن هناك سوى حزب العصبة الكاثوليكية بقيادة تيلى . كما كانت خزانة الإمبراطور خاوية ، ولكن ظهر فى الجانب الكاثوليكى قائد أعظم من تيلى هو ڤلنشتين Wallenstein وهو من أصل بروتستانتى وبوهيمى من النبلاء . لقد غير ڤلنشتين مذهبه وانضم إلى الإمبراطور ، فكان أقوى قائد ظهر فى

الإمبراطورية . كان جيشه مكوناً من الجنود المرتزقة ، وعمل على حفظ جيشه بدل العطاء ، وأنزل العقاب بالمقصرين . ولذا إنهزمت قواته أمام جيوش الدانمرك البروتستانت بفضل سمعة فلنشتين الكبيرة ، وقدرته وكفاءته ، والتفاف الجنود حوله ، وتفانيهم فى خدمته .

ولقد انضم فلنشتين إلى المعسكر الكاثوليكى لتحقيق أهداف معينة ليست أهمها مساعدة الإمبراطور ، وإنما كان يسعى إلى القضاء على سلطة الحكومات المحلية فى الإمارات الألمانية المبعثرة وتوحيدها ، توطئة لإقامة الدولة الألمانية القوية الموحدة ، على رأسها الإمبراطور من الناحية الإسمية ، بينما تخضع لسلطانه الحقيقى من الناحية الفعلية . وهذا الهدف أكثر من غيره ، دفعه إلى خوض المعارك بكل قوة وعنف ، لا لتحقيق النصر للكاثوليكية بقدر ما كان لتنفيذ مآربه الشخصية

لقد انتصر الكاثوليك على البروتستانت فى موقعتين : الأولى انتصر فيها القائد الكاثوليكى تيلى على جيش ملك الدانمرك فى موقعة لوتر Lutter (أغسطس ١٦٢٦) ، والثانية وهى الأهم التى أحرزتها قوات الإمبراطور بقيادة فلنشتين على الجيش الدانمركى فى موقعة كوزل Cosel واحتلت على أثرها مكلنبرج ، وخربت كل من إقليمى شلزفيج وهولشتين ، ولم يكن ينقص الإمبراطور سوى أسطول لإتمام إحتلال الدانمرك . وفى النهاية اضطر كريستيان الرابع إلى عقد صلح لوبيك Luebeck عام ١٦٢٩ ، وبه استرجع كريستيان أراضيه المحتلة ، ولكنه فى مقابل ذلك تخلى عن أطماعه ووعد بأن يكف يده عن التدخل فى الشئون الألمانية

وبهذا انتصرت الكاثوليكية فى ألمانيا ، وأصبح الإمبراطور فرديناند الثانى سيد ألمانيا إلى حد كبير [illegible] متوقعاً أن يستغل الإمبراطور هذا النجاح لصالح الكاثوليك . وفعلاً أصدر فى مارس عام ١٦٢٩ مرسوماً أطلق عليه اسم مرسوم

استرجاع أملاك الكنيسة Edict of Restitution ، ويقضى هذا المرسوم بأن يتنازل البروتستانت عن أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذوها من قبل بمقتضى معاهدة بساو Passau عام ١٥٥٢ ، وصلح أوجزبرج عام ١٥٥٥ . وقد أحدث هذا المرسوم ضجة كبيرة إلى الحد الذى جعل الخلاف يدب بين الكاثوليك ومكسميليان وڤلنشتين ، وبين الأخير والإمبراطور الذى كان يخاف من تفوق فلنشتين . وكان المرسوم يتعارض تماماً مع خطة فلنشتين الذى أراد دائماً أن يخضع المسائل الدينية لهدفه الأعظم ، وهو توطيد السيطرة الإمبراطورية ، بينما أثار المرسوم النزعات الدينية من جديد . ومما لا شك فيه أن إنقسام المعسكر الكاثوليكى على نفسه سيكون من صالح البروتستانت ، الذين سيعملون جاهدين على الإستفادة من هذه الظروف ، ولا سيما جوستاف أودولف ملك السويد .

واتجهت الأمور فى غير صالح فلنشتين ، فتذمر النبلاء الألمان منه ، وتخوف الإمبراطور من نفوذه، وقيام الجيش الذى تحت قيادته والمكلف باسترجاع أملاك الكنيسة بأعمال السلب والنهب التى أغضبت الألمان من الإمبراطور ، وفوق هذا سعى فرنسا الدائب لإثارة كل الأطراف الساخطة على فلنشتين ضده . كل هذه العوامل قربت من نهايته ، وفى يوليو عام ١٦٣٠ طلب الحلف الكاثوليكى برئاسة مكسميليان دوق بافاريا فى المجلس الإمبراطورى (الدايت Diet) فى راتزبون Ratisbon عزل فلنشتين من قيادة الجيش . وقد أرسل ريشيليه وزير لويس الثالث عشر الفرنسى ممثله الأب بيير جوزيف الذى أخذ يلعب دوراً خطيراً فى السياسة الألمانية . ورغم أن ريشليه كان كاثوليكياً وكاردينالاً ، فهو لم يتردد فى تأييد قضية البرونستانت حتى يمنع القوتين الأسبانية والنمساوية من النمو ، ويحل قوة الملكية الفرنسية بدلاً منها . ولقد أخذ هذا المبعوث يثير الخلاف ضد فلنشتين، وبناء عليه طلب الأمراء من الإمبراطور عزله وتم لهم ما أرادوا . وفى الوقت الذى فقد فيه الإمبراطور أكبر نصير له وأكبر

قائد عنده ، عمل ريشيلييه على إقحام جوستاف أدولف ملك السويد ، فى النزاع ضد الإمبراطورية ، وعلى تأليب أمراء جنوب ألمانيا ضد الإمبراطور نفسه . فحث ريشلييه ملك السويد على تبنى قضية البروتستانت .

٣ ـ الدور السويدى (١٦٣٠ ـ ١٦٣٥) :

كان جوستاف متحمساً للبروتستانتية ، واستجاب لدعوة البروتستانتية الألمانية عندما دعته . ولكن هناك أسباب أخرى سياسية كانت مهمة جداً . فلقد كانت السويد ترمى إلى السيطرة على بحر البلطيق . وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها اعتبار فى سياسة جوستاف . ولكن لا ريب أن الدافع الدينى إذا لم يكن هو أهم الدوافع إلا أنه أحدها . والسويد كانت دولة صغيرة ، وكان جيرانها مثل روسيا والنرويج وبولندا أعداءاً لها ، ومواردها محدودة . ولكن فى عهد جوستاف وصلت إلى مصاف الدول القوية ، وأصبح لها جيش قوى منظم . ومع ذلك فسوف لا يكون لهذه الدولة قيمة إذا نجح الكاثوليك فى استرجاع سيطرتهم على كل ألمانيا وعبروا البلطيق وغزوا السويد . ولذا أسرع جوستاف إلى غزو ألمانيا قبل أن تقوم هى بغزو السويد .

نزلت القوات السويدية إلى سواحل برميرانيا فى عام ١٦٣٠ . وفى العام التالى استولى تيلى على مجدبرج Magdeburg ، وقامت قوات العصبة الكاثوليكية بعمليات الذبح والنهب ، مما أثار البروتستانت الذين كانوا قد تخلفوا عن نصرة أخوانهم . وتحالف أمير ساكسونى مع السويد ، وعبرت قواته نهر إلب Elbe . وبذلك قوى الجانب البروتستانتى وانتصر جوستاف ، فى معركة ليبزج Leipzig فى سبتمبر عام ١٦٣١ ، ويدخل الساكسون بوهيميا ، ويحتلون براج . ولذا يضطر الإمبراطور إلى الإستعانة بفلنشتين ، ويعطيه سلطة مطلقة وحرية تامة فى العمل . واستطاع فلنشتين استعادة براج وطرد الساكسون من بوهيميا . ولكن جوستاف استطاع رغم ذلك إكتساح وسط أوروبا حتى الدانوب والراين .

وفي معركة لوتزن Lutzen (نوفمبر ١٦٣٢) ينسحب فلنشتين ، ولكن السويديون يفقدون ملكهم فى تلك المعركة ، وبذلك لم يستفيدوا تماماً من انتصارهم .

ولم تنته الحرب بموت جوستاف ، ولو عاش لربما جعل من شمال أوروبا اتحاداً بروتستانتياً يضم شمال ألمانيا والدانمرك واسكنديناوه . وموت جوستاف لم يجعل الإمبراطور فى حاجة إلى فلنشتين الذى ازداد زهواً وغروراً بنفسه ، وربما فكر فلنشتين فى أن يلجأ الإمبراطور إلى لاغتياله للتخلص منه ، وبالفعل يذهب فلنشتين ضحية على يد بعض الضباط الاسكتلنديين والإيرلنديين المستأجرين فى عام ١٦٣٤ .

وبذا أصبح جيش فلنشتين هو جيش الإمبراطور ، على أن قوة السويد الحربية قد ضعفت بموت جوستاف ، ولذا لم تجد قوات الإمبراطورية صعوبة فى الانتصار على قوات البروتستانت فى نوردلنجن Nordlingen فى ٦ سبتمبر ١٦٣٤ . وعلى ذلك أنقذت الكاثوليكية والإمبراطورية بصفة نهائية .

٤ ـ الدور السويدى ـ الفرنسى (١٦٣٥ ـ ١٦٤٨) :

لم يكن انتصار الكاثوليك فى ألمانيا فى صالح فرنسا بأى حال . فإذا كان ريشيلييه الوزير الفرنسى بيده كل شىء ، والذى اتبع أولاً الطرق الدبلوماسية للوصول إلى أغراضه ، ثم اتبع طريقة تعضيد أعداء الكاثوليكية بالمال ، بل وإمداد الجنود البروتستانت بالسلاح ، فقد اتبع كل هذا فى أيام جوستاف ملك السويد فإنه قد أيقن بأن تلك الوسائل لم تعد مجدية ، وأن التدخل الحربى هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكاثوليك وبالتالى على أسرة الهابسبرج . فأعلن الحرب على أسبانيا عام ١٦٣٥ حليفة الإمبراطور ، وبذلك دخلت فرنسا الحرب ضد الإمبراطور . وهكذا دخلت الحرب دورها الرابع والأخير ومنذ ذلك الحين لم تعد الحرب مشكلة ألمانية بل صارت مجرد نزاع بين فرنسا والسويد من جانب ،

ضد النمسا وأسبانيا من جانب آخر ، ولكن على أرض ألمانية .

لقد ألقى العبء فى هذا الدور على كاهل فرنسا ، التى وجد فيها البروتستانت الألمان بديلاً عن السويد وملكها جوستاف . على أن الأمراء الألمان كانوا يخشون من تدخل كل من السويد وفرنسا على السواء ، فلم يكن تدخلهما مرضياً عنه من قبلهم . فكلا الدولتين قد اتخذت من المسألة الدينية ستاراً لتحقيق أطماعها السياسية والاقتصادية على حساب ألمانيا . ولهذا وجد ناخب سكسونيا أن أفضل السبل للقضاء على تدخل الدول الأوروبية : هو الدخول فى مفاوضات مع الإمبراطور فرديناند الثانى ، للوصول إلى إتفاق يرضى الطرفين الكاثوليكى والبروتستانتى بخصوص تنفيذ مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية .

وبالفعل تم الصلح بين الطرفين فى براج فى مايو ١٦٣٥ . ونص الصلح على تحديد عام ١٦٢٧ تاريخاً لاسترجاع الأملاك الكنسية التى تم الاستيلاء عليها بعد هذه السنة وليس عام ١٥٥٢ كما حدده المرسوم المشار إليه . ومعنى ذلك أن الأراضى التى استولى عليها البروتستانت وتكون فى حوزتهم فى يوم ١٢ نوفمبر عام ١٦٢٧ تبقى فى حوزتهم مدة أربعين عاماً ، سواء أكان إستيلاؤهم عليها قبل صلح أوجزبرج عام ١٥٥٥ ، أو بعده . وفى خلال مدة الأربعين سنة يتم الإتفاق بشأنها بين الطرفين بالطرق الودية . وحذت الإمارات البروتستانتية الأخرى حذو سكسونيا وانضمت إلى صلح براج ، فيما عدا إمارات بادن وهس وكاسل وفرتمبرج التى بقيت إلى جانب السويد .

وكان من الممكن أن تستقر الأمور فى ألمانيا بعد ذلك ، لولا تدخل فرنسا لأسباب سياسية لتثير الحرب من جديد ، لا لأهداف دينية ، ولكن لأهداف سياسية بحتة . وفى أول الأمر لم تكن الحرب فى صالح الفرنسيين ، واضطرت قواتها إلى الإرتداد داخل الأراضى الفرنسية أمام ضغط قوات الإمبراطور ، ولكن موجة الانتصار هذه لم تلبث أن تلاشت بفضل القادة الفرنسيين العظام مثل

تورين Turenne وكوندى Condé . وفى أثناء الحرب مات ريشيلييه وخلفه مازاران Mazarin ، واستمرت الحرب فترة فى عهده ، ولكن مفاوضات الصلح كانت مستمرة أثناء الحرب . فقد كان الامبراطور يتفاوض فى أوسابروك Osabruck مع السويد ومع الإمارات البروتستانتية، بينما يتفاوض من جانب آخر فى مونستر Münster مع الفرنسيين والكاثوليك من أجل الوصول إلى الصلح . وفى النهاية تم توقيع صلح فستفاليا Westphalia فى ٢٤ أكتوبر عام ١٦٤٨ ، وهو صلح حملت معالمه الأساسية إقرار الأوضاع فى الإمبراطورية حتى تم حلها عام ١٨٠٦ .

صلح ڤستفاليا (١٦٤٨) :

ولصلح فستفاليا أهمية خاصة فى تاريخ أوروبا الحديث ، فقد أصبح من الناحية العملية هو الأساس الذى تستند عليه الدول فى أوروبا فى علاقاتها القانونية من وقت توقيعه حتى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . وقد وضع هذا الصلح حداً للصراع الدامى الذى اجتاح أوروبا ثلاثين عاماً . وقد تناول الصلح المسائل الدينية المختلف عليها ، وكذلك تحقيق أطماع كل من فرنسا والسويد فى بعض الأراضى الأوروبية . هذا فضلاً عن التعديلات السياسية التى تمت فى ألمانيا . وفيما يلى بيان كل ناحية من هذه النواحى :

أولاً : التسوية الدينية :

١ ـ اعترف صلح فتسفاليا بما ورد من قبل فى صلح بساو عام ١٥٥٢ ، وصلح أوجزبرج عام ١٥٥٥ ، بشأن منح كل أمير الحق فى إختيار المذهب الدينى الذى يريده ، أى أن حرية الإعتقاد قد منحت للأمير وليس للأفراد.

٢ ـ اعترف صلح فستفاليا رسمياً بمذهب كلفن ، وبذلك تمتع أنصار

كلفن بالتسامح الدينى الذى منح لأنصار مارتن لوثر من قبل . وبذلك تساوى البروتستانت مع اللوثريين الكلفينيين فى التمتع بمبدأ التسامح الدينى .

٣ ـ إنهاء النزاع بشأن إسترجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية فقد اتفق الطرفان الكاثوليكى والبروتستانتى على تحديد يوم أول يناير عام ١٦٢٤ كأساس للفصل فى الأملاك التى تؤول إلى كل من البروتستانت والكاثوليك ، والأملاك الموجودة بين يدى كل الطرفين حتى ذلك التاريخ تعتبر ملكاً له . وبذلك ألغيت سنة ١٦٢٧ كأساس للتسوية وفقا لما جاء فى صلح براج فى مايو عام ١٦٣٥ . وترتب على التسوية الجديدة أن تركزت الأملاك البروتستانتية فى الشمال ، والأملاك الكاثوليكية فى الجنوب .

٤ ـ صارت الولايات البروتستانتية على قدم المساواة مع الولايات الكاثوليكية فى كل شئون الإمبراطورية ، وصار المجلس الإمبراطورى Reichskammergericht ، الذى استمر ليكون بمثابة مجلس لفض المنازعات يتكون من أعضاء من الكاثوليك وآخرين مساوين لهم فى العدد من البروتستانت .

ثانياً : التسوية السياسية :

تحكمت السويد فى أجزاء واسعة من شمال ألمانيا ، ولا سيما مصبات أنهار الأودر والألب . وحصلت على الأسقفيات البروتستانتية فى بريمن Bremen وفردين Verden ، واحتفظت بالجزء الأكبر من بوميرانيا الغنزبية . وبذلك حققت السويد السيادة فى بحر البلطيق ، وهو الهدف الذى كان يسعى إليه الملك جوستاف . وعلاوة على ذلك أصبحت السويد عضواً فى الدايت الألمانى

ولها ثلاث أصوات . وبذلك أصبحت السويد من الدول الأوروبية الكبرى ولكن لفقر مواردها لم تتمكن طويلاً من الإحتفاظ بذلك المركز .

أما عن فرنسا فقد استولت على الألزاس النمساوية ما عدا استراسبورج الحرة (عاصمة الألزاس) . كما ضمت بعض المناطق الألمانية ، فامتلكت أسقفيات متز Metz (عاصمة اللورين) وتول Toul وفردون Verdun . وفى إيطاليا استولت فرنسا على قلعة بنيرولو Pinerolo فى مملكة بيدمونت .

ثالثاً : التعديلات السياسية فى ألمانيا :

أضعف صلح فستفاليا سلطة الإمبراطور نهائياً ، وأصبح الأمراء الألمان عموماً على قدر كبير من القوة والإستقلال ، واستقلت الإمارات البروتستانتية إستقلالاً تاماً ، وإن ظلت هناك بعض الصلات الرسمية والشكلية بالإمبراطورية . وهكذا قضى على أمل الإمبراطور فى إيجاد إتحاد ألمانى .

وفى نفس الوقت نجد أن التعويضات التى منحت لناخب براندنبرج قد جعلت منه أقوى الأمراء على الإطلاق فى ألمانيا . فبإستيلائه على مجدبرج كتعويض عن بوميرانيا الغربية التى أخذتها السويد وكذلك مندن Minden وهلبرشتات Halberstadt ، بالإضافة إلى تمتعه بوراثة حكم بوميرانيا الشرقية ، جعله يسيطر على أجزاء واسعة من ألمانيا ، مما جعله دون شك الرجل الثانى فى ألمانيا بعد الامبراطور . وقد مهد هذا لبراندنبرج أن تصبح أقوى الملكيات فى ألمانيا تحت اسم مملكة بروسيا التى ستأخذ على عاتقها إيجاد الوحدة الألمانية التى عجز عن تحقيقها الإمبراطور . كذلك اعترف هذا الصلح بإنفصال سويسرا عن الإمبراطورية ، كما اعترفت أسبانيا باستقلال هولندا .

وعلى هذا النحو يعد صلح فستفاليا نهاية للأحلام التى راودت مكسميليان الأول وشارل الخامس وفرديناند الثانى ، بخصوص إصلاح وتوحيد الإمبراطورية .

وبالتالى أصبحت الإمبراطورية اتحاداً مفككاً من ولايات كثيرة العدد ، ولم تعد الإمبراطورية ، رغم بقائها أوائل القرن التاسع عشر كما أشرنا ، لم تعد زعيمة العالم المسيحى ولو إسمياً .

وعلى العموم ، فقد أنهى صلح فستفاليا إحدى الفترات الحاسمة فى التاريخ الأوروبى الحديث ، وهى فترة الإصلاح الدينى والإصلاح المضاد . ورغم أن الأحداث الدينية استمرت تلعب دوراً مهماً فى تاريخ أوروبا وبخاصة فى فرنسا وانجلترا وأملاك الهابسبرج ، فإن دول أوروبا والإمارات بها احتفظت بعقيدتها كما صارت عليه فى عام ١٦٤٨ . وهكذا نمت فكرة التسامح الدينى ، وعمت أوروبا . فبعد أن كان هذا المبدأ قاصراً على الأمراء والهيئات والطبقات العليا ، بدأ يأخذ طريقه إلى الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا . وانقسمت أوروبا إذن إلى معسكرين دينيين : معسكر البروتستانتية ومعسكر الكاثوليكية . وقد أثرت تعاليم المعسكرين فى نظام الحكم لدول أوروبا . فالكاثوليكية عملت على نشأة الملكية المطلقة ، والكلفينية ساعدت على نشأة الدول الديمقراطية بحكم إحترامها لحرية الفرد . أما اللوثرية فقد وقفت من الجانبين موقف الوسط وإن كانت أكثر ميلاً إلى معسكر الملكية المطلقة منها إلى معسكر الدول الديمقراطية . وبطبيعة الحال كانت فرنسا الكاثوليكية مثال الملكية الاستبدادية ، وانجلترا وهولندا مثالين للنظام الدستورى البرلمانى .

وإذا كانت المسائل الدينية قد أدت إلى حرب عنيفة عمت أوروبا وأصابتها بخسائر فادحة ، فإن التمسك بهذه المسائل لم يعد له ما يبرره ، بل أن المصالح التجارية والقومية أصبح لها الأولية على ماعداها من المسائل . ومن ثم ضعفت سلطة الكنيسة وسيطرتها على دول أوروبا . وأصبحت سلطة الملكية تفوق ماعداها من سلطات بما فى ذلك سلطة الكنيسة ، وأدى هذا إلى نمو الدول فى العصر الحديث

وفى النهاية يجدر بنا أن نشير إلى بعض الملاحظات العامة على حرب الثلاثين عاماً وهى :

١ ـ رغم أن تلك الحرب قد اتخذت المظهر الدينى ، إلا أنها كانت فى حقيقتها حرب سياسية ، لعبت السياسة والأطماع الشخصية دوراً هاماً فى توجيه أحداثها ، والسيطرة عليها .

٢ ـ إن الجنود المرتزقة الذين خاضوا غمار تلك الحرب لم يراعوا فيها غير مصالحهم الخاصة التى لا تتحقق إلا بالسلب والنهب والتدمير . ولهذا كان لهذه الحرب أعمق الأثر فيما أصاب أوروبا من دمار وتخريب . وينبغى أن ندرك أن إستخدام الجنود المرتزقة فى الحروب كان شيئاً مألوفاً ، بل أن أوروبا لم تعرف الجيوش الوطنية إلا عند ظهور الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر .

٣ ـ لعبت السياسة دوراً هاماً فى تقرير مصير تلك الحرب ، فبالرغم من أن فرنسا كانت تدين بالمذهب الكاثوليكى ، إلا أنه وجدت من مصلحتها الوقوف إلى جانب البروتستانت ضد قوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، تحقيقاً لسياستها التقليدية فى معاداة أسرة الهابسبرج الحاكمة ، وللوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية . ويمثل صلح فتسفاليا بدء ظهور قوة فرنسا ، بعد أن أنهى تحالف الهابسبرج ـ الأسبانى ، وأضعف هذه القوة . وفى الواقع لم ينه صلح فستفاليا الحروب فى أوروبا ، فقد استمرت الحرب بين فرنسا وأسبانيا ، وقامت الحرب بين السويد وبولندا (١٦٥٥ ـ ١٦٦٠) ، كما قامت حروب لويس الرابع عشر ، التى بدأها فى عام ١٦٧٢ وانتهت بصلح أوترخت عام ١٧١٣ .

الفصل العاشر

الملكية المطلقة فى فرنسا

لقد خرجت فرنسا من الحروب الدينية ، مقطعة الأوصال ، مادياً وسياسياً . فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك من طراز فرانسوا الأول قد تداعت ، والروابط التى كانت تربط أجزاء البلاد قد انحلت ، حتى استقل كثير من الأمراء فى مناصبهم ، يجمعون الجيوش ، ويفرضون الضرائب لحسابهم الخاص ، كما تداعت مرافق البلاد المادية فى ظل الحروب ، وتدهورت مواردها . ولم يكن لفرنسا من منجاة سوى الحكم المطلق البيروقراطى الذى يرد صدعها فى وحدة منصهرة ، مستنداً على قدرات جديدة ، وتنظيم إدارى مبتكر . ولقد شهدت فرنسا هذا اللون من الحكم الذى بدأ تكوينه منذ نهاية عهد هنرى الرابع مؤسس ملكية البربون فى فرنسا . وبلغ أوجه على يد لويس الرابع عشر .

كان لوفاة هنرى الرابع فى عام ١٦١٠ أثر وقتى على السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية . فوضعت الوصاية فى يد مارى دى ميدتشى من عام ١٦٢٠ إلى ١٦٢٤ ، لأن لويس الثالث عشر (١٦١٠ ـ ١٦٤٣) كان لا يزال قاصراً، وكانت آراؤها وسياستها مخالفة لسياسة زوجها هنرى الرابع . فهجرت حلفاء فرنسا من البروتستانت ، وعقدت تحالفاً مع أسبانيا عدوة فرنسا لفترة طويلة من الزمن . وزوجت ابنها لويس الثالث عشر من الأميرة آن النمساوية ابنة فيليب الثانى ملك أسبانيا . ورفعت أحد مواطنيها من الإيطاليين الذين أحضرتهم معها من بلدها وهو كونسينى Concini ـ إلى مرتبة مارشال فرنسا .

على أن تصرفات مارى أثارت نبلاء فرنسا الذين كانوا يطمعون فى استرداد استقلالهم ونفوذهم بعد وفاة هنرى الرابع . وقامت سلسلة من الثورات من جانب

الفرنسيين والبروتستانت ، ولكنها استطاعت شراء النبلاء بمنحهم الألقاب والإقطاعيات . ورغم ذلك نجح النبلاء فى إثارة خواطر الهوجونوت الذين عملوا بكل همة ونشاط فى تحصين مدنهم المسورة ، وإنشاء حكومات بها على طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية . كما ألفوا بين هذه المدن التى كانت بمثابة حكومات محلية ، وأنشأوا منها إتحاداً قوياً . وبذلك كونوا دولة داخل الدولة . ودخلت الملكية الفرنسية فى نضال مع الهوجونوت حتى عام ١٦٢٢ عندما عقد الملك لويس الثالث عشر معهم معاهدة مونبلييه Montpellier على أساس أن يمتنع على الهوجونوت عقد المجالس ، وعلى أن يتم الإستيلاء على مدنهم الحصينة ماعدا مونتبان Montauban ولاروشيل La Rochelle .

وفى عام ١٦٢٤ تولى ريشيلييه الوزارة . وحتى وفاته فى عام ١٦٤٢ كان هو الحاكم الحقيقى فى فرنسا . فإليه يرجع الفضل فى إنقاذ فرنسا من الأخطار والمشاكل فى الداخل . وفى فرض عظمة فرنسا فى الخارج . كان ريشيلييه يهدف إلى تحقيق أمرين : تقوية سلطة التاج المركزية على أساس أن تغدو الملكية فى فرنسا ملكية مطلقة اسماً وحقيقة ، وإحراز التفوق السياسى لفرنسا بين الدول الأوروبية . وقد تطلبت هذه السياسة القضاء على سلطة النبلاء ، والإستقلال الذى تمتع به الهوجونوت داخل فرنسا ، والعودة إلى سياسة هنرى الرابع العدائية ضد أسبانيا .

أما أول شيء اهتم به ريشيلييه فهو مسألة الهوجونوت . ولم يكن ريشيلييه متعصباً من الناحية الدينية ، وما كان يرى ضرورة أن يكون للدولة دين واحد . ولكنه رأى أن وجود البروتستانت كقوة دينية يعرقل سيطرة الملكية التى كان يرمى إليها . ولقد وجد أن القوة هى الوسيلة الوحيدة لإرغامهم على قبول فكرته ، وهى ألا تكون لهم مدن محصنة . وفعلاً هاجم مدنهم المحصنة ، وحاصر لاروشيل مدة ١٥ شهراً حتى سلمت للملك فى أول نوفمبر عام ١٦٢٨ . وفى العام التالى تم

حصار الهوجونو . وعقد صلح جديد هو صلح آليه Alais في ٢٧ يونيو عام ١٦٢٩ وهكذا تحققت أهداف ريشيليه حيث انحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة أو حزب سياسي . فقدوا إمتيازاتهم السياسية . بينما أبقيت لهم حرية العقيدة ، ثم المساواة التامة مع الكاثوليك . كما أكد من جديد مرسوم نانت ، وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون . واستمر تعيين الهوجونوت في وظائف الدولة وفي الجيش وفي القضاء .

وبقيت بعد ذلك مسألة النبلاء الذين نافست سلطاتهم سلطة الملك فقد ظل النبلاء طبقة قوية محترمة ، تحتفظ بملكيات كبيرة من الأرض ، وبنفوذ واسع ، وبروحهم العسكرية والحربية . ولقد قاموا بسلسلة من المؤامرات والدس لريشيليه ، ووجدوا حلفاء لهم من بين أعضاء القصر الملكي أنفسهم . فلقد انقلبت عليه ماري ميدتشي ، التي ساءها أن يسير ريشيليه في سياسته الخارجية في خطة معادية لأسبانيا . ولذلك اضطر ريشيليه إلى التخلص ممن يقدر على إبعادهم ، فأبعد ماري ميدتشي إلى انجلترا ثم بلجيكا . وأعدم دوق دي مونتمرونسي Montmorency ، من أعرق الأسر النبيلة . وقد جاء إعدامه درساً قاسياً للنبلاء . ورغم أن المؤامرات استمرت تتجدد في السنوات التالية ضد ريشيليه ، إلا أنه انتصر على خصومه تماماً عام ١٦٤٢

وفي خلال هذا الصراع وجه ريشيليه ضربة قاصمة للنبلاء أصابت نفوذهم القديم وقضت عليه . فأمر بهدم قصور النبلاء ، وكانت بمثابة حصون منيعة لهم . كما أعاد تنظيم الإدارة على أساس دعم سلطان الحكومة المركزية في الشئون المحلية . وأوجد نظام المأمورين أو مفتشي الملك Intendants للتفتيش على شئون القضاء والمالية والأمن والأقاليم وللإشراف على الحكام المحليين الذين صاروا الآن مجرد حكام عسكريين ، ثم للإشراف على المجالس المحلية والبرلمانات القديمة . وبذلك لم تعد للنبلاء سلطة حقيقية بجانب ممثلي الملك الذين تؤيدهم

الحكومة المركزية وأصبح لهم سلطان كبير فى الأقاليم ، ويرمون إلى جعل سلطة الملك لا منافس لها .

ولم يكن اهتمام ريشيلييه بالسياسة الخارجية أقل من اهتمامه بالسياسة الداخلية . وكانت سياسته الخارجية تهدف إلى إضعاف قوة الهابسبرج وقوة أسبانيا والنمسا . ولم تمنع حقيقة أن ريشيلييه كان كاثوليكياً من أن يتفق مع الدول البروتستانتية . وقد ساعد البروتستانت بسياسة فرنسا ومالها . كما عقد حلفاً مع جوستاف للدفاع عن البروتستانتية ، واستأجر الجيش السويسرى . وعندما انهزم البروتستانت فى نورد لنجن كما أوضحنا فى الحديث عن حرب الثلاثين عاماً طلبوا مساعدة فرنسا . ولقد أمدهم ريشيلييه بالمال ، وتدخلت فرنسا فى الحرب فى الحدود الشمالية والشرقية لفرنسا ، وعمل على إثارة الثورات داخل الحدود الأسبانية ذاتها ، فثارت البرتغال وكاتالونيا عام ١٦٤٠ .

لقد توفى ريشيلييه فى عام ١٦٤٢ ، قبل أن تضع حرب الثلاثين عاماً أوزارها ، وعلى الرغم من أن الملك لويس الثالث عشر لم يأسف كثيراً ، فإنه صمم على الاستمرار فى سياسته ولذلك استدعى إلى مجلسه الكاردينال مازاران Mazarin الذى كان يمثل وجهات نظر ريشيلييه . وكان مازاران إيطالى الأصل، ألحقه ريشيلييه بخدمته ، وحصل على الكاردينالية فى عام ١٦٤١ . وفى حقيقة الأمر رغم أن مازاران لم يكن فى مثل شخصية ريشيلييه ، إلا أنه كان يمتلك مواهب دبلوماسية ، استطاع بفضلها أن يقبض على زمام السلطة حتى وفاته فى عام ١٦٦١ .

وتوفى لويس الثالث عشر بعد وفاة ريشيلييه بعام واحد ، وكان وريثه لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) طفلاً لم يتعد الخامسة من عمره . ولذلك استأثرت الملكة الوالدة آن النمساوية بالوصاية على عرش فرنسا ، وعينت مازاران رئيساً للوزارة . وأخذت الملكة آن على عاتقها تأييد مازاران ، ويعتقد البعض أن

الكاردينال كان متزوجاً منها سراً . وعلى أية حال كانت مهمة مازاران المباشرة هى مواصلة الحرب بنجاح منذ أن تدخلت فرنسا فى حرب الثلاثين عاماً فى عهد سلفه . وفى عهده نالت الجيوش الفرنسية ظفراً تاماً ، واحتفظت فرنسا بجميع فتوحاتها بما فى ذلك الألزاس ، وتدعمت حقوقها فى الأسقفيات الثلاث تول ومتز وفردان ، وتحققت بذلك أهداف ريشيليه إلى حد بعيد .

ورغم هذه الانتصارات لم ينجح مازاران فى ضم الرأى العام الفرنسى إلى جانبه . فقد ظهرت بوادر الإستياء بسبب سوء الحالة المالية ، وبسبب الحرب وسوء الإدارة المالية منذ وفاة هنرى الرابع . وكان على رأس حركة الإستياء النبلاء الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلص من مازاران ، والذين كانوا يظنون فيه شخصية أضعف من شخصية ريشيليه . وفى مثل هذه الظروف تبدأ إحدى الثورتين المعروفتين فى التاريخ الفرنسى باسم الفروند Fronde (*) (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣) . وهذه كانت حرباً أهلية موجهة ضد سلطة الملك بسبب سوء الحالة المالية، وإحتجاج برلمان باريس على نظام الضرائب الموجودة ، ومطالبته بالإصلاح. كذلك كان النبلاء متمسكين بنفوذهم ، ولم يكن برلمان باريس فى حالة تمكنه من القيام بالإصلاح المنشود . فلقد كان محكمة قضائية قبل كل شىء ، ينال أعضاؤه وظائفهم بالشراء وبالوراثة . وكانت علاقته بالتشريع ناشئة من أنه كان عليه أن يسجل قرارات الملك التى لا تصبح قوانين إلا بعد تسجيل البرلمان لها . ولذا رفض البرلمان تسجيل قرارات الملك ، وطلب تخفيض الضرائب ، ومنع السجن دون محاكمة ، وإزالة نظام حكام الولايات Intendants . وترددت الحكومة أول الأمر ولكن تشجعت بالانتصارات الخارجية لمقاومة هذه المطالب ، وقبضت على أعضاء البرلمان ، وأخذت تستعد للقضاء على أعضائها ، فجمعت القوات تحت قيادة كوندى وحوصرت باريس . ثم عقد وفاق بين الطرفين ووعدت الحكومة بإصلاحات مالية ، وبذلك انتهت معارضة البرلمان

(*) نسبة إلى لعبة كان الأطفال يلعبونها وهى التراشق بالأحجار Frondes من بعيد .

وبذلك انتهت حرب الفروند الأولى . ولكن حرب الفروند لم يكن أساسها المطالبة بإصلاحات ، ولم تكن للمدافعة عن حقوق الفرنسيين ، ولكنها كانت حركة النبلاء المستائين الذين يطمعون فى الوصول إلى القوة . وكان على رأس المستائين النبلاء من أمثال كونتى وبوفور ، والقواد العظام أمثال كوندى وتورين . وبعد القبض على كوندى وبعض النبلاء ظهرت حركة إستياء كبيرة ، وانضمت باريس إلى الثائرين الذين طالبوا بإطلاق سراح كوندى ونفى مازاران . ولقد أجيبت مطالب الثائرين ، ووافقت الملكة الأم مرغمة على نفى مازاران الذى آثر الإنسحاب إلى إمارة كولون الألمانية فى عام ١٦٥١ ، واستمر فى الاتصال بالملكة، والإشراف على الحكومة والإعداد للقضاء على الثائرين .

ولما عاد كوندى إلى باريس مارس استبداده ، وقام بالتفاوض مع أسبانيا . وقد أدت تلك التصرفات إلى فقدان كوندى لنفوذه فى فرنسا ، وعملت الملكة الأم على كسب الفروند إلى صفها ، وأعلنت بلوغ الملك الصغير السن القانونية للحكم حتى تضعف كل نفوذ سوى نفوذ الملك . وبذلك صارت أى معارضة للحكومة بمثابة ثورة ضد شخص الملك ، ودمغ البرلمان كوندى وأتباعه بتهمة الخيانة . وانسحب كوندى إلى الجنوب مصمماً على استعادة نفوذة بالقوة . ولقد تعرضت فرنسا فعلاً لخطر قيام حرب أهلية . غير أن الملكة الأم قامت باستدعاء مازاران ، الذى أقنع القائد تورين بالإنضمام إلى الملك . ووقف قائدا فرنسا العظيمان ضد بعضهما البعض . ولكن كوندى دخل باريس فى عام ١٦٥٢ ـ وأقام حكومة اتسم عهدها القصير بالفوضى والإرهاب . غير أن كوندى اكتشف أنه لم يعد سيد الموقف فى باريس ، فلجأ إلى حلفائه الأسبان . وبعد أيام عاد لويس الرابع عشر إلى عاصمته ، وثبت أقدام ملكيته ، كما عاد مازاران إلى باريس أيضاً فى فبراير عام ١٦٥٣ . وبذلك تنتهى حرب الفروند الثانية ، وتقضى الملكية فى فرنسا على آخر عقبة فى سبيل الطغيان المركزى ، وعلى آخر محاولة قام بها النبلاء لاستعادة أهميتهم السياسية . وظل مازاران حتى عام ١٦٦١ يحقق انتصارات دبلوماسية لاتقل أهمية عن انتصاراته فى الداخل .

وتفرغ مازاران بعد ذلك لمواصلة الحرب مع أسبانيا ، وحاول اجتذاب انجلترا إلى جانب فرنسا فعقد معها معاهدة تجارية فى عام ١٦٥٥ ، ولم تلبث أن تحولت فى عام ١٦٥٧ إلى حلف . وأرسلت انجلترا جيشاً لمساعدة فرنسا ، واضطرت أسبانيا بسبب تعدد هزائمها ، وإرتباك ماليتها إلى طلب الصلح ، وفعلاً عقد صلح البرانس فى نوفمبر عام ١٦٥٩ وبمقتضاه تأيد صلح فستفاليا ، وحصلت فرنسا على الأراضى الأسبانية فى أرتوا مع جملة مدن ، واحتفظت باللورين ثم نص الصلح على زواج ماريا تريز ابنة ملك أسبانيا من لويس الرابع عشر على شرط أن تتنازل عن جميع حقوقها فى وراثة عرش أسبانيا . وهكذا خرجت فرنسا من هذه الحروب الطويلة بفضل صلحى فستفاليا (١٦٥٨) والبرانس (١٦٥٩) بنتائج هامة ضمنت لها السيطرة فى أوروبا الغربية ، ثم أعطتها ذلك النفوذ الذى تمتع به الهابسبرج فى أوروبا خلال المائة والخمسين سنة الماضية .

عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١ ـ ١٧١٥) :

فى عام ١٦٦١ توفى مازاران بعد أن ترك للملك الصغير مملكة لم يتمتع ملك فرنسى من قبل بمثلها، من حيث العظمة والإتساع والإستقرار فى الداخل. وقد ورث لويس الرابع عشر كل شىء مكنه من أن يصير ملكا عظيماً ، ولكنه لم يترك شيئاً عظيماً بعده ، وتولى لويس العرش وهو فى الخامسة من عمره ، ولكن حكم مازاران جعله يستكمل قوته . وصمم بعد وفاة مازاران (وكان يبلغ فى ذلك الوقت ٢٢ عاماً) أن يحكم بنفسه . وقد انفرد بالفعل بالسلطة فى فرنسا حتى وفاته فى عام ١٧١٥ . وكان طوال مدة حكمه الطويلة المسيطر على سياسة فرنسا الداخلية والخارجية . وكانت ملكية لويس الرابع عشر ملكية مستبدة تجمع كل السلطة فى يدها وذلك بفضل أعمال ريشيلييه ومازاران . فلقد كان الملك رأس الدولة ، ومركز السلطة . أما النظم النيابية أو البرلمانية فقد استغنى عنها ، أو وضعت تحت رقابة الملك .

وعلى أية حال فإن لويس الرابع عشر يستحق لقب العظيم Le Grand Monarque ، فشخصية لويس عظيمة كملك تتوافر فيه كل الصفات اللازمة للملك العظيم . فلم يفقد فى يوم من الأيام احترام أوروبا ولا حب شعبه ، وترك عهده طابعه فى كل أوروبا ، وأصبح لبلاطه أثر يزيد على الأثر الذى تركته جنوده فالعادات الفرنسية ، والملابس الفرنسية ، واللغة الفرنسية ، والفن والأدب الفرنسى، أصبحت المثل الذى يحتذى فى كل أوروبا . ونجاح لويس يرجع إلى حد بعيد إلى اهتمامه الشخصى ، وإلى هؤلاء الرجال الذين ورثهم من عهد ريشيلييه ومازاران . ولقد كان كثيراً ما كتب تعليماته إلى وزرائه وممثليه بنفسه وبخطه . كما عمل على تشجيع التجارة الداخلية والخارجية ، وأسس شركات للتجارة مع البلطيق والبحر المتوسط والمحيط الهندى وأمريكا . كما اهتم بالعناية بكل وسائل المواصلات من طرق وترع وبناء سفن ، ولا سيما بناء بحرية تنافس البحريتين الإنجليزية والهولندية . وقد أصبحت فرنسا ثالث دولة بحرية فى الأطلنطى ، وأولها فى البحر المتوسط . أما عن سياسته الدينية ، فلم يكن لويس فى حياته يهتم كثيراً بالمسائل الدينية . ورغم ذلك كان يريد أن تكون له السيطرة على كل الأمور الدينية ، وانتهز فرصة النزاع مع البابا وأعلن حقوق الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وأعلن فيها أن البابا لا يسيطر إلا على المسائل الروحية ، وليس له الحق فى عزل الملوك . ولقد احتج البابا ، ولكن لويس لم يأبه لذلك كثيراً ، وقام بتنفيذ سياسته . ومن ناحية أخرى اهتم لويس الرابع عشر بأن تكون الكثلكة هى المذهب الرسمى المتفوق فى فرنسا . ومع ذلك فإنه قام باضطهاد طائفة الـ Jansénists (*) وهى طائفة دينية كاثوليكية .

(*) هم أتباع جانسن Jansen (١٥٨٥ ـ ١٦٣٨) وكانوا مع تمسكهم بالعقيدة الكاثوليكية وفكرة الكنيسة المسيحية الواحدة والعالمية يعترفون بسيادة المجالس الدينية وتفوقها على سيادة البابا، وكانوا قريبين فى حياتهم الدينية والمدنية من الكلفينيين لدرجة أنهم صاروا يسمون بالمطهرين الكاثوليك وأصبحوا بذلك موضع عداء الجزويت والبابوية والملكية أيضاً . وزاد فى عداء الملكية لهم أنهم ارتكبوا خطأً جسيماً فى الإتصال ببعض زعماء الفروند القدماء فصاروا الآن موضع اضطهاد الملك الشديد .

أما موقفه من البروتستانت ، فلم تعد قوة عظيمة تهدد سلطة الملك ، كذلك انقطعت صلتهم بالأرستقراطية ، ولجأوا إلى حياة الدعة ، والاهتمام بالتجارة والصناعة وبذلك أدوا خدمات جليلة لفرنسا . ولم يحاول لويس فى أوائل عهده التدخل كثيراً فى شئونهم ، ولو أنه كان هناك ميل للتضييق عليهم ، ولكن فى المرحلة الثانية من حكمه ، لا سيما عندما توفت زوجته ماريا تريزا ، وتزوج دى مانتنون Maintenon وكانت متدينة . وكانت تشرف على تربية أولاد الملك غير الشرعيين . ولقد تأثر الملك بتدينها فأصبح متدينا يجد فى البروتستانتية إلحاداً وخروجاً على سلطة الملك ولذلك بدأ فى إعادة النظر فى إمتيازات البروتستانت والتقليل منها ، فكانت كنائسهم تدمر لأتفه الأسباب . وفى النهاية سحب مرسوم نانت وادعت الملكية بأنه لما كان عدد كبير من البروتستانت قد تحول إلى الكاثوليكية فلا داعى إذن لأن يبقى الملك متمسكاً بذلك المرسوم ، وبذلك لم يعد للبروتستانت أى حقوق . وحرم على الهوجونوت مغادرة البلاد ، ولكن عددا كبيراً منهم تمكن من الهجرة إلى انجلترا وهولندا وبروسيا ، حيث أسسوا الصناعة والنشاط التجارى فى برلين . كما أن عدداً منهم تحول عن دينه واعتنق الكثلكة . وكان لهجرة الهوجونوت أثر كبير إذ حرمت فرنسا من طائفة ممتازة فى الصناعة والتجارة استفادت منها الدول الأخرى .

وفى الفترة الأولى من حكمه ، استعان لويس الرابع عشر بنخبة كبيرة من الرجال العاملين أمثال دى ليون Lyonne فى الشئون الخارجية ، وتيليه Tellier ثم ابنه لوفوا Louvois وزير الحربية ، وكولبير Colbert (١٦٦٩ ـ ١٩٨٣) رجل المالية الذى وقع عليه العبء الأكبر من الإصلاحات . وبمجرد تعيين كولبير لمراقبة الشئون المالية بدأ عهد من الإصلاح المالى والداخلى عموماً ، فألغى عدداً من الوظائف التى لا حاجة للدولة إليها ، وأعاد نظام ريشيليه فى حكم الأقاليم Intendants . وفى خلال ست سنوات تمكن من مضاعفة دخل الملك.

وبالإضافة إلى ذلك فإن كولبير بذل جهد كبير لزيادة نطاق الصناعة الفرنسية وتوسيعها . فاستقدم الصناع المهرة من مناطق الشهرة لكل صناعة كأن يجتذب صانعي الأقمشة الفاخرة مثلاً من هولندا ووضع في عام ١٦٦٤ تعريفات جمركية جديدة على السلع المستوردة لحماية هذه الصناعات الجديدة من المنافسة الأجنبية . ولم يلبث أن ضاعف هذه التعريفة عام ١٦٦٧ ليحطم الهولنديين ، وكانوا أكبر منافسين للاقتصاد الفرنسى . وقابلت هولندا هذه المعاملة بالمثل . وقد انتهت هذه الحرب الجمركية إلى كفاح مسلح بين البلدين فى عام ١٦٧٢ .

كما فكر كولبير أيضاً فى تكوين إمبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات فرنسية ، وكان يأمل فى أن تصبح مصر تابعة لفرنسا ، وفى أن يتم حفر قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط ، وأن تمتلك فرنسا سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحرى إلى الهند والشرق الأقصى وسار على نفس سياسة انجلترا وهولندا ، فأقام شركات مشابهة لشركاتهم ، وأسس فى عام ١٦٦٤ شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagnie des Indes Orientales ، ومنحها حق إحتكار التجارة الفرنسية فى الشرق . ولقد ساهم الملك والأمراء فى رؤوس أموال تلك الشركات ، ولكن الطبقة المتوسطة وعامة الفرنسيين لم تشارك وزيرهم فى حماسته ، وامتنعوا عن الإسهام فى هذه المشروعات . وقد أدى ذلك إلى فشل هذا المشروع وسحب كولبير إمتياز الإحتكار من شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وترك التجارة مع جزر الهند الشرقية مفتوحة لكل التجار بشرط إستخدام سفن الشركة ومحطاتها التجارية .

وشملت إصلاحات كولبير الفنون أيضاً . فعمل كولبير على تركيز النشاط الفنى تحت إدارة واحدة ، وعهد بذلك إلى أحد الفنانين وهو Charles Lebrun الذى عين مديراً لمصنع Gobelins ، وتعددت فى هذا المصنع نواحى النشاط الفنى من رسم ونحت ونسيج . كما عنى كولبير أيضاً بالأكاديمية

الملكية للرسم والنحت ، ومنح أعضاءها منحاً إحتكارية ، فأصبحت مهنة الفن وقفاً عليهم . وعلاوة على ذلك أسس أكاديميات جديدة مثل : أكاديمية الرقص في عام ١٦٦١ ، والعلوم في ١٦٦٦، والموسيقى في عام ١٦٦٩ ، والعمارة في عام ١٦٧١ ، وارتقت كذلك الدراما والروايات التمثيلية .

وهكذا جمع لويس الرابع عشر أسباب السلطة في يده ، وجد في إصلاح شئون الدولة ، وتنمية مواردها . وأصبح المجال مفتوحاً أمام فرنسا للتفوق في أوروبا. وفي منتصف القرن السابع عشر كان لا ينازعها في تفوقها منازع ، فقد ظهرت على حساب ضعف جيرانها المحيطين بها وخصوصاً هولندا . ولكن قبل وفاة كولبير بعشرة أعوام تقريباً ، كانت فرنسا قد بدأت تسير نحو الضعف والإنحلال بسبب الحروب الطويلة التي اندفعت إليها طمعاً في التسلط فأثرت على خزينتها ، وبسبب أخطاء لويس الرابع عشر نفسه في إدارته الداخلية .

حروب لويس الرابع عشر :

سارت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية على نفس المبادىء والأسس التي وجهت نشاط فرنسا الخارجي منذ أيام هنري الرابع وريشيلييه ومازاران . وقد تمثلت تلك الأسس والمبادىء فيما يلي :

١ ـ الوصول إلى الحدود الطبيعية لفرنسا ، وهي البرانس والألب والراين ، والقضاء على سيطرة أسرة الهابسبرج بفرعيها ، وضم الأراضي المنخفضة الأسبانية.

٢ ـ رغبة فرنسا في إنتزاع السيطرة البحرية من هولندا .

٣ ـ تطهير البحر المتوسط من القراصنة ، وتنظيم الإمبراطورية الإستعمارية التي أراد ريشيلييه من قبل تأسيسها في البحر المتوسط الشرقي ، وأفريقيا الشرقية والغربية ، ثم في أمريكا .

وهكذا تمتعت فرنسا بفضل سياسة كل من ريشيلييه ومازاران بالإستقرار والقوة . وأصبح الطريق مهيأ أمامها لتحتل مركز السيطرة والتفوق السياسى الذى تمتعت به أسبانيا من قبل . وكان لويس مهتماً بضمان تفوق فرنسا فى أوروبا ، وعمل على تحقيق ذلك عن طريق الحروب والدبلوماسية . وكما أصبح لويس سيد فرنسا عول على أن يكون سيد أوروبا .

أولاً : حرب الوراثة فى الأراضى المنخفضة الأسبانية (١٦٦٧ - ١٦٦٨) :

كان لويس الرابع عشر يطمع فى ضم الأراضى المنخفضة الأسبانية ، وعرض على أسبانيا أن يتحد معها لسحق البرتغال نظير إعتراف أسبانيا بحقوق زوجته ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع من زوجته الأولى (اليزابيث الفرنسية) فى العرش الأسبانى، أو التنازل لفرنسا عن جزء كبير من الأراضى المنخفضة الأسبانية. ولكن فيليب الرابع ملك أسبانيا رفض ذلك العرض. وعندما توفى فيليب الرابع فى عام ١٦٦٥ ، طالب لويس بالأراضى المنخفضة الأسبانية طبقاً لقانون الإستحقاق بالوراثة(*) Law of Devolution، وبذلك تكون ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع وزوجة لويس هى الوريثة لأبيها وليس ابنه شارل الثانى من زوجة أخرى .

وقد حالت دون تحقيق ذلك موانع قانونية ، من أهمها أن ماريا تريزا عند زواجها من لويس الرابع عشر (فى صلح البرانس ١٦٥٩) قد تنازلت عن حقها فى الوراثة . وبعد مفاوضات طويلة قام لويس بالهجوم على فلندرا من غير إعلان الحرب فى عام ١٦٦٧ ، وبذلك بدأت الحرب المعروفة باسم حرب الإستحقاق The War of Devolution ولم يستطع الأسبانيون المقاومة طويلاً ، بينما نجح الفرنسيون فى هذه الحرب فى الشمال وفى الشرق ، مما أثار ذعر الدول الأوروبية

(*) قانون الإستحقاق بالوراثة هو قانون إقطاعى قديم يقضى بحق أطفال الزواج الأول فقط فى الوراثة وإستبعاد النسل الناتج من زيجات أخرى

وحسدها ، فأسرعت أسبانيا بعقد الصلح مع البرتغال ، وأسرعت هولندا بتسوية خلافاتها مع انجلترا ، وتكون تحالف ثلاثى من هولندا وانجلترا والسويد لمنع تقدم الفرنسيين . ونتيجة لذلك أوقف لويس تقدمه ، وأعاد إلى أسبانيا معظم الأراضى التى أخذها فى عام ١٦٦٨ . ووافق لويس على الصلح فى معاهدة أكس لاشابل Aix la Chapelle فى مايو عام ١٦٦٨ . وبمقتضى المعاهدة أعاد لويس فرانش كومتيه إلى أسبانية ، واحتفظ بفتوحاته فى الأراضى المنخفضة وهى عدة مدن منها شارلوا Charleroi وليل Lille . وكانت هذه المدن فى الحقيقة بمثابة المراكز التى يسهل منها الهجوم والإستيلاء على الأقاليم المجاورة لها . وبذلك لم يكن صلح أكس لاشابل سوى هدنة مؤقتة لابد أن تعقبها الحرب .

ثانياً : الحرب الهولندية (١٦٧٢ ـ ١٦٧٨) :

تفرغ لويس الرابع عشر بعد معاهدة اكس لاشابل لمحاربة هولندا ، وكانت تدفعه إلى ذلك عدة أسباب . فلقد اعتقد لويس أن مستشار هولندا دى ويت John de Witt كان المحرك الأول لتكوين التحالف الثلاثى ضد فرنسا ، فأراد الإنتقام من هولندا التى كانت بالإضافة إلى ذلك جمهورية كلفينية . ومن ناحية أخرى كانت هولندا ملجأ للهوجونوت المضطهدين فى فرنسا ، وطبعت كتبهم التى هاجموا فيها الحكومة الفرنسية والنظام الدينى فيها . وعلاوة على ذلك كان لويس يحقد على هولندا بسبب المنافسة التجارية الشديدة بين البلدين . فلقد استغلت هولندا غناها وقوة أسطولها فى وقف تقدم جيوش لويس فى أراضيها . ولم يكن لانجلترا وفرنسا مركز هولندا بسبب انشغالهما بالمسائل الداخلية والأوروبية . ولذلك كانت قوة هولندا ومواردها الاقتصادية من العوامل التى أدت إلى حقد وحسد انجلترا وفرنسا .

وبينما استعد لويس لغزو هولندا ، عمل على عزلها سياسياً فاتصل بملك انجلترا تشارلز الثانى لإخراجه من التحالف الثلاثى ، وساعدته الظروف على ذلك .

فلقد تحول تشارلز إلى الكاثوليكية سراً ، ووجد فى بلاطه من نصحه بأهمية التحالف مع فرنسا للتخلص من منافسة هولندا التجارية ، وتحطيم بحريتها ، وإقتسامها مع فرنسا . ولهذا عقد لويس معاهدة دوفر Dover السرية مع تشارلز الثانى فى يونيو عام ١٦٧٠ ، وتعهد تشارلز بمقتضاها أن يعيد الكاثوليكية إلى انجلترا ، وأن يتحد مع فرنسا ضد هولندا ، وألا يعرقل خطط فرنسا فى أسبانيا . وفى مقابل ذلك تعهد لويس بمنحه مبلغ كبير من المال ، وإمداده بقوات فرنسية عند اللزوم لفرض الكاثوليكية على انجلترا . كذلك تمكن لويس من رشوة السويد، وعقد معاهدة سرية مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة تقضى بضم أسبانيا إليها ، وحصول لويس على المقاطعات الأسبانية فى حالة موت ملك أسبانيا ، دون وريث وكان ذلك أمراً متوقعاً بين لحظة وأخرى لمرضه .

وهكذا وجدت هولندا نفسها وحيدة أمام القوة الفرنسية الهائلة التى أخذت تكتسح أراضى هولندا حتى قاربت أمستردام . وثار الشعور الوطنى فى البلاد وقتل الهولنديون دى ويت ، وسلموا أمورهم إلى وليم أورنج (حفيد وليم الصامت) ، الذى تمكن من إرغام الفرنسيين على التقهقر . وبدأ يعمل على إخراج هولندا من عزلتها السياسية ، وإستمالة الحلفاء لمساعدتها . ونجح فى تكوين تحالف أوروبى ضد فرنسا . وتكون هذا التحالف الذى عرف باسم تحالف لاهاى الأعظم من الإمبراطور وبراندبرج وبربويك وهس واتحاد الراين والدانمرك وأسبانيا . كما عقد تشارلز الثانى صلحاً منفرداً مع هولندا فى فبراير عام ١٦٧٤ .

حقيقة أن القوات الفرنسية انتصرت ، وأثبتت تفوقها ، ووصلت إلى الراين لكن القضاء على هولندا لم يكن أمراً سهلاً . ونتيجة لذلك عقد فى عام ١٦٧٨ صلح ليمفيجن Nijmwegen الذى اختتمت به هذه الحرب . وكان هذا الصلح عبارة عن مجموعة من المعاهدات أعادت السلام إلى أوروبا ، وهى معاهدات بين فرنسا وكل من هولندا وأسبانيا والدانمرك والإمبراطورية. وبمقتضى هذه المعاهدات

احتفظت فرنسا بفرانش كومتيه التى تنازلت عنها أسبانيا ، كما استولى لويس الرابع عشر على مواضع هامة لتأمين حدود البلاد الشمالية الشرقية من الأراضى المنخفضة الأسبانية فى نظير إرجاع بعض المدن . ويعتبر المؤرخون أن صلح نيمفيجن يعنى الذروة التى بلغها حكم لويس الرابع عشر ، فقد واجه وحده أوروبا مجتمعة ، متحالفة ضده ، وخرج من النضال ظافراً . وبعد هذا الصلح لقبت باريس لويس الرابع عشر بالملك العظيم " Le Grand Monarch " .

ثالثاً : حرب حلف أوجزبرج (١٦٨٩ - ١٦٩٧) :

وبرغم أن صلح نيمفيجن كان فى صالح فرنسا إلى حد كبير ، فقد اعتبره لويس الرابع عشر أساسا لقائمة جديدة من المواقع ينوى الإستيلاء عليها . لقد كان لويس مصمماً على تأمين حدود فرنسا حتى يستحيل غزوها من الخارج. ولذلك أثارت فرنسا لصالحها بعض شروط فستفاليا الخاصة بحدودها ، وأمر لويس بتكوين لجان أو محاكم محلية لتقرر مدى حقوق الملك فى اللورين والألزاس ، وفى فرانش كومتيه ، وبعض الأماكن الأخرى ، وعرضت هذه اللجان باسم مجالس الضم Chambres of Reunion . وقد فسرت هذه المجالس معاهدات فرنسا مع الدول لصالح فرنسا وحدها ، وبذلك منحت فرنسا السيادة التامة على الألزاس ، وضم مدينة ستراسبورج التى استولى عليها الجيش الفرنسى فى عام ١٦٨١ . وواصل لويس اعتداءه على الأملاك الأسبانية ، واستولى على لكسمبرج فى عام ١٦٨٤ . واضطر الإمبراطور وملك أسبانيا إلى التنازل عن ستراسبورج ولكسمبرج (اللتين حصل عليهما لويس بواسطة مجالس الضم) فى هدنة راتزبون فى أغسطس عام ١٦٨٤ ، فى هدنة لمدة عشرين عاماً .

ولم تقف أطماع لويس عند هذا الحد ، فأراد أن يكمل سيطرته على الألزاس بالإستيلاء على الأقاليم المجاورة لها فى حوض الراين الأوسط . فطالب بوراثة البلاتينات لزوجة أخيه الثانية منذ وفاة ناخب البلاتينات فى عام ١٦٨٥

واحتلتها جيوشه عام ١٦٨٧ ، كما احتل منطقة كولون الإنتخابية ، ووضع عليها أحد أصدقاء فرنسا وهو أسقف ستراسبورج . وكانت فرنسا ترى ضرورة انتخاب رجل صديق لفرنسا فى كولون التى كانت لها أهمية استراتيجية لوقوعها على معبر عند نهر الراين يوصل للأراضى المنخفضة . وفى عام ١٦٨٨ قامت الثورة الدستورية فى انجلترا ، وأقصى جيمس الثانى (١٦٨٥ ـ ١٦٨٨) عن العرش ، وهرب إلى فرنسا ، واستدعى وليم أورانج ، زعيم البروتستانت فى أوروبا ، من هولندا لإنقاذ البروتستانتية والبرلمانية الإنجليزية بعد المحاولات الطائشة التى قام بها جيمس لفرض الكاثوليكية على الشعب بوسائل دستورية . وبعد تنصيب وليم أورانج ـ العدو الحقيقى للويس ـ ملكاً على انجلترا باسم وليم الثالث أضيفت دولة قوية إلى قائمة أعداء لويس .

واستطاع وليم أورانج أن يكون فى عام ١٦٨٩ تحالفاً ضد لويس الرابع عشر ، من هولندا والإمبراطورية وأسبانيا والسويد وباڤاريا وسرابيا وفرانكفورت وسكسونيا والبلاتينات للمحافظة على معاهدات فستفاليا ونيمفيجن . وكان منشأ هذا التحالف هو عصبة أوجزبرج التى تشكلت فى يوليو عام ١٦٨٦ وانضمت إليها باڤاريا وسافوى فى عام ١٦٨٧ ، ثم البابا سراً ، وأخيراً انجلترا حتى عرف هذا التحالف باسم المحالفة العظيمة Grande Ligne فى سبتمبر عام ١٦٨٩ ، وهكذا تكون هذا التحالف بسبب هجوم الفرنسيين على كولون . وكانت الحرب قاسية واستمرت مدة طويلة ، وتعددت ميادينها فى أيرلندا والأراضى المنخفضة وأقاليم الراين وإيطاليا والمستعمرات فى البحار . وأحرز الفرنسيون إنتصارات على الألمان فى معركة Fleurus فى عام ١٦٩٠ ، واحتلوا معظم سافوى . كما انتصر أسطولهم على الأسطول الإنجليزى والهولندى المشترك فى معركة Beachy Head فى نفس العام . ولكن استطاعت البحرية الإنجليزية بقيادة رسل Russell من الإنتصار فى موقعة Hague فى عام ١٦٩٢ ، وبذلك زال الخطر الذى كان

يهدد انجلترا . ونتيجة لسوء الإدارة المالية فى فرنسا عقب وفاة كولبير ، كان لزاماً على فرنسا أن تحصل على السلم . وبدأت مفاوضات الصلح وانتهت بعقد معاهدة رايزفيك Ryswick فى سبتمبر عام ١٦٩٧ ، وبمقتضى تلك المعاهدة اعترف لويس الرابع عشر بوليم أورانج (الثالث) ملكاً على انجلترا ، ونزلت فرنسا عن كل ما استولت عليه من ممتلكات منذ صلح نيمفيجن ما عدا ستراسبورج . ومما دفع لويس إلى قبول هذا الصلح أن اهتمامه أصبح مركزاً فى أسبانيا ، التى كان ملكها شارل الثانى فى حالة صحية سيئة .

رابعاً : حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ ـ ١٧١٣) :

أصبح عرش أسبانيا مشكلة دولية ، إذ كان لكل الدول الأوروبية الكبرى مطامع فى أسبانيا وفى ممتلكاتها فى العالم الجديد وفى إيطاليا وحرصت كل دولة على ألا يكون للأخرى نفوذ متفوق فى أسبانيا . وعندما بات متوقعاً وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا فى أية لحظة ، كان هناك ثلاثة مطالبون بالعرش : لويس الرابع عشر الذى تزوج بأميرة أسبانية ، والإمبراطور ليوبولد الأول الذى كان ابناً لأميرة أسبانية ، وجوزيف فرديناند ناخب بافاريا الذى كانت تربطه بالعائلة المالكة الأسبانية صلة قرابة .

ولكن انجلترا وهولندا لم يوافقا على استيلاء أحد هؤلاء المطالبين على التاج الأسبانى ، لأن ذلك كان من شأنه الإخلال بالتوازن الدولى ، ولذلك عقدت معاهدتان بين انجلترا وهولندا من جانب ، وفرنسا من جانب آخر (١٦٩٨ ـ ١٧٠٠) ، لتقسيم أملاك أسبانيا بعد موت ملكها شارل الثانى ، واتفق الفريقان فى المعاهدة الأولى على أن يكون العرش الأسبانى بمعظم الممتلكات الأسبانية لناخب باڤاريا ، وتأخذ فرنسا نابولى وصقلية ، وبذا لا يختل التوازن الأوروبى ، وربما كان من السهل أن يتم ذلك لأن ملك أسبانيا قد أوصى بعرشه فعلاً لناخب باڤاريا . ولكن ناخب باڤاريا توفى فى عام ١٦٩٩ ، وبذلك بدأت

المشكلة من جديد ، إذ اقتضى الأمر إعادة التقسيم مرة أخرى فى مارس عام ١٧٠٠ . ومن ثم عقدت المعاهدة الثانية وبمقتضاها يكون العرش الأسبانى من نصيب الأمير النمساوى كارل Prince Karl ثانى ابن للإمبراطور ، وتأخذ فرنسا الممتلكات الأسبانية فى إيطاليا ، وتضيف إليها اللورين .

ولكن عند وفاة شارك الثانى فى نوفمبر عام ١٧٠٠ ، وجد أنه قد ترك وصية أوصى فيها بأملاكه إلى فيليب أنجو ، حفيد لويس الرابع عشر ، على أمل أن ينقذ هذا أسبانيا من خطر التقسيم ، وأن تقوم فرنسا بالدفاع عنها ، وعندئذ أسرع لويس بقبول وصية شارل ، وأعلن حفيده ملكاً على أسبانيا باسم فيليب الخامس . وكان من الممكن أن تنتهى مشكلة الوراثة عند هذا الحد ، لكن ما كاد فيليب يرحل إلى أسبانيا حتى اعترف لويس الرابع عشر رسمياً بحق فيليب فى وراثة العرش الفرنسى . واعتبر هذا الإجراء تهديداً واضحاً لأوروبا التى كانت مصممة على منع إتحاد التاجين الأسبانى والفرنسى . ولذلك تتفق انجلترا وهولندا على وضع حد لأطماع لويس . وفى ٧ سبتمبر عام ١٧٠١ تكون التحالف الأعظم Grand Alliance ضد لويس من هولندا وانجلترا والإمبراطورية . ولما كان وليم الثالث (أورانج) ملك انجلترا هو العامل الأول فى هذا التحالف ، كما كان دائماً فى التحالفات السابقة ، فقد قابل لويس هذا العمل بالإعتراف بابن جيمس الثانى ملكاً على انجلترا باسم جيمس الثالث . وبعد وفاة وليم الثالث فجأة وسط هذه الأزمة فى مارس عام ١٧٠٢ أعلنت الحرب ضد فرنسا .

وكانت هذه الحرب من أطول الحروب إذ استمرت حتى عام ١٧١٣ ، وكانت ميادينها فى إيطاليا والأراضى المنخفضة وبافاريا وأسبانيا والعالم الجديد ، واندحرت فيها الجيوش الفرنسية على أيدى أعظم قواد الحلفاء مثل الدوق مولبرة Marlborough. وكان الدوق مولبرة هذا من أكبر القواد الإنجليز الذين ظهروا فى التاريخ قاطبة ، ويليه ولنجتون الذى انتصر فى موقعة واترلو عام ١٨١٥ . فاندفع

مولبره عام ١٧٠٤ من هولندا عبر أوروبا بجيشه المؤلف من أخلاط من الإنجليز والهولنديين والألمان لقطع الطريق على الفرنسيين الزاحفين صوب فيينا . وقد لحقهم مولبرة على مقربة من الحدود البافارية عند بلنهيم Blenheim حيث انتصر عليهم انتصاراً عظيماً أنقذ به النمسا ، واستولى على بافاريا ، وطعن هيبة فرنسا الحربية طعنة نجلاء . ولم يمض على ذلك عامان حتى استولى مولبره على الأراضى المنخفضة الأسبانية بعد انتصاره هناك فى راملبس Ramillies عام ١٧٠٦ ، ومازال حتى أجلى الجيوش الفرنسية عن تلك الأراضى إلى ما وراء بلدة أودنارد Oudenarde عام ١٧٠٨ . وبانتصاره الرابع عند مالبلاكيه Malplaquet فى ١١ سبتمبر عام ١٧٠٩ فتح مولبره الطريق لمهاجمة الحصون الممتدة على طول الحدود الفرنسية الشرقية ، ثم غزو فرنسا نفسها وهنا بلغت أحوال لويس الرابع عشر أسوأ ما تستطيع أن تبلغه ، فطلب الصلح بشروط تعد كلها ترضية لمطالب التحالف الأوروبى . وكان من الواجب حينئذ عقد الصلح غير أن إصرار حزب الويجز Whigs فى انجلترا ، ومعاندة الهولنديين الذى رأوا مواصلة الحرب للحصول على شروط يمكن أن تكون أجود مما عرض لويس الرابع عشر كل ذلك أضاع الفرصة ، وظلت الحرب تجر أذيالها إلى حين . وقرر لويس الصمود فى القتال ، وفى المعاركة التالية انهزمت جيوش النمسا هزيمة كبرى فى موقعة Denain فى أكتوبر عام ١٧١٢ . وقد خففت هذه الهزيمة من غلواء الحلفاء ، وأمكن أن تبدأ المفاوضات بعد ذلك فى أوترخت . وفى ١١ أبريل عام ١٧١٣ تم توقيع الصلح فى أوترخت بين فرنسا وأسبانيا من جانب ، وبين انجلترا و الأراضى المنخفضة الهولندية وبراندنبرج وسافوى من جانب آخر . ثم وقعت البرتغال معاهدة صلح منفردة فى ١٢ أبريل ، وأخيراً اضطر الإمبراطور إلى عقد الصلح فى راستات Rastadt فى ٧ مارس عام ١٧١٤ . ثم لم تلبث أن انضمت إلى الصلح دويلات الإمبراطورية فى صلح بادن فى ٧ سبتمبر عام ١٧١٤ .

بفضل معاهدات أوترخت وراستات وبادن ، ويطلق عليها جميعاً اسم صلح أوترخت الذى أعاد السلام إلى أوروبا .

صلح أوترخت (١٧١٣ ـ ١٧١٤) :

وقد نص هذا الصلح على ما يلى :

١ ـ الاعتراف بفيليب (أنجو) الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا ومستعمراتها بشرط أن يتنازل عن جميع حقوقه فى عرش فرنسا .

٢ ـ استولى الإمبراطور (شارل السادس منذ عام ١٧١١) على نابولى وسردينيا وميلان والأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) .

٣ ـ حصلت انجلترا على نيو فوندلاند وخليج هدسون ونوفا سكوشيا Nova Scotia من فرنسا ، وعلى مينورقه وجبل طارق من أسبانيا . كما تعهدت فرنسا بعدم مساعدة أفراد أسرة ستيوارت بالمطالبة بعرش انجلترا ، كما تم الاعتراف بحقوق أسرة هانوفر فى وراثة عرش انجلترا .

٤ ـ استبقت فرنسا الألزاس بما فيها مدينة ستراسبورج وفق معاهدة رايزفيك ، ولكنها سلمت القلاع التى استولت عليها على جانب الراين الأيمن.

٥ ـ أعيد كل من ناخبى كولون وباڤاريا إلى إمارته .

٦ ـ تم الإعتراف بناخب براندبرج ملكاً على بروسيا ، وكانت هذه خطوة مهمة فى إزدياد نفوذ أسرة الهوهنزلرن Hohenzollern .

٧ ـ تم الإعتراف بدوقية سافوى كمملكة ، وأعطيت جزيرة صقلية .

٨ ـ تم الإتفاق على هدم تحصينات دنكرك .

وهكذا خرجت انجلترا من حرب الوراثة الأسبانية منتصرة ، ووضعت أساس سيادتها فى البحار ، وأحرزت التفوق فى أوروبا . بينما خرجت فرنسا مجهدة

وحالتها المالية سيئة ، وأخفقت فى سياسة الوصول إلى الحدود الطبيعية . وبصلح أوترخت ينتهى القرن السابع عشر فى أوروبا بفشل فرنسا فى تحقيق دكتاتورية مسيطرة على أوروبا ، وبتقدم انجلترا وسيرها حثيثاً نحو التقدم التجارى ، وبانتهاء المنافسة بين البوربون والهابسبرج . وتوفى لويس بعد عامين من توقيع الصلح قضاهما فى التوبة إلى الله من الذنوب العديدة التى ارتكبها .

وهكذا بدأت مساوىء الحكم المطلق تبدو جلية فى فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر ، الذى كان يقول « الحكومة أنا » . وقد أقام حكمه المطلق ـ كما رأينا ـ على هذه القاعدة ، فاستأثر بكل سلطة ، وقضى على الحرية الدينية والحرية السياسية والحرية الشخصية ، وسخر الشعب ودماءه وأمواله فى الحروب جرياً وراء مجد كان فى طيه البؤس والشقاء . وقال بوفان مهندس استحكامات لويس الرابع عشر وقد رزى بماحل بالبلاد : « إن الشعوب معرضة لجشع الماليين والضرائب الجائرة والمطالب الفادحة التى تنشأ عنها مضايقات مرهقة ، وقد أصبح الكثيرون بلا مأوى ، وملئت المستشفيات بالمرضى ، وأقفرت البلاد من السكان» . والواقع أن استبداد لويس الرابع عشر وحكومته قد ولد فى النفوس كراهية للحكم المطلق ، وأخذ هذا الشعور يزداد فيها تأصلاً بسبب إنحطاط الملكية وسقوط هيبتها فى القرن الثامن عشر . حقيقة أن فرنسا قد بلغت فى عهد لويس الرابع عشر مركز القيادة السياسية والثقافية فى أوروبا ، غير أن حروبه الكثيرة أنهكت قوى هذه البلاد فى أواخر عهده فترك فرنسا بعد وفاته دولة مرهقة .

لويس الخامس عشر (١٧١٥ ـ ١٧٧٤) :

خلف لويس الخامس عشر جده العظيم لويس الرابع عشر فى عام ١٧١٥ ، وكان يبلغ من العمر خمس سنوات . وكان لويس الخامس عشر من أضعف ملوك فرنسا قاطبة ، إذ فقدت الملكية المطلقة فى عهده قوتها وبهاءها ، وصار النساء والعشيقات فى عهده ـ وفى عهد خلفه لويس السادس عشر ـ يتحكمن

في سياسة الدولة ، ويبذرن أموالها ، ويكثرن من الفضائح التي ساعدت على إسقاط نفوذ الملكية وجعلها موضع السخط والإزدراء . كما تمتع النبلاء في عهده بنفوذ كبير ، وأحاطوا به ، وأوعزوا إليه بنوع السياسة التي يتبعها في الداخل وفي الخارج . وعلاوة على الإمتيازات الكثيرة التي تمتع بها النبلاء ، سيطروا على مراكز القيادة في الجيش . ولما كان النبلاء هم طبقة عسكرية في الأصل ، ولما كانت الحروب هي أسلوب حياتهم ، فقد كانوا دائماً يحرضون الملكية الفرنسية على إتخاذ جانب الحرب كأسلوب لفض المشاكل الخارجية . وهذا الإتجاه من جانب فرنسا كان واضحاً في حربين اشتبكت فيهما فرنسا قبيل منتصف القرن الثامن عشر مع أسرة الهابسبرج العدو التقليدي لأسرة البربون الحاكمة في فرنسا . وهكذا كان دخول لويس الخامس عشر في حروب الوراثة البولندية (١٧٢٣ ـ ١٧٣٥) وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨) نتيجة لضغط نبلاء فرنسا على الملك الضعيف .

وإذا كانت فرنسا قد حصلت نتيجة إشتراكها في حروب الوراثة البولندية على دوقية لورين التي كان ضمها خطوة في سبيل تكامل فرنسا القومي ، فإنها فشلت في حرب الوراثة النمساوية في تقسيم النمسا بسبب شجاعة وريثة العرش النمساوي ماريا تريزا . لقد قامت حرب الوراثة النمساوية أو الحروب السيليزية عندما تولت ماريا تريزا عرش الإمبراطورية خلفاً لأخيها الإمبراطور شارل السادس في عام ١٧٤٠ . فقام ملك بروسيا فردريك الثاني بمهاجمة سيليزيا ، وكان لبروسيا بالذات إدعاءات فيها . وانتهزت الدول الأوروبية المختلفة ، سواء من كان لها إدعاء ، أو لم يكن لها إدعاء على الإطلاق في أملاك النمسا بمهاجمة النمسا .

وتكون حلف من فرنسا وأسبانيا وبافاريا وسكسونيا ضد النمسا ، وذلك لحرمان ماريا تريزا من أملاكها التي ورثتها . وفي عام ١٧٤٠ سقطت سيليزيا في

يد فريدريك ، واستولى الفرنسيون والبافاريون والسكسونيون على بوهيميا ، واضطرت ماريا تريزا إلى توقيع الصلح مع أخطر هؤلاء الأعداء وهو ملك بروسيا فى برسلاو Breslau فى عام ١٧٤٢ ، وبمقتضاه استولت بروسيا على سيليزيا ، وانتهت الحرب التى تعرف باسم الحرب السيليزية الأولى . وثارت ماريا تريزا بعد ذلك ضد بقية أعدائها مما أقلق فردريك فأعلن الحرب على ماريا من جديد فى عام ١٧٤٤ . وبدأت بذلك الحرب السيليزية الثانية ، واضطرت ماريا أن تعقد الصلح مع فردريك مرة أخرى على أساس الإعتراف بإمتلاك بروسيا لسيليزيا .

وبخروج فردريك من الحرب ، تمكنت ماريا من أن تحرز إنتصارات بمساعدة انجلترا وهولندا ، اللتين دخلتا الحرب للحد من أهداف فرنسا الرامية إلى غزو بلجيكا ، وخلع الملك جورج الثانى عن عرش انجلترا ، وتنصيب أسرة ستيوارت الكاثوليكية على عرش انجلترا . وانتهت الحرب على أية حال بعقد صلح اكس لاشابل Aix la Chapelle فى أكتوبر عام ١٧٤٨ ، ونص على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب Status quo ante bellum مع قليل من الاستثناءات . وعلى العموم تأكدت إمتلاك بروسيا لسيليزيا ، رغم أن بروسيا لم تكن طرفاً فى الصلح . وتعهد لويس الخامس عشر بإبعاد المطالب بعرش انجلترا من فرنسا . ولكن هذا الصلح لم ينه الخلافات ، فاستمر الصراع البحرى بين انجلترا وفرنسا كما استمر النزاع حول سيليزيا وهو ما سوف يعرف بالحرب السيليزية الثالثة أو حرب السنوات السبع . وما يهمنا فى هذا المجال أن فرنسا قد خرجت من تلك الحرب منهكة ، ولم تجن من سيطرة النبلاء ، وتحريضهم على خوض الحروب سوى تدهور قوتها .

ولم يقف نفوذ النبلاء عند هذا الحد ، إذ رسمت طبقة النبلاء السياسة الفرنسية فى صراعها الاستعمارى مع انجلترا رغم أنها لم تفهم حقيقة هذا الصراع لأنها كانت طبقة زراعية . وبالتالى كانت وجهة نظرها خاطئة فى مسألة

الصراع الاستعماري ، فكانت ترى أن القارة الأوروبية هي المسرح الرئيسي لهذا الصراع بدلاً من المستعمرات نفسها ، وأن يترك للجيش دون الأسطول تقرير الانتصار في هذا الصراع . ولكن انجلترا اتبعت سياسة مغايرة تماماً ، فكانت ترى أن الحرب فيما وراء البحار تتحدد بالقوة البحرية . وإذا استطاعت البحرية أن تسيطر على مياه هذه المستعمرات فإن المستعمرات تسقط من تلقاء نفسها . وطبقاً لوجهة النظر الفرنسية بدأت فرنسا تبحث عن حليف في القارة الأوروبية عندما بدأ الصراع وشيك الوقوع بينها وبين انجلترا ـ ونتيجة لهذه السياسة ستشهد أوروبا إنقلاباً دبلوماسياً يتمثل في إنهاء التنافس الطويل بين الهابسبرج والبوربون، وإنهاء التحالف بين النمسا والدول البحرية ، وتكوين توازن جديد لأوروبا من فرنسا والنمسا (العدو التقليدي لفرنسا) في جانب وانجلترا وبروسيا (المنافس الجديد الناشيء للنمسا) في جانب آخر . ولقد جعلت حرب الوراثة النمساوية الطويلة المدى الناس يتساءلون عما كسبته النمسا من تحالفها مع انجلترا ، ولماذا تساعد فرنسا بروسيا ؟ ونتيجة لهذه الشكوك ، وهذا التبرم حدث الإنقلاب السياسي الذي قرب بين فرنسا والنمسا. ومنذ عام ١٧٥١ بدأت ماريا تريزا حاكمة النمسا، وأنجح حكام القرن الثامن عشر في أوروبا ، تتودد إلى مدام بومبادور Pompadour محظية لويس الخامس عشر ، وصاحبة النفوذ الأعظم في فرنسا حينئذ .

وبعد حوالي أربع سنوات نشب القتال بين الفرنسيين والإنجليز في شمال أمريكا دون إعلان حرب . وخوفاً من قيام فرنسا بالهجوم على هانوفر ، قام ملك انجلترا وأمير هانوفر جورج الثالث بعقد إتفاقية وستمنستر Westminister مع فردريك الثاني (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) لضمان حياد بروسيا . وقامت النمسا باستغلال الفرصة وعقدت مع فرنسا إتفاقيات ثلاث في فرساي في مايو عام ١٨٥٦ : الأولى خاصة بالحياد ، والثانية خاصة بالدفاع تضمن فيها كل دولة أملاك الدولة الأخرى ، والثالثة سرية ، الهدف منها تقوية الروابط بين الدولتين

المتحالفتين . وقد أطلق على هذا التغير فى العلاقات الدبلوماسية التقليدية بين فرنسا والنمسا فى عام ١٧٥٦ « الثورة الدبلوماسية » . وقد تمخضت هذه الثورة عن حرب السنوات السبع أو الحرب السيليزية الثالثة .

حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) :

نشبت حرب السنوات السبع Seven Year's War بين فرنسا وانجلترا فى مايو عام ١٧٥٦ وبعد عدة شهور دخلت كل من النمسا وبروسيا الحرب ، وبذلك دخلت مشكلة سيليزيا بين النمسا وبروسيا إلى جانب مشكلة شمال أمريكا والهند . ولم تكن الحرب فى سنتها الأولى فى صالح انجلترا بصفة عامة ، حتى تولى الوزارة فى عام ١٧٥٧ رجل من أبرز رجال السياسة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر وهو وليم بت William Pitt وبت هذا لم يأت من الطبقة الأرستقراطية ، بل من الطبقة الجديدة أهل المال . كان بت رجلاً تطفح نفسه بالعزة والإستبداد بالرأى والعبقرية . وليس من صفته ألا أن يكون زعيماً مهيباً ، دون أن يكون زميلاً لأحد ، وهو بلا شك أعظم الوزراء الذين تولوا شئون الدولة فى أزمنة الحروب طوال التاريخ الإنجليزى كله ، وقد قال ذات مرة : « إنى أعلم أن فى إستطاعتى إنقاذ بلادى ، وأن ليس فى إستطاعة غيرى أن يقوم بذلك » . وصدق فى قوله . إذ استطاع أن ينسق الحملات الإنجليزية البرية والبحرية ، ولم ينس أهمية جبهة البحر والمستعمرات فى صراع انجلترا مع فرنسا ، ورغم ذلك لم يهمل الجبهة الأوروبية ، فقدم أقصى ما يمكن من المعونة إلى عدو فرنسا فردريك ملك بروسيا .

وأخذ بت فى إنفاذ الحملات البرية والبحرية لحصار القواعد الحربية الفرنسية ، وإبادتها فيما وراء البحار . ونتيجة لحصار الشواطىء الفرنسية لم يستطع الفرنسيون إرسال المؤن والتموين اللازم لقواتهم المحاربة لإختراق هذا الحصار البحرى . وكان النتيجة هزيمة الأسطول الفرنسى فى خليج كويبرون Quiberon ،

وفى لاجوس Lagos . وبذلك أصبح الأسطول الإنجليزى هو العنصر المحدد لنتيجة الحرب . فعندما قطعت الإتصالات بين فرنسا ومستعمراتها بدأ بت الهجوم الشديد على هذه المستعمرات ، فأخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى . ففى عام ١٧٥٨ استولت إحدى تلك الحملات على مدينة لويزبرج ، وهى مفتاح كندا الفرنسية ، وفى السنة التالية تم الإستيلاء على كويبك ، وأجلى الاسكتلنديون وأبناء المستعمرات الأمريكية جيوش الفرنسيين من وادى أوهيو Ohio . وهكذا انتهت السيادة الفرنسية بأمريكا الشمالية ، وأضحى العالم الجديد بمثابة هدية هذا البرلمانى العظيم (بت) إلى الشعوب الناطقة بالإنجليزية .

وفى الهند لم يكن إنتصار الإنجليز بأقل أهمية من إنتصاراتهم فى أمريكا ، وإستطاع كليف بمهارته السياسية والعسكرية أن يؤسس الإمبراطورية البريطانية فى الهند . إذ أخذ يعمل على تشتيت قوى الفرنسيين والهنود حتى لا تتجمع ضد القوى الإنجليزية فى الهند ، وأحرز سلسلة من الإنتصارات . بدأت بإنتصاره فى بلاسى Plassey فى عام ١٧٥٧ ، وإستيلاءه على إقليم البنغال وجعله تحت حكمه المباشر . وبسبب هذا الموقف الحربى الخطير ، أخذت فرنسا تحرض أسبانيا على الدخول فى الحرب فى جانبها ، وساعد على ذلك أنه منذ إنقراض الفرع الأسبانى فى أسرة الهابسبرج عام ١٧٠٠ كان الفرع الفرنسى البوربونى الحاكم فى أسبانيا دائب التعاون مع فرنسا فى السنوات السابقة على حرب السنوات السبع، وذلك حسب إتفاق بين فرنسا وأسبانيا يعرف باسم إتفاق الأسرة Family Compact . وفى عام ١٧٦١ تجدد هذا الميثاق ، ولكن أسبانيا التى كانت قد أفزعها من ناحية أخرى إنتصار إنجلترا الساحق بدأت تخشى على أملاكها هى الأخرى من تفوق قوة إنجلترا فيما وراء البحار .

علم بت بالإتصالات الدائرة بين فرنسا وأسبانيا ، وكان يرى أن تبدأ انجلترا بمهاجمة أسبانيا قبل أن تستعد أسبانيا بالفعل لدخول الحرب. ولكن فوجىء بت

بمعارضة الملك جورج الثالث ، حفيد جورج الثانى الذى توفى عام ١٧٦٠ . وكان جورج الثالث جاهلاً عنيداً ، يريد الحكم لنفسه من غير صلاحية للقيام بذلك . كما كان جورج الثالث قد نشأ فى بيئة حزب التورى (*) فامتلأت نفسه بالكراهية لحزب الهويج الذى كان يسيطر على البرلمان والوزارة . وبنى جورج سياسته على أساس إعادة قوة الملكية ، وبدأ كخطوة أساسية لهذا العمل بإدخال أحد أعضاء حزب التورى فى وزارة الهويج . وتزعم هذا الوزير فريقاً يطالب بالصلح . وكان الملك يناصر هذا الفريق مناصرة علنية . ولقد حدث هذا التطور فى الوقت الذى حاول فيه بت أن يوسع من شقة الحرب بمهاجمة أسبانيا دون إنتظار لإعلان الحرب العلنية . غير أن الملك جورج الثالث رغب فى السلم، وأخذ يعمل سراً ضد فردريك ملك بروسيا وحليف وليم بت وسياسته فى أوروبا . فاستقال بت من الوزارة عام ١٧٦١ ، ودخلت أسبانيا الحرب ، وتم ما تنبأ به هو من اجتماع الدولتين البربونيتين على العدوان . على أن انجلترا استطاعت ـ بفضل ما بثه وليم بت فيها من قوة ـ أن تواصل إنتصاراتها على فرنسا فى الأراضى الألمانية ، وعلى أسبانيا فى جزر الفلبين بالمحيط الهادى وفى جزر الهند الغربية بأمريكا الوسطى .

وهكذا انتهت تلك الحرب المعروفة فى التاريخ الأوروبى باسم حرب السنوات السبع ، وتقرر السلام بصلح باريس فى فبراير عام ١٧٦٣ ، وهو صلح

(*) فى عام ١٦٧٥ ظهر فى انجلترا حزبان هما الهويج Whigs والتورى Tories ، وهذه الكلمات شتائم وردت على لسان خطباء الفريقين فى حدة الخلاف Tory مشتقة من اللغة الإيرلندية وتعنى السارق . و Whig مشتقة فى الغالب من Whiggam ، وهى صرخة ينادى بها الفلاحون الاسكتلنديون ليحثوا جيادهم على السير . والمقصود بذلك الحزب السياسى الجامح . وقد قدر لهذين الحزبين أن يتنافسا على السلطة فى انجلترا لما يزيد عن قرنين فيما بعد تحت اسم حزبى الأحرار والمحافظين Conservatives .

أكثر إعتدالاً مما كان منتظراً ، بالنسبة لما وقع فى أثناء الحرب من فتوح وإنتصارات . فأسبانيا لم تخسر شيئاً فى هذه الحرب ، إذ بمقتضى هذا الصلح استردت كل من هاڤانا Havana ومانيلا Manila ، أما فرنسا فقد اضطرت إلى التخلى عن كندا مع كل الجزء الهام من وادى المسيسيبى الواقع إلى شرق النهر أما فى الهند ، فرغم أن فرنسا استردت بوندتشيرى Pondichéry وبعض المراكز التجارية الأخرى ، إلا أن انجلترا أضحت منذ ذلك الوقت القوة الوحيدة المتحكمة فى الهند دون منازع ، وبدأت منذ ذلك الوقت تبسط نفوذها فى شبه الجزيرة على حساب القوى المحلية من الأمراء الهنود . على أن ذلك وغيره من شروط الصلح لا يؤثر فى شيء من النتائج الكبرى لتلك الحروب ، وهى انتهاء السيادة الفرنسية على كندا ، وتمكين الإمبراطورية البريطانية فى الهند .

وخلاصة القول أن صلح باريس ـ وما تمخض عنه من سيادة انجلترا بأمريكا ـ بلغ بعظمة انجلترا وإمبراطوريتها الأولى إلى الأوج . ولا شك أن ما أحرزته انجلترا من تلك العظمة لم يكن شيئاً قليلاً ، فمنذ أن أضحت بفضل تكوينها وموقعها الجغرافى مركزاً طبيعياً لكل تحالف ضد الدول التى تجنح إلى القوة والسيطرة الحربية فى أوروبا ، بعد أن كانت ترجع فى سلامتها إلى ما بها من قصور عن تهديد أية دولة من الدول . وبعبارة أخرى صارت انجلترا من بعد حرب السنوات السبع دولة ذات سطوة وبأس شديد . ومن الطبيعى أن تعمل الدول الأوروبية ـ بزعامة فرنسا وأسبانيا ـ على إيجاد الفرصة للتعاون فيما بينها ، لتصحيح التوازن وإعادته إلى نصابه القديم .

الفصل الحادى عشر

فرنسا من صلح باريس الى قيام الثورة الفرنسية

أوضحنا فى الفصل السابق كيف أن فرنسا فقدت مكانتها العسكرية عندما ألحق بها تحالف انجلترا مع بروسيا هزيمة منكرة فى حرب السنوات السبع . كما كان الملك لويس الخامس عشر الذى توفى عام ١٧٧٤ نموذجا كاملاً لانحطاط الملكية . فقد كانت الملكية الفرنسية مدينة لزعامتها الايجابية للأمة فى الحروب ، ولكنه كان غارقا فى مباذله ، عاطلا عن أى حمية عسكرية أو حماسة دافعة ، فحاقت بالأمة الفرنسية فى عهده هزائم كبرى لم تقو على علاجها من بعده . لقد خسرت فرنسا مستعمراتها فى الهند وأمريكا ، ولم تعد الاستعراضات الحربية تقام لإظهار ما لفرنسا من القوة الحربية ، بل كانت تقام لتسلية الملك ومحظياته أمثال مدام دى بومبادور . وفى الحقيقة أفقد انهزام الملكية الفرنسية أمام بروسيا فى حرب السنوات السبع حب الشعب الفرنسى لها ، وقال نابليون بونابرت أن موقعة روزباخ Rossback (حدثت فى ألمانيا فى حرب السنوات السبع عام ١٧٥٧) هى من أهم أسباب قيام الثورة الفرنسية .

لقد أظهرت حرب السنوات السبع للشعب الفرنسى أنهم ضحايا حكم فاسد من جميع وجوهه . وكان أبرز هذه الوجوه الحكم المطلق من ناحية، وطبقة النبلاء المميزة التى تعيش عالة على جماهير الشعب الفرنسى من ناحية أخرى . وفى حوالى منتصف القرن الثامن عشر حدث تغير ديناميكى فى حياة الشعب الفرنسى وذلك أنه على الرغم من أن الشعب الفرنسى كان منفصلا ليس فقط عن طبقة النبلاء، بل كذلك عن طبقة رجال الدين إلا أنه لم يكن خاملا، فقسم كبير من عناصر الشعب الفرنسى وهو سكان المدن البورجوازية أخذ فى النمو بسرعة فائقة ، وإلى هذا العنصر يرجع الفضل فى بناء التجارة والصناعة الفرنسة

واليه يرجع الفضل فى بناء الإمبراطورية الإستعمارية فيما وراء البحار. ومن هذه الطبقات أيضا خرجت مجموعة كبيرة من النقاد والكتاب ارتبطت بالحركة الفكرية المعاصرة التى أطلق عليها الاستنارة ، فمما لا شك فيه أن من بين الطبقة البورجوازية الفرنسية ظهر قواد هذه الحركة الفكرية التى عمت بقية أوروبا . ولقد بدأت هذه الحركة ـ التى سنشير اليها بعد ذلك بالتفصيل ـ فى عهد لويس الخامس عشر قبل حرب السنوات السبع فأكملت هذا الانقلاب فى صفوف البورجوازية ، بحيث أضحت هذه تحمل لواء الاصلاح والتغيير فى الوضع الاجتماعى والسياسى .

بعد وفاة لويس الخامس عشر فى عام ١٧٧٤ ، خلفه حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ ـ ١٧٩٢) ، وحالف التوفيق رايات البلاد من جديد فى حرب الاستقلال الامريكية ، ولكن خزينة فرنسا كانت خاوية الى حد مزعج، وكان لا بد من اتباع سياسة إصلاحية بهدف تقييد الحكم المطلق ، وتبسيط النظام الإدارى ، والقضاء على الامتيازات. ولقد كان الملك ـ كما أشرنا من قبل ـ هو مصدر السلطات جميعا ، فكانت له وحده السلطة التنفيذية حق تعيين الموظفين والإشراف على الإدارة ، وعقد المحالفات ، وإعلان الحرب وقيادة الجيوش، كما كانت له وحده السلطة التشريعية لأن مجرد صدور لائحة ملكية يكفى لتغيير نظام الحكومة أو القضاء ، وكانت القوانين الفرنسية مؤلفة من العادات القديمة واللوائح الملكية ، وكانت له وحدة السلطة المالية يقرر النفقات والضرائب ، وجبايتها بغير رقيب . وكان الوزراء والحكام خاضعين لإرادته التى تقوم مقام القانون .

وكانت إرادة الأمة ممثلة شكلا فى « البرلمان » ومجلس الأمة ، أما البرلمان فهو اسم كان يطلق فى العهد القديم على محاكم فرنسا التى أنشئت فى المدن الرئيسية للفصل نهائيا فى الأحكام المستأنفة ، وكان أهمها وأقدمها « برلمان

اريس » الذى كان فى بدايته محكمة عليا متنقلة تتبع الملوك أينما ذهبوا لتقضى اسمـهـم ، ثم أقرها فـيليب الرابع فى باريس (١٣٠٢) . وكـان برلمان باريس كالبرلمانات الأخرى التى أنشئت فيما بعد ينظر فى الدعاوى المستأنفة ، ولكنه كان فوق ذلك يسجل القوانين واللوائح والأوامر الملكية. وكانت اختصاصات لبرلمان فى البداية قضائية بحتة ، وما لبث أن انتحل لنفسه سلطة سياسية فكان كثيرا ما يرفض تسجيل القوانين التى يرى أنها تتنافى مع العدل ، أو يوجه الى لملك قبل الشروع فى عملية التسجيل انتقادات مِرة نفى من أجلها مراراً . وقد عب من مقاومته لويس الخامس عشر فألغاه فى عام ١٧٧١ ، وأعاده لويس سادس عشر فى أول حكمه (١٧٧٤) فصار البرلمان فى أيامه على رأس حركة لمعارضة التى تقدمت الثورة ، وكانت العامل الأول فى إضعاف الملكية .

أما مجلس الأمة Etats - Généraux ، فكان يتألف من نواب النبلاء القساوسة والطبقة الثالثة (الشعب) ، وأول جمعية عرفت بهذا الاسم اجتمعت ى عام (١٣٠٢) بناء على دعوة فيليب الرابع للفصل فى النزاع الذى قام بينه بين البابا بونيفاس الثامن ، وقد أيدته أغلبية المجلس فى وجوب تحميل الإكليروس صيبا من أعباء البلاد المالية ، وأكدت بذلك حلال الملكية الاستقلال عن حكومة روما فى سلطتها الزمنية ، ولا ريب أن هذا الاجتماع الخطير يدل على أن لملكية بدأت تستند فى أعمالها الى الرأى العام ، لأن مجلس الأمة أول تمثيل صحيح قام على قاعدة انتخابية ، على أن هذا المجلس كان لا يجتمع بطريقة ظامية، وانما يعقده الملوك حسب مشيئتهم لأخذ رأيه فى المسائل الهامة وتقرير ضرائب ، وكان يطالب أحيانا بالاصلاحات النافعة . واجتمع لآخر مرة عام ١٦١ م. ثم أصبح بعد ذلك نسبيا منسيا حتى عام ١٧٨٩ وهو عام قيام الثورة .

وكان الفرنسيون لا يتمتعون بأية حرية فلا وجود للحرية الفردية ، لأن جرد صدور إرادة ملكية (Lettre de Cachet) يكفى لسجن أو نفى أى فرنسى ون اتباع أى إجراء قانونى أو الاستناد الى أى حكم قضائى. وكانت هذه

الإرادات تصـدر فى صـورة خطاب مـوقع من الملك وأحـد وزرائه، ومغلق بخـتم الملك، وكـان يسـتعـملهـا الملك ووزراؤه وكـبار رجال الدولة للانتقـام من أعـداء الحكومة السياسيين، ثم جرى استعمالها للانتقام من الأعداء الشخصيين ، ومن ضحـايا هذه الارادات لاتود Latude ، الذى ظل فى سـجن البـاسـتيل ٣٥ سنة (١٧٤٩ـ١٧٨٤) بناء على طلب مدام دى بومبادور لأنه بلغها فى سن الرابعة والعشرين من عمره خبر مؤامرة وهمية طمعا فى رضاها ووقايتها ، أما الحرية الدينية فلم يكن لها وجود فى فرنسا لأن الدين الكاثوليكى هو دين الدولة الوحيد المعترف به ، وكان إجباريا ، وقد أعلن لويس السادس عشر عند اعتلائه الحكم أنه سيبذل أقصى سلطته فى مطاردة أعداء الكنيسة ، وكان محرما على البروتستانت واليهود الدخول فى المناصب العامة ، وعلاوة على ذلك قيدت حرية النشر لأن لجنة الرقـابة التى أنشئت فى أيام لويس الرابع عـشـر كـانت تفـحص جـمـيع المطبوعات قبل ظهورها ، وإذا صدرت كتب من غير إذن اللجنة صودرت وزج بأصحابها فى الباستيل من غير محاكمة ، وقد سجن فولتير فيه مرتين، واضطر الى الرحيل عن بلاده ليتمكن من التأليف فى أمن .

ومن أهم العـوامل التى أدت الى بغض الحكم المطلق فى فـرنسـا وجـود البلاط الملكى الذى اتخذه الملوك منذ عهد فرنسيس الأول أداة حكومية، واجتذبوا إلى ساحته فى فرساى ، خصوصا فى أيام لويس الرابع عشر النبلاء الذين أخذت سلطتهم تفنى فى السلطة الملكية ، وكان يبلغ عدد رجال البلاط ١٨٠٠٠ فى عام ١٨٧٩ تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات الضخمة ، دون أن يكون لهم عمل يؤدونه ، وكـانت خزانة الدولة تدر على أولئك العـاطلين من أصحاب الأبيـات المولعين بالترف وحب الظهور والملاهى والحفلات الراقصة مما دعا تيرجو Turgot الى أن يقول للويس السادس عشر على أثر تعيينه وزيرا للمالية . « يجب أن تتسلح يا مـولاى ضـد إحسـانك ، وأن تفكر فى مصـدر هذا المال الذى تنفـقـه على بطانتك، وأن تقـارن بين بؤس أولئك الذين ينتـرع منهم المال أحيـانا بأسـاليب

قاسية، وحالة أولئك الذين ينعمون من فيضك » وبرغم ذلك لم تقلع الملكية عن سياسة الاسراف ، فأنفق الملك فى خلال ثلاثة أعوام (١٧٧٨ ـ ١٧٨١) مبلغ ٢٦٠٠٠٠ جنيه مرتبات لبعض رجال البلاط الجدد الذين عينوا فى وظائف لم تخل بعد .

وفى الواقع كانت الضرائب موزعة بطريقة جائرة ، تشكو الطبقة العاملة الفقيرة من فداحتها وأساليب جبايتها . فكانت الحكومة تقرر فى كل عام المبلغ الذى تدفعه كل مديرية ، ثم يقوم الموظفون فى مُعظم المقاطعات من المدير الى الجابى بتوزيع الضرائب بين السكان لا بنسبة الثروة بل بنسبة المقدرة ، وتلك عادة قديمة ، فكان الجباة أحراراً فى تقدير ما يدفعه كل ساكن ومراعاة ذويهم . وأهم الضرائب المباشرة هى الضريبة الملكية التى كانت تقع على الشعب وحده من العمال والتجار والفلاحين الذين ليسوا من طبقة الأشراف ، وأول من فرضها فيليب الرابع للقيام بنفقات الحرب . وقد دفعت الحروب لويس الرابع عشر الى فرض ضريبة شخصية فوق العادة (رسم الرأس Capitation) وضريبة عشرينية (٢٠/١ من الدخل) . وكانت هاتان الضريبتان من الوجهة النظرية تشملان جميع الطبقات ، ولكن القساوسة أعفوا منها لقاء التبرع بمبالغ معينة من المال من وقت لآخر . وكان النبلاء يدفعون مبالغ ضئيلة بالنسبة لثروتهم ، وهكذا كانت الضرائب المباشرة وحدها تستنفذ نصف ايراد الطبقة العاملة .

أما الضرائب غير المباشرة كضريبة المشروبات وضريبة الملح * فكانت تفرض على عامة الشعب ، وكان للنبلاء وحدهم الحق فى وظائف البلاد ، ومناصب الجيش الرئيسية : أما الشعب فعليه أعباء الضرائب ، والسخرة ، والتجنيد .

ولا ريب أن هذه اللامساواة كان يتألم منها الشعب حتى قال بعض

(*) كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح Gabelle وترغم كل فرد من الأهالى رجل كان أو امرأة أو طفلا على شراء قدر معين منه ، حتى ولو لم يكن لديهم الخبز اللازم لأود الحياة

الكتاب أن ظمأ الفرنسيين الى المساواة كان أشد من ظمأهم الى الحرية ، والواقع أن النظام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر كان أكثر انطباقا على الحالة العمرانية والسياسية فى العصور الوسطى خصوصا وإن النبلاء قد أضمحل أمرهم ، واشتغل الكثيرون من أفراد الشعب ، وغير النبلاء بالتجارة والصناعة فنالوا ثروة واسعة ورفعة وقوة ، وتألفت من الشعب « طبقة متوسطة » جديدة متنورة تعتز بحسبها الذى ابتنته لنفسها بكدها ، وتندد بامتيازات النبلاء التى لا يبررها سوى الأصل والنسب، والى هذه الطبقة ينتمى فولتير الذى روى أنه تنازع مرة مع الدوق دى روهان وبينما كان يتناول غذاءه ذات يوم بعث اليه الدوق يدعوه لأمر عاجل فما كاد يخرج من البيت حتى اثخنه ضربا بالعصى ، وأراد فولتير التشهير بهذا الاعتداء، فسجنته الحكومة فى الباستيل ، ثم أطلقته بعد أن اشارت عليه بالرحيل من البلاد حتى ينسى أمره (١٧٢٦) .

وانتسب إلى هذه الطبقة كبار الملتزمين والماليين ورؤساء المصارف والشركات وأرباب التجارة والصناعات (صارت الحركة التجارية أربعة أضعاف ما كانت عليه فى عام ١٧١٥) والمحامون والأطباء ورجال القانون ، حتى أصبحت فى الواقع الطبقة الأولى التى عليها مدار الحياة فى الدولة ، وكان من الطبيعى أن ترفع من مركزها الاجتماعى فى ذيل الطبقات ، وأن تكون على رأس الحركة الثورية العاملة على تقويض نظام الحكم والإدارة والمجتمع .

وهكذا بدأ السخط يعم البلاد خصوصا طبقة الشعب ، وصغار جباتها مؤجرة لرهط من كبار الماليين أو الملتزمين الذين لا يدخرون وسيلة فى ابتزاز المال والحصول على أرباح وفيرة ، وكانت ضريبة الملح أبغض الضرائب الى الفرنسيين ومثل من أمثلة الاستبداد والتحكم ، إذ كان حتما على كل إنسان فى بعض المقاطعات شراء كمية معينة من الملح ، بثمن معين ، ولاستعمال معين (للطبخ مثلا فلا يجوز استعماله فى تمليح الخنزير) وكان عمال الملتزمين يدخلون المنازل

للتفتيش عن الملح المهرب ، ويقبضون على ألفين أو ثلاثة آلاف مهرب فى كل عام يعاقبونهم بالجلد أو بالأشغال الشاقة . كما كانت طبقات الشعب التى تتألف منها أربعة اخماس السكان تدفع ، عدا هذه الضرائب الملكية الفادحة ، الضريبة العشرية للاكليروس (عشر المحصول تقريبا) والحقوق الاقطاعية للنبلاء ، وكانت هذه الحقوق متنوعة ، منها الرسوم التى يتقاضاها النبيل فى مقابل إرغام الفلاحين على استعمال طاحونته ، ومعصرته ، ومنها حق الصيد الذى كان يرغم الفلاحين على ترك الصيد يفتك بمحاصيلهم والصائدين يدهكونها بأقدامهم .

أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كانت الأمة الفرنسية مقسمة الى طبقات ثلاث : الاكليروس والنبلاء والشعب . وكان لطبقة الأكليروس أملاك واسعة (تقدر بربع أو خمس أراضى المملكة) معفاه من كل ضريبة ، وكانت تحصل فوق ذلك الضريبة العشورية من الشعب ، وتفصل محاكمها فى مسائل الزواج ولكن كان الآلاف من صغار الاكليروس يشكون ضنك العيش بسبب استئثار رؤساء الاكليروس بثروة الكنيسة وأموالها . أما النبلاء (كانوا نحو ١٥٠٠٠٠ فى عام ١٧٨٩) فكان لطبقتهم فى البداية ملكية الأراضى كلها تقريبا والسلطة العامة ، فلما قويت الملكية الفرنسية حلت سلطتها محل سلطة النبلاء ، ثم أخذ الفلاحون من ناحية أخرى يتملكون تدريجيا الأراضى التى كانوا يزرعونها (ثلث أراضى المملكة تقريبا) ، ولكنهم ظلوا يؤدون الحقوق الاقطاعية للنبيل الذى ما برح يرمقهم بالضرائب والسخرة . وهم من الاكليروس ونبلاء الأقاليم لا البلاط ، وتأخذ الثورة شكلا محسوسا بفضل الروح الجديدة التى ظهرت فى القرن الثامن عشر وقيام الحركة الفكرية . فلقد ظهر فى فرنسا طائفة من الكتاب الذين قوضوا دعائم النظام القديم Ancien Regime دعائم الحكم المطلق وعدم المساواة فى حياة المجتمع وعدم التسامح فى شئون الدين ونظام الحماية فى عالم الاقتصاد . فأعلن الاقتصاديون ألا سبيل لعلاج الكساد المخيم على التجارة والانتاج إلا باتباع

مبدأ الحرية الاقتصادية Laissez faire ، والقضاء على القيود الصناعية والتجارية . كما ذهب السياسيون إلى أن نظام الامتيازات والحكم المطلق يناقض ضمان مبادىء الإخاء الانسانى ، والقواعد التى قامت عليها الحكومات ، وهى ضمان الحرية والمساواة ، وأنه لا مناص من إعادة تلك الحقوق الطبيعية للأمة ، حتى يقوم نظام الحكم فى البلاد على أساس وطيد . وقد كان أكبر هؤلاء الكتاب وأعظمهم أثرا مونتسكيو وفولتير ، وروسو .

١ ـ مونتسكيو Montesquieu (١٦٧٩ ـ ١٧٥٥) :

كان مونتسكيو من طائفة النبلاء ، وقد اهتم منذ بداية حياته العملية بوضع مجموعة من المؤلفات فى موضوعات شتى . ولكن مؤلفه الذى خلد اسمه هو كتاب روح القوانين (Esprit des Lois / The Spirit of the Laws) ، الذى حلل فيه تحليلا دقيقا أنظمة الحكومات المختلفة والظروف التى نشأت فيها ، واعتبر النظام الانجليزى أوفى الأنظمة وأرقاها لأنه نظام يمنع طغيان الحاكم ، وينقل سلطات الحكم إلى ثلاث هيئات مستقلة الهيئة التشريعية ، والهيئة التنفيذية ، والهيئة القضائية، قصدا الى تدعيم أصول الحكم ، وضمان سلامة المحكوم ، وقد أشار مونتسكيو إلى مسألة فصل السلطات ضمانا للعدالة والحرية المدنية والسياسية ، ولم يكن معنى الأخيرة الا شعور المرء بالاطمئنان الى القدرة على فعل الشىء ، وليس معناها إن يفعل الانسان كل ما تشاء إرادته ، ولصيانة هذه الحرية السياسية من النزوات البشرية رأى وجوب خضوع المرء للقانون وحده. وهذا لا يتحقق الا بفصل السلطات بتوزيعها لا تكتلها فى يد واحدة ، على أن توضح حدودها .

ودرس مونتسكيو ظاهرة المسئولية والجزاء ، وحمل على إسراف القوانين الجنائية فى عصره ، كما درس مسائل سياسية أخرى تتعلق بنشأة الدساتير ومبادئها ، وطريقة صياغتها . ولقد آثرت آراؤه فى سياسة أوروبا سيما نظريته فى

توازن السلطات ، وأثرت آراؤه أيضا فى أمريكا ، واحترمها رجال الثورة ، ولا أدل على ذلك من ذكر اسمه فى المسودات الرسمية التى قام على أساسها الدستور الأمريكى الأول واحترمتها الثورة الفرنسية ، فاستمد أعضاء الجمعية التأسيسية الذين وضعوا الدستور ، الكثير من آرائه لا سيما فيما يتعلق بالتوازن بين السلطات ومدى استقلال كل منها عن الأخرى . وهكذا أخذت فرنسا بنظرية مونتسكيو فى فصل السلطات فى كل الدساتير التى تعاقبت عليها من عهد الثورة إلى عهد الجمهورية الثالثة .

كان مونتسكيو إذن ، من دعاة الثورة الفكرية ، من المهيئين للقضاء على المجتمع القديم ، وانتظام الحضارة على أساس قومى يمكنها من الازدهار بما أذاعه من آراء عن الحريات ، وبما قام به من حملات على الحكم المطلق وغيره، كالنظم السياسية والاجتماعية الفاسدة ، وعن هذا الطريق نفذ بعمق الى قلب المجتمع الفرنسى فظهرت آثار ذلك بين رجال الجمعية التأسيسية الفرنسية ، الذين قاموا غداة الثورة بتنظيم شئون المجتمع عند وضع الدستور عام ١٧٠١ .

٢ ـ ڤولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) :

كان ڤولتير مثلا من الأمثلة الواضحة للبورجوازية ، بل كان من أسرة بورجوازية، وقد أثرى من مشروعاته الكثير من المال ، وكانت ميزته الكبرى هى تفوقه فى فنون النقد . نقد كتاب روح القوانين لمونتسكيو فعاب عليه تعمقه فى الاستقصاء التاريخى عن أصول القوانين ، ثم عدم دقة ووضوح الحدود الفاصلة بين الملكية والاستبدادية عنده ، لأنهما على حد قوله « أخوان يشبه أحدهما الآخر ، لدرجة يعجز المرء عن التفريق بينهما فى أكثر الحالات » . ثم عرض فولتير فى كتابه « آراء جمهورية » الذى نشر عام ١٧٦٥ بعض الأراء الجريئة، فعرف مثلا الحكومة المدنية بأنها « ارادة الكل يقوم بتنفيذها شخص واحد أو جملة أشخاص تبعا لقوانين يدين الجميع بالخضوع لها » .

ولقد سافر فولتير الى انجلترا ، بعد سجنه أيام شبابه مرتين ، ودرس نظـ

الحكم فيها وقواعد الحرية التى أعجب بها إعجاب مونتسكيو بها لاعتقاده أن كل الدول التى تقوم على مبادىء مثل هذه لا تتعرض لحدوث أى ثورة بها . وعرض فولتير بعض الآراء السياسية فى رسالة نشرت له عام ١٧٦٥ ، وشرحت هذه الآراء المذهب الحر والمستنير . وقد لاحظ ان الطبقة الثالثة وهى العامة تمثل الاساس الذى يرتكز عليه تكوين الامة ، وقال عن الحرية : بأن حب الناس لها طبيعى لدرجة أن جميع من ظفروا بها يرضون عن الآراء الجمهورية، وأشاد بفكرة المساواة ومعناها فقال : لا توجد بلدان تستحق السكن بها كالبلدان التى يخضع أهلها للقانون متساوين ، وفى كل الظروف ، وكان رأيه فى الوظيفة أن الحكومة تتفق ومعنى الخدمة العامة ، فالوظيفة هى أن تقوم الحكومة على تنفيذ ما يصدر من رغبات تبديها الإرادة العامة وبشرط أن يكون هذا وفقا للقوانين التى يقرها الجميع أو تصدر بموافقتهم . وفى الواقع حمل فولتير حملة شعواء على مفاسد الحكم المطلق ، ولكنه لم يحاول فى هذا كله أن يضع خطه إنشائية ، وإنما كانت كتاباته تتجه الى الهجوم العنيف ، والنقد المر للأنظمة القائمة سواء فى الناحية السياسية أم الدينية ، حتى أطاح بما كان لتلك الأنظمة والعقائد من هيبة واحترام .

٣ ـ روسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) :

يعتبر چان چاك روسو من ألمع مفكرى العالم الأحرار فى القرن الثامن عشر الذين مهدوا بطريقة إيجابية لقيام ثورتى امريكا وفرنسا وكان لروسو نهج غير نهج مونتسكيو وفولتير اللذين اقتصرا على مهاجمة النظم القائمة ، والمطالبة بتحديد السلطة المطلقة . فاتجه روسو بتأثير الآلام التى مر بها فى حياته الى وضع نظام حديث لمجتمع حديث . وكان روسو فرنسيا من أصل سويسرى من مدينة جنيف، وكان يكره جميع القيود من أى نوع ، ويجد السعادة الكبرى فى الانطلاق الحر لانفعالاته . ومع أن روسو ينتمى الى عصر الاستنارة إلا أنه لم يتردد فى تحدى

إيمان المستنيرين فى الفكر الانسانى باعتباره المرشد والمحرر للبشرية، وبدلا من العقل كان روسو يضع العاطفة فى المحل الأول ، وبهذا أصبح روسو رائد العصر الرومانتيكى الذى تلى عصر الاستنارة . ولا تهمنا الناحية الرومانتكية من آراء روسو وإنما يهمنا روسو كفيلسوف سياسى .

وترك روسو كتبا كثيرة ، كان أهمها العقد الاجتماعى * Social Contract الذى يعتبر أكثرها ذيوعا ، حتى قال عنه مؤرخو الفلسفة : بأنه كان انجيل الثورة الفرنسية ودستورها . ويضع روسو فى « العقد الاجتماعى » تصورات وفروضا تبرزها ، وما استحدث عن الحياة الفطرية من قيود والتزامات قيدت من حرية الانسان الذى ولد حرا فى نظره . وهو يذهب الى أن الانسان نشأ وحيداً منعزلاً ، لا يعرف أهله وذويه ، وكان يحصل بسهولة على حاجياته الضرورية، وكانت هذه الحياة أشد حالة بالنسبة لنظرته الأولى حيث لا قانون ولا سلطة ولا ظلم ولا عدل، وقد اضطر تحت ضغط الظروف المحيطة به الى أن يتعاون مع غيره، ثم حدث أن اكتشف الزراعة ، فتبع ذلك تقسيم الاراضى ، وظهرت الملكية الفردية، التى أدت الى ازدياد أسباب التفاوت بين الأفراد مما أدى الى قيام النزاع بينهم، ومن ثم فسدت أخلاقهم ، وانقلبت سعادتهم الى شقاء ، فأرجع بهذا روسو فساد المجتمع والاخلاق الى ظاهرة الملكية لأنها تتعارض فى رأيه مع النظام الطبيعى ، وقد كانت هذه الصيحة منه نذيرا بيقظة الآراء الاشتراكية بحيث كانت لها أثرها فيما بعد .

وكان روسو يرى أن العمل على إصلاح عيوب المجتمع الانسانى لا يتأتى إلا بالتنظيم السياسى وإقامة الحكم الصالح . وأفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو أن يتعاقد الأفراد بمقتضى ميثاق اجتماعى ، بحيث ينزل كل فرد عن جزء من حقوقه الشخصية للمجموع ، لا لشخص معين ولا لبضعة أشخاص ، ووظيفة هذا

(*) نشر هذا الكتاب عام ١٧٦٢ .

التعاقد هى قيام دولة مزودة بسلطة سياسة غايتها حماية مصالح المتعاقدين بواسطة القوة الجمعية فتتحقق بذلك المساواة بين الجميع ، وتصبح إرادة المجموع نافذة ، وكانت هذه الهيئة العامة التى تتكون باتحاد جميع الافراد تسمى فيما مضى مدينة ، أما اليوم فتسمى دولة ، وأعضاؤها يسمون شعبا ومواطنين متى اشتركوا فى المسائل السياسية ، ورعايا ، متى كانوا خاضعين لقانون واحد . وبهذا فالعقد الاجتماعى هو الذى ينشىء الدولة كما ينشىء حق السيادة ، وتتركز سيادة الدولة فى مجموع أفرادها ، ومتى كانت هذه السيادة هى المعبرة عن ارادة الأمة عامة ، وهذه الإرادة لا يمكن التنازل منها ، فإنه يترتب على ذلك أن حق السيادة من الحقوق التى لا يمكن التنازل عنها أو التصرف فيها ، وبذلك قرر روسو مبدأ دستوريا هاما ، وهو مبدأ عدم التنازل عن السيادة أو التصرف فيها .

ووضح روسو معالم التمثيل النيابى كما رآه ، فقال : أنه لما كانت سيادة الأمة من الحقوق التى لا يمكن التنازل عنها ، فان صاحبها لا يستطيع إذن أن ينيب عنه ممثلين أو نوابا ، لأن هؤلاء قد يعتبرون أنفسهم ممثلين لارادة الأمة ويحلون إرادتهم محل إرادتها ، مما يعتبر تناقضا مع المبدأ الذى سبق تقريره ، لذلك قال : بأن ممثلى الأمة هم مجرد تابعين للشعب أو وسطاء بينه وبين الهيئة العامة التى اصطلحوا على تكوينها بمقتضى الميثاق ، وليس لهم من وظيفة إلا العمل وفق مشيئة الناخبين وتنفيذ رغباتهم ، وليس لهم الحق فى أن يبرموا شيئا بصفة نهائية ، لأن كل قانون لا يصادق عليه الشعب يكون باطلا ، ولا يصح تسميته قانونا وفى هذا الصدد يقول روسو : « قد يظن الشعب الانجليزى أنه حر حقا ، ولكنه فى حقيقة الأمر ليس كذلك فهو لا يكاد يشعر بحريته إلا يوم انتخاب مندوبيه » ، بهذا أيد روسو النظام الديمقراطى المباشر ، وهو النظام الذى كان سائدا فى المجتمعات الديمقراطية القديمة ، وفى سويسرا مسقط رأسه ووطنه الثانى.

ولقد كانت آثار العقد الاجتماعى قوية بين مجتمع يتهيأ فى ذلك الوقت

للثورة ، فقد زاده تهيئا لها حتى اشتعلت نيرانها فيما بعد ، وقد بدأ أثره فى أولى ثمار الثورة الفرنسية عندما أعلنت حقوق الإنسان ، فقد كان يكرر دائما ان هدف الدولة الأساسى هو حماية حقوق الانسان ، لأن من يفرط فى حقوقه فقد فرط فى أهم مقومات شخصية ، وتنازل الانسان عن حريته ينطوى على تنازله عن طبيعته كإنسان ، كما ظهر أثره ايضا فى إلغاء الامتيازات التى استندت عليها الملكية كحق الفتح أو الحق الإلهى المقدس، وتهدم كل أساس تقوم عليه الملكية المطلقة والاستبدادية عموما . ولقد بدأ روسو كتابة العقد الإجتماعى بدعوة الى الثورة فيقول ولد الإنسان حراً لكنه مقيد بالأغلال فى كل مكان ، وتبع ذلك أن كان من الضرورى على الانسان أن يحطم هذه الأغلال حتى يعيش المجتمع حراً.

أن روسو يعرف عادة فى الفكر السياسى بمؤلفه عن العقد الإجتماعى (*) وما اشتمل عليه من نظريات يتخذ منها أهل اليمين وأهل اليسار السند فيما يطالبون به أحيانا من سلطة وأحيانا من حرية ، وما يطالبون به من مساواة وعدم مساواة فى الوقت نفسه . ولكن مقاله عن « منشأ عدم المساواة » يوضح القصد الحقيقى من مساهمته فى النظم السياسية بتأكيد ما أكد فى «العقد الإجتماعى» من أن الخير الأعظم للشعب جميعه والذى ينبغى أن يكون الهدف من كل نظام تشريعى يتلخص فى أمرين رئيسيين وهما الحرية والمساواة ـ فالحرية أمر رئيسى لأن أية تبعية فردية ما هى الا إنتقاص مماثل من قوة الدولة ، والمساواة أمر رئيسى لأن الحرية لا يمكن لها أن تبقى بدونها . وفى الحقيقة كان روسو جديرا باللقب الذى أضفاه عليه فلاسفة الفكر السياسى وهو أنه أبو الثورة الفرنسية .

واذا كان مونتسكيو وفولتير وروسو قد حظوا باهتمام بالغ من الأجيال التالية ، فهناك أيضا جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها ، وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة ، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين أو الطبيعيين Physiocrats ، وقد تأثر هؤلاء الى حد كبير بكتابات الإقتصادى

(*) كان يعرف بإسم انجيل الثورة .

الإنجليزى آدم سميث Adam Smith [١] ، وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون فى فرنسا هم ميرابو أبو السياسة الذى ذاع صيته فى الثورة ، وساى ، وقبل هؤلاء جميعا كيسناى Quesnay المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد « الجدول الاقتصادى » Tableau Ecoono-mique بأنه الدواء الناجح لمتاعب فرنسا . ويمكننا أن نستخلص من الكتابات الضخمة لهذه الجماعة المبادىء التالية باعتبارها تعاليم أساسية. استخدام العُمال فى الأرض هو مصدر كل ثروة ، العمال هم فى الحقيقة أكثر الطبقات إنتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة ، تدخل الحكومة يجب أن يقلل الى أدنى حد . أما الإصلاحان الأساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فوراً فهما : إطلاق الحرية الكاملة للتجارة وإنشاء نظام عام للتعليم ، جميع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الأرض . وقد بذل تيرجو الذى كان تلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا ضخمة لتطبيق تعاليم كيسناى . وقد كان لهؤلاء الإقتصاديين أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ، ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقا من أهمية اتباع روسو وفولتير .

وعلى أية حال ، كان اعتلاء لويس السادس عشر العرش فى عام ١٧٧٤ يبدو بشيراً بعهد أفضل ؛ فجميع طبقات الشعب الفرنسى تنفست الصعداء لانتهاء حكم لويس الخامس عشر، الذى لم يكفّر عن خلاعة بلاطه بتحقيق أى انتصارات خارجية ـ ورغم أنه كانت لفرنسا فى الخارج مكانة هائلة بفضل كُتّابها ، الا أن البلاط والحكومة لم يستفيدا من تلك المكانة ، لأن الفكر الفرنسى كان مناوئا لنظام لويس الخامس عشر . وعلى هذا قوبل مجىء الملك الجديد بالترحيب لأنه كان يمثل تغيرا على أية حال ، ولقد بدأت فعلا فى فرنسا باعتلاء لويس السادس عشر للعرش جهود متصلة صادقة بزعامة الملكية لتعديل

---

(١) مفكر اسكتلندى توفى فى عام ١٧٩٠ ، ونادى فى كتابه ثروة الأمم Wealth of Nations الذى نشره فى عام ١٧٧٦ بإزالة كل الحواجز التى تضعها الحكومة على التجار Laissez - Passer

طبيعة الحكومة وهدفها . وقد صادفت تلك الجهود بادىء الأمر تأييداً حماسيا من الطبقات الحاكمة والمثقفة ، ولكن عجز الدولة الحالى كان هو الباب الذى دخلت منه الثورة فعلا . ذلك أن الاجراءات التى اتخذت لمواجهة تكاليف حروب القرن الثامن عشر الكبرى كانت قد ألقت بالنظام المالى لفرنسا فى حالة من الفوضى ميئوس منها . وكانت الحاجة الرئيسية هى موازنة الدخل والمصروفات. ولسوف يتبين أن ذلك أمر صعب المنال مالم تتغير نظم الحكم الفرنسية تغييرا كاملا .

ولقد عهد الملك إلى تيرجو (١٧٧٤ ـ ١٧٧٦) بشئون فرنسا المالية ، وكان تيرجو راغبا فى ادخال الأمانة والكفاية الى دوائر الخدمة العامة ـ وتلك ثورة بحق ـ وعازما على الحد من سلطة الكنيسة الضخمة الى درجة خطيرة وعلى إيجاد نظام عادل للضرائب ، وتوفير حرية التجارة داخل وخارج حدود المملكة . وقد انكب تيرجو على إعداد مشروعاته ، بغيرة وحماسة لأفكار العدالة والإنسانية، ولكن مقترحاته أثارت انزعاج الطبقات التى اشتمت فيها تهديدا لمصالحها فتآمرت عليه عصبة من افراد البلاط ساهمت فيها مارى أنطوانيت زوجة الملك النمساوية بدور . ولم يكن للويس من قوة الشخصية ما يسمح له بمساندة وزيره بعد أن فقد محبة البلاد، فأعفاه من منصبه ، وعين نيكر مراقبا للمالية بدلا منه .

وكان نيكر Necker (١٧٧٦ ـ ١٧٨١) مصرفيا بروتستانتيا ، فأثار تعيينه مراقبا للمالية بعض الصعوبات التى تم التغلب عليها بالرجوع إلى حق الملك فى ممارسة اختصاصاته ، وقد سهل هو بدوره الأمر على الملك بتنازله عن المرتب المخصص للوظيفة . وقبل نيكر النظام الحالى والإدارى فى فرنسا على علاته آملا فى أن تسير شئون الحكم دون احداث تعديل جوهرى ، وذلك بالتوفير ، وعقد القروض التى يسرت له خبرته وسمعته المالية الحصول عليها بفائدة أقل من ذى قبل . ولكن دخول فرنسا حرب الاستقلال الامريكية (١٧٧٨ ـ ١٧٨٣)،

أفسدت عليه خطته فعمد إلى الاستدانة ، وحاول أن يكسب ثقة البلاد فنشر حسابات الميزانية التى كشفت الستار عما تغص به من المنح والعطايا للخدم والحاشية فلقى ما لقيه تيرجو من المقاومة ، واضطر الى التخلى عن مركزه لآخرين ترضى عنهم الحاشية مثل كالون .

ركب كالون Calonne (١٧٨٣ ـ ١٧٨٧) متن الشطط والإسراف حتى بلغ ما اقترضه فى ثلاث سنوات ٤٨٧ مليونا . ثم رأى نفسه تحت دين صارخ يزيد على المائه مليون وكان البرلمان يعارض فى عمل سلفة جديدة فلم يبق الإ فرض ضريبة على جميع الأملاك بلا استثناء ، وفكر فى الوقت نفسه فى الاقتداء بسلفه نيكر وإنشاء مجالس المديريات وإلغاء السخرة ، وإحداث إصلاحات متنوعة . واجتمع « مجلس الأعيان » فى أوائل عام ١٧٨٧ وكان مؤلفا من كبار رجال الدولة فعارض فى مشاريع كالون بحجة الرغبة فى الوقوف على سبب العجز الحقيقى . وكان فى الواقع يميل الى رفض أى مشروع يمس الامتيازات ، فلم يكن من كالون الا أن نشر مذكراته الإصلاحية على الجمهور ، وألح فى وجوب مساواة الجميع فى الضرائب .

وقد عزل كالون بناء على أمر الملكة فى عام ١٧٨٧ ، وخلفه الكاردينال دى بريين ، واقترح دى بريين اللجوء الى السلطة الملكية لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الامتيازات ، وعارض البرلمان فى الموافقة على أية ضريبة جديدة ، وقال أن هذا من اختصاص « مجلس الأمة » الذى لم يجتمع منذ عام ١٦١٤ . ولما اشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس أعلن الملك فى أغسطس عام ١٧٨٨ عزمه على عقد مجلس طبقات الأمة ليكون عونا له على معالجة الأزمة . استقال دى بريين واستدعى الملك نيكر ارضاءاً للرأى العام وتهدئة للخواطر ، وكلفة الملك بوضع نظام الانتخابات القادمة. وفى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٨٨ وافق مجلس الملك على التقرير المقدم من نيكر فى نفس اليوم

وخصوصا دعوة مجلس الامة الى الاجتماع فى ٥ مايو عام ١٧٨٩ وقد اشتمل التقرير على ما يلى :

١ ـ رد حق الموافقة على الضرائب الى الأمة .

٢ ـ اجتماع مجلس الأمة بطريقة نظامية يحددها المجلس نفسه .

٣ ـ تحديد النفقات ومرتب جلالة الملك .

٤ ـ عرض مسألة الارادات الملكية وحرية الصحافة على مجلس الأمة .

٥ ـ إنشاء مجالس مديريات فى جميع أنحاء المملكة .

٦ ـ مساواة الجميع فى الضرائب .

٧ ـ مضاعفة عدد نواب الشعب فى مجلس الأمة .

وفى ٥ مايو عام ١٧٨٩ افتتح الملك لويس السادس عشر المجلس فى قصر فرساى بحضو مندوبى النبلاء والكنيسة والعامة . وتعتبر هذه السنة بداية الثورة الفرنسية . وعقد المجلس فى حد ذاته ليس ثورة ، ولكن يمكننا أن نعتبره ثورة لأن الملك أرغم على عقد المجلس من قبل الشعب ، وألقى الملك فى المجلس خطبة مبهمة ليس فيها إشارة ما إلى الإصلاحات الموعودة مما أثار الشكوك فى خطته . ثم حدث نزاع بين الطبقة الثالثة وطبقة النبلاء وطبقة الاكليروس اللتين تمثلان أصحاب الامتيازات على طريقة التصويت بالرأس أو بالطبقة ، وكان ممثلو الشعب يريدون أن يكون التصويت بالرأس، وممثلو النبلاء والاكليروس بالطبقة جريا على التقاليد القديمة حتى تكون لهم الأغلبية بالمجلس . ولما رأى نواب الشعب أن لا سبيل الى الاتفاق أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية فى ١٧ يونيو ، وشرعوا فى تنظيم سلطاتها ، وكان ذلك فاتحة القرارات الثورية فعول الملك على عرقلة هذه الحركة وأرسل فى ٢٠ يونيو الجند لإغلاق أبواب غرفة الاجتماع ، فذهب الأعضاء واجتمعوا فى « ملعب التنس » ، حيث أقسموا أنهم لن ينفضوا أن

يجتمعوا فى أى مكان تدعو اليه الظروف ، حتى يضعوا الدستور ويوطدوه .

وفى ٢٣ يونيو دعيت الطبقات الثلاث الى القاعة العامة، وألقى الملك خطابا جاء فيه إلغاء القرار الذى اتخذه نواب العامة ، وذكر الإصلاحات التى رأى وجوب بحثها لإدخالها على نظم الحكومة ، وأعلن قراره بوجوب إنفصال طبقات المجلس الثلاث عند المناقشة ، وأخذ الأصوات وأمر الأعضاء بالانفضاض وغادر القاعة ، ولكن بقى نواب الشعب مكانهم ، حتى جاء رئيس التشريفات ليفضهم فقاوموه ، وقال ميرابو كلمته المأثورة « أننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الرماح » وفى اليوم التالى انضمت أغلبية القساوسة وأقلية من النبلاء إلى نواب الشعب فأصدر الملك الأمر فى ١٧ يونيو باجتماع الطبقات معا والتصويت بالرأس ، فصارت الجمعية الوطنية منذ ذلك الوقت تمثل الأمة تمثيلا قانونيا صحيحا .

وفى ٩ يوليو أعلنت الجمعية نفسها جمعية دستورية ، وتفرغت لإعداد الدستور بينما كان الباريسيون فى اضطراب ومظاهرات مستمرة ، ولكن الحزب الرجعى ـ وعلى رأسه الملكة وإخوة الملك عول على القضاء على هذه الحركة الدستورية بالقوة ، وأخذ يحشد الجند والعسكر الألمانى والسويسرى فى باريس وفرساى فتوجس الوطنيون خيفة ، وقلقوا على مصير الجمعية والدستور ، ثم مالبثوا أن فوجئوا بعزل نيكر نصير الاصلاح ونفيه فى ١١ يوليو عام ١٧٨٩ ، وما كاد الشعب فى باريس يعرف بنفى نيكر حتى تحرك للثورة ، وهجمت الجماهير المسلحة على الباستيل فى ١٤ يوليو واستولت عليه . فكان هذا اليوم فاتحة الثورة، وأخذ الشعب يعتد بقوته لأن الباستيل كان حصنا يهيمن على أهم الاحياء الشعبية فى باريس ، وكان سجنا اكتسب شهرة عالمية بضحايا الظلم والاستبداد فكان أخذه انتصارا للثورة السياسية والحرية ، ولكن من جهة اخرى كان حدا للثورة السلمية التى ابتدأت فى ٥ مايو عام ١٧٨٩ ، وانقلب مجلس الأمة فى

أثنائها الى جمعية وطنية (١٧ يونيو)، ثم الى جمعية وطنية دستورية (٩ يوليو).

ولا شك أن انتصار الشعب جعل القوة المادية في جانب الجمعية. ومنذ ذلك الوقت أخذ النظام القديم الذى كانت قواعده الحكم المطلق والامتيازات يتداعى، ويحل محله نظام جديد قائم على العدل والحرية والمساواة . فاعترف الملك بخذلانه وأعاد نيكر ثانية ، وتألف فى باريس فى أثناء ثورة الشعب بلدية جديدة وحرس أهلى عهد برياسته الى القائد لافاييت . ثم ما لبثت جميع مدن فرنسا أن اقتدت بباريس فى إنشاء بلدية وحرس أهلى وتألفت فى العاصمة والمدن مجالس «كومون»، وهى جمعيات ثورية قامت الى جانب البلديات فى دارها ولعبت دورا كبيراً فى الثورة . وفى ليلة ٤ أغسطس قرر بعض النواب النبلاء والقساوسة التنازل عن الإمتيازات والحقوق الاقطاعية ، فوافقت الجمعية بحماسة لا توصف، وقام فى تلك الليلة مبدأ المساواة ، وانتصرت الثورة الاجتماعية. وفى ٥ أكتوبر هاجمت جمهرة من الفرنسيين المطالبين بالخبز قصر الملك فى فرساى وطالبوه بالحضور للإقامة فى باريس واستسلم الملك. وفى اليوم التالى غادر لويس السادس عشر فرساى التى اقترن اسمها اقترانا وثيقا بأمجاد الملكية الفرنسية ، قاصدا «التويلرى» الذى كان فيما مضى قصرا لملوك فرنسا فى العصور الوسطى ولكنه لم يعد الآن بالمكان المهيأ لاقامته. وقد كان دخول لويس قصر التويلرى فى باريس أول خطوة فى طريق دخوله السجن فيما بعد، ومن السجن إلى المقصلة .

وتبعت الجمعية الملك الى باريس ، واستمرت عملية وضع الدستور دون توقف . واستقر الرأى أولا على وضع إعلان لحقوق الإنسان يكون أساسا للدستور كله ، وقد تمت الموافقة على هذا الإعلان فى أول أغسطس عام ١٧٨٩ وقد وضعت مبادىء حقوق الانسان على أساس تعاليم روسو ، وجاء فى هذا الإعلان ما يلى :

« إن ممثلى الشعب الفرنسى المجتمعين فى شكل جمعية وطنية إذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الإنسان وإغفالها وازدراءها إنما هى الأسباب الوحيدة للنكبات العامة وفساد الحكومات ، قد عقدوا العزم على أن يسجلوا فى إعلان جليل حقوق الإنسان الطبيعية المقدسة التى لا يمكن التنازل عنها ، حتى يكون فى هذا الإعلان الماثل على الدوام أمام جميع أعضاء الهيئة الإجتماعية تذكرة مستمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم ، وحتى تكتسب تصرفات السلطتين التشريعية والتنفيذية التى تمكن على الدوام من الإحترام لهذا السبب ، وحتى تتجه دائماً مطالب المواطنين القائمة من الآن فصاعداً على مبادىء بسيطة لا خلاف عليها، إلى صيانة الدستور وإسعاد الجميع » .

ومن ثم فإن الجمعية الوطنية تعترف ، وتعلن فى حضرة الكاهن الأعلى وبرعايته الحقوق التالية للإنسان والمواطن :

١ ـ يولد الناس أحراراً ، ومتساوين فى الحقوق ويظلون كذلك . والإمتيازات الاجتماعية لا تقوم إلا لمنفعة عامة .

٢ ـ هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية غير القابلة للبطلان وهذه الحقوق هى حق الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم.

٣ ـ الأمة مصدر السلطة الكاملة ، ولا يجوز لأية جماعة أو فرد ممارسة السلطة ما

لم تكن مستمدة من الأمة .

٤ ـ الحرية تتمثل فى السماح للفرد بأن يفعل كل ما لا يضر الآخرين .

٥ ـ القانون هو تعبير عن الإرادة العامة ، ولجميع المواطنين حق الإشتراك فى وضعه بأشخاصهم ، أو عن طريق ممثليهم .

٦ ـ لا يجوز أن يضار أى شخص بسبب آرائه ولو كانت آراء دينية ، شريطة ألا ينطوى الإعراب عنها على الإخلال بالنظام العام الذى يقيمه القانون .

٧ ـ حرية تبادل الأفكار والآراء هى من أغلى حقوق الإنسان .

٨ ـ لا يجوز حرمان أى فرد من الملكية التى هى أمر مقدس لا يمس إلا إذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة نص عليها القانون .

ولقد ظل إعلان حقوق الإنسان Declaration of the Rights of Man طوال ربع قرن شعاراً وميثاقاً لجميع الثوريين ودعاة الإصلاح فى أوروبا . وكانت هذه المبادىء الأساسية التى بنى عليها الدستور هى خلاصة فلسفة القرن الثامن عشر وقاعدة الدساتير الحديثة .

وكانت مهمة الجمعية بعد إعلان الحقوق الإشتغال بإعداد الدستور ، وبناء النظام الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وقد قضى الدستور الفرنسى الجديد عام (١٧٩١) على النظم القديمة التى كانت سائدة فى فرنسا مثل نظام الإقطاع والإعفاء من دفع الضرائب ، وأعاد تقسيم فرنسا إدارياً ودينياً . وهذه الناحية الأخيرة تأثرت بآراء المفكرين أمثال مونتسكيو وروسو اللذين لم يكونا يعتقدان فى الديانة المسيحية إعتقاداً تاماً . ونص الدستور على أن تكون السلطة التشريعية فى يد مجلس نيابى واحد ، ينتخب لمدة سنتين بحيث لا يتجدد إنتخاب أحد الأعضاء مرتين متواليتين ، وجعل الإنتخاب على درجتين ، كما جعل حقه مقصوراً على من يدفعون قدراً معيناً من الضرائب ، وبشرط ألا يقل سن الناخب

عن خمسة وعشرين عاماً . وخول الملك سلطة الاعتراض Veto أى حق عدم التصديق على قرارات المجلس ، إلا إذا أجازت تلك القرارات ثلاثة مجالس متتالية، ووضع شرط حرم به على أعضاء المجلس النيابى دخول الوزارة . كما خول الدستور الملك حق تعيين الوزارة ، ورياسة الجيش ، وإعلان الحرب ، وعقد معاهدات الصلح ـ بشرط موافقة المجلس ـ والإشراف على القضاء والإدارة . على أن هذا الإشراف كان عديم القيمة إذ جعلت تلك الوظائف قائمة على أساس الإنتخاب ، فأصبحت سلطتها مستمدة من الشعب لا من الملك . وهكذا جرد الملك من كل سلطة حقيقية وأبقى له ظلها ، وبعد أن كان سيد البلاد أصبح خادمها الأول ، ومع هذا فلم يعطه فرصة ليكون خادماً نافعاً . ووقع الملك الدستور ، وأقسم يمين الولاء له وللوطن . وبذلك ظن العالم أن زمن الثورة والاضطراب فى فرنسا قد انقضى ، وأن البلاد توشك أن يطلع عليها فجر جديد .

حلت الجمعية الوطنية نفسها بعد أن وضعت الدستور . وتطبيقاً لنصوص الدستور اجتمعت الجمعية التشريعية L'Assemblée Législative فى أول أكتوبر عام ١٧٩١ ، وانقسمت الجمعية منذ البداية إلى ثلاثة أحزاب وهى : حزب اليسار الذى كان يجمع أنصار اليعاقبة Jacobins المتطرفين ، وجماعة الجيروند Girondins وكانوا من الجمهوريين المعتدلين ، وحزب اليمين الذى كان يتألف من الملكيين المعتدلين . وكان أول ما اتجهت إليه أنظار الجمعية التشريعية هو خطر الحرب التى هددت فرنسا. فقد أجمعت دول أوروبا على الدفاع عن حق الملوك الإلهى وحق الأسرات إذ خشيت تلك الدول إنتشار مبادىء الثورة فى بلادها . وتضافرت عدة عوامل جعلت الجمعية التشريعية تعلن الحرب فى ٢٠ أبريل عام ١٧٩٢ على إمبراطور النمسا ، شقيق الملكة مارى أنطوانيت ، وانضمت بروسيا إلى النمسا . وكان طبيعياً أن تنهزم فرنسا فى أول الأمر . ولا ريب أن الحرب أصبحت العامل الأساسى فى الثورة منذ تلك اللحظة فصارت

السياسة الداخلية خاضعة لها ، والحرب هي التي أخرجت الثورة من حدودها الطبيعية ووطدت أكتاف الإرهاب والدكتاتورية . وفي ١١ يوليو عام ١٧٩٢ أعلنت الجمعية أن الوطن في خطر . وكتب هذا الإعلان على رايات يحملها فرسان الحرس الأهلي في الطرق ، ودقت الطبول فتوافد المتطوعون من كل حدب . وكان الشعب يزداد حنقاً على الخونة وأعداء الوطن ويطالب بخلع الملك خصوصا عندما أصدر برنسويك قائد جيش الحلفاء في ٢٥ أغسطس بيانه الذى هدد فيه باريس بسحقها كلها إذا أقتحم قصر التويلرى وأهين الملك وأسرته .

وفي ٣٠ يوليو وصل باريس خمسمائة من الحرس من مرسيليا من خيرة الجمهوريين ، وكانوا يهتفون بالنشيد الذى وضعه الضابط روجيه دى ليل وهو المرسيلييز الذى صار منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا الوطني . وقد أكرم الباريسيون وفادتهم ، وأخذ بعض زعماء الشعب يستندون إلى هذه القوة ، ويطالبون الجمعية بخلع لويس السادس عشر . ولكن الجمعية وقفت حائرة بين الملك وقوى الثورة المنظمة . ولكن في صبيحة ١٠ أغسطس هجم الثوار والحرس على قصر التويلرى، واقتحموه ، ومنه ذهبوا إلى الجمعية . وكان الملك قد لجأ إليها فأعلنت وقف الملك في الحال، وإنتخاب مؤتمر وطني La Gonvention Nationale لوضع دستور جديد .

وانتخب المؤتمر بمقتضى قواعد جديدة وضعتها الجمعية التشريعية ، وعقد أولى جلساته في ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢ ، فجلس الجيروند على اليمين ولم يكونوا أقل رغبة في الجمهورية من اليعاقبة ، وإنما جعلوا برنامجهم مكافحة لمطامع ذلك الفريق ؛ ونزعته إلى السيطرة على البلاد . أما اليعاقبة المتطرفون (*) فقد جلسوا إلى اليسار ، وكانوا أقل عدداً ، ولكنهم أكثر كفاية وأكبر جرأة .

(*) كان أشهر زعماؤهم دانتون وروبسبير ومارا وديمولان .

وجلس بين الفريقين جماعة عرفوا باسم السهل La Plaine ، وكانوا يتبعون رأى الفريق الذى ترجح كفته . وكانت فاتحة أعمال المؤتمر إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٢ وإعلان الجمهورية . وقرر المؤتمر تقديم الملك للمحاكمة ، وصدر قرار الإدعاء فى ١١ ديسمبر متضمناً إتهام الملك بالتآمر ضد الأمة ، وبإمداد القوات التى أعدها المهاجرون فى الخارج بالمال ، وبمحاولة قلب الدستور. وقد سمح له بممارسة حق الدفاع . ودافع عنه محاميوه دفاعاً بليغاً جسوراً . ثم أدلى أعضاء الجمعية بأصواتهم جهراً الواحد تلو الآخر ، فأدين المتهم بالإجماع. وتقرر تطبيق عقوبة الإعدام بأغلبية صوت واحد لا أكثر . وفى ٢١ يناير عام ١٧٩٣ سيق لويس السادس عشر من السجن إلى ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد)، حيث نصبت المقصلة فصعد إليها بكل شجاعة وأعلن على رؤوس الملأ « أنه برىء ، وأنه يعفو عن أعدائه ، ويرجو أن ينفع دمه الفرنسيين ..... » ولكن رئيس الحزب الأهلى قاطعه بدوى الطبل قبل أن يتم كلامه .

وأصبح مصير الجمهورية كله متوقفاً على نتيجة الحرب . فبعد إعدام الملك دخلت انجلترا الحرب ، وانضمت فى التحالف الدولى الأول ضد فرنسا ، ويعتبر هذا أخطر ضربة تلقتها فرنسا فى ذلك الوقت . وقد دفع انجلترا إلى إتخاذ هذا الموقف العوامل التالية :

أولاً : لم يقابل الانجليز بعين الإرتياح الهجوم على الملكية الفرنسية وإعدام الملك، ووجدوا فى ذلك مناقضة لمبادىء الثورة . واستجاب الكثيرون من الشعب الإنجليزى لأراء بيرك Burke الذى ندد فى فصاحة رائعة بطبيعة الثورة وأهدافها.

ثانياً : لم تعد الثورة الفرنسية مسألة داخلية صرفة تهم فرنسا وحدها ، فالثورة قد خرجت من حدود فرنسا إلى بلجيكا ، واستولى الجيش الفرنسى عليها، وأعلن حرية الملاحة فى مصب نهر شلت Scheldt ، وكانت انجلترا

حريصة على إغلاق مصب ذلك النهر ، حتى لا تنافس تجارته تجارة نهر التيمز ، ولذلك وجدت إنجلترا ضرورة للتدخل فى الحرب .

ثالثاً : لم تعد الثورة الفرنسية محلية صرفة ، فعندما أحرز رجال الثورة بعض النجاح فى صدهم لقوات الأعداء عند فالمى ، أعلنوا فى ١٩ نوفمبر عام ١٧٩٢ قراراً بتأييد فرنسا لكل أمة تطالب بحريتها ، أى أن فرنسا مستعدة للتدخل فى شئون الدول الأخرى وهذا ما لا تقره الدول الأوروبية .

وهكذا أصبحت فرنسا فى حالة حرب ضد تحالف أوروبى يضم الدول الأوروبية العظمى (بروسيا والنمسا وانجلترا وبولندا وسردينيا وأسبانيا) . وهزمت فرنسا أمام قوات هذا التحالف فى موقعة نيرفندن Neerwinden فى مارس عام ١٧٩٣ . وكانت هزيمة الفرنسيين حيث اعتادوا النصر شيئاً سيئاً فى حد ذاته ولكن الذى زاد الطين بلة أن قائدهم بدأ فى التخابر مع العدو على الفور . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً سيصبح الخوف من خيانة الضباط من بواعث القلق الأولى عند الثوريين .

وبجانب هذا الخطر الخارجى ، تعرضت فرنسا لنشوب قلاقل كبيرة فى الداخل ، إذ قامت ثورة فى إقليم لافنديه Le Vendée فى الولايات الجنوبية لفرنسا، قام بها الأشراف ورجال الدين . وكان على رجال المؤتمر أن يفوضوا السلطة للجنة من العناصر المتطرفة فى فرنسا تسمى لجنة الأمن العام Commit-tee of Public Safety، وقامت إلى جانبها محكمة تسمى محكمة الثورة ، وبفضل هاتين الهيئتين قمعت الثورة بمنتهى الشدة والعنف أعذاءها، وتمكن اليعاقبة وهم المسيطرون على الهيئتين السالفتين من التنكيل بزعماء حزب الجيروند ، فقضوا عليه قضاء يكاد يكون تاماً كحزب سياسى . واستعان اليعاقبة على ذلك بتعضيد سكان باريس ، لأن الجيروند كانوا يريدون وضع نظام للحكم

لا تكون فيه باريس المسيطرة على الأقاليم الفرنسية أى إيجاد حكم لا مركزى ، بعكس اليعاقبة الذين كانوا يعتمدون فى قوتهم على غوغاء باريس ووصل عهد الإرهاب Reign of Terror إلى غايته فى فرنسا وتضاءل نفوذ المؤتمر ، وقل عدد أعضائه ، وأصبحوا يخشون تهديد باريس واللجان التى كان فى يدها الحكم .

ويرجع إلى دانتون الفضل فى إنقاذ فرنسا مرة أخرى من الخطر الداخلى والخارجى ، وسيخلفه فى لجنة الأمن العام روبسبيير ، وهو أحد أتباع روسو ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد قام بدور مهم فى الثورة ، وكان رجلاً مثالياً يريد إنشاء دولة أساسها الفضيلة والسلام . ومن الرجال الذين كان لهم فضل كبير فى إنقاذ فرنسا كارنو Carnot الضابط الفرنسى الكبير الذى يكاد التاريخ لا يعرف له مثيلاً فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش ، وتجهيزها بكل معدات القتال ، فلم يحل الحول حتى تحولت هزائم فرنسا إلى انتصارات . فقد أوقف زحف الحلفاء على فرنسا ، ثم اتخذ الجيش الفرنسى خطة الهجوم فاكتسح الأراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) مرة ثانية ، واحتل ضفة الراين اليسرى ، وأجبر الأسبان على التراجع إلى ما وراء جبال البرانس ، وبذلك تحقق ما كانت تحلم به فرنسا من قديم وهو الوصول إلى حدودها الطبيعية . وهكذا فإن سياسة فرنسا منذ ذلك الوقت حتى نهاية عصر نابليون ستقوم على الفتح والتوسع على حساب الغير دون أى إعتبار إلى ما جاءت به الثورة من مبادىء إنسانية رفيعة .

وبعد أن فرغ اليعاقبة من إنتصارهم على العدو الخارجى بدأوا ينقسمون على أنفسهم ، فريق دانتون وكان يرى الرجوع بفرنسا إلى حالتها الطبيعية ، ونبذ سياسة الإرهاب وسفك الدماء خصوصاً بعد أن تخلصت فرنسا من الخطر الخارجى . وفريق هيبير Hébert وشوميت Chaumette ، وكان يرى الإستمرار

فى سياسة التطرف وسفك الدماء وفريق روبسبيير الذى كان لا يتفق مع آراء كلا الفريقين . وقد أخذ شوميت على عاتقه القيام بإصلاحات داخلية هامة فى فرنسا ، وهذه الإصلاحات لم تفد فرنسا وحدها ، بل أفادت العالم أجمع ، كإدخال النظام العشرى فى المقاييس والموازن وتسمية الشهور والأيام بأسماء جديدة ، وإحلال عبادة « العدل والحق » محل الدين الكاثوليكى الذى لم تستطع الثورة القضاء عليه ، ثم عدل هذا الدين الجديد إلى دين الكائن الأعظم Etre Supréme . ولقد استطاع روبسبيير أن ينفرد بالحكم بعد أن قضى على حزب شوميت بمساعدة دانتون ، ثم انقلب بعد ذلك على دانتون . ولقد أرسل اليعاقبة بعضهم البعض إلى المقصلة ، واعتمدوا فى ذلك على غوغاء باريس ، ولكن باريس سئمت الإرهاب ، وكذلك أعضاء المؤتمر الوطنى .

وقام رجال المؤتمر بوضع دستور جديد لفرنسا سمى بدستور ١٧٩٥ يضمن لفرنسا الإستقرار الذى لم يتحقق لها فى ظل دستور عام ١٧٩١ . ولكن اليعاقبة والملكيين قاموا بثورة ضده عرفت باسم ثورة فاندمبير Vendemiaire (أكتوبر ١٧٩٥) فقضى عليها نابليون . ووضع هذا الدستور السلطة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس الشيوخ وهو مجلس منتخب ، ويتكون من ٢٥٠ عضواً ولا يقل سن العضو فيه عن الأربعين . وكانت وظيفة هذا المجلس مراجعة قرارات المجلس الأدنى ، ووقف ما لا يتفق منها مع المصلحة العامة ومجلس الخمسمائة، ويتكون من خمسمائة عضو تزيد سنهم عن الثلاثين ويسقط ثلث عددهم فى كل عام ، ووظيفته سن القوانين فحسب . وآلت السلطة التنفيذية طبقاً للدستور إلى مجلس إدارى يسمى باسم « حكومة الإدارة » The Directory وتؤلف من خمسة أعضاء ينتخبهم الشيوخ من عشرة يقترحهم مجلس الخمسمائة ، وكان يتعين سقوط عضو بالإقتراع وإنتخاب آخر مكانه فى كل عام ، وكان أعضاء

حكومة الإدارة يعينون الوزراء ، الذين كانوا فى الواقع وزراء إداريين خاضعين لهم، والقواد والسفراء ، كما أعلن الدستور الجديد حقوق المواطنين فى الحرية والإخاء والمساواة ، ولو أنه حدد نصاباً معيناً للإنتخاب (*) .

وسيساعد هذا الدستور بطبيعته على الحكم الاستبدادى الذى سيظهر فيما بعد وهو حكم نابليون ، وسيكون تاريخ فرنسا من عام ١٧٩٥ إلى عام ١٨١٥ هو تاريخ نابليون ، بل إن تاريخ أوروبا من الناحية الخارجية طوال هذه المدة سيكون تاريخاً نابوليونيا أيضاً . فنابليون كان أبرز شخصية فى ذلك الوقت ، وكان لظروف فرنسا الفضل فى ظهور هذه الشخصية ، فأوقات الفوضى فى التاريخ كانت دائماً تظهر الشخصيات القوية التى تستأثر بالسلطة . فالفوضى من جراء الإرهاب وتدهور الصناعة والتجارة ، كل هذه كانت من العوامل التى جعلت الشعب الفرنسى يتوق إلى حكم رجل واحد يستطيع أن يمنح فرنسا ما فقدته من نظام وأمن . وكذلك من الناحية الخارجية فكانت الظروف غير مواتية لفرنسا . حقيقة أن لجنة الأمن العام قد نظمت فرنسا داخليا ، وضمنت لفرنسا النصر على التحالف الدولى الأول . لكن وجود النمسا وانجلترا لا يزال مهدداً لفرنسا ، وقد استمرت الحرب بينهما مدة طويلة ، ولم تتمكن فرنسا من قهر عدوتيها القديمتين .

ومن ناحية أخرى لم تكن أحوال فرنسا الداخلية مستقرة ، فدستور ١٧٩٥ لم يكن عاملاً على إقرار النظام فى فرنسا ، والقضاء على أعدائها فى الخارج . فالخلاف بين السلطتين التنفيذية والتشريعية كان كبيراً . ولم تساعد كل هذه الظروف على استقرار الأحوال فى فرنسا . وبدأ الشعب الفرنسى يتطلع إلى حكومة نشيطة قوية . وهكذا ساعدت هذه الظروف على تعلق الفرنسيين بنابليون.

(*) اشترط ألا تقل سن الناخب عن ٢١ سنة ، وأن يكون ممن يدفعون قدراً معيناً من الضرائب وأن يعرف القراءة والكتابة .

فبهرتهم إنتصاراته الحربية فى إيطاليا ومصر . وكان نابليون بلا ريب رجلاً خارقاً فى حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله أن يشق طريقه إلى أسمى المناصب تحت أى ظروف وفى أى بلد . وكان نابليون يملك بالإضافة إلى ذلك موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل . وصعود نابليون إلى مركز السلطة فى فرنسا أكثر بكثير من مجرد قصة رجل قدير يفوز لنفسه بمكانة سامية فى العالم . ويعكس هذا الحادث كذلك أحد القوانين العامة التى نستطيع أن نقتفى آثارها على سطح التاريخ . وبإمكاننا أن نشاهد دائماً فى التاريخ كيف تنتهى حقب الاضطراب والثورة بإقامة حكم قوى غالباً ما يكون حكماً فردياً . ومنذ عام ١٧٩٣ لم يكن لإرادة الشعب وأصوات المواطنين فى فرنسا القرار النهائى فى أية مسألة هامة تقريباً . فقد سقطت الملكية بالعنف ، وبالعنف قامت الجمهورية ، وبالعنف أنقذت ، وبالعنف صعد روبسبيير وبه سقط . لذلك أصبح من الطبيعى أن تحكم فرنسا آخر الأمر بواسطة العنف فى أرقى صوره : لا بوساطة غوغاء باريس الصاخبة ، وإنما بوسائط كتائب فرنسا المدربة الظافرة . وهكذا فإن ما أوصى به روسو فى « العقد الاجتماعى » عندما قال « قلبى يحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة (كورسيكا) ستذهل أوروبا فى يوم من الأيام يكاد يتحقق الآن. إذ سينتهى المطاف بتلك الحركة التى بدأت بالرغبة المتوقدة بل الرغبة المغالية فى نيل الحرية إلى قيام حكم دكتاتورى عسكرى . وعلى أية حال حاول نابليون أن يؤسس أسرة حاكمة من بعده ، ونجح فى وضع بعض التقاليد وبعض الأسس واستفاد منها فى المستقبل ابن أخيه نابليون الثالث (١٨٤٨ ـ ١٨٧٠) .

القسم الثانى

معالم التاريخ الأمريكى الحديث



الفصل الثانى عشر

كشف أمريكا

إن تاريخ قارة أمريكا الشمالية محاط بالغموض والأسرار ويعتقد أن سكانها لأصليين من الهنود هاجروا من شمال آسيا إلى آلاسكا ومنها اتجهوا جنوبا إلى المناطق الأكثر دفئا وحرارة . ولعل أول من رأى سواحل أمريكا من الأوروبيين هم طلائع الاسكندنافيين المغامرون الذين جابوا البحار بسفنهم التجارية المستديرة ذات الشراع الواحد ليصلوا الى جرينلند عام ٩٨٥م. وقد انطلقت سفنهم من هذه الجزيرة الكبيرة غربا ، وهناك ما يدل على أنه حوالى عام ١٠٠٠م وصل ليف ايريكسون Leif Ericson وغيره بالفعل الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة .

ولكن هؤلاء الشماليين لم يستطيعوا البقاء فى العالم الجديد أو نقل أخبار موثوقة ومعتمدة عن أسفارهم . لذلك فإن الفضل فى اكتشاف أمريكا وفتحها يعود إلى كريستوف كولومبوس ، الذى جاء ورأى ووصف وساعد على استعمار جزر الهند الغربية فيما بين ١٤٩٠ ، ١٥٠٠م . وقد كان كولومبوس بحارا إيطاليا ولد فى جنوه عام ١٤٥١ ، وقام بأولى رحلاته البحرية إلى ساحل الشام فى عام ١٤٧٤ - ١٤٧٥ ، وذهب فى عام ١٤٨٤ الى أسبانيا حيث استقر بها وعمل فى خدمة ملكى أسبانيا الملك فرديناند والملكة ايزابيلا . وقد كثرت المتناقضات حول الغرض الذى من أجله قام كولومبوس برحلاته . فالبعض يذهب إلى القول بأن الغرض من هذه الرحلات لم يكن اكتشاف جزر الهند الشرقية أو جزر التوابل، بل البحث عن بعض الجزر فى المحيط الاطلسى ، وآخرون يرددون القصة القائلة بأن توسكانيلى (Toscanelli) وهو عالم إيطالى قد أرسل فى عام ١٤٧٤م إلى كولومبس خطابا يرد فيه على خطاب الأخير الذى أرسله إليه من

قبل بشأن أخذ رأيه فى مشروع وصوله إلى قارة آسيا عن طريق الاتجاه ناحية الغرب ويقول فيه أنه من الممكن تحقيق ذلك المشروع، وأن كثيرا من الفوائد السياسية والتجارية سوف تعود من وراء نجاحه . على أى حال فإن كولومبس يذكر لنا فى يومياته أن ملك أسبانيا قد أمره بالذهاب إلى الهند عن طريق الغرب، والابتعاد عن الطريق البرى المعروف الذى يتجه ناحية الشرق .

ولقد كان اكتشاف أمريكا مصادفة بحتة ، وكانت الدولة العثمانية هى المتسببة فى هذا الاكتشاف . ولما كانت بلاد أوربا الغربية تخشى قوة الأتراك فقد صممت على الوصول إلى آسيا بطريق آخر لا يسيطر عليه الأتراك . وإذا كان العالم كرويا كما يدعى معظم الجغرافيين فلماذا لا يمكن الإبحار من أسبانيا إلى الغرب حتى الوصول إلى اليابسة التى لابد وأن تكون آسيا . لكن كولومبس ومعاصروه لم يكونوا يعرفون أن أمريكا الشمالية والجنوبية تقف فى طريق الإبحار غربا إلى آسيا . وهكذا عبر كولومبس والمكتشفون الذين تبعوه المحيط الاطلسى ووصلوا جزر بهاما (Bahamas) وبناما وأمريكا الجنوبية ، واعتقدوا أنهم وصلوا إلى هدفهم. ولم يمتد بكولومبس الأجل ليعرف أنه وصل إلى جزر الهند الغربية وليس الهند الشرقية . ولم يكتشف الخطأ إلا بين عامى ١٥١٩ ـ ١٥٢٢ عندما مرت حملة فرديناند ماجلان الأسبانى حول الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ومنها عبر المحيط الهادى إلى أسيا . ولقد قتل سكان الفلبين ماجلان ، لكن رجاله تابعوا تقدمهم ، فأبحروا حول افريقيا عائدين الى أسبانيا ، وبذلك لم يبرهنوا على أن الأرض كروية فحسب ، بل ان مساحتها فاقت تصور الجغرافيين.

وأخذت أمريكا اسمها من اميرجو فسبوتشى Amerigo Vespucci وهو فلورنسى اكتشف ساحل البرازيل عام ١٥٠١م ، وكان اميرجو هو الشخصية الثانية بعد كولومبوس التى لعبت دورا كبيرا فى اكتشاف العالم الجديد ، إذ ذكر بعض الباحثين أنه قام بأربع رحلات متتالية إلى هناك فى عام ١٤٩٧، ١٥٠١ ،

١٥٠٣ ، ولقد كتب كتابة غزيرة ومفصلة عن رحلاته عند عودته حتى أن شهرته فاقت شهرة كولومبوس . وهكذا عندما كان واضعوا الخرائط يبحثون عن اسم يطلقونه على العالم الجديد فى عام ١٥٠٧ ، فقد استقر رأيهم على أمريكا نسبة لأمريجو .

سبقت أسبانيا غيرها من الأمم الصغرى فى سنوات الفتح الأولى فقد قاد هرناندو كورتيز (Hernando Cortez) حملة مسلحة ضد المكسيك ، واحتلتها فى ١٥٢١م، وجعلتها مستعمرة أسبانية . وفى أثناء توغل الأسبان فى غابات أمريكا الإستوائية، اتجه بعضهم شمالا وتاهوا فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة ، ووصل بونس دوليون Ponce de Leon إلى فلوريدا ، ولكنه فشل فى محاولة تأسيس مستعمرة فى تامبا عام ١٥٢١ . وقد تحطمت سفينة كابيزا ديفاكا Cabez de Vaca فى خليج المكسيك وضل فى انحاء تكساس حتى وصل الى كاليفورنيا بصحبة الهنود الذين أعجبوا به ، واعتبروه إلهاً. واكتشف هرناندو دوتو Hernando de Doto فى عام ١٥٤١ نهر المسيسبى العظيم الذى يمر فى قلب أمريكا الشمالية وكان كورونادو Coronado المغامر يبحث عن الذهب فيما يعرف بكنساس الآن . وحدث أول استيطان دائم فى الولايات المتحدة فى سانت أوجسطين فى فلوريدا عام ١٥٦٥م، فقد بنى الأسبان قلعة كبيرة لحماية القرية من الهنود الغزاة ، وغيرهم من القوى الأجنبية .

وبدأ اهتمام فرنسا وانجلترا وهولندا والسويد والبرتغال يزداد بالعالم الجديد . فعبر جون كابوت (John Cabot) ، وهو رجل إيطالى يقود سفينة انجليزية المحيط الأطلسى ، وتوغل باتجاه الشمال مستكشفاً لبرادور ونيوفوندلاند فى عام ١٤٩٧ ، وقد أصبحت رحلته هى الأساس الذى بنت عليه انجلترا حقها فى قارة أمريكا الشمالية فأدعى التاج البريطانى ملكيته لمساحات شاسعة من العالم الجديد بعدئذ. وقام الإنجليز بتأسيس أول مستعمرة فى الولايات المتحدة الأمريكية

(جيمسون عام ١٦٠٧ James Town) وقد اكتشف فرازانو Verrazano تحت لواء العلم الفرنسى ساحل الأطلسى الشمالى من منطقة كارولينا الشمالية والجنوبية إلى نيوفوندلاند عام ١٥٢٤، وشق جاك كارتييه Jacques Cartier لصالح فرنسا طريقا فى نهر سانت لورنس حتى مونتريال فى كندا عام ١٥٣٥م.

أما أحداث أوربا فى ذلك الوقت فقد اتخذت اتجاها من شأنه أن يساعد على البت فى تقسيم الممتلكات فى العالم الجديد . وكانت انجلترا تراقب السفن الأسبانية وهى عائدة من منطقة الكاريبى محملة بالذهب بضيق متزايد . ويضاف إلى هذه العوامل كره إنجلترا لأسبانيا ، لأن انجلترا أصبحت دولة بروتستانتية نتيجة لحركة الإصلاح الدينى فى أوروبا ، بينما اعتبرت أسبانيا نفسها حامية للمذهب الكاثوليكى . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عهد الملكة اليزابيث جاب البحار عدداً من الانجليز أمثال هوكينز Hawkins وكافندش Cavand-ish وسير فرانسيس دريك Drake بحثا عن سفن أسبانية لكى ينهبوا ما فيها من ذهب ، وقد وافقت الملكة اليزابيث على المغامرات التى قام بها هؤلاء القراصنة .

وغضب فيليب ملك أسبانيا من هذه الهجمات التى كانت تؤثر كثيرا فى تجارتهم وقرر فى عام ١٥٨٨م أن يضع حداً لهذه الهجمات بأن يغزوا انجلترا بأسطوله الارمادا . ولكن السفن الانجليزية قامت بتحطيم الأرمادا عند دخولهم القناة الانجليزية . وقد تبع ذلك عاصفة كان من شأنها تدمير الارمادا تدميرا كاملا. وقد تحطمت قوة أسبانيا البحرية نتيجة لهذه الهزيمة ، ولم تعد تستطيع منافسة الانجليز فى السيطرة على الساحل الأمريكى الشمالى حيث كانت حركة الاستيطان تمر بمرحلة جديدة .

وبدأت انجلترا فى تأسيس إمبراطورية المستعمرات عام ١٥٧٨م عندما منحت الملكة اليزابيث المحارب القديم هيمفرى جيلبرت Gilbert امتيازا بأن يسكن ويمتلك جميع الأراضى البعيدة والوثنية التى لا يملكها أمير مسيحى ،

فقاد جلبرت حملة إلى نيوفوندلاند ، إلا أنها فشلت بسبب الطقس البارد ، وفقد جيلبرت فى البحر فى طريق العودة . وبعد ست سنوات اختارت اليزابيث القطعة الساحلية الممتدة بين نهر سانت لورانس فى الشمال وفلوريدا فى الجنوب ليستوطن فيها الانجليز وسمتها فرجينيا Virginia . وهذه البقعة تكاد تكون كل الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وقد عهدت الى أحد أفراد البلاط المقربين اليها وهو السير والتر رالى Raleigh بأن يجد مكانا ينزل فيه فى هذه المنطقة . وأرسلت عدة حملات إلى جزيرة رونوك Roanoke التى تبعد عن ساحل كارولينا الشمالية وذلك بين ١٥٨٥ و ١٥٨٧ ، وقد عادت أول حملة بعد أن وجدت عداء من الهنود ، وأحوال المعيشة بصورة عامة غير محتملة ، وأسوأ من ذلك أن الامدادات الضرورية لم تصلهم . اما الحملة الأخيرة فقد اكتنفها الغموض إذ اختفى المستوطنون ومن بينهم أول طفلة تولد من أبوين انجليزيين فى أمريكا ولم يسمع أحد عنهم شيئا . غير أن هذه المصاعب لم تقلل من عزيمة الشعب الانجليزى ، وذلك بفضل قيادة الملكة اليزابيث ، وانتصار الانجليز على الأرمادا العظيمة . ولقد تمثلت طاقة الشعب الانجليزى وعزيمته فى التغييرات التى طرأت على نمط معيشة الأمة ، وفى الطوائف الجديدة المتعددة من بروتستانتية وبيوريتانية حيث كان أفراد هذه الطوائف يستطيعون مخالفة دين الدولة الرسمى ، واختيار طرقهم الخاصة للعبادة ، وقد تجلت أيضا فى ظهور رجل الأعمال من الطبقة الوسطى الذى جمع من المال ما يكفيه من عمله الخاص ، وبقى معه قليل يستثمرةهفيما وراء البحار .

وعلى ذلك أخذ رجال الأعمال الانجليز يؤسسون الشركات لتشجيع حركة الاستيطان فى أمريكا . وكانوا لا يلاقون صعوبة كبيرة فى جمع الناس الذين يرغبون فى الهجرة ، وذلك أن البلاد كانت تجتاز أزمات إقتصادية حادة ازداد فيها عدد العاطلين عن العمل ، وطرد كثير من المزارعين من أعمالهم نتيجة لانهيار

النظام الإقطاعى القديم . وفى مثل هذه الظروف كان العالم الجديد يجذب اليه كل من يبغى فرصة ليبدأ حياته من جديد ، ويبنى بيته الخاص . وقد كان البعض الأخر الذين كانوا على خلاف مع الكنيسة الرسمية يتطلعون إلى قفار أمريكا الشمالية كملجأ لحرية العبادة .

ففى عام ١٦٠٦ منح الملك جيمس الأول امتيازات لشركتى لندن وبليموث تخول لهما حق تأسيس مستعمرة فى فرجينيا ، وحق سك العملة هناك، وفرض الضرائب وسن القوانين ، مع الاحتفاظ بسلطات واسعة للملك . ولم تهتم شركة لندن باحتجاجات الأسبان الذين طالبوا بكل أمريكا الشمالية ، وأرسلت ثلاث سفن صغيرة بقيادة القبطان كريستوفر نيوبورت إلى خليج تشيزابيك فى فرجينيا ، ونزلوا فى شبه جزيرة صغيرة سموها جيمس تاون تكريما للملك. كان هذا أول استيطان انجليزى دائم فى الولايات المتحدة . ولم تصمد هذه المستعمرة إلا بالجهود التى بذلها القبطان جون سميث John Smith ، وهو الجندى المغامر والجغرافى والكاتب فنجح فى اقناع الهنود بإمداد رجال المستعمرات بالقمح ثم ظهرت الحاجة لليد العاملة كى تبنى أكواخها وقلاعها ، ولذلك فقد احضرت شحنة من الزنوج العبيد عام ١٦١٩ الى المستعمرة ، وبذلك بدأ نظام قدر له أن يقسم أمريكا إلى حرب أهلية فيما بعد ، وأن يصبح فى الواقع مشكلة متشعبة لا يزال الأمريكيون حتى اليوم يتصارعون من أجلها . وقد تأسست الحكومة الديمقراطية فى جيمس تاون فى نفس العام الذى وصل فيه الرقيق . وفى عام ١٦٢٥م كان يقطن فرجينيا ما يزيد عن ألف مستوطن .

أما المستعمرة الانجليزية الثانية ، فقد تأسست فى بليموث Plymouth . وكونتها جماعة عرفت باسم البيوريتان Puritans أى المتطهرون الذين جاءوا الى شواطىء ماساشوستس Massachusetts فى عام ١٦٢٠ على السفينة الصغيرة ماى فلور Mayflower وعرفهم التاريخ منذ ذلك الوقت باسم

المهاجرين أو الحجاج . وكان هؤلاء البيوريتان أو المتطهرون قد رحلوا قبل ذلك من انجلترا الى امستردام ، ومنها إلى ليدن Lyden هربا من اضطهاد الملك جيمس الأول (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥)، عندما حاول إرغام المعارضين للكنيسة القومية على تأييدها . وفى هولندا فكر هؤلاء الحجاج فى السفر الى فرجينيا ، ولكن العواصف وبعض التغييرات التى طرأت على خططهم جعلتهم يبتعدون الى الشمال . وأيقن الحجاج بأنهم قدموا إلى أرض ليس لأحد عليها سلطان . فقاموا بتكوين مستعمرة جديدة هناك ، ووضعوا ميثاقا لحكومتها فيما بينهم قبل نزولهم إلى الشاطيء ، وهو اتفاق ماى فلور May Flower Campact ووقع ذلك الميثاق كل البالغين من الرجال من المهاجرين ، ثم انتخبوا جون كارفر Carver من بينهم ليكون أول حاكم للمستعمرة . وأكد المهاجرون فى هذا الميثاق أنهم رعايا مخلصون للملك الإنجليزى ، وأنهم قد جاءوا للعمل على تقدم العقيدة المسيحية ، وإنشاء أول مستعمرة شمالى فرجينيا . كما تعهدوا باقامة حكومة فى المستعمرة للاهتمام بأمورهم جميعا ، وتحقيق الأهداف التى ثابروا من أجلها ، وتعهدوا بالولاء لهذه الحكومة وطاعتها ، واستطاع هؤلاء المهاجرون مصادقة الهنود الذين علموهم طريقة زراعة القمح ، وكيفية التغلب على الظروف الطبيعية القاسية .

وقد توطدت الأمور فى الرقعة الضيقة على ساحل ماساشوستس بشكل قوى فى السنوات التالية . وانهكت المنازعات الدينية انجلترا من جديد ، فقد اعترض البيوريتان على الكنيسة الانجليزية ، وحذرتهم الحكومة بوجوب دعم الدين الوطنى أو بترك البلاد ولقد أخذ لود Laud ، رئيس الاساقفة يلاحق المنشقين ، ويخرجهم من البلاد . وهكذا اخذوا يندفعون نحو البحر بأعداد متزايدة وقد حصلوا على امتيازات من التاج بأن يستوطنوا فى مناطق مختلفة من الساحل الأطلسى الشمالى . وفوض الملك شارل الأول شركة خليج ماساشوستس أن

ترسل جماعة من البيوريتان إلى المنطقة المحيطة ببوسطن حيث يمكنهم أن يحكموا انفسهم ضمن حدود القانون الانجليزى ، كما كان تدفق المهاجرين فى أسفل الساحل شديدا أيضا . فقد استعمر الانجليز الكاثوليك الذين تضايقوا من وجودهم فى محيط بروتستنتى مقاطعة مارى لاند عام ١٦٣٤ ، واتجه الكويكرز Quakers الى بنسلفانيا عام ١٦٨٢ . وفى الواقع لم ينقطع سيل المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا الذى بدأ منذ مطلع القرن السابع عشر . وفى بداية القرن الثامن عشر تقريبا ، أقام الهولنديون مستعمرة فى امستردام الجديدة التى أصبحت نيويورك الأن . ولكن فى حقيقة الأمر نزل الانجليز فى كل مكان ، وكانوا السواد الأعظم من سكان المستعمرات الانجليزية والتى بلغ عددها ثلاث عشرة ولاية اتحدت فيما بعد لتكون الولايات المتحدة الأمريكية .

ولقد اهتمت فرنسا أيضا بحركة الاستيطان والاستعمار فى العالم الجديد، فقد أسس صامويل شامبلين Champlain ، وكان جنديا وبحارا سابقا كويبك Quebec فى كندا عام ١٦٠٨ ، وكانت هذه أول مستعمرة فى فرنسا الجديدة . وجاء الفرنسيون بعد ذلك فى جماعات الى كندا ، واكتشفوا بحيرة متشجان عام ١٦٣٤ ولقد قام الجزويت بدور هام فى عمليات الاستعمار هذه فقد توغل المبشرون الفرنسيون المتحمسون فى كويبك فى المسيسبى إلى الغرب الأوسط يحملون الصلوات والطقوس الى الهنود طالبين الأراضى الشاسعة لملك فرنسا . غير أن الفرنسيين كانوا مبشرين وتجارا أكثر منهم مستعمرين . فقد كانوا قليلى العدد ، وكان بناء الإمبراطورية التى أقاموها فى كندا حتى وادى المسيسبى مستندا على العلاقات التجارية والنفوذ بين القبائل الهندية أكثر من استنادها على المستعمرات التى يسكنها العدد الوفير من السكان البيض . ولكن فرنسا وجهت بعد ذلك عناية خاصة لميدان الاستعمار بفضل سياسة الوزير الفرنسى كولبير الذى كان أول من أدرك قيمة البحرية والتجارة الخارجية والمستعمرات ، ولذلك تدين فرنسا بما كانت تملكه من المستعمرات فى أمريكا الشمالية إلى نشاط الوزير

كولبير . وقامت الشركات الفرنسية للتجارة مع جميع أنحاء العالم ومنها شركة فرنسا الجديدة التى ساهمت فى استعمار أمريكا ، ونتيجة لذلك سيطر الفرنسيون على المنطقة الممتدة من كندا الى نيو أورليانز على خليج المكسيك محيطين بالمستعمرات الانجليزية من ناحية الشمال والغرب بطريقة تمنع توسعهم ، بذلك قام الصراع المباشر بين الفرنسيين والانجليز فى أمريكا ، ولقد تفوق الانجليز على الفرنسيين فى العدد ، غير أن نظام الحكم فى المستعمرات الفرنسية لم يساعد على نموها لأنها خضعت للحكم الفرنسى المباشر ، ولم تتبع مبادىء الحرية التى سارت عليها المستعمرات الانجليزية .

أما بالنسبة لنظام المستعمرات الانجليزية ، فقد تعاقب عدد من الحكام الانجليز على رئاسة المستعمرات الانجليزية المتكاثرة باستمرار ، فقد جاء أول الأمر ملوك أسرة ستيورات البروتستانت ومنهم جيمس الأول وشارل الأول ، ثم جاء أوليفر كرومويل ، وبعد سنتين من وفاته عام ١٦٥٨ عاد ملوك أسرة ستيورات ، ولكنهم خلعوا نهائيا فى ثورة ١٦٨٨ المجيدة. اما فى عهدى وليم ومارى أوف أورنج فقد منح الشعب الانجليزى مزيدا من الممثلين فى الحكومة .

ولقد أدرك جميع هؤلاء الحكام الأهمية المتزايدة لأمريكا فحاولوا القبض على أمور المستعمرات بحزم ، ولكن الاضطرابات التى كانت تجرى فى ذلك الوقت والمسافات البعيدة حدت من سلطتهم . إلا أن ذلك لم يحل دون اتخاذ بعض التدابير الشديدة . فقد كانت المستعمرات بالفعل تحت إدارة رجال الأعمال، ورجال البلاد المقربين فمنحوا امتيازات من الملك ، وكانت هذه الامتيازات تسمح بكثير من الحكم الذاتى ، وكان أصحابها يسمحون للمستوطنين بإدارة أعمالهم كما يشاءون طالما كانوا ينتجون أرباحا ، ويطيعون القانون الانجليزى ويظلون أوفياء للملك . ولكن بمرور الوقت كانت معظم امتيازات الشركات تلغى وتوضع المستعمرات تحت السيطرة الملكية المباشرة وهذا

يعنى تهديدا خطيرا للحكم الذاتى وإدارة قاسية من العرش . وقد وصلت الأمور الى درجة لا تطاق عندما ضم الملك جيمس الثانى نيو انجلند ونيويورك ونيوجرسى فى مقاطعة ملكية واحدة فى عام ١٦٨٦ ، وعين السير أدموند أندروز حاكما عليها ، ولم يهتم هذا الحاكم إلا بجمع المال والثروة للخزينة الملكية ، كما حل اندروز محاكم المستعمرات ونصب نفسه قاضيا وراقب الصحافة ، وفرض الضرائب ، وعلى العموم أخذ يحكم دون أن يعير إرادة الشعب أدنى اهتمام. وعندما خلع الملك جيمس قام رجال ماساشوستس بالقبض على اندروز وإعادته الى انجلترا ليحاكمه الملك الجديد . وفى حوالى ١٦٧٥ قامت ثورة أخرى فى فرجينيا ضد الحاكم الملكى السير وليم بركلى الذى اهتم بالاتجار فى الفراء مع الهنود أكثر من اهتمامه بشئون المستعمرة . وعلى أية حال ، مر قرن آخر قبل أن ينفجر المستعمرون فى ثورة علنية ضد البلد الأم ، التى لازال الغالبية العظمى تشعر بالولاء نحوها . وكانت فى معظم هذه المستعمرات مجالس تتكون من الحكام ومجلس يعينه التاج أو السلطة التى عينت الحاكم ، وكان بمثابة هيئة تشريعية عليا ، ثم مجلس تمثيلى ينتخبه سكان المستعمرة ، ويشبه هذا النظام بطبيعة الحال نظام الحكم فى انجلترا .

وفى منتصف القرن الثامن عشر جاوز سكان المستعمرات المليون ونصف المليون نسمة ، وقد بقى العنصر الانجليزى هو السائد بالرغم من وجود كثير من الهولنديين فى نيويورك ونيوجرسى ، والهوجونوت الفرنسيين المبعثرين فى مواضع متعددة ، والألمان فى بنسلفانيا . كما وصل الاسكتلنديون والأيرلنديون فى شكل جماعات كبيرة ، وتوغلوا فى بنسلفانيا الى المراكز الأمامية لحدود فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ، ويضاف إلى هؤلاء الأحرار العبيد الزنوج الذين جيء بأجدادهم من افريقيا ، وبيع بعضهم فى نيوانجلند كخدم ، وذهب عدد لا بأس به منهم إلى المستعمرات الوسطى ، ولكن الأكثرية العظمى أرسلت الى

الجنوب ليعملوا فى المزارع ، وقد بلغ مجموعهم فى عام ١٧٥٠م حوالى ربع مليون أما سكان أمريكا الأخرون فكانوا يتراجعون ببطء الى الغرب . وكان عددهم عند مجيء الإنسان الأبيض الى أمريكا حوالى ٨٠٠ ألف . وقد كان الهنود يثورون من آن لآخر ويرتكبون مجازر مخيفة ، وذلك لأن أهل المستعمرات كانوا يسيئون معاملتهم ، ولكن رجال المستعمرات كانوا يكيلون لهم الصاع صاعين .

وكان بيوريتان ماساشوستس يتميزون عن بقية المستوطنين الأخرين فى المناطق الأخرى ، فكانوا يؤمنون بالتربية ايمانا قويا فأسست جامعة هارفارد عام ١٦٣٦ ، وأصبح التعليم فى المدارس الرسمية الزاميا قبل عام ١٦٥٠ ، ومن ناحية أخرى كان البيوريتان الذين استقروا فى نيوانجلند متعصبين لدينهم ، وكانت حياة المدن الصغيرة فى نيوانجلند تتمركز حول الكنيسة والمدرسة وحقل القرية ـ وبما أن السكان كانوا أكثر كثافة ، فقد كانوا يشعرون بالتضامن والتعاون أكثر من جيرانهم الذين يبعدون عنهم فى أقصى الساحل . أما فى جـوب نهر البوتوماك Potomac حيث كان مزارعوا فرجينيا وكارولينا مبعثرين كثيرا ، فلم يكن سير الحكم الذاتى الديمقراطى واضحا جدا ، فقد كان من الصعب جمع الجيران الذين تفصل بينهم عدة أميال لاجتماعات متكررة ، وعلى ذلك أصبحت كل مزرعة تؤلف وحدة تحكم نفسها مثل المزارع الإقطاعية القديمة .

فتطور الجنوب طبقا لذلك ، وظهرت فيه فروق بين الأغنياء والفقراء وخلافا لما هو موجود فى نيو انجلند ، لم يكن يوجد فى الجنوب طبقة وسطى إلا فى المدن الصغيرة . كما يتجلى هذا الفرق أيضا فى هندسة بناء المنطقتين ، ففى الشمال كان معظم الناس يملكون بيوتا خشبية بيضاء ومرتبة ، بينما فى الجنوب كان عدد قليل من أصحاب المزارع يملكون منازل فخمة كبيرة معظمها يقع فى أغنى الأراضى ، بينما لم يتوفر لمعظم المزارعين البيض أكثر من أكواخ بدائية فى

مزارع التلال أما سكن الزنوج ، فكان فى حالة كبيرة من البوس . أى لم يكن أكثر من غطاء يحميهم . وبرغم أن الدين كان مهملا فى الجنوب ، إلا أنه لا يتميز بصرامة نيو انجلند ، أما فى المستعمرات الوسطى فكان يوجد بها ملكيات كبيرة مثلما كانت توجد مزارع متوسطة وصغرى ، وأصبحت بنسلفانيا مستعمرة هامة استقر بها المزارعون الذين امتلكوا بيوتهم ، وعاشوا فى سلام مع جيرانهم الهنود . ولقد ازدهرت فيلادلفيا « مدينة المحبة الأخوية » ، وأصبحت أهم مدينة فى أمريكا فى القرن الثامن عشر ، وقد ساعد على تقدمها بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦ _ ١٧٩٠) .

وينحصر تاريخ أمريكا فى عهد المستعمرات فى معرفة كيف أن هذه المناطق المتفرقة فى البلاد اتحدت فى النهاية ، ولكن كان لابد أن يعرفوا بعضهم البعض أولا غير أن السفر قبل الثورة وحتى بعدها بعدة سنين ، كان شاقا ، إذ أن الطرقات كانت قليلة غير جيدة ، وكان الطريق العملى الوحيد للانتقال إلى كارولينا الجنوبية أو إلى جورجيا هو عن طريق البحر على الساحل الأطلسى وبرغم انفصال المستعمرات وتباعدها ، فقد كانت تشعر برابطة متزايدة . وقد أسست الاتصالات البريدية ، واستوردت المطابع ، وبالتدرج أخذت الأفكار تنتشر عندما أخذت الرسائل والصحف والكراريس تجد طريقها إلى أيدى الشعب . وفى البداية وجد شيء مشترك بين المستوطنين الذين اعتدوا على ساحل طوله ألف ميل ، فقد كانت الاكثرية ، انجليزية وتعيش فى ظل تقاليد انجليزية فى الحكم الذاتى يحاكمون من قبل محلفين ويتمتعون بامتيازات أخرى تعطى للإنجليز الأحرار . وبمرور الوقت زاد التعامل بين المستعمرات . وتصرفت متحدة الرأى فى المسائل التى تتعلق بالمصلحة العامة ، وقد حدث أول شيء من هذا النوع ، عندما انضمت ماساشوستس وبليموث وكونكتيكوت Connecticut ونيو هافن New haven إلى حلف نيو انجلند ، فى صداقة ومودة ثابتتين ودائمتين فى الهجوم ،

والدفاع والنصح والأسعاف المتبادلين ، وفى جميع مثل هذه الأحوال من أجل المحافظة على حقيقة وحريات الكتاب المقدس ونشرها من أجل سلامتهم وحياؤهم المتبادل . وقد عقد مجلس حلف نيو انجلند اجتماعات لعدة سنوات وأخيراً انضمت ماسا شوستس وبليموث وكونتا مستعمرة واحدة ، وكونت كونكتيكوت ونيو هافن مستعمرة أخرى . ومما دفع أمريكا البريطانية الى الإتحاد هو الصراع بين القوى الأوروبية لامتلاك القارة . فبدأت انجلترا وفرنسا تتنافسان ، وتعرضت مستعمراتهما لغارات سريعة على الحدود وهجمات الهنود الذين كانوا فى خدمة الفرنسيين والأسبان ، ولذلك لعب هذا الخطر المشترك دورا فى توحيد المستعمرات الانجليزية .

وكانت الامبراطورية الفرنسية عام ١٦٨٩ تضم فى العالم الجديد أقساما واسعة من كندا ووادى نهر المسيسيبى والقسم المتوسط من الولايات المتحدة اليوم. وكانت ممتلكاتها تمتد من جبال الأليجانى Alleghany الى جبال الروكى ، ومن كندا الى خليج المكسيك وهذه المنطقة أكبر بكثير من الممتلكات الانجليزية المتراكمة على الساحل فى شريط ضيق شرقى جبال الاليجانى وبرغم اتساع الامبراطورية الفرنسية فى العالم الجديد ، إلا أنها لم تحتو على أكثر من ١٨٠٠٠ مستعمر يقابلهم ٢٠٠٫٠٠٠ من المستعمرات الانجليزية فى الشرق . ولكن مما عوض من قلة عدد الفرنسيين قدرتهم على التحالف مع الهنود فكانوا يعاملونهم كإخوانهم ويتزوجون منهم . وقد بدأ النضال من أجل القارة الأمريكية فى عام ١٦٨٩ عندما قامت حرب الملك وليم ، وهى الحرب التى قامت بين فرنسا الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية ، وامتدت هذه الحرب الى أمريكا وانتشرت فيها ، وكانت بالنسبة للإنجليز بمثابة حرب البقاء ، واستمر ذلك النضال من أجل القارة ثلاثة أرباع القرن . وكانت مستعمرة نيويورك تمتد الى الغرب عبر فجوة فى جبال الاليجانى حتى البحيرات العظمى ، وإلى الشمال حتى الحدود الكندية ،

فإذا أمكن للفرنسيين انتزاع هذه المستعمرة من انجلترا ، فإن أراضى بريطانيا فى أمريكا تنقسم الى قسمين وعندئذ يمكن لأعلام فرنسا أن تسير شمالا وجنوبا على طول الساحل الأطلسى حتى تتقلص قبضة انجلترا على العالم الجديد . وتتحطم الى الأبد ، ولكن حرب الملك وليم انتهت دون حدوث نتيجة حاسمة وتبعها فى عام ١٧٠١ حرب الوراثة الأسبانية التى كان لها جانب أمريكى يسمى بحرب الملكة آن (١٧٠٢ ـ ١٧١٣) . ولقد قامت الحرب أساسا بسبب مطالبة لويس الرابع عشر بعرش أسبانيا وتنصيب حفيده عليه ، وكان بعمله هذا يأمل أن يوجد تحالفا بين فرنسا الكاثوليكية وأسبانيا ضد انجلترا البروتستانتية . وعندما امتد القتال الى أمريكا قام الهنود بهجمات ناجحة ضد كل من كارولينا الشمالية والجنوبية ونيو انجلند ، ولكن فرنسا تنازلت عن نيوفوند لاند وأراضى هامة أخرى الى البريطانيين بمقتضى معاهدة أو ترخت Utrecht عام ١٧١٣ .

ثم قامت حرب أخرى تعرف باسم حرب الوراثة النمسوية . وكان لها صداها فى العالم الجديد أيضا ، ولكن هذه الحرب قادت فرنسا الى القيام بحرب ضد انجلترا فى العالم الجديد والهند ولذلك سمى الجانب الأمريكى من تلك الحرب باسم حرب الملك جورج (١٧٤٣ ـ ١٧٤٨) وفيها احتلت انجلترا القلعة القومية فى لويزبرج Louisburg وانتهت الحرب بعقد معاهدة أكس لاشابل Aix La Chappell ونص الصلح على إرجاع الأمور فى المستعمرات الى ما كانت عليه قبل الحرب فأعيدت لويزبرج إلى فرنسا . ولم يستطع الصلح أو غيره الاسهام فى تسوية المسائل الحيوية بالنسبة للتنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا فى أمريكا . إذ ستندلع بعد قليل الحرب المعروفة باسم حرب السنين السبع فى أوروبا (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) والتى ستتحالف فيها فرنسا مع النمسا ضد بروسيا وانجلترا وقد سمى الجانب الأمريكى من هذه الحرب باسم الحرب الفرنسية الهندية (١٧٥٥ ـ ١٧٦٣) .

ولقد كانت انجلترا تعلم أن هذه الحرب ستستنزف الكثير من مواردها ، وأن كل مساعدة تستطيع الحصول عليها من الامبراطورية سترجح الكفة ، لذلك حولت المستعمرات الأمريكية فى عام ١٧٥٤ الحق فى حشد جميع ما تملك من قوى ، وتم المطالبة بعقد مؤتمر فى البانى Albany فى نيويورك ، وحضر هذا المؤتمر عدد من أكبر مفكرى أمريكا من بينهم بنجامين فرانكلين ممثلا عن بنسلفانيا ، وستيفن هوبكنز ممثلا عن رود ايلاند ، وتوماس هتشتسون عن ماساشوتش . واجتمعوا للنظر فى المسائل الكفيلة بدفع خطر الحرب الفرنسية الهندية ، وقادهم البحث الى التفكير فى مستقبل نظام المستعمرات الانجليزى فى أمريكا كله . وقد تقدم فرانكلين بخطة عامة للاتحاد بموجبها تختار الجمعيات العامة للمستعمرات مجلسا عاما مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوا . وتتألف واجبات المجلس من إيجاد جيش للمستعمرات ، وفرض الضرائب ، والإشراف على العلاقات مع الهنود الحمر . ومعالجة الأمور الهامة ، ويرأس هذا المجلس رئيس عام يعينه الملك ، ولكن حكام المستعمرات رفضوا خطة فرانكلين لأنها تدعو إلى كثير من المركزية فى السلطة ، وإلى التخلى عن الحكم المحلى . وقد خشى الانجليز من هذه الخطة لأنها تعطى المستعمرات ككل مزيدا من الأصوات فى مشاكلهم الخاصة بشكل لا يتفق ومصالح انجلترا فى تلك الظروف. وبرغم فشل خطة البانى Albany فإن أهميتها فى التاريخ الأمريكى عظيمة ، لأنها أعطت سكان المستعمرات فكرة الاتحاد التى قدر لها فيما بعد أن تتطور وتصبح الكونجرس القارى Continental Congress الذى حكم أمريكا خلال السنوات الأولى من استقلالها .

وخلال الحرب الفرنسية الهندية استولى الانجليز مرة أخرى على لويزبرج التى كانت تعتبر مفتاح كندا . وأخيرا تم الهجوم على كندا نفسها ، أو فرنسا جديدة ، ودارت المعركة الفاصلة فى كوبيك عام ١٧٥٩ ، وتلى هذا الانتصار

عمليات تطهير فى كندا استغرقت أربع سنوات وبرغم خبرة الفرنسيين فى كندا، واستعدادهم للحرب فيها ، ورغم كونهم مدربين للحرب فلقد انتصر الانجليز بسبب قوتهم البشرية الهائلة فى مستعمراتهم الثلاث عشرة . وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة باريس عام ١٧٦٣ ، وتخلت بمقتضاها انجلترا عن كندا كلها ، وعن المنطقة الواسعة شرقى نهر المسيسيبى ما عدا نيو أورليانز التى اعطيت الى أسبانيا . وقد تنازل الفرنسيون أيضا للأسبان عن ممتلكاتهم غربى المسيسيبى ، وسمح لهم بالاحتفاظ بجزيرتين صغيرتين غير محصنتين بعيدا عن ساحل نيوفوندلاند لأسطول الصيد . وعلى ذلك قضت حرب السنين السبع على فرنسا فى العالم الجديد وبقيت أسبانيا المنافس الوحيد لانجلترا ولكن الأسبان لم تكن لهم مراكز ثابتة فيما يعرف اليوم باسم الولايات المتحدة ، إذا أنهم كانوا مهتمين بصورة خاصة بتنمية امبراطوريتهم فى المكسيك ، وفى أمريكا الجنوبية .

الفصل الثالث عشر
الثورة الأمريكية وحرب الاستقلال
١٧٧٥ ـ ١٧٨٣

تحدث الكثيرون عن أسباب الثورة الأمريكية وكيف أن الملك جورج الثالث (١٧٦٠ ـ ١٨٢٠) والبرلمان حرموا المستعمرات من حرياتها ، وفرضوا عليها الضرائب دون إعطائها حق انتخاب ممثلين عنها فى الحكومة ، وانزلوا الجيوش فى بيوت أهل المستعمرات وأخيرا دفعوا بها إلى الثورة . هذه فى الواقع مظاهر خارجية يوجد خلفها أسباب أساسية لعل أهمها النظريات المتضاربة حول طبيعة الامبراطورية البريطانية وعلاقة المستعمرات بها .

فمن وجهة النظر الأمريكية ، كانت المستعمرات الثلاث عشرة وحدات تحكم نفسها ضمن الامبراطورية البريطانية ، فكان المستعمرات إنجليز يحق لهم التمتع بجميع حقوق المساواة التى كافح الانجليز من أجلها منذ أيام الماجناكارتا . وقد كان الأمريكيون يقبلون وجود الحكام الملكيين الذين أرسلوا ليترأسوا جمعياتهم العامة طالما أحسنوا التصرف ، واتبعوا رغبات الجمعيات . وكان الحكام يقومون بذلك عادة إذ انهم كانوا يتلقون رواتبهم من المستعمرات ، ولم يعتمدوا على الملك البعيد والمنهمك فى أعمال الدولة .

أما الحكومة البريطانية ، فكان لها منذ الأيام الأولى فى جيمس تاون وجهة نظر أخرى لوضع المستعمرات ، فهذه المستعمرة لا يحق لها أن تحكم نفسها وسكانها متساويين مع الانجليز الذى يسكنون فى الجزر البريطانية ، بل الواجب المفروض على أهل المستعمرات هو خدمة مصالح انجلترا بأن يوفروا أسواقا جديدة للبضائع الانجليزية ، ويقدموا لها المواد الخام للصناعة . وقد كان من الصعب

تشديد الحكم على المستعمرات واستنفاذ ثرواتها خصوصا خلال الحروب المتعددة والمشاكل التى أحاقت بالأمة طوال مائة وخمسين سنة . ولكن بعد أن أزيحت فرنسا وأسبانيا عن الطريق عام ١٧٦٣ آن للحكومة الملكية أن تشمر عن ساعدها الملكى ، وتفرض سلطتها . وقد جاء الوقت لوضع القوانين البحرية موضع التنفيذ باخضاع مصالح أمريكا التجارية لمصالح الوطن الأم . وكذلك آن الوقت لفرض ضرائب تملأ الخزينة الانجليزية التى انهكتها الحرب فقد كانت أمريكا تشعر أن الامبراطورية يجب أن تتألف من اتحاد بين المستعمرات الموالية والمستقلة . بينما كانت انجلترا تؤمن بالوحدة فى ظل حكومة قوية . ويظهر قانون السكر كيف كانت انجلترا تنظر إلى الامبراطورية على أنها خاضعة للتاج البريطانى ، فلقد اعتمدت نيوانجلند بدرجة كبيرة على تجارة الروم ، فكانت تستورد السكر من الهند الغربية الفرنسية وتصنع منه هذا الشراب وتبيعه ، وقد أهمل سكان نيوانجلند فى تجارتهم هذه الهند الانجليزية التى لم تكن تدفع أسعارا مماثلة لبضائعهم . فبناء على احتجاج مزارعى الهند الغربية من البريطانيين بأن تجارتهم تعانى الكثير من الصعوبات ، أجبر البرلمان نيوانجلند على التجارة معهم بدلا من الفرنسيين . ولقد صدر ما يعرف باسم قانون العسل الأسود Molasses Act عام ١٧٣٣ ، وقد حرم استيراد السكر المزروع فى مزارع فرنسية ، كما منع استيراد العسل الأسود والروم لخدمة أصحاب المزارع الكبيرة من البريطانيين كما أوضحت . ولقد أصاب هذا القانون معامل التكرير فى نيوانجلند بضربة بالغة ، ولولا نشاط حركة التهريب فى المستعمرات لكانت هذه الضريبة فى حد ذاتها كافية لإحداث القطيعة بين انجلترا ومستعمراتها .

وقد واجهت البريطانيون بعد أن استولوا على الأراضى الغربية (وهى المستعمرات الفرنسية التى وقعت فى أيدى الانجليز) مشكلة أخرى جعلتهم يشددون قبضتهم على أمريكا . لقد سكن الهنود هذه الأراضى الجديدة قبل

الفرنسيين المنهزمين ، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بأية محبه للانجليز ، وآثارهم الفرنسيون الذين أخبروهم بأنهم سوف يطردون قريبا من بيوتهم ، فهب الهنود ، وثاروا ، واحتلوا عددا من القلاع البريطانية .

وفي مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن تطبيق نظام الحكم الذاتي في الغرب كما كان في الشرق ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى الجيوش والحصون ، وإلى السيطرة الدقيقة على السكان العاديين وراء جبال اليجاني . لهذا فقد تولى جورج الثالث ووزراؤه إدارة الغرب واغلقوه في وجه المستعمرات ، وأمروا الذين اجتازوا جبال اليجاني ، واستوطنوا في الأراضي الجديدة بالعودة إلى الشرق . ثم أعلن الملك أن جميع عمليات بيع الأراضي من قبل الهنود يجب أن تتم مباشرة للتاج . وعين موظفين لإدارة تجارة الفراء الثمينة لصالح الحكومة البريطانية . ولقد أدى ذلك إلى غضب الأمريكيين لأن الملك كان متعسفا غاية التعسف فهو قد اعتبر المستعمرات الجديدة ملكا للتاج الانجليزي وليست ملكا للمستعمرات الأمريكية ، ومما زاد الموقف سوءاً بالنسبة للأمريكيين أن جيشا يتألف من عدة آلاف من الجنود ذوي المعاطف الحمراء أرسل لحماية الغنائم في العالم الجديد ، وكان على المستعمرات أن تدفع جزءا من نفقات هذا الجيش . ولم تنته مصائب أهل المستعمرات عند هذا الحد فقد أمرتهم انجلترا بأن يسهموا في ايواء واطعام الجنود بموجب قانون « ايواء الجنود » Quartering Act

ومن ناحية أخرى ، كان جون جرانفل Granville رئيس وزراء بريطانيا عام ١٧٦٤ ، لا يعرف إلا القليل عن أمريكا ، وكان يكره القليل الذي يسمعه عنها ، وكان برنامج الحكومة الاستعماري الذي وضعه أمام البرلمان يتلخص فيما يلي :

١ ـ تنفيذ قوانين الملاحة بكل دقة .

٢ ـ اقامة جيش دائم يتكون من عشرة آلاف جندى فى المستعمرات للدفاع عنها .

٣ ـ تدفع الخزانة الإنجليزية مرتبات الحكام والقضاة بدلا من تقرير المجالس التشريعية للولايات لهذه المرتبات .

٤ ـ يفرض البرلمان الانجليزى ضريبة على المستعمرات لدفع هذه المرتبات والانفاق على الجيش الدائم ، وذلك بدلا من اللجوء إلى مجالس الولايات لاقرار الاعتمادات المطلوبة .

وبعد أن تشدد جرانفل فى تطبيق القوانين البحرية وذلك بارسال موظفى جمارك ودوريات بحرية إلى أمريكا ، اقترح ضريبة التمغة (رسوم طوابع Stamp Act) فى عام ١٧٦٥ وعلى الصحف والكراريس والمستندات القانونية وغيرها . وهذه الضريبة كانت بهدف إعالة الجيوش البريطانية بتقديم الوقود ، ومصادر الإنارة ومعدات النوم وأوانى الطهى ، والمأوى . وعندما أقر البرلمان قانون الطوابع حدثت مقاومة قوية فى المستعمرات فقام (باتريك هنرى) ، من فرجينيا فى مجلس المواطنين ليعلن أنه ما من أحد يحق له أن يفرض الضرائب على أهل فرجينيا غير مجلسها التشريعى ، ثم انتزع قرارا بأن كل محاولة لاعطاء مثل هذه السلطة إلى أى شخص آخر أو أشخاص آخرين ، غير شرعية ، وغير دستورية وغير عادلة ، وفيها اتجاه ظاهر لخنق الحريات البريطانية والأمريكية ، وانتقلت صيحة الاحتجاج ضد قانون الطوابع إلى ماساشوستس . وزاد من حركة المعارضة جيمس اوتيس James otis المحامى من بوسطن والذى يعتبر الرائد الأول للثورة الأمريكية ، وكانت صيحة الأمريكيين تتمثل فى القول المشهور Taxation without representation is tyranny .

وأخيرا كانت أمريكا تربة خصبة لتعاليم ومذاهب ذات طابع جمهورى أو شبه جمهورى . إذ ظل السكان قرنا ونصف قرن يعيشون فى جو ديمقراطى أو

«محقق للمساواة» فكانت الفوارق الديمقراطيه قليله ، وكانت الفرص الإقتصادية مفتوحة للجميع على قدم المساواة ، ولم يؤد وجود طبقة ارستقراطية إلى تنشيط نمو المبادىء الديموقراطية . وكانت شبه طبقة من سكان الساحل ، أو صفوة متضامنة قليلة العدد ، تستحوذ على معظم الثروة ، وتقتصر على بعض الأقاليم ، مثل فرجينيا وكارولينا الجنوبية ، وتستأثر بالنفوذ السياسى . وقد واجهت الديموقراطية الناشئة فى داخل البلاد صراعا طويلا ضدها ، فكان صغار المزارعين فى جوف البلاد ، والمهاجرون الألمان والاسكتلنديون ـ الايرلنديون ـ والعمال والميكانيكيون من أهل المدن ، يعززون أنفسهم باستمرار ازاء التجار وأصحاب المزارع القدامى . وقد فعلوا ذلك طيلة الجيل السابق على الثورة بهمة اذهلت من هم أرقى منهم وساهمت هذه الروح ذاتها فى تحمسهم الثورى ضد الدولة الأم.

لقد اندلعت الثورات فى نيوانجلند ونيويورك وبنسلفانيا ، وترك موزعو الطوابع أعمالهم أمام ضغط الجمهور ، وتشكلت جماعات متطرفة مثل «أبناء الحرية» فى كل مكان ليحرضوا على المزيد من العنف . وقد أعد المؤتمر الذى دعى لمعالجة الطوابع والذى مثلت فيه تسع مستعمرات احتجاجاً مماثلا لاحتجاج فرجينيا أكد أن المجالس التشريعية للمستعمرات هى التى يحق لها فرض الضرائب فقط . وبذلك أظهر الأمريكيون أصرارهم على أنه لا يجب فرض ضرائب على منطقة من قبل الحكومة إلا إذا كانت هذه المنطقة ممثلة تمثيلا مباشرا فى الحكومة عن طريق نوابها .

ولقد ألغى قانون الطوابع بعد أن استمر مفعوله فترة من الوقت ، ولكن سرعان ما تبعته قوانين جديدة . فمثلا القوانين التى أصدرها وزير المالية الانجليزى شارل تاونشند Charles Townshend فى عام ١٧٦٧ لم تضع الضرائب على الزجاج والرصاص والبويات والورق والشاى المستورد إلى المستعمرات فحسب بل أنها نصت على أن تستعمل العائدات لدفع رواتب الحكام الملكيين . وهكذا لم

يعط للجمعيات العامة للمستعمرات سلطة على هؤلاء الموظفين . وأظهر البرلمان نيته فى السيطرة على شئون أمريكا أكثر من قبل ، فقامت المعارضة مرة أخرى فى أنحاء أمريكا وأرسل أحد زعماء المعارضة فى ماساشوستس وهو صامويل آدامز Samuel Adams خطابا إلى المستعمرات يدعو إلى المبادرة فى العمل ضد قوانين تاونشند ، والقوانين البحرية التى كانت تؤدى التجارة الأمريكية . ثم قامت حركة لمقاطعة البضائع البريطانية فاستشاطت بريطانيا غضبا وحلت مجلس ماساشوستس، وأرسلت كتيبتان من الجيوش البريطانية إلى بوسطن . وفى مارس ١٧٧٠ عندما عدلت انجلترا عن أعمالها التعسفية ملغية جميع الضرائب ما عدا ضريبة صغيرة على الشاى ، اصطدم الجنود البريطانيون بالمواطنين الأمريكيين فيما سماه المواطنون « مذبحة بوسطن » وبدأ الاضطراب عندما رمى فريق من الشبان بكرات الثلج على أحد الجنود الذى بدوره استدعى الحرس المسلح . وقد قتل فى هذه المذبحة خمسة من المواطنين مما أدى إلى سحب الجيوش البريطانية من المدينة أمام طلب صامويل ادامز .

ومن ذلك يتضح أن السياسيين البريطانيين لم يكونوا متفقين دائما على السياسة الواجب اتباعها فى أمريكا ، فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التشدد حينا واللين حينا آخر ، وفى الجانب الأمريكى ، كان هناك الكثير من العطف على البريطانيين ، وخصوصا من قبل الطبقات التى شعرت بأن أعمال الشغب والمقاطعة ستؤثر على وضعها المالى وتسىء إلى العمل . ولكن شعور الأغلبية من الأمريكيين قبل الثورة نحو انجلترا كان شعور غضب وغيظ عند فرض الضرائب، وشعور راحة وامتنان عندما تلغى الضرائب . وكان رجل المستعمرات العادى لا يبغى فى الواقع الاستقلال النهائى عن انجلترا بل كان كل ما يريده هو أن يترك وشأنه فى مزرعته أو فى عمله . ونتيجة لهذه المعارضة القوية التى عمت أمريكا، فشلت السياسة الاستعمارية الانجليزية ، والقوانين التى حاولت الحكومات

فقد تاونسند قوانين بالنسبة لم تاونسند، حوفيل قوانين مثل وصهه ضريبة
بالاحتفاظ بضريبة الشاى ، وذلك لكى يحتفظ بحق انجلترا فى
فرض الضرائب على المستعمرات . ولكن مسأله فرض الضرائب دون تمثيل
حقيقى كانت لا تزال من أهم أسباب الخلاف بين المستعمرات والبلد الأم .
ولقد قام بعض المتهورين الأمريكيين بعمل يعد من أنجح الأعمال هو « حفلة
الشاى الشهيرة » فى بوسطن عام ١٧٧٣ . وكانت شركة الهند الشرقية هى التى
تقدم الشاى ، وكانت قد وقعت فى مصاعب مالية وأدخلت تحت حماية
البرلمان، فقرر الملك جورج وعصبة فى البرلمان التخلص من الكميات الفائضة من
الشاى ببيعها لأمريكا بأسعار مخفضة . وبرغم أن رسما قدره ثلاث بنسات كان
يستوفى على كل لبرة من الشاى ، إلا أن الشاى كان لا يزال أقل ثمنا مما
يستطيع الأمريكيون الحصول عليه من أى مصدر آخر .

ولكن كانت مسألة المبدأ وهو دفع الضريبة ، وليست قضية صفقة رابحة
هى التى أثارت انتباه المواطنين الأمريكيين . فأخذوا يصيحون قائلين « احتكار »
« ولا ضرائب من قبل البرلمان » ورفضوا قبول الشاى عندما وصلت السفن
محملة به . وفى بوسطن بعد سلسلة من الاحتجاجات العامة ، ارتدى فريق من
المواطنين زى الهنود ، وتسلقوا سفن الشاى، والقوا بمحتوياتها فى الماء . وقد أثار
هذا العمل الملك جورج إلى حد كبير ، وبما أنه لم يكن يشعر بعطف نحو
المستعمرات ، فقد قرر أن يعاقب ماساشوستس وخاصة بوسطن فأقر البرلمان قانون
الاحتجاج Intolerable Act فى عام ١٧٧٤ ، الذى أغلق بموجبه ميناء بوسطن
فى وجه التجارة العالمية إلى أن تدفع قيمة الشاى ، وأخضعت اجتماعات المدينة
لمراقبة الحاكم ونقل عاصمة الولاية منها، ثم أخضعت المستعمرة للطغيان المطلق،
وهو ما يسمى Regulating Act ، وانزال قوات فى أى مكان بماساشوستش .

وقد أثارت هذه التطورات السريعة المستعمرات الأخرى ، فتجمعت حول

ماساشوستس ، وأرسلت لها تعبيرات العطف ، وحمولات من الطعام التى كانت تحتاج إليها كثيرا ، وعندما ازداد الهياج اقترح مجلس مواطنى فرجينيا عقد اجتماع فى فيلادلفيا لمندوبين من جميع المستعمرات ، فاجتمع هذا الكونجرس القارى (المؤتمر الأمريكى الأول) فى عام ١٧٧٤ . وكان فى هذا المجلس شخصيات هامة مثل جون هانكوك وصامويل ادامز من ماساشوستس ، وجورج واشنطن وباتريك هنرى من فرجينيا ، وبعض الشخصيات الأخرى من كارولينا ، وقد ساد الحذر والاعتدال فى الكونجرس الذى اجتمع للتشاور فى حالة المستعمرات الخاسرة . وللمداولة فى الترتيبات الحكيمة والمناسبة لاستعادة وتوطيد حقوقهم وحرياتهم العادلة ، ولإعادة الوحدة والإنسجام بين بريطانيا العظمى والمستعمرات.وقد أعدت وثيقة إعلان الحق Declarntion of Right وأرسلت إلى انجلترا وفيها يحتج أهل المستعمرات على التعدى على حرياتهم من قبل البرلمان ، وأعلنوا عن مقاطعتهم للبضائع البريطانية ، وأن هذه المقاطعة ستشرف عليها لجان أمن فى كل بلدة ومقاطعة . ومن واجب هذه اللجان أن تخبر عن المخالفين للمقاطعة لكى يعرف الكونجرس من صديق القضية الأمريكية ، ومن عدوها .

ولكن المتاعب لم تزول ، فقد تطور الأمر فى ولاية ماساشوستس إلى الصدام المسلح بين الأهالى والجنود البريطانيين . وكانت ماساشوستس تطفح بالعداوة ، وقد بنى رجال الميليشيا فيها (وهم رجال مستعدون للقتال فى أية دقيقة) مستودعا سريا للذخيرة فى كونكرد . وفى ١٩ أبريل ١٧٧٥ أرسل الجنرال الانجليزى Gage فرقة بريطانية للاستيلاء على المخازن وللقبض على الخائنين وهما جون هانكوك وصامويل آدامز . ولكن أعد الأهالى فرقا للمقاومة ، ورفضوا تسليم الزعيمين هانكوك وآدامز اللذين اختفيا فى لكسنجتون Lexington ، وأرسل الجنرال الانجليزى قوة مكونة من ثمانمائة جندى للقبض على الزعيمين .

ولقد حدث احتكاك مسلح بين الأهالى والفرق المهاجمة ، وأطلق

البريطانيون الرصاص ، وكانت الطلقة التى سمعت فى أنحاء العالم هى أول طلقة فى الثورة ، وقد قتل ثمانية من الأمريكيين فى هذه المعركة ، وتقدم البريطانيون نحو الكونكرد دون مقاومة تذكر ولكن عند عودتهم إلى بوسطن ، تعرضوا لخسائر أفدح من خسائر رجال المليشيا التى تكبدوها فى المعركة الأولى . فقد أخذ المزارعون المختفون خلف أشجار التفاح والحواجز الحجرية على طوال الطريق يأسرون الجنود البريطانيين بأعداد كبيرة . وأخيرا تراجع البريطانيين ليحتموا فى المدينة، فوجدوا أنفسهم محاصرين من قبل ١٦٫٠٠٠ من جنود المستعمرات. وقد وصلت أنباء هذه المعركة بسرعة إلى المستعمرات الأخرى التى تلقتها بمشاعر مختلفة ، فقد ابتهج بعض الناس لحدوث الحرب ، بينما استنكر آخرون جيش رجال المليشيا ، وكانت الاكثرية تأمل أن تنتهى المشكلة بسلام ، وفى ١٠ مايو اجتمع الكونجرس القارى الثانى (المؤتمر الثانى) فى فيلادلفيا ، فإلى جانب إعلان الحرب على انجلترا ، طالب المندوبون الملك جورج بإعادة السلم . ولكنهم على سبيل الحذر أخذوا فى انشاء جيش ، وعينوا جورج واشنطن قائدا عاما له . وقد دل تعيين واشنطون ، وهو من فرجينيا ليقود الحرب التى اندلعت نيرانها فى ماساشوستس على أن المستعمرات كانت تسير نحو التعاون والوحدة .

أهملت السلطات البريطانية من جانبها طلبات المستعمرات من أجل السلام ، واستعدت لإخماد الثورة بقوة السلاح ، وقد زاد الملك جورج جيشه النظامى باستئجار ٢٠٫٠٠ جندى ألمانى ، وفى هذه الأثناء كانت القوات الأمريكية تتحرك فى عدة أنحاء من أمريكا ، ففى بوسطن احتل المواطنون تل بانكر Banker Hill وهو موقع يطل على المدينة ، ودافعوا عنه ضد الهجمات البريطانية العنيفة إلى أن نفذت ذخيرتهم . ثم حدث فى العام نفسه أن أرسلت حملة لغزو كندا إلا أنها هزمت بعد احتلال مونتريال .

على أية حال ، لم يندفع الأمريكيون نحو الاستقلال بل ساروا نحوه

مترددين ، ففي القتال الذى جرى عام ١٧٧٥ كان هدفهم المحافظة على حقوقهم كإنجليز وليس كأمريكيين ، وحتى عندما تقلد جورج واشنطن قيادة الجيش فى بوسطن صرح بأن فكرة الاستقلال « مريعة » له . ولم تكن الثورة فى أى مرحلة من مراحلها حربا شاملة اشتبك فيها كل من كان قادرا على حمل السلاح . فمن أجل ثلاثة ملايين لم يكن لدى واشنطن أكثر من ٢٥,٠٠٠ مقاتل فى وقت واحد. وفى ساعات الشدة لم يكن لديه أكثر من ٣٠٠٠ مقاتل، فقد كان المزارعون الأمريكيون ينضمون إلى الجيش عندما كان العدو يهدد بيوتهم ، ويتركونه عندما يمر الخطر .

وكان جماعة من المواطنين الأمريكيين أمثال صامويل آدامز وباتريك هنرى وراء حركة الحرب الأمريكية بين عامى ١٧٧٥ ـ ١٧٨١ ، وقد كان هؤلاء يحلمون بأمريكا حرة تخلق مصيرها . وبرغم أنهم كانوا يعملون ، ولا يدركون العقبات التى تكمن فى الطريق ، إلا أنهم كانوا مصممين على المحافظة على ايمانهم بهذا الوطن ، ولذلك فقد دفعوا المجالس التشريعية إلى اتخاذ الخطوات العملية فى الحرب ، واخمدوا بعنف شعور الموالاة البريطانية ، وحضوا السكان المترددين على القتال فى سبيل حريتهم .

وكان توماس بين Tomas Paine رجلا انجليزيا من أعظم الثوار ، وقد هاجر إلى فيلادلفيا عام ١٧٧٤ ، وسرعان ما عرف عنه أنه من المنادين بالاستقلال التام عن بريطانيا العظمى . كان بين كاتبا فصيحا « يكره الملكية » إلى حد كبير فقد بيّن فى كتيب له اسمه « الادراك » Common Sense نشر عام ١٧٧٦ للأمريكيين التناقض التام فى وضعهم ، فهم يقاتلون جيوش الملك من ناحية ، ويرجون الصلح من ناحية أخرى . فكان يعادى « انجلترا لأوروبا وأمريكا لنفسها » . ومع ازدياد شعور الحماسة ، وتفاقم الحرب انقطعت الآمال فى السلم ، وازداد الكونجرس جرأة فى موقفه من الانفصال عن بريطانيا . فعين

فى يونيو لجنة من خمسة أعضاء تتضمن بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجون آدامز ليحرروا وثيقة إعلان الاستقلال ، فكتب جيفرسون مشروع الوثيقة التى طرأ عليها بعض التعديلات على يد الأعضاء الآخرين ، ثم أعيد النظر فيها وعدلت من قبل الكونجرس ، وأخيرا أقرت فى يوليو عام ١٧٧٦ ، وهو تاريخ مولد استقلال أمريكا . لقد تحدثت وثيقة اعلان الاستقلال ، The Declaration of Independence بلغة ثابتة وواضحة إلى العالم عن الأسباب التى دعت المستعمرات إلى الانفصال عن البلد الأم . وذكرت الخطوط الأساسية والمعتقدات السياسية الأمريكية : أننا نؤمن بأن هذه الحقائق بديهية : أن جميع البشر خلقوا متساويين ، أنهم منحوا من قبل خالقهم حقوقا ثابتة من بينها حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة . ثم قالت الوثيقة بأن الحكومات تنشأ للمحافظة على هذه الحقوق ، وهى تستمد سلطتها لتحقيق هذه الغايات ، ويحق للشعب أن يبدلها ويلغيها ، ويستبدل بها حكومة أخرى تؤمن هذه المصالح .

وبعد أن قطعت الأمة الجديدة رباطها بانجلترا ، وأسست الولايات المتحدة الأمريكية ، واجهت كفاحا يائسا فى معركة البقاء ولم تكن مهارة جورج واشنطن وبطولته وقيادته التى لا مثيل لها لتكفى للصمود فى هذه الحرب ، وحاول واشنطن أن يطرد الجنرال هاو (Howe) و ١١,٠٠٠ من جنوده من بوسطن ، ولكن الأوضاع انقلبت عندما تقابل الجيشان فى نيويورك من أجل السيطرة على تلك المدينة الاستراتيجية . فقد حطمت القوات البريطانية والألمانية ، التى جاءتها امدادات قوية ، الأمريكيين فى عدة مواقع ، ودحرتهم نحو الجنوب عبر نيوجرسى ، وكانت المساعدات التى قدمها الكونجرس القارى لقواته فى المعركة ضفيفة إذ أن المستعمرات الثلاث عشر كانت لا تزال بعيدة عن الوحدة ، وكان مندوبو المستعمرات يخافون من فرض الضرائب خشية أن يثور الشعب عليهم كما فعل ضد البريطانيين . لذلك فقد قلت إمدادات الطعام والذخيرة ،

وتبعها انهيار الروح المعنوية ، وازداد عدد الفارين من الجندية .

تراجع واشنطن إلى بنسلفانيا . وكان موقفه يزداد حرجا كل ساعة ، إلا أنه أظهر مهارة عسكرية فائقة عندما جمع رجاله للقيام بهجوم مضاد ليلة عيد الميلاد عام ١٧٧٦ ، فهاجم قوة من الجنود في ترنتون ، وتبع هذه الضربة انتصار آخر في برنستون ، وعادت نيوجرسي إلى الأمريكيين مؤقتا . وشهد عام ١٧٧٧ قتالا عنيفا حاسما ، فقد هرعت جنود الجنرال هاو عن طريق البحر من نيويورك إلى فيلادلفيا ، واحتلت العاصمة الأمريكية . فتراجع واشنطن وجنوده إلى خارج المدينة ، ولو أن البريطانيين تابعوا الهجوم لتمكنوا من سحق خصمهم بضربة قاضية ولكن الجنرال هاو لم يكن ديناميكيا ، ويعتقد أن إتجاهاته إلى السياسة كانت ميالة لقضية الأمريكيين .

وبينما كان واشنطن يتعرض لضربات قوية ، كانت معركة أخرى تجرى لصالح الوطنيين ، وهي المعركة الحاسمة في الحرب تدور على بعد مئات الأميال شمال سراتوجا Saratoga في نيويورك عام ١٧٧٧ ، فقد أصبحت القيادة البريطانية غير فعالة ، ويضاف إلى ذلك طول مسافة الإمدادات التي تبلغ ثلاثة آلاف من الأميال . كل هذه العوامل أدت إلى تنازل البريطانيين في لحظة حاسمة ، فخسروا جيشا كاملا . وكانت بريطانيا قد فكرت في خطة لإخماد كل مقاومة في ولاية نيويورك . وبذلك انقسمت أمريكا إلى قسمين ، مثلما حاولت فرنسا أن تفعل قبل عدة سنوات . وكانت الخطة ترمي إلى هجوم على نيويورك من ثلاث جهات ، وتجتمع القوى المهاجمة في ألباني التي تبعد مائة وخمسين ميلا إلى شمال نيويورك في وادي نهر الهيسون ، فيتحرك الجنرال برجوين Burgoyne من كندا ، ويرسل الجنرال هاو Howe جنودا إلى شمال مدينة نيويورك ، ويسير جنرال ثالث من الشرق من بحيرة أونتاريو عبر الولاية . ولكن الحملة أصيبت بالفشل ، ولم تصل غير قوات برجوين التي حوصرت في

ساراتوجا ، واضطرت إلى الإستسلام فى أكتوبر عام ١٧٧٧ . ولم تكن خسارة الجيش فى ساراتوجا هى وحدها التى آلمت انجلترا ، بل أن خسارة مكانتها وسلطتها كانت أشد إيلاما . فقد أصبحت عدوتاها القديمتان فرنسا وأسبانيا تستجيبان لنداء الأمريكيين من أجل المساعدة .

وكان إيجاد صلات مع البلاد الأجنبية على المستوى الدبلوماسى تجربة جديدة فى حياة الأمريكيين ، الذين كانت بريطانيا تنوب عنهم فى هذه المسائل . وكانت أوروبا لفترة من الوقت تساعد أمريكا بعضَ الشيء ، وكذلك كان بعض الضباط العسكريين الأوروبيين أمثال لافاييت Lafayette من فرنسا ، وبعض الشخصيات الهامة من ألمانيا ، والكونت بولاسكى من بولندا ، قد تطوعت فى الجيش الأمريكى وزودوه بما يحتاجه من تدريب وتنظيم . غير أن الحكومات الأوروبية كانت تتردد فى تقديم المساعدات على منهاج واسع ، خشية أن تتورط مع انجلترا فى حرب خاسرة أخرى . ولكن بنجامين فرانكلين تمكن بعد ساراتوجا من إقناع ملك فرنسا بأنه يمكن الحاق الهزيمة بانجلترا إذا ما تحالف الفرنسيون والأمريكيون وعندما بلغ انجلترا نبأ المفاوضات الجارية حاولت إجراء صلح مع مستعمراتها السابقة بأية شروط تريدها شريطة أن تبقى ضمن الامبراطورية . وقد دخلت فرنسا والولايات المتحدة فى حلف فى فبراير عام ١٧٧٨ تتعهد كل دولة بموجبه ان تتابع الحرب إلى أن تصبح الدول الأخرى مستعدة لإجراء الصلح ، ثم قدمت أسبانيا وهولندا مساعدة بحرية للقضية الأمريكية على أمل استعادة بعض الممتلكات التى خسراها فى حربهما مع انجلترا. وهكذا أخذت القروض والإمدادات والرجال ترد من فرنسا ، ولعل أعظم هذه المساعدات هو الأسطول الفرنسى القوى الذى يأتى بعد الأسطول الانجليزى مباشرة .

وعندما أوشك عام ١٧٧٨ على الإنتهاء ، انتقلت مساحات الحرب من الشمال ، فقد بقى جيش واشنطن قرب نيويورك ليمنع القوات البريطانية الموجودة

فى المدينة من التحرك نحو الداخل فتجمد الموقف فى هذه الناحية . واتجهت الأنظار إلى الجنوب على طول الحدود الغربية على أن استيلاء الإنجليز على بعض المناطق فى الجنوب بعد أن عجزوا عن اخضاع الولايات الشمالية لم يحسن من مركز الإنجليز ، وخصوصا بعد وصول القوات الفرنسية إلى أمريكا كما أن الإنجليز لم يستطيعوا سوى اخضاع المدن الساحلية ، ولم يتمكنوا من التوغل فى الداخل . وبناء على هذا الموقف تركزت القيادة الإنجليزية بقيادة كورنواليس (Cornwallis) فى فرجينيا ، وتحصنت فى مدينة يورك تاون حيث ظل كورنواليس منتظرا. وبعد ذلك اجتمعت قوات واشنطن وقوات حلفائه الفرنسيين، وحاصرت قوات واشنطن يورك تاون ، بينما قام الأسطول الفرنسى بمنع الإنجليز من الفرار بطريق البحر . ولقد اشترك لافاييت فى هذه العمليات الحربية ، وحدثت معركة الثورة الأخيرة إذن فى يورك تاون فى فرجينيا ، على بعد بضعة أميال من جيمس تاون ، وهى أول مكان استوطن فيه الإنجليز . وعندما وجد كورنواليس نفسه محاصرا بعدد لا قبل له به ، قام بسلسلة هجمات جريئة ، ولكنها فشلت مما دعاه إلى الاستسلام فى ١٩ أكتوبر عام ١٧٨١ . وكانت هذه الضربة التى نزلت بالإنجليز قاسية جدا ، وقد عبر الشعب البريطانى الذى سئم القتال عن رغبته فى السلم ما عدا الملك جورج الذى غضب كثيرا لفقدانه ما يسميه « مزارعه الأمريكية ». وقد تسلمت وزارة جديدة الحكم فى انجلترا ، وأظهر البريطانيون استعدادهم لإجراء مفاوضات مع الأمريكيين

وقد احتاج هذا الأمر إلى جمع المهارة الدبلوماسية لفرانكلين وجون آدامز وغيرهم لإزالة الصعوبات الناشئة عن المصالح المتضاربة ، والتى كانت تقف فى طريق الصلح السلمى النهائى . وقضت شروط التحالف الفرنسى والأمريكى أن لا يتفاوض أى من البلدين مع انجلترا من أجل الصلح إلا بموافقة البلد الآخر غير أن انجلترا وأمريكا كانتا مستعدتين للدخول فى مفاوضات الصلح حسب شروط

أمريكا ، بينما استمرت فرنسا وحليفتها أسبانيا فى قتال الإنجليز فى البحار ، وفى البر أيضا فى محاولة فاشلة للاستيلاء على جبل طارق . وفى عام ١٧٨٢ أصبح من الواضح أن الحكومة الفرنسية كانت تفكر فى مصالحها ومصالح أسبانيا أكثر من تفكيرها فى مصالح الأمريكيين فقد اقترح فرجين [١] أن تتراجع حدود الجمهورية الأمريكية الجديدة مرة أخرى إلى جبال الأبلاش ، وأن تعود السيطرة على الغرب إلى السيطرة الأجنبية وخاصة سيطرة أسبانيا .

وهنا تبرز الدبلوماسية التى تجمع بين الأضداد. فقد كانت كل من انجلترا والولايات المتحدة لا تريد رؤية امبراطورية فرنسية أسبانية جديدة فى أمريكا تقوم على أنقاض الامبراطورية القديمة . وفى هذا الجو الخطير ، دخل رجال أمريكا وانجلترا فى مفاوضات سرية ، واتفقوا على أن تمتد حدود الجمهورية الجديدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى نهر المسيسيبى ، ومن البحيرات العظمى إلى فلوريدا . وغضب فرجين عندما سمع بالمفاوضات ، ولكن لباقة بنجامين فرانكلين يضاف إليها أخبار عن انتصارات انجليزية فى البحر ، اقنعته فى النهاية أن يرضخ للأمر الواقع ، ووقعت معاهدة باريس فى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ .

كانت المعاهدة بالنسبة لأمريكا كريمة جدا مكنتها من الحصول على كل ما تريد . وقد أعطيت بالإضافة إلى الأراضى التى طالبت بها ، حق الملاحة فى نهر المسيسيبى ، وحقوق الصيد فى سواحل كندا . ومقابل ذلك ، وافق الكونجرس الأمريكى على أن يفعل كل ما فى وسعه لتلبية رغبة بريطانيا الصادقة فى اهتمامها بعشرات الألاف من الموالين لها الذين دعموها فى الحرب . فقد تعرض هؤلاء الناس إلى كثير من المحن فى ظل السيطرة الأجنبية ، وخسروا أراضيهم وبيوتهم وأموالهم ، فشعرت الحكومة البريطانية أنه يجب إعادة حقوق

---

(١) شارل جرانييه فرجين Charles Granier Vergennes (١٧١٧ ـ ١٧٨٧) ، شغل منصب وزير خارجية فرنسا فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٨٧ .

الموالين لها وممتلكاتهم إلى أبعد حد ممكن ووافق الكونجرس أن يوصى الولايات المتحدة باتخاذ مثل هذه التدابير ، غير أن هذه التوصية لم تكن ذات فائدة تذكر للموالين المكوبين .

ففى الواقع ، حتى فى حالة النصر ، كانت الولايات المتحدة لا تزال غير متحدة ، وفى نهاية الحرب ارتبطت هذه الولايات فيما بينها برباط غير متين فى اتفاقية اسمها « شروط الاتحاد » Articles of Confederation ولكنهم ظلوا فى الأساس وحدات مستقلة تعمل من أجل مصالحها الخاصة . فقد كان الكونجرس الذى يمثلهم مفلسا منذ عدة سنوات . وكان الجيش متذمرا لعدم دفع رواتبه ، وكاد أن يثور لولا مناشدة بطله الجنرال واشنطن للجنود بأن يتفرقوا ويعودوا إلى بيوتهم بهدوء ، وهكذا جاء الانتصار والاستقلال ، ولكن جاءت معها حالة من الفوضى الأهلية . فعندما كانت المستعمرات الأمريكية فى حالة حرب مع انجلترا ، استطاعت أن تشكل جبهة قوية موحدة تجاه العدو . وكان الكونجرس الذى يمثلهم يطلب الإعتمادات ، ويحصل عليها لمواصلة الكفاح . وكذلك كان هذا الكونجرس يبرم المعاهدات مع الأمم الأخرى ، غير أنه لم يكن هناك قانون مكتوب ، أو دستور يخول الكونجرس أن يتصرف باسم الشعب . وقد حاولت شروط الإتحاد Articles of Confederation أن تعالج هذا النقص بنصها على أهداف وغايات معينة لحكومة مركزية . وقد جرى اقتراح هذه الأمور فى عام ١٧٧٧ ، ولكن لم يصدق عليها الكونجرس حتى مارس ١٧٨١ .

وهكذا انتهت كل الولايات إلى إقرار الإتحاد الكونفدرالى ، وتحول الكونجرس فى ذلك العام إلى حكومة رسمية بعد موافقة الولايات . ولقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها واستقلالها فى نطاق هذا الائتلاف . وكانت هذه الولايات قد اكتسبت حقوقها خلال الحروب وأثناء الثورة ، فأقامت كل ولاية هيئة تشريعية خاصة بها ، واختارت حاكمها ، ثم أقرت كل منها

دستورها الخاص لفترة ما بين ١٧٧٦ و ١٧٨٠ . أما الكونجرس فكان يتكون من مجلس واحد ، وكان لكل ولاية ، بغض النظر عن حجمها أو عدد سكانها ، صوت واحد في الكونجرس ، وكان الكونجرس مخولا حق إعلان الحرب أو السلم، أو اقتراض المال ، وإرسال وإستقبال السفراء ومعالجة الأمور الخارجية ، ولكن الكونجرس لم يمنح سلطة فرض الضرائب على الشعب مباشرة فقد تشبست الولايات بإعطاء هذا الحق لهيئاتها التشريعية فقط . كما لم يكن للأمة سلطة تنفيذية لتنفيذ التشريعات التي يقرها الكونجرس . ومهما كان الأمر ، فإن هذا النظام الذى تأسس بمقتضى بنود أو شروط الإتحاد هذه ، كان خطوة نحو الإتحاد بين الولايات الذى إتخذ صورته النهائية فيما بعد ، كما صار للشعب الأن الحق في انتخاب حكامه بعد أن كانوا يعينون بطريقة أو بأخرى .

وبرغم ما أحدثته شروط الإتحاد في التطور الدستورى في أمريكا فقد كان النظام ناقصا من عدة وجوه ، فالحكومة الفيدرالية كانت مفككة ، ولم تكن للكونجرس القدرة الكافية لتنفيذ قوانينه ، كما لم تكن هناك محكمة عليا لتفسير هذه القوانين . ولكن الحاجة عقب الحرب ستدعو إلى تعديل هذا النظام الذى أدى الغرض من خلال فترة الحرب ، وحتى إتمام وضع الدستور .

وقد حذر بعض الأمريكيين ، ومن بينهم جورج واشنطن من الأخطار الناجمة عن غياب حكومة مركزية قوية ، وقال واشنطن « يجب أن يكون هنالك سلطة عليا تنظم الأمور المشتركة لجمهورية إتحاد الولايات الجنوبية ، وبدون هذه السلطة لا يمكن أن يطول الأمر بالإتحاد » . وقد تحققت هذه النبوءة عندما عبر الكونجرس بكل أسف عن عدم استطاعته تسيير أمور الأمة ، فقد قل عدد الحضور في جلساته إلى حد لم يكن يوجد فيه عدد كاف من أعضاء حكومة للولايات المتحدة على الإطلاق .

فقد حدث أن تنازعت ولايتا مارى لاند وفرجينيا على حق السيطرة على

التجارة فى نهر البوتوماك (Potomac) ، وبذلك وجدت مناسبة لبحث التعاون بين الولايات استفاد منه المنادون بحكومة أقوى . فدعى مفوضون من الولايتين إلى بيت واشنطن لمباحثات تمهيدية ، وسرعان ما اتضح أن مصالح ولايات أخرى تتشابك مع مصالح مارى لاند وفرجينيا ، لذلك أتفق على أن تدعى جميع الولايات لإرسال مندوبين عنها فى إجتماع يعقد فى العام القادم لبحث مشاكلهم التجارية المشتركة ، ولم تقبل الدعوة إلا خمس ولايات فى عام ١٧٨٦ . ورغم ذلك ، فقد استغل أحد المؤمنين بالحكومة القومية وهو الكسندر هاملتون (Hamilton) هذا الموقف لا سيما وأنه شعر بأن زملاءه المجتمعين معه مستعدون أن يتجاوزوا بحث التجارة إلى إعادة النظر فى شروط الإتحاد . فقد إقترح عقد مؤتمر آخر فى فيلادلفيا فى عام ١٧٨٧ لدراسة الجهاز الحكومى كله . ثم وافق الكونجرس على اقتراح هاملتون ، وأرسلت الدعوات ثانية إلى الولايات الثلاث عشرة .

أرسلت جميع الولايات ممثلين عنها ما عدا ولاية رود آيلاند ، واجتمع المؤتمر وانتخب جورج واشنطن رئيسا له ، وحضره بعض الرجال البارزين من أمثال بنجامين فرنكلين والكسندر هاملتون وجيمى مادسون (M. Madison) وجون ديكنسون (Dickinson) وغيرهم ، وظهرت رغبة الأغلبية منذ البداية ، فقد جاءوا لا لتعديل الشروط السابقة بل لاستبدالها بأخرى تحقق نظاما حكوميا جديدا .

ولقد قدم اقتراحان رئيسيان ، أحدهما من قبل فرجينيا التى تمثل الولايات الكبرى ، والآخر من قبل نيوجرسى التى تمثل الولايات الصغرى . فقد اقترحت فرجينيا شكلا حقيقيا لحكومة وطنية تتألف من ثلاثة فروع : تنفيذية وتشريعية وقضائية . وتتألف السلطة التشريعية من مجلسين يمثل فى المجلس الأعلى أو الـ « سنيت Senate جميع الولايات تمثيلا مبنيا على حجم كل ولاية وثروتها ،

وينتخب الشعب أعضاء المجلس الأدنى أو مجلس الممثلين . وبهذا الإقتراح ، فقد سددت فرجينيا الضربة إلى مجالس الولايات التشريعية ، بموجبه لم تعد الولايات تعمل كليا لمصلحتها الذاتية ، وتقف فى وجه التشريع الإتحادى الذى لا تقره . وبموجب هذا الإقتراح يمثل المواطنون مباشرة ، ويحكمون من قبل الكونجرس الولايات المتحدة . أما اقتراح ولاية نيوجرسى فقد كان أكثر ضررا . فقد خشيت الولايات الصغيرة أن تضيع فى نظام التمثيل المباشر للشعب كالذى اقترحته فرجينيا . وفى هذه الحالة تتغلب الحكومة الاتحادية عليها فى المسألة تلو المسألة ، وذلك عن طريق التشريعات التى تقرها الولايات الكبيرة على حسابهم ، لذلك اقترحت نيوجرسى تأليف كونجرس بمجلس واحد يتساوى فيه التمثيل لكل ولاية كما نصت على ذلك شروط الإتحاد ، ولكن مع منح الكونجرس السلطة لفرض الضرائب على الولايات وتنظيم التجارة ، فخطة نيوجرسى فيها التأكيد على سيادة حكومات الولايات ، وذلك بإعطائها سلطة توجيه سياسات الحكومة الوطنية، بدلا من إعطاء هذه السلطة للأفراد القاطنين ضمن الولايات .

وبرغم أن إقتراحى نيوجرسى وفرجينيا كانا متباعدين فى المعنى والشمول ، إلا أن المندوبين المجتمعين فى فيلادلفيا استطاعوا عن طريق الحلول الوسطى ، الوصول إلى إتفاق بعد عدة أسابيع من النقاش ، فالكونجرس يجب أن يتألف من مجلسين ، كما اقترحت فرجينيا ، ولكن الولايات جميعها يجب أن تمثل فى المجلس الأعلى عن طريق عضوين تنتخبهما مجالس الولايات التشريعية . وفى المجلس الأدنى ينبى عدد الممثلين الذين ترسلهم كل ولاية على عدد سكانها ، وينتخب الشعب هؤلاء الممثلين مباشرة حسب ما جاء فى اقتراح فرجينيا .

كانت هذه هى العقبة الكؤود التى واجهت المندوبين ، ولم يتغلبوا عليها بسهولة ، فقد طلب الجنوب مثلا أن تعتبر الأعداد الكبيرة من الرق فيه قسما من

السكان ، وإن كان لا يحق لهم الإقتراع ، وذلك لكى يزيد عدد الممثلين عن ولاياته . وأخيرا جرى الإتفاق على اعتبار ثلاثة إخماس الرق مع عدد المواطنين الأحرار . وهكذا انتزع الدستور سيادة الولايات وسلمها للشعب ككل ، فيكون للحكومة الوطنية اختصاصها ، ولحكومات الولايات اختصاصات أخرى . وأعلن الدستور أن الولايات المتحدة ستضمن لكل ولاية فى الإتحاد شكلا جمهوريا فى الحكومة ، وستحمى كل واحدة منها فى حالة تعرضها للهجوم . وبموجب دستور الإتحاد انقسمت الحكومة الوطنية إلى ثلاثة فروع : تشريعية وتنفيذية وقضائية ، لكل منها بعض السلطة أو القيود على الأخرى ، وذلك لمنع أى فرع منها من أن يتطرف أو أن يصبح دكتاتورا . هذه الطريقة التى تدل على تفكير فى المحافظة على الحقوق الديمقراطية قد سميت بنظام « حفظ التوازن » .

وأعطى الكونجرس وهو الهيئة التشريعية ، سلطة سن القوانين فى كثير من المجالات التى تتعلق بالنواحى الوطنية والمسائل الخارجية ، ومن أهم واجباته المخصصة فرض الضرائب ، واقتراض المال ، وتنظيم التجارة بين الولايات ، وتوحيد النقد بين الولايات ، وإنشاء جيوش مسلحة ، وحكم أراضى الولايات المتحدة ، وقبول الولايات الجديدة فى الإتحاد . وهناك اختصاصات عامة ، وهذا أعطى الكونجرس قوة حقيقية فهو يستطيع اعتماد الأموال لما فيه مصلحة الولايات المتحدة العامة ، ويسن جميع القوانين اللازمة للتنفيذ ، وقد خول حق اقتراح التشريعات لتحصيل الضرائب لمجلس الممثلين (النواب) . ومن ناحية أخرى ، حرمت على الكونجرس بعض السلطات .

فلم يستطع مثلا أن يفضل مرافىء ولاية على ولاية أخرى فى قضايا التجارة والعائدات ، وكذلك لا يستطيع أن يمنح الألقاب . ومن العوامل التى ساعدت على تقوية السلطة المركزية ، هى أن حكومة الإتحاد ، وليس الولايات هى التى كانت تدفع رواتب رجال الكونجرس ، فالسناتور Senator يخدم مدة

ست سنوات بينما يخدم أعضاء مجلس الممثلين سنتين ، وفى المجلس الأعلى ، ينتخب ثلث الأعضاء كل سنتين ، ولذلك يبقى نوع من الإستقرار فى عضوية هذا المجلس .

وكانت الهيئة التنفيذية للحكومة تشرف على تتنفيذ القوانين التى يقرها الكونجرس ، والسلطات التنفيذية كانت تجبى الضرائب التى صوت عليها الكونجرس ، وتنظيم القوات المسلحة التى أنشأها ، وتصك النقود التى أذن بها . وباختصار ، تعمل على تنفيذ جميع مشاريع الكونجرس ، ويرأس الهيئة التنفيذية رئيس الولايات المتحدة الذى تولى تنفيذ القوانين التى يمكن الموافقة عليها بواسطة الكونجرس ، ومدة رئاسته أربع سنوات . ويساعد الرئيس نائب الرئيس الذى يرأس المجلس الأعلى ، وكذلك يساعده موظفون اداريون آخرون بعد موافقة الكونجرس عليهم ، ومن هنا نشأ نظام الوزارة Cabinet الذى يتألف من وزير الدولة ، ووزير الخزانة ، والداخلية ، والحربية وبعض الموظفين الآخرين . وظل هؤلاء يساعدون الرئيس التنفيذى ، ويتلقون أوامره . غير أن الرئيس لم يكن مجرد أداة فى يد الكونجرس فكل مشروع قانون يقر ، يجب إرساله اليه للموافقة عليه وتوقيعه لكى يصبح قانونا . وإذا لم يوافق عليه فهو يستطيع استعمال حق الفيتو (Veto) ويرده لإعادة النظر فيه . وإذا عاد الكونجرس وأقر القانون بأغلبية ثلثى الأصوات ، عندها يصبح القانون سارى المفعول مما جعل فروع الحكومة الثلاثة موزعة توزيعا متوازنا . والرئيس أيضا هو القائد الأعلى للجيوش والبحرية ، ويعقد المعاهدات مع البلاد الأجنبية شريطة أن يوافق عليها ثلثا أعضاء المجلس الأعلى ، وكذلك فهو يعين السفراء وقضاة المحكمة العليا وموظفى الإتحاد الآخرين بموافقة المجلس الأعلى . وإذا دعت الحاجة فهو يستطيع دعوة الكونجرس لجلسة خاصة ، والمفروض فيه أن يقترح تدابير مختلفة للكونجرس فى رسالته السنوية عن حالة الإتحاد . من جهة أخرى ، نجد أيضا فى نظام « حفظ التوازن » أن الكونجرس

يستطيع أن يقدم الرئيس للمحاكمة ، واستجوابه وعزله من منصبه فى حالة الرشوة والخيانة أو غيرها من الجرائم والجنح .

أما بالنسبة لوضع نظام خاص لإنتخاب الرئيس التنفيذى فتنتخب كل ولاية بالطريقة التى تحددها تشريعاتها ، جماعة من المنتخبين مساوين فى العدد لمجموع ممثلى الولاية فى كل من مجلس الكونجرس ، ثم يقترع المنتخبون على الرئيس ، فإذا حصل أى مرشح على أغلبية ظاهرة انتخب ، وينتخب الذى يأتى بعده مباشرة نائبا للرئيس . وفى حالة التساوى أو إنعدام الأغلبية يختار مجلس الممثلين (النواب) الرئيس ، ويكون لكل ولاية صوت واحد . وقد هدف واضعو الدستور من هذا النظام فى انتخاب الرئيس إلى أن لا ينتخب الرئيس من قبل الكونجرس أو السلطات التشريعية لكى لا يصبح الرئيس مقيدا بهم . ولكن أرادوا أن ينتخبه جماعة من الرجال يمثلون أصحاب السلطة من الناس فى جميع الولايات .

أما السلطة الثالثة وهى السلطة القضائية فكانت تتألف من المحكمة العليا وغيرها من المحاكم الدنيا التى يعينها الكونجرس . وتفصل المحكمة العليا فى المنازعات ذات الصبغة الوطنية ، أو فى المنازعات التى تنشأ بين الولايات . وتكون أحكامها نهائية وغير قابلة للرفض ، غير أننا نجد مرة أخرى نظام حفظ التوازن فالأعضاء الذين يتألفون من الرئيس وثمانية أعضاء يعينهم الرئيس بموافقة المجلس الأعلى ، وهؤلاء وغيرهم من القضاة فى المحاكم الدنيا يمكن محاكمتهم . وكانت المحاكم الإتحادية موزعة فى الولايات . وهى تذكر كل مواطن بحقوقه والتزاماته للحكومة الوطنية . فإذا خرق شخص قانونا اتحاديا يحاكم فى محكمة اتحادية ، وإذا وجد مذنبا يحكم عليه بالسجن فى سجن إتحادى . ولكن من جهة أخرى استطاع المواطن أن يظهر سببا كافيا لإعادة النظر فى قرار المحكمة ، فإنه يستطيع أن يرفع قضية ليصل بها الى المحكمة العليا . كما أعطى نظام المحاكم

الإتحادية سلطة شرعية واسعة فى الأمور التى تؤثر على القضايا الوطنية والدولية . فهذا النظام مفوض بأن يحكم فى المعاهدات الأجنبية التى تعقدها الولايات المتحدة ، وفى الحالات التى تتعلق بالسفراء والوزراء ، وكذلك فهو يفصل فى المنازعات التى تنشأ بين ولايتين أو أكثر، وبين الولاية والمواطنين من ولاية أخرى، وبين المواطنين من ولاية مختلفة . وبرغم ذلك فقد بقيت أمور كثيرة فى المجال القضائى لمحاكم الولايات والمحاكم المحلية التى بقيت تعالج معظم الأمور للمواطنين العاديين فى أنحاء البلاد .

وقد نص الدستور على إجراء تعديلات كلما دعت الأوقات والظروف الى مثل ذلك . فيستطيع الكونجرس بإجماع الثلثين فى كل المجلسين أن يقترح تعديلا ، أو إذا تقدم ثلثا مجالس الولايات التشريعية بطلب فيعقد مؤتمر لتقديم الإقتراح . وفى كلتا الحالتين ، إذا وافق ثلاثة أرباع المجالس فى الولايات التشريعية ، فإن التعديل يصبح نافذ المفعول ، ويصبح جزءاً من الدستور . ولقد دل الزمن على أنه لم تدع الحاجة إلا للقليل من التعديلات ، ذلك لأن الدستور كتب بطريقة مرتبة مرنة، ويمكن التوسع فى تفسيره من قبل الكونجرس والمحاكم. وبعد أن أنشأ مندوبو المؤتمر الدستورى أداة قوية متوازنة لحكم الولايات المتحدة ، انتهت أعمالهم فى عام ١٧٨٧ . وأرسلت الوثيقة الى الكونجرس الذى قدمها بدوره إلى الولايات للتصديق عليها من قبل مؤتمر يدعى إليه خصيصا لهذه الغاية، وقد كان تصديق تسع ولايات لازما لإقرار هذا الدستور ، فكان لا بد من معركة قاسية لتأمين هذا الإقرار .

لقد نال الدستور التسعة أصوات اللازمة لإقراره . ولكن بقيت ولايتان كبيرتان هما فيرجينيا ونيويورك تعالجان المسألة بعنف ، وكان الصراع فى نيويورك عنيفا ، فأحرز الفيدراليون النصر نتيجة لجهود الكسندر هاملتون وكان التصويت النهائى ٣٠ مقابل ٣٧ لتبنى الدستور . وبعد أن أصبحت إحدى عشر ولاية من

ثلاثة عشرة منضمة تحت لواء علم الإتحاد وحكومة واحدة ، كان لابد للولايتين الباقيتين رود ايلاند وكارولينا الشمالية من الإنصياع للوضع الراهن . ولم تشترك رود آيلاند فى المؤتمر الدستورى فى فيلادلفيا ، كما أنها لم تدع لمؤتمر التصديق الدستورى ، ولكن عندما هددتها الولايات المتحدة بأن تعاملها كأمة أجنبية ، استسلمت ردو آيلاند أخيرا ، وأصبح الإتحاد كاملا . أما هذه الولايات الثلاثة عشر الأصلية فهى كونكتيكوت، ديلاوير (Delaware)، وجورجيا ، وميرى لاند ماساتشوستس ، نيوهامبشر ، نيوجرسى ، نيويورك ، كارولينا الشمالية ، بنسلفانيا، رود آيلاند ، كارولينا الجنوبية ، وفرجينيا . ولقد اجريت الإنتخابات ووقع الإختيار الإجماعى على جورج واشنطن ، ثم اختير جون آدامز من ماساشوستس كنائب للرئيس ، وكانت العاصمة فى السنوات الأولى مدينة نيويورك .

وهكذا تكونت جمهورية متوثبة أصبحت متأهبة لتبدأ حياتها فى العالم الجديد. ولقد كشف تعداد للسكان أجرى فى العام التالى لتنصيب واشنطن، عن انها كانت تضم حوالى أربعة ملايين نسمة ، كان ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريبا من البيض » . فلم تكن هناك من المدن ما تستحق الأسم سوى خمس : فيلادلفيا وتضم ٤٢٫٠٠٠ شخص ، ونيويورك وتضم ٣٣٫٠٠٠ ، وبوسطن ١٨٫٠٠٠ ، وتشارلستون ١٦٫٠٠٠ ، وبلتيمور ١٣٫٠٠٠ . وكانت الأغلبية العظمى من السكان يعيشون فى مزارع أو ضياع أو فى قرى صغيرة . وكانت المواصلات شحيحة وبطيئة ، إذ كانت الطرق سيئة والحافلات غير مريحة، والسفن غير منتظمة ، بيد أن شركات الطرق بدأت تتكون ، ومالبثت القنوات أن حفرت. وكان معظم الناس يعيشون فى عزلة نسبية ، والمدارس قليلة ، والكتب أقل ، والصحف نادرة. وكان الطابع الذى خلفته أمريكا لدى الرحالة الأوروبيين هو طابع الخشونة وقلة الراحة . وغلظة الطباع، وضآلة الثقافة مع الإستقلال واليسر المادى، واعتداد بالنفس لا حدود له. علما أن حالها كانت فى تحسن ثقافيا

وماديا .

ذلك أن البلاد كانت فى نمو مطرد دائب ، فأخذ المهاجرون من العالم القديم يفدون بأعداد جعلت الأمريكيين يظنون فى بعض الأحيان أن نصف أوروبا الغربية كان يتدفق على بلادهم . وكانت المزارع الجيدة متوفرة لقاء مبالغ صغيرة، وكان الطلب شديدا على العمال ، والأجر طيبا . ونظرت الحكومة إلى هذه الهجرة نظرة تشجيع ، وكان جورج واشنطون يحبذ فكرة استقدام المزارعين ذوى الخبرة من انجلترا لتعليم الأمريكيين أساليبَ زراعة أفضل ، وسرعان ما أصبحت المساحات المترامية فى وادى موهوك وجنيس فى شمال نيويورك ، ووادى سهسكيهانا فى شمال بنسلفانيا ، ووادى شيناندوا فى فرجينيا ، مناطق لزراعة القمح . وأخذ الناس من نيوانجلند وبنسلفانيا ينتقلون الى أوهايو ، ومن فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية الى كنتكى وتنيسى .

كذلك كان أصحاب المصانع فى ازدياد ، تشجعهم المنح من الولايات ، وأخذت ماساتشوستس ورود آيلاند تضعان أسس صناعات نسيج مهمة . أخذت تحصل خفية على نماذج الآلات من انجلترا . وكانت كونكتيكوت قد بدأت تنتج السلع التصديرية والساعات ، وولايات الوسط تنتج الورق والزجاج والحديد . غير أن أمريكا لم تكن حتى ذلك الحين قد أوتيت مدنا صناعية ينصرف سكانها تماما إلى العمل فى المصانع . والواقع أن معظم العمليات الصناعية كانت تؤدى فى المساكن ، فكان بوسع المزارعين أن يصنعوا فى أمسيات الشتاء الطويلة ، أقمشة خشنة وسلعا من الجلد ، وأوانى من الفخار ، والأدوات الحديدية البسيطة والسكر والأدوات الخشبية . وعندما بدأت المصانع والورش فى الظهور كان أصحابها كثيرا ما يشتغلون مع عمالهم الأجراء .

وأخذت الملاحة تزدهر ، وشرعت الولايات المتحدة فى إحتلال المكانة الثانية بعد انجلترا فى المحيط ، وصنعت السفن بأعداد كبيرة للتجارة الساحلية ،

ولصيد السمك ولصيد الحوت ، ولنقل الحبوب والتبغ والأخشاب وغيرها من البضائع فى أوروبا . ولم تكن الثورة قد انتهت تماما عندما قامت السفينة «امبريس» برحلة إلى « كانتون » ، وعادت بأنباء امكانيات الإتجار مع الصين ، مما أثار حماسة أهل نيوانجلند ، وبرزت تجارة جديدة ، بلغ من نشاطها أن خمس سفن تحمل العلم الأمريكى « النجوم والأشرطة » ذهبت الى الصين فى عام ١٧٨٧ . وكان الصينيون يتلهفون على اقتناء الفراء ، فصمم بعض تجار بوسطن على إرسال سفن إلى الساحل الشمالى الغربى لأمريكا الشمالية ، لشراء جلود الحيوان من الهنود الحمر ، ونقلها إلى الصين ، مقابل احضار الشاى والأقمشة الحريرية . وقد أدت هذه الفكرة إلى بداية علاقات تجارية ناجحة بين الصين والولايات المتحدة منذ فترة مبكرة .

الفصل الرابع عشر

الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦١ ـ ١٨٦٤

لقد اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية بين ولايات الشمال والجنوب بفعل عوامل كثيرة متعددة ، ويرجع بعضها إلى طبيعة الإستعمار الأوروبى لأمريكا منذ أن استقرت الهجرات الأوروبية فى أماكن معينة اتخذت لها طابعا اقتصاديا خاصا أملته عليها طبيعة ظروفها الجغرافية والثقافية والإجتماعية . فلقد ظلت الولايات الشمالية حتى عام ١٧٦٠ تحترف الزراعة ، شأنها فى ذلك شأن الولايات الوسطى والجنوبية برغم أن الطبيعة لم تمنح الولايات الشمالية سعة فى الأراضى الزراعية كما منحت ولايات الجنوب ولذلك لم يكن للزراعة شأن كبير فى حياة تلك الولايات الشمالية .

وترتب على هذا أن تبنت الولايات الشمالية نظريات اقتصادية معينة تستند أساسا على عدم الإهتمام بالأرض الزراعية كمورد هام من موارد الثروة . فلم تحافظ على بقاء تلك الأرض على هيئة اقطاعيات كبيرة كما كان الحال فى الولايات الجنوبية ، بل كانت تورث الأرض للأبناء بالتساوى دون وضعها فى يد الإبن الأكبر فقط ، كما كان متبعا فى الجنوب . ومن ثم اختفت الإقطاعات الكبيرة فى الشمال ، بينما ظلت باقية فى الجنوب بشكل واضح وملموس ، ومن هنا اختلفت نظرة كل من الشماليين والجنوبيين للأرض .

أما الولايات الجنوبية ، فقد حبتها الطبيعة بالسهول الواسعة وبالخصب وبوفرة الماء . وبكل مقومات الإقليم الزراعى الخصيب ، وتخصص المزارعون فى الجنوب فى زراعة محاصيل معينة كالتبغ والأرز ، والنيلة ثم القطن ، واصبحت

الولايات الجنوبية من أكبر اقاليم العالم إنتاجا للقطن والسيطرة على أسواقه العالمية وعلى أسعاره . وقد واجه الجنوبيون مشكلة صعبة عند زراعة تلك المساحات الواسعة من الأرض ، وهى قلة الأيدى العاملة . وجاء الحل فى شراء الرقيق من أواسط افريقيا وتشغيلهم فى الأرض . وبمضى الوقت ظهرت مشكلة جديدة بتكاثر عدد هؤلاء الأرقاء ، وزيادة عددهم زيادة كبيرة ، وعدم تمتعهم بما يتمتع به الأمريكى من الحقوق . وهكذا أصبح الرقيق من أهم مستلزمات الحياة الإقتصادية فى الجنوب . ومن هنا جاء اختلاف النظرة إلى الأرض بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية .

وكان سكان الولايات الشمالية يضغطون على الكونجرس الأمريكى لإباحة الهجرة الى تلك الولايات دون قيد أو شرط ، ليتمكنوا من اجتذاب عدد كبير من الأيدى العاملة الرخيصة التى تستخدم فى إدارة المصانع ، وفى الإنتاج الصناعى الكبير ، والقيام بالمشروعات العمرانية الواسعة التى تحتاج الى رؤوس الأموال الكبيرة . كما كانوا أيضا يحثون الكونجرس على فرض ضريبة عالية على المصنوعات المستوردة من الخارج ، لحماية المنتجات المحلية التى يقومون بانتاجها ، فالحماية الجمركية فى صالح أصحاب رؤوس الأموال فى الشمال ، فى حين أنها تضر بمصالح المستهلك من طبقة المزارعين فى الجنوب .

ومن ناحية أخرى ، عارض الجنوبيون فكرة منح الأراضى لصغار المزراعين والعمال حتى لا يؤدى هذا العمل لإنشاء دويلات جديدة تتبع نظاما لا يقوم على الرق كعامل هام من مقومات الحياة الاقتصادية . وسيصبح انضمام تلك الولايات الجديدة إلى الإتحاد الأمريكى فى غير صالح ولايات الجنوب ، لأنه سيزيد من عدد الولايات المعارضة للرق داخل الإتحاد مما قد يؤدى إلى تغلب أصواتها فى الكونجرس الأمريكى على أصوات الولايات الجنوبية المؤيدة . والواقع أنه لم يكن من الميسور القضاء على الرق بسهولة لأن الغاءه بالنسبة للولايات الجنوبية معناه

القصاء التام على أهم مقومات الحياة الاقتصادية فى تلك الولايات . بينما لن تتأثر الولايات الشمالية من هذا القرار الخطير لأن الحياة الاقتصادية تركزت فى أيدى البيض . ولم يكن للزنوج عمل فى الشمال سوى الخدمة فى المنازل . وكان من السهل على أهل الشمال الإستغناء عن خدماتهم .

وعندما نالت الولايات المتحدة استقلالها فى عام ١٧٨٣ ، لم يكن هناك بد من الإعتراف فى الدستور بشرعية الرق . ولكن فى نفس الوقت ، سادت فى الولايات الشمالية فكرة التدرج فى إلغائه واتخاذ التدابير اللازمة لذلك . وبدأت الولايات الشمالية الواحدة بعد الأخرى تدخل التعديلات الضرورية فى دساتيرها للنص على هذا الإلغاء . وكانت أولى تلك الولايات ماساتشوستس ، إذ إلغت الرق عام ١٧٨٠ ، وتلتها بنسلفانيا فى نفس السنة، ثم ولاية نيويورك عام ١٨٩٩ . وإبتداء من عام ١٨٣٠ ، أخذت الإتجاهات تتزايد بإطراد بصدد إلغاء الرق من القطاعين الشمالى والجنوبى . وفى عام ١٨٣١ أنشأ وليم لويد جاديسون صحيفته «المحرر» (LIBERATOR) فى بوسطن ، كما قام بدور لا يقل عن دوره أهمية فريق قوى من أوهايو تزعمه رثر تايان ، وفى نفس الوقت أعلن كثير من زعماء الجنوب أن الرق خير مؤكد ، فنشر توماس ديو ، من جامعة وليم آند ميرى، كتابا يدافع عنه ، ووصفه هموند ، حاكم كارولينا الجنوبية فى عام ١٨٣٥ ، بأنه « حجر الزاوية فى صرحنا الجمهورى » .

وهال أصحاب المصانع فى الجنوب أن تضيع مصالحهم تحقيقا لمبادىء إنسانية لم يكن يعيروها أدنى اهتمام . وبدأ الخلاف يشتد بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية عندما أخذت الولايات الغربية تنضم للإتحاد الأمريكى . ففى عام ١٨١٨ انضمت ولاية الينوى إلى الإتحاد ، وأصبح بذلك عدد الولايات التى تناهض الرق أحد عشر ولاية مقابل عشر ولايات تؤيده. وفى عام ١٨١٩ ، تقدمت ولاية الباما للإنضام للإتحاد كولاية تقر مبدأ الرق ، فعارضت الولايات الشمالية

فى ذلك ، إذ ستتعادل ولايات الجنوب مع ولايات الشمال فى الأصوات داخل الإتحاد الأمريكى . وكاد هذا الاختلاف يؤدى إلى حرب بين الطرفين لولا تدخل أحد السياسيين ويدعى هنرى كلاى (CLAY) فى الأمر ، فوضع ما يعرف باتفاق ميسورى كحل للمشكلة . وبمقتضى هذا الإتفاق ، جعل خط عرض ٣٦ شمالا تقريبا كحد فاصل بين الولايات التى تقر الرق فى الجنوب ، والولايات التى تناهضه فى الشمال ، ووافق الطرفان على هذا الحل .

غير أن هذه المشكلة ثارت مرة أخرى بشكل يهدد الإتحاد ، وذلك بعد انتصار الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب الأهلية المكسيكية وإستيلائها على كاليفورنيا ونيومكسيكو. وفى ذلك الوقت ، تقدم أحد نواب الشمال الى الكونجرس الأمريكى يطالب بمنع الرق فى هذه المستعمرات الجديدة ، فثار نواب الجنوب وطالبوا بأن يكون لهم نفس الحق الذى للشماليين فى ممارسة نشاطهم الاقتصادى . وكاد أن يؤدى هذا الخلاف أيضا الى حرب بين الفريقين لولا تدخل هنرى كلاى للمرة الثانية وقيامه بوضع إتفاقية فى عام ١٨٥٠ أسهمت فى وضع حد لهذا النزاع لما يقرب من ثلاث سنوات .

وبرغم ذلك ، ظل التوتر قائما ، وتجدد النزاع من جديد عندما أقر الكونجرس الأمريكى بدخول ولايتى كانساس ونبراسكا الخصبتين الإتحاد بالشكل الذى ترياه ، إما مؤيدتان للرق أو مناهضتان له. ولما كانت هاتان الولايتان فى شمال خط عرض ٣٦ شمالا ، وهو الحد الأقصى لإمتداد الرق طبقا لإتفاقية ميسورى ، فقد اعتبر هذا القرار من الكونجرس مخالفة صريحة لنصوص تلك الإتفاقية . وكان هذا الحادث الجديد من العوامل التى أيقظت الحقد الدفين فى صدور كلا الفريقين .

وفى عام ١٨٥٤ ، قام تنظيم جديد هو « الحزب الجمهورى » الذى اجتذب الشباب من ذوى الذكاء ، وضم رجال الأعمال فى شرق الولايات

المتحدة الأمريكية والمزارعين فى غربها . وكان مطلب الحزب الأول هو إلغاء الرق، ومقاومة كل حركة ترمى إلى إمتداده إلى الولايات الغربية ، وكان من رجال هذا الحزب البارزين ابراهام لنكولن Abraham Lincoln (١٨٠٩ - ١٨٦٥) الذى قال فى عام ١٨٥٤ « لو أوتيت كافة السلطات الدنيوية لما عرفت ماذا ينبغى أن أفعل للنظام القائم » وأعلن أن حق الكونجرس فى إلغاء اتفاق ميسورى لا يتعدى حقه فى إلغاء القانون المناهض لجلب العبيد من افريقيا . وأكد أن جميع التشريعات القومية يجب أن تصاغ فى إطار المبدأ الذى أتخذه مؤسسو الجمهورية ، وأن الرق نظام لابد من تغييره توطئة لإلغائه فى النهاية .

ولاحت طلائع الحرب فى الأفق بسبب تكالب كلا الفريقين الشمالى والجنوبى على استيطان ولاية كانساس ، ومحاولة كل منهما أن يتفوق فى عدد أنصاره على الآخر ، ليتمكن من تقرير مصير الولاية فى صالحه الخاص . وعندما أجريت الإنتخابات داخل الولاية لإختيار ممثل لها لدى الكونجرس الأمريكى ، تغلبت أصوات المؤيدين على أصوات خصومهم ، وقد أغضبت هذه النتيجة ، التى جاءت فى صالح مؤيدى الرق ، أهل الشمال ووسعت شقة الخلاف بينهم وبين أهل الجنوب .

ومن الخصائص التى زادت من خطورة الأحداث ، أن الشمال والجنوب كانا قد تطورا إلى قطاعين مختلفين إختلافا كبيرا من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، فكان الجنوب بأكمله ، تقريبا ، ريفيا ولم توجد به سوى مدينة كبيرة واحدة هى نيوأورليانز . أما الشمال فقد انتشرت المدن فى أجزاء كبيرة منه. واقترب تعداد سكان مدينة نيويورك من المليون نسمة . ولم تكن فى الجنوب صناعة تذكر ، والواقع أن ما كانت تستهلكه مصانع النسيج من القطن كان يقل عما تستهلكه مدينة لوويل Lowell وحدها فى ماساتشوستس ، وأزدهر الشمال بالمنشآت الصناعية التى انتجت الحديد والمنسوجات والأحذية والساعات والأدوات

الزراعية وغيرها. وبالإضافة الى ذلك كان إنشاء الطرق الحديدية فى الشمال أكثر تقدما مما كان عليه الحال فى الجنوب ، وحظى الشمال وحده بالجزء الأكبر من العشرين ألف ميل من الخطوط الحديدية التى أنشئت بين عامى ١٨٥٠ ,١٨٦٠ .

وبرغم أهمية هذه الفوارق ، فلم يكن فى مقدروها أن توقع الفرقة بين الشمال والجنوب لو لم يضخمها الخوف ، ولم لم يستغلها مثيرو الفتن بين عامة الشعب ، وكان الجنوب يدرك إدراكا تاما أن وراء مشكلة الرق مشكلة عنصرية لا حل لها . وبالغ كثيرون من مثيرى الفتن فى مساوىء المجتمع الصناعى ، وأهداف الداعين إلى أرض الحرية . وقد قال أحد الحكماء من زعماء نيويورك ، أن الوئام بين الشمال والجنوب يمكن أن يصان لو تم جمع مثيرى الخواطر بين الفريقين ، وشحنهم فى مركب واحد ، وإغراقهم فى نهر بوتومانى لمدة خمس عشرة دقيقة . وعلى أيه حال ، تكهرب الجو بين أهل الشمال والجنوب ، وتدهورت الأمور إلى الحد الذى قرر فيه كل فريق حل تلك المشكلة بحد السيف. ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الحرب التى ستنشب بين الطرفين أطلق عليها بعض المؤرخين الثورة الأمريكية الثانية ، واعتبروها نتيجة حتمية للنظم الإجتماعية الأمريكية اقتضتها الظروف المحيطة بالشعب الأمريكى فى ذلك الوقت.

وبدأ الحزبان الرئيسيان فى أمريكا حركة المقاومة فى كلا الجانبين ، فالحزب الجمهورى فى الشمال أخذ ينظم صفوفه ويستعد لخوض المعركة الإنتخابية عام ١٨٦٠ ، فاجتمع فى مدينة شيكاغو وقام بترشيح ابراهام لنكولن رئيسا على أساس المبادئ التى نادى بها الحزب ، والتى تنص على أنه ليس للكونجرس ولا لأى مجلس تشريعى من مجالس الولايات الحق فى منح الإسترقاق الصفة القانونية فى أية ولاية من الولايات الأمريكية . وفى الجانب الآخر . وجد الحزب الديمقراطى الذى كان يتكون من زعماء الحزب الجنوب وكانت سياسته ترمى إلى مراعاة الحقوق المكتسبة لكل ولاية ، وكذلك العمل على حفظ

سياستها واستقلالها ، وأن يكون للكونجرس الأمريكى السلطة فى حماية الرق فى الولايات الغربية ، على ألا تتعدى تلك السلطة حدودا معينة ، وبحيث لا يكون أمر إلغاء الرق من إختصاصه .

وبفوز ابراهام لنكولن بالرياسة بتأييد الولايات الشمالية والحزب الجمهورى، غضبت الولايات الجنوبية ، وفى مقدمتها ساوث كارولينا زعيمة الجنوب ، وأعلنت أن الشمال قد انتخب للرئاسة رجلا « ذا آراء وغايات معادية للرق » ، ولذلك قررت فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٦٠ الإنسحاب من الإتحاد الأمريكى ، وتبعتها بعد ذلك ولايات فلوريدا والباما ومسيسيبى وتكساس ولويزيانا وجورجيا . ويعتبر انفصال هذه الولايات الجنوبية عن الإتحاد عملا خطيراً أدى إلى تصدع الجبهة الداخلية فى الولايات المتحدة ، وحمل الرئيس الجديد ابراهام لنكولن مهمة شاقة لإرجاع هذه الولايات المتمردة إلى حظيرة الإتحاد بأية وسيلة من الوسائل ، على أن يكون إستخدام القوة آخر تلك الوسائل التى ذهب تفكيره إليها.

ويمثل هذا الإنفصال ، من وجهة نظر الولايات الجنوبية المنشقة ، خوف الولايات على مصالحها من أن تضيع إذا ما قدر لأهل الشمال التغلب عليهم ، فالنزاع فى نظر رجال الإقطاع فى الجنوب يتمثل فى الصراع بين المصالح الصناعية فى الشمال والمصالح الزراعية فى الجنوب ، وخوف الجنوب من سيطرة الصناعة ، والتضحية بمصالحه الزراعية . وعلى أية حال ، لم يكن الإنفصال فى صالح الولايات المتحدة الجنوبية بقدر ما كان فى صالح زعماء الجنوب ، وأصحاب المصالح الزراعية فيه . وفى ٤ فبراير عام ١٨٦١ اجتمع مندوبو الولايات الجنوبية السبع المنشقة على الإتحاد ، وقرروا فيما بينهم تكوين حكومة الولايات الإئتلافية الأمريكية Confederate States of America وعلى رأسها جيفرسون ديفز Jefferson Davis (١٨٠٨ ــ ١٨٨٩) .

واختلف الرأى العام الأمريكى فى نظرته إلى تلك الحركة الإنفصالية ، فالتجار الشماليون الذين كانوا يرتبطون بعلاقات تجارية مع الولايات الجنوبية قد أسفوا لهذه الخطوة ، ولكنهم فى نفس الوقت حاولوا إعادة تلك الولايات إلى حظيرة الإتحاد بالطرق السلمية ، دون أن يحبذوا إستخدام القوة حتى لا تسوء علاقاتهم مع سكان الجنوب . وفريق آخر من الناس كان يرى أن إنفصال الولايات المتحدة هو الحل العملى لتلك المشكلة ، فتستطيع الولايات الجنوبية أن تتصرف داخل حدودها كيفما تشاء دون أن تتحمل الولايات الشمالية هذا العمل الإجرامى الذى تقوم به الولايات الجنوبية ، ولكن المسئولين الأمريكيين أرادوا فض النزاع بالطرق الودية ، وعرضوا حلولا لهذا الموضوع تتلخص فى إباحة الإتجار بالرق داخل الولايات التى تبيح الرق ، وأن تبقى تلك الولايات داخل الإتحاد الأمريكى على أن يفصل بينها وبين الولايات الحرة خط يتفق عليه على غرار إتفاق ميسورى .

غير أن هذه الحلول لم ترض أى من الطرفين . ووقفت مشكلة امتداد الرق إلى الولايات الغربية حجر عثرة فى سبيل الوصول إلى أى إتفاق نظرا لتمسك كل منها بوجهة نظره . وكان على ابراهام لنكولن إنقاذ الموقف المتدهور، ومحاولة إيجاد علاج سريع يجنب البلاد ويلات حرب أهلية داخلية ، ولذلك أعلن عن سياسته التى تهدف إلى التمسك بالوحدة وبأنه ليست لأية ولاية من الولايات الحق فى الإنسحاب من الإتحاد ، وأنه سيركز جهوده حول صيانة الوحدة ، وإرجاع البلاد إلى ما كانت عليه من قبل . ومن ناحيته ، لم يفكر لنكولن فى إتخاذ أى إجراء عسكرى قد يؤدى إلى حرب أهلية داخلية ، يتحمل هو وحده نتائجها ، ولذلك ترك للأيام تقرير مصير هذا العبء ، وقد واتته الفرصة فى ١٢ إبريل عام ١٨٦١ إذ حدث صدام مسلح بين حامية إحدى القلاع بميناء تشارلستون بولاية كارولينا وبين إحدى فرق قوات الولايات الإئتلافية فى الجنوب

. فكان هذا الصدام بمثابة الشرارة الأولى التى أضرمت النار والتى اتخذها الشمال ذريعة للهجوم ، ومواجهة العدوان بمثله بحجة أن الولايات الجنوبية هى البادئة به.

واستغل لنكولن هذا الحادث ، وطلب من الولايات الشمالية تعبئة ٧٥ ألف متطوع لخوض تلك الحركة . وبإعلان هذا الطلب انسحبت ولايات أركنساس وكارولينا وتنسى من الإتحاد . وانضمت إلى الائتلاف الجنوبى ، وبذلك بلغ عددها إحدى عشر ولاية تضم تسعة ملايين نسمة ، بينما كان عدد ولايات الإتحاد فى الشمال ثلاثة وعشرين ولاية بلغ مجموع سكانها اثنين وعشرين مليونا . هذا بالإضافة إلى ماتتمتع به الولايات الشمالية من سعة فى خطوط مواصلاتها الحديدية . ومن هنا نرى أن كفة الشماليين سترجح فى هذه الحرب كفة الجنوبيين ، إذا ما أخذنا فى الإعتبار قوة رأس المال فى الشمال ، وكذلك الخبرة والتقدم العلمى والثقافى ، بيد أن أهل الجنوب كانوا يرون فى إنتاجهم للقطن ما يساعدهم على تصريفه لدى الدول التى هى فى حاجة إليه وأهمها انجلترا وفرنسا ، وكذلك فى شراء ما يلزمهم من أسلحة وعتاد حربى ، هذا إلى جانب إيمانهم العميق بقوتهم ، وإن فى مقدروهم إنتزاع النصر من الشماليين .

سير حرب الأشقاء :

لا يهمنا فى هذا المجال سوى أن نوضح المعالم الرئيسية لتلك الحرب وخطوطها العريضة ليتسنى الإلمام بها وتتبع نتائجها . لقد ركز لنكولن خطته العسكرية على أهداف ثلاثة : أولهما ، الإستيلاء على ريتشموند عاصمة الولايات الإئتلافية والتى تركز فيها النشاط الحربى ، وثانيهما ، دق اسفين بين الولايات الجنوبية بالإستيلاء على نهر المسيسيبى ، وفصل الولايات الجنوبية فى الشرق عن زميلاتها فى الغرب ، وثالثهما محاصرة الموانئ الجنوبية لشل حركة التجارة بين الولايات الإئتلافية والعالم الخارجى ، وفرض حصار اقتصادى شديد عليها حتى لا تستطيع تصريف قطنها خارجيا ، أو استيراد الأسلحة اللازمة لها .

وفى سبيل تحقيق الهدف الأول وهو الإستيلاء على مدينة ريتشموند عاصمة الحكومة الإئتلافية ، حاولت الجيوش الإتحادية القيام بعدة حملات بدأت فى منتصف عام ١٨٦١ باءت جميعها بالفشل ، وذلك لصلابة سكان الجنوب، ودفاعهم بعناد شديد عن مدينتهم . وهذا النجاح فى صد تيار الغزو الشمالى ، قد شجع الجنوبيين على القيام بغزو الشمال على يد قائدهم الكبير الجنرال روبرت لى Robert Lee ، ولكن محاولتهم أيضا لم تكن أحسن حظا من محاولات الشماليين . وفى عام ١٨٦٤ عين الجنرال يوليسيس جرانت Ulyssess Grant قائدا عاما لجيوش الشمال الإتحادية ، فقام بمهاجمة ولاية فرجينيا والإستيلاء على مدينة ريتشموند والقضاء على الحكومة الإئتلافية بعد استسلام قواتهم بقيادة الجنرال لى .

أما فيما يتعلق بالإستيلاء على حوض نهر المسيسيبى ، فقد تمكن الجيش الإتحادى فى أوائل عام ١٨٦٢ من توجيه ضرباته إلى معاقل الإئتلافيين على نهر تنسى وكمبرلند من فروع نهر المسيسيبى . وفى نفس الوقت ، قامت قوة بحرية بالإستيلاء على مصب نهر المسيسيبى لمعاونة الجيش الشمالى فى مهمة الإستيلاء على حوض النهر كله من الشمال والجنوب فى وقت واحد . وبنجاح تلك العملية الحربية يتم الفصل بين الولايات الجنوبية الشرقية وزميلاتها الجنوبية الغربية ، وتنقسم قوة الإئتلافيين إلى قسمين منعزلين لا يمكن التعاون فيما بينهما . وكان هذا من الأسباب الجوهرية فى هزيمة الإئتلافيين .

أما بالنسبة للحصار البحرى للسواحل الجنوبية الممتدة من ساوث كارولينا إلى فلوريدا ، فقد نجح نجاحا كبيرا وكان من الأسباب الأساسية إن لم يكن هو السبب الأساسى فى القضاء على مقاومة الجنوبيين . فهذا السلاح الفعال ، استطاع الشماليون من خلاله أن يحرموا أهل الجنوب من أهم لوازم الحياة كالغذاء والكساء والأدوية والعتاد اللازم للجيش . وبالإضافة الى ذلك ، أصابت

الحياة الإقتصادية فى الجنوب خسارة فادحة من جراء عدم تمكينها من تصريف القطن والمحاصيل الرئيسية إلى العالم الخارجى ، وقد أدى ذلك إلى زيادة الأعباء الملقاه على عاتق الحكومة الجنوبية ، إلى جانب ما تواجهه من أعباء حربية .

وفى خلال تلك الحرب ، نشطت الدبلوماسية الأمريكية نشاطا كبيرا ، فالحرب الأهلية الأمريكية تعتبر ، من وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية حربا داخلية تخص الولايات المتحدة وحدها دون تدخل من قبل الدول الأوروبية ، أى أن هذه الحرب تعتبر إختبارا عمليا لمبدأ فاعلية مبُدأ مونرو Monro Doctrine ، الذى أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية فى ٢ ديسمبر عام ١٨٢٣ ، وينادى بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر أى تدخل من قبل الدول الأوروبية فى شئون القارة الأمريكية عملا عدائيا موجها لها ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تتدخل فى الشئون الأوروبية ، وترى أن تعاملها الدول الأوروبية بالمثل . وبمعنى آخر يجب أن تكون أمريكا للأمريكيين .

ولذلك خشيت الحكومة الإتحادية أن تؤدى تلك الحرب إلى تدخل من قبل الدول الأوروبية لصالح الإئتلافيين . وعلى وجه الخصوص انجلترا وفرنسا ، فضاعفت حكومة الإتحاديين من نشاطها السياسى لدى الدول الأوروبية ، وخصوصا الدول الكبرى منها حتى لا تعترف باستقلال الحكومة الإئتلافية عن حكومة الإتحاد ، إذ لو قدر للمساعى الدبلوماسية التى بذلتها الولايات الجنوبية لدى حكومات الدول الأوروبية المختلفة لحملها على الإعتراف بكيانها المستقل عن الحكومة الإتحادية ، لوجدت الحكومة الشمالية نفسها فى موقف حرج لا يمكن مجابهته ، ولاضطرت إلى الرجوع للأمر الواقع والتسليم للجنوبيين ، وخصوصا إن حكومة الإئتلافيين كانت تجد عطفا وتأييدا من قبل التجار فى الدول الأوروبية الذين تربطهم علاقات تجارية مع تجار الجنوب .

وعلاوة على ذلك فإن هدف الشماليين من تلك الحرب لم يكن واضحا

فهم لم يعلنوا بأنهم قاموا بتلك الحرب لإلغاء تجارة الرقيق ، بل على العكس من ذلك ، فقد أوضحوا بما لا يدع مجالا للشك بأنهم يوافقون على بقاء تجارة الرقيق على ما هى عليه إذا ما وافقت الولايات الجنوبية على الرجوع الى حظيرة الإتحاد . وهذا الموقف من قبل الشماليين قد نفر منهم جزءاً من الرأى العام الإنجليزى الذى رأى فى موقف الشماليين طغيانا على مصلحة الجنوبيين وأن الهدف منه السيطرة والمصلحة ، وليس إلغاء تجارة الرقيق الشائنة . كما أن تلك الحرب قد أصابت المنسوجات القطنية الإنجليزية بضرر بليغ . وفى نفس الوقت ، وقف عدد كبير من الرأى العام الى جانب الإتحاديين فى هذا الصراع ، ووجهة نظرهم فى هذا الشأن أن هذه الحرب قائمة بين الشمال والجنوب تمثل الحرب بين الحرية والإسترقاق . وأن انجلترا قد جاهدت فى تاريخها الطويل لنصرة الحرية، ومساندة النظم الدستورية فى العالم ، ولهذا وجب على الشعب الإنجليزى الوقوف الى جانب أهل الشمال لتحقيق هذا الهدف السامى .

أما عن موقف فرنسا من هذه الحرب فكان يختلف إلى حد كبير عن موقف انجلترا ، ففرنسا كانت تتوق منذ خروجها من مستعمراتها فى أمريكا الشمالية فى عام ١٧٦٣ إلى إنتهاز الفرصة المناسبة للتدخل فى شئون القارة الأمريكية لمحاولة استعادة ما كان لها من نفوذ . ولهذا كانت فرنسا تعطف على أمانى الجنوبيين وتود التدخل لمصلحتهم ، ولكنها كانت لا ترى التدخل بمفردها فى هذا النزاع وترغب فى إيجاد حليف لها يؤازرها فى هذا التدخل ، فلجأت الى الحكومة الروسية طالبة معاونتها ، ولكن مسعاها لم يكلل بالنجاح . وقد ساعد على فشل تلك المحاولات انتهاء الحرب بسرعة فى صالح الشماليين ، وقد وضع انتهاؤها بهذه السرعة حدا للتدخل فى هذا النزاع . أما روسيا وبروسيا فقد أظهرتا عطفا كبيرا على أمانى الإتحاديين ، وتعبيرا عن هذا العطف قام الأسطول الروسى بزيارة ودية لمينائى نيويورك وسان فرانسيسكو ، مما كان له أجمل

الأثر فى نفوس أهل الشمال ، وفى تشجيعهم على مواصلة القتال .

نتائج الحرب :

انتهت الحرب الأهلية الأمريكية بإنتصار الولايات الإتحادية على الحكومة الإئتلافية الجنوبية ، ولكنها كبدت الطرفين خسائر فادحة ، فقد اشترك فيها من الجانبين ما يقرب من الأربعة ملايين جندى ، وذهب ضحيتها ما يزيد عن ٦٠٠ ألف جندى . هذا عدا الضحايا من الجرحى والمشوهين ، وما سببته من خسائر مادية جسيمة عانت منها الولايات المتحدة لفترة غير قصيرة .

وبعد أن انتهت الحرب بإنتصار وجهة نظر حكومة الإتحاديين وعلى رأسها ابراهام لنكولن ، بدأ هذا الرئيس يفكر فى حل تلك المشكلة ، وبالشكل الذى يضمن دوام الإتحاد . فعند بداية الحرب عام ١٨٦١ ، لم يكن الرئيس الأمريكى يطلب أكثر من بقاء الولايات الثائرة داخل الإتحاد مع موافقته على وجود الإسترقاق كما هو ، ولكن هذا الحل لم يرض تلك الولايات . فلجأ الكونجرس الأمريكى إلى اتخاذ خطوة جديدة لحل تلك المشكلة ، فأصدر عام ١٨٦٢ قانونا يمنح الولايات التى توافق على تحرير الرقيق بالتدريج إعانات مالية لتواجه الإلتزامات التى ترتبت على هذا العتق . ولكن هذه الخطوة الجديدة فشلت فى حل تلك المشكلة ، ثم تلا تلك الخطوة إصدار الكونجرس لقانون آخر فى تلك السنة يلغى الرق فى جميع الولايات الغربية فقط ، دون أن يتعرض هذا القانون إلى الرق فى الولايات المنضمة للإتحاد . فقوبل هذا القانون بنقد مرير من قبل سكان جميع الولايات ، وذلك للتفرقة فى المعاملة بين الولايات التى تقر الرق . كذلك كثر الهجوم على ابراهام لنكولن ، واتهمه خصومه بالتردد والمحاباه فى معالجة المشكلة . وهذا ما دفعه فى عام ١٨٦٢ الى الإعلان عن عزمه لتحرير العبيد إذا ما رفضت الولايات المنشقة الرجوع إلى حظيرة الإتحاد فى أول يناير عام ١٨٦٣ .

ولكن هذا التحديد قوبل بالرفض من قبل الولايات الجنوبية ، وظل هذا القرار حبرا على ورق حتى ديسمبر عام ١٨٦٥ ، حيث أقر الكونجرس الأمريكى التعديل الثالث عشر للدستور ، والذى ينص على إلغاء الرق الغاءاً تاما من البلاد . ثم أعقب هذا التعديل تعديل أخر أطلق عليه اسم التعديل الرابع عشر للدستور ، الذى منح العبيد الحقوق المدنية والسياسية ، وأصبحوا بمقتضى تلك الحقوق يتمتعون بالجنسية الأمريكية ، وقد اشترط الكونجرس الأمريكى بأنه ليس للولايات الجنوبية الحق فى دخول الإتحاد إلا بعد الموافقة على التعديل الرابع عشر . واضطرت ولايات الجنوب تحت ضغط القوة العسكرية للرضوخ للأمر الواقع . وما ان أقبل عام ١٨٧٠ ، حتى رجعت جميع الولايات المنشقة إلى الإتحاد مكرهة .

وقد سبق إنضمام تلك الولايات المنشقة إجراءات خاصة وتنظيمات جديدة، رأت حكومة الإتحاد ضرورة إتخاذها فى الجنوب لتضييق شقة الخلاف بين الطرفين ، وللأخذ بيد الجنوبيين ليستطيعوا مسايرة النهضة فى الشمال . ووجدت أنه من الضرورى فى تلك المرحلة الأولى أن تقسم الولايات الجنوبية إلى خمسة أقسام عسكرية خاصة لرجال من العسكريين الشماليين ، الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ تلك التنظيمات الجديدة ، وإعادة تعمير الجنوب والعمل على مساعدة الرقيق ، والأخذ بيدهم ، وتدريبهم على ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية. واقتضى وضع التنظيمات الجديدة ، إبعاد أنصار العهد الماضى من السياسيين الجنوبيين عن الحكم ، وعن تولى الوظائف العامة حتى تستقر الأمور فى الولايات الجنوبية وتتوطد النظم الجديدة ، وكان لكل هذا أسوأ الأثر فى نفوس الجنوبيين أصحاب المصالح فى العهد السابق .

وقد مكنت الإدارة الشمالية ، لولايات الجنوب الزنوج من التعبير عن رغباتهم فى الإنتخابات العامة التى أجريت فى ذلك الوقت ، واستطاعت العناصر الزنجية بالتعاون مع العناصر البيضاء الفقيرة من أن يكون لها رأى فى حكم

الولايات ، وأن تقف هذه العناصر أمام أطماع الشماليين والراغبين فى الإثراء على حساب أهل الجنوب . وفى هذه الفترة استطاعت العناصر الزنجية أن تسيطر على بعض المجالس التشريعية فى الجنوب ، وأن توجه السياسة المحلية ، وأن تتولى الوظائف العامة فيها عدا الوظائف العليا التى سيطر عليها رجال من الولايات الشمالية ، وقد أزعجت هذه الحالة العناصر البيضاء فى الجنوب ، فهم يخشون من سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على ثروات الجنوب ، وفى نفس الوقت فهم لا يرضون أيضا بسيطرة العناصر الزنجية على الحياة السياسية فى الجنوب ، هذا العنصر الذى كان بالأمس القريب عبداً لهم ليست له من الحقوق إلا النذر اليسير ، ولهذا فقد لجأوا الى طرق غير مشروعة للتخلص من سيطرة الطرفين ، فقامت الجمعيات الإرهابية السرية التى ألقت الرعب فى نفوس الإنتهازيين الشماليين ، وأبعدتهم عن تلك الولايات كما استخدمت تلك الجمعيات مختلف وسائل الإرهاب للحيلولة بين الزنوج وبين التعبير عن رغباتهم فى الإنتخابات حتى يخلو لها الطريق . ومن أشهر هذه الجمعيات السرية الإرهابية جمعية كوكولوس كلان Ku-Klux-klan التى تأسست فى بولاسكى Pulaski فى ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ ، وقد نجحت تلك الجمعيات فى تحقيق أهدافها نجاحا كبيرا .

واستطاعت العناصر البيضاء فى الولايات الجنوبية عن طريق الإرهاب من أن تستعيد سيطرتها على مصائر الإمور فى الجنوب بعد انسحاب قوات الإحتلال الشمالية. فما ان أقبل عام ١٨٧٧ حتى أصبحت الغلبة فى المجالس التشريعية للعناصر البيضاء ، وقد أصاب أعضاء الحزب الجمهورى الشمالى شىء من اليأس نتيجة لما وصلت إليه الحالة فى الجنوب ، فهذه الحرية كلفت الأمريكيين الكثير من الأرواح والأموال ، وهذا الجهد الكبير الذى بذل فى إدخال النظم الجديدة فى الجنوب لم يؤد فى حقيقة الأمر الى صيانة مصالح العبيد إلا فترة محدودة من

الزمن أثناء وجود القوات المختلفة ولكن الأوضاع السياسية فى الجنوب عادت إلى ما كانت عليه من قبل بعد فترة قصيرة من إنتهاء الحرب ، فالحرب الأهليه الأمريكية رغم ما بذل فيها من تضحيات لم تحقق للعبيد كل ما كانوا يصبون إليه من حقوق ، فهى قد منحتهم الحرية من الناحية القانونية إلا أنها لم تمنحهم المساواة الفعلية مع البيض رغم اعتراف القانون الأمريكى لهم بتلك المساواة ، فظلت عوامل التفرقة تسيطر على فريقى الأمة حتى الآن ، ولكن فى أوقات الأزمات التى مرت بالأمة الأمريكية وقف عنصرا الأمة صفا واحدا للدفاع عن وطنهم لا فرق بين أبيض وأسود ، وقد حدث هذا فى الحرب الأسبانية ـ الأمريكية عام ١٨٩٨ ، وكذلك فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وفى حرب فيتنام .

وعلى كل ، لقد أحدثت الحرب الأهلية ثورة فى المجتمع والاقتصاد الأمريكيين ، سواء فى الشمال أو فى الجنوب ، وبرغم أن جذور الولايات المتحدة تتغلغل فى السنوات السابقة على الحرب ، فإنه بوسعنا أن نرجع بزوغها الحقيقى إلى الحرب ذاتها ، فلقد نشط هذا الصراع الصناعة ، وعجل باستغلال الموارد الطبيعية ، وساعد على نهضة الأعمال المصرفية الإستثمارية واتساع التجاره الخارجية ، كما أنه دفع إلى الصدارة بجيل جديد من قادة الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال . ولقد فتح الصراع أيضا المجال أمام ظهور مساحات جديدة شاسعة للزراعة والرعى ، مما أوجد أسواقاً جديدة وخلق ظروفا مناسبة لنمو المدن ، وأتاح مجال العمل لمئات الآلاف من المهاجرين الذين سرعان ما تدفقوا على العالم الجديد . وفى الجنوب قضت الهزيمة على طبقة أصحاب المزارع الكبيرة ، ونمت طبقة وسطى جديدة . وفى خلال أربعين عاما ، زاد سكان الولايات المتحدة من واحد وثلاثين مليونا إلى ستة وسبعين مليونا ، وتضاعف حجم مدن كبيرة مثل نيويورك وشيكاغو ، وبيتسبرج ، وكليفلاند ودترويت

الفصل الخامس عشر

التوسع الخارجى للولايات المتحدة الأمريكية

تعتبر الحرب الأمريكية ـ الأسبانية عام ١٨٩٨ نقطة تحول هامة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية التى أصبحت دولة عالمية غير محصورة فى نطاق القارة الأمريكية ، بل دخلت حلبة الصراع العالمى . لقد أتبعت الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهد جورج واشنطون ، أول رئيس للولايات المتحدة (١٧٨٩ ـ ١٨٩٧). مبدأ عدم التدخل فى تعقيدات الشئون الأوروبية ، غير أن ذلك لا يعنى عدم استغلال الأمريكيين المنازعات الأوروبية لتحقيق مصالحهم الخاصة فى أمريكا اللاتينية ، وفى المحيط الهادى لقد صدر « مبدأ مونرو » (١٨٢٣) فى الواقع حماية للمصالح الأمريكية فى القارة الأمريكية ، وكان بمثابة المنفذ لتدخل الولايات المتحدة فى شئون القارة حقيقة أن الهدف الأساسى للرئيس كان الحد من تدخل الدول الأوروبية فى شئون القارة الأمريكية ، لكن ذلك كان هدفاً سلبياً ومنذ عام ١٨٤٥ ، إتخذ مبدأ مونرو صفة إيجابية هامة وهى حق الولايات المتحدة فى التدخل فى شئون أمريكا اللاتينية ونتج عن هده الصفة الإيجابية الجديدة سياسة التوسع . وفرض النفوذ الأمريكى فى هذه المنطقة ، ومما يوضح ذلك تلك الحرب التى شنتها الولايات المتحدة ضد المكسيك عام ١٨٤٦ ، وانتهت بضم أراضى مكسيكية واسعة إليها

وحتى التسعينات من القرن التاسع عشر لم تهتم الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً بالشئون الخارجية ، لأنها لم تشعر بضرورة ملحة للتوسع الخارجى ، إذ كانت منهمكة فى عملية التطور الإقتصادى والإجتماعى والسياسى فى الداخل. ولكن منذ عام ١٨٩٠ بلغت الولايات المتحدة درجة كبيرة من القوة الاقتصادية مكنتها من بلوغ مرتبة الدول العالمية ، والتطور الاقتصادى الأمريكى يعتبر العامل

الرئيسى الذى حدد وضع الولايات المتحدة العالمى فى الفترة الممتدة من ١٨٩٠ إلى ١٩١٤ . ففيما بين ١٨٦٠ و ١٩١٠ شهدت الولايات المتحدة ثورة زراعية ضخمة تمثلت فى التوسع الكبير فى ميكنة الزراعة ، واستخدام الأساليب العلمية، والتوسع الأفقى والرأسى ، وهو الأمر الذى أدى إلى زيادة الإنتاج الزراعى بدرجة كبيرة فاقت إحتياجات السوق المحلية . وفى الفترة من ١٨٩٧ إلى ١٩١٧، ارتفع الإنتاج الإجمالى إلى ٣٠٪ ، غير أن هذا التقدم الزراعى الكبير لم يؤد إلى تحسين أحوال الريف بمقارنتها بأحوال الحضر الصناعى ، فقد ساعد وفرة الإنتاج على انخفاض أسعار الحاصلات الزراعية نتيجة لتشبع السوق المحلية مما أدى إلى حقيقتين :

أولاً ـ هجرة سكان الريف إلى المدن الصناعية ، ومما يلاحظ أن عدد سكان الريف انخفض من ٦٥٪ عام ١٨٨٠ إلى ٤٠٪ عام ١٩٢٠ .

ثانياً ـ العمل على زيادة الصادرات من السلع الزراعية ، ويمثل ذلك أحد عوامل اهتمام الولايات المتحدة بالتوسع الإستعمارى .

ومن ناحية أخرى ـ شهدت الولايات المتحدة فى الفترة ذاتها ثورة صناعية عظمى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ من حيث الضخامة ، وساهمت بالنصيب الأكبر فى تحديد وضع الولايات المتحدة الدولى . فحتى عام ١٨٨٠ كانت الزراعة هى المصدر الأول للثروة القومية . ولكن الصناعة احتلت هذا المركز ابتداء من عام ١٨٩٠ . ومنذ عام ١٩٠٠ فاقت قيمة الإنتاج الصناعى ضعفى قيمة الإنتاج الزراعى . ومن أبرز ما يلاحظ فى هذا المجال تقدم الولايات المتحدة على الدول الصناعية الأخرى ، ففى عام ١٨٤٠ احتفظت الولايات المتحدة بالمركز الخامس بين هذه الدول ، وفى عام ١٨٦٠ احتلت المركز الرابع ، ثم قفزت إلى المركز الأول فى عام ١٨٩٤ حيث بلغ الإنتاج الصناعى الأمريكى ضعف إنتاج بريطانيا ونصف إنتاج أوربا بأكملها .

وكان لهذه الثورة الصناعية أثر واضح فى توجيه السياسة الخارجية الأمريكية ، فمنذ عام ١٨٩٠ وصلت السوق الداخلية إلى مرحلة التشبع ، وأخذت الولايات المتحدة تبحث عن أسواق خارجية فى دول أمريكا اللاتينية ودول الشرق الأقصى لتصريف فائض الإنتاج . ومن الملاحظ أن ضخامة الإنتاج الصناعى جاء نتيجة طبيعية لضخامة المشروعات الصناعية التى خضعت لتنظيم دقيق وادارة مركزية ، تمثلت فى تجمعات الشركات والتراست والشركات القابضة (١) . وأصبحت هذه التجمعات والمؤسسات المالية من أقوى جماعات الضغط فى الولايات المتحدة ، ومساهمة فعلية وقُوية فى عملية اتخاذ القرارات السياسية (٢) .

ولقد انعكس هذا التطور الزراعى والصناعى على تجارة الولايات المتحدة الخارجية التى زادت بمعدلات كبيرة ، فأخذت الصادرات تتزايد بشكل كبير مما يعنى فى الواقع اتساع الأسواق الخارجية التى تمكنت الولايات المتحدة من استغلالها . وبالرغم من أنه ، حتى عام ١٩١٤ ، اتجهت حوالى ٦٣,٤٠٪، وهى نسبة كبيرة من الصادرات الأمريكية إلى القارة الأوروبية ، فإنه من الملاحظ أن هذه الصادرات تكونت فى معظمها من السلع الزراعية التموينية . وهكذا تطلب تسويق السلع الصناعية المتزايدة البحث عن أسواق خارج القارة الأوروبية . ويضاف إلى ذلك أن قوة الاقتصاد الأمريكى قد أدت إلى زيادة المدخرات التى توجه جزء كبير منها إلى الخارج سعيا وراء مزيد من الربح . ويمكن القول بأن جملة الاستثمارات الأمريكية فى الخارج بلغت ٦٨٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار عام ١٨٩٧ ، وارتفع هذا المبلغ إلى ٢,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار مع بداية الحرب العالمية الأولى.

(١) Pools, Trusts, Holding Companies .

(٢) من أهم هذه المؤسسات المالية مؤستا روكفلر Rockeffler ومورجان (Morgan) ويمثلان عصب الحياة الإقتصادية والتجارة الأمريكية .

ويمثل هذا التقدم الاقتصادى الضخم ، الذى لا نجد له مثيلا فى التاريخ من حيث المدى والسرعة . شعور الأمريكيين بقوتهم التى ولدته فى نفوسهم روح العظمة والزهور ، ودفعتهم إلى الخروج من الإطار الإنعزالى التقليدى الذى فرضته ظروف تنمية الولايات المتحدة فى الداخل وتوطيد أركان الدولة السياسية . ومن ثم شعرت الولايات المتحدة بضرورة ملحة فى أن تقوم بدور هام على مسرح السياسة الدولية ، وبرز هذا الدور منذ أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر حيث اتجهت إلى التوسع الخارجى الذى تركز فى بدايته فى منطقتين رئيسيتين هما : منطقة البحر الكاريبى وأمريكا الجنوبية من ناحية ، ومنطقة المحيط الهادى والشرق الأقصى من ناحية أخرى . وقد انتهى هذا المد التوسعى المصحوب بثورة تكنولوجية عظمى بأن أصبحت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ إحدى الدولتين العظمتين اللتين تسعيا للسيطرة على العالم بأسره .

ومما ساعد على نمو الشعور بالعظمة والزهو ظهور مجموعة قوية من المفكرين السياسيين الذين اعتنقوا ما يعرف بالنظرية الواقعية فى السياسة ، والتى تهتم أساسا بتوازن القوى بين الدول فى ضوء المصالح القومية المختلفة بصرف النظر عن المبادئ والقيم الخلقية . وكان على رأس هذه المجموعة : ألفريد ماهان (A.T.Mahan) ، وتيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) ، وهنرى كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) ، والبرت بيفريدج (Albert Beveridge) وغيرهم . وقد انتهى هؤلاء من دراساتهم الى أنه حان الوقت لكى تنظر الولايات المتحدة إلى وضعها العالمى نظرة واقعية فى ضوء تنافس الدول الإستعمارية الكبرى، إذ أن مصالح الولايات المتحدة بما فى ذلك أمنها القومى مهددة بتنافس الدول الصناعية والبحرية الكبرى ، ومن ثم يتعين على الولايات المتحدة تقوية أسطولها الحربى ، والسيطرة على قواعد بحرية فى البحر الكاريبى ، وفى المحيط الهادى كإجراء دفاعى ضد أى هجوم أو غزو خارجى . وواقع الأمر أن الإدعاء بأن الأمن الأمريكى أصبح مهدداً ، كان مجرد ستار شفاف لا يحجب تماما ما

وراءه من طموح وأطماع نحو رغبة بعض الأمريكيين من ذوى النفوذ الكبير فى التوسع الخارجى والسيطرة .

ولقد انتقلت هذه النظرية الواقعية فى السياسة من النطاق الفكرى إلى ميدان الممارسة السياسية ، عندما أعلن الحزب الجمهورى عام ١٨٩٦ ، برنامجه الإنتخابى ، وورد فيه تعهد الحزب باتباع سياسه خارجية « حازمة » ، وتقوية الأسطول الحربى بما يتناسب مع وضع قناة نيكارجوا (بنما فيما بعد) على أن تكون القناة مملوكة للولايات المتحدة ، التى تقوم بإدارتها ، والحصول على قواعد بحرية فى جزر الهند الغربية . وقد نجح الحزب الجمهورى فى انتخابات الرئاسة عام ١٨٩٦ ، وتبع ذلك النجاح مباشرة بناء إمبراطورية استعمارية أمريكية فى البحر الكاريبى ، وفى المحيط الهادى ، وتأكيد سياسة « الباب المفتوح » تجاه الصينيين ، بالإضافة إلى فرض سيطرة اقتصادية ومالية على معظم دول أمريكا اللاتينية استتبعت سيطرة سياسية قوية تكاد تشبه الحماية الفعلية . وقد انعكست هذه السياسة على مفهوم « مبدأ مونرو » ، كما فسره الرئيسى تيودور روزفلت عام ١٩٠٤ ، إذ أعلن فى ذلك الوقت بأن مبدأ مونرو « يخول الولايات المتحدة حق التدخل العسكرى فى شئون دول أمريكا اللاتينية ، للمحافظة على الأمن والنظام فيها » .

وكانت أول خطوة فى إتجاه تصميم الولايات المتحدة على فرض سيطرتها على القارة الأمريكية بأكملها شراء إقليم آلاسكا من روسيا مقابل ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار وذلك طبقا لمعاهدة ٣٠ مارس عام ١٨٦٧ . وقد ترتب على هذه الصفقة التجارية آثار هامة بالنسبة لوضع الولايات المتحدة الدولى . وأقليم آلاسكا لايذخر بالثروات المعدنية والخشبية فحسب ، ولكنه يتمتع أيضا بحكم موقعه ، بأهمية استراتيجية بالغة الخطورة . وبالإستيلاء على إقليم الاسكا أصبحت الولايات المتحدة تشرف على شمال غربى المحيط الهادى ، وأصبحت تلامس قارة آسيا عند مضيق بيرنغ (Bering) . وقد زادت هذه الأهمية الإستراتيجية فى النصف الثانى

من القرن العشرين عندما أصبحت منطقة القطب الشمالى محورا للمواصلات الجوية، وتحولت آلاسكا إلى قاعدة عسكرية ضخمة تهدد الإتحاد السوفيتى مباشرة.

أما الخطورة الثانية فى مجال التوسع الاستعمارى الأمريكى فتمثلت فى إنشاء منظمة إقليمية ، أو بالأحرى ، قارية ، تضم جميع دول القارة الأمريكية بزعامة الولايات المتحدة . وكان الهدف من إنشاء هذه المنظمة هو إستخدامها كأداة لفرض السيطرة الأمريكية على القارة بأكملها . ففى عام ١٨٨١ ، دعا جيمس بلين (James Blaine) وزير خارجية الولايات المتحدة ثمان عشرة دولة أمريكية لحضور مؤتمر يعقد فى واشنطون فى العام التالى لمناقشة التدابير الخاصة لمنع الحرب بين الدول الأمريكية ، وتشجيع العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية ، الأمر الذى يؤدى كما ذكر بلين إلى زيادة الصادرات الأمريكية إلى تلك الدول . وقد تأجلت دعوة المؤتمر إلى الإنعقاد إلى عام ١٨٨٩ لأسباب داخلية فى الولايات المتحدة . وفى عام ١٨٨٨ طلب الكونجرس من الرئيس الأمريكى دعوة مؤتمر للدول الأمريكية فى واشنطن فى أكتوبر عام ١٨٨٩ ، ووضح فى جدول أعمال المؤتمر كما وضعه الكونجرس والحكومة الأمريكية ، أن الولايات المتحدة تسعى إلى فرض سيطرتها على دول القارة فى إطار منظمة إقليمية، فقد اقترحت الحكومة الأمريكية إقامة إتحاد جمركى ونقدى بين أعضاء المنظمة ، وإنشاء خط حديدى قارى يربط الأرجنتين بالمكسيك ، وقبول مبدأ التحكيم الإجبارى لفض المنازعات بين الدول الأعضاء .

ولكن دول أمريكا اللاتينية أبدت تحفظا على خطة الولايات المتحدة ، إذ شعرت فيها برغبة السيطرة والتسلط ، فرفضت الإتحاد الجمركى ، وإقترحت بدلا منه إبرام معاهدات ثنائية على أساس المعاملة بالمثل ، وتم الإتفاق على مشروع معاهدة للتحكيم الإجبارى ، ولكن لم يصدق عليه . ولم يسفر المؤتمر إلا عن

إنشاء « مكتب الجمهوريات الأمريكية [1] » ومقره واشنطن ، ويتكون من الممثلين الدبلوماسيين لهذه الجمهوريات فى العاصمة الأمريكية ، وكان من أهم اختصاصاته ، العمل على توطيد العلاقات بين الدول الأعضاء ، والتمهيد لعقد مؤتمرات أخرى . ويرجع فشل الولايات المتحدة فى إنشاء منظمة أمريكية عام ١٨٨٩ خاضعة لسيطرتها إلى أن تنفيذ هذه السياسة كان سابقا لأوانه لاسيما من الناحية الإقتصادية ، فرؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة فى الخارج كانت ضئيلة نسبيا بسبب إتساع مجال إستثمارها داخل الولايات المتحدة حتى أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر . كما أن فشل مؤتمرات « الاتحاد الأمريكى » فى الفترة التالية حتى عام ١٩١٤ ، كان بسبب الإعتبارات السياسية ، والتى تلخصت فى خوف جمهوريات أمريكا اللاتينية من سيطرة الولايات المتحدة عليها .

التوسع الأمريكى فى البحر الكاريبى وأمريكا الوسطى :

١ ـ قضية كوبا :

لقد تأثرت السياسة الأمريكية تجاه كوبا بعاملين أساسيين هما : العامل الإقتصادى ، والعامل الإستراتيجى ، فالولايات المتحدة كانت فى حاجة إلى المنتجات الكوبية وخصوصا السكر والتبغ ، كما أن مناجم الحديد الكوبية كانت محل تطلع الرأسماليين الأمريكيين . وفى عام ١٨٩٣ بلغ مجموع الإستثمارات الأمريكية فى كوبا أكثر من ٥٠ مليون دولار ، بينما بلغ حجم تجارة كوبا مع الولايات المتحدة فى نفس العام ١٠٠ مليون دولار . وفى عام ١٨٦٤ أندلعت ثورة مسلحة فى كوبا ضد حكم أسبانيا ، ما لبثت أن تطورت إلى حرب أهلية مدمرة استغرقت أكثر من أربع سنوات . وقد أزعجت هذه الحرب الأهلية الرأسماليين الأمريكيين بسبب الخسائر الكبيرة التى لحقت بزراعة قصب السكر والتبغ وصناعة التعدين ، ومرفق السكك الحديدية . ومن ثم قوى الاتجاه فى

---

(١) تغير اسمه عام ١٩١٠ إلى « الإتحاد الأمريكى » Pan American Union .

الولايات المتحدة لاسيما في المناطق الصناعية في الشمال وفي الشرق إلى ضرورة ضم كوبا ، وكذلك بورتريكو إلى الولايات المتحدة ، لحماية رؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة في هذين البلدين . وهكذا يمكن القول بأن حماية مصالح الرأسمالية الأمريكية كانت من أهم الأسباب التي أدت الى اندلاع الحرب الأمريكية ـ الأسبانية عام ١٨٩٨ .

وبالنسبة للأهمية الإستراتيجية لجزيرة كوبا ، فإنها تحتل موقعا حيويا يسيطر على خليج المكسيك ، ويتحكم في أحد مدخلي القناة البحرية المزمع حفرها عبر أمريكا الوسطى . وبذلك تعتبر السيطرة على جزيرة كوبا من أهم الشروط الأساسية للسيطرة على القناة البحرية وعلى أمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية . وبسبب انفجار بارجة حربية أمريكية في ميناء هافانا في يوليو عام ١٨٩٨ أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد أسبانيا ، وبالرغم من إنتهاء الحرب الأهلية في كوبا، وإصدار عفو عام عن المتمردين ، وإطلاق سراح المواطنين الأمريكيين الذين اشتركوا في الثورة ، فلقد اصرت الولايات المتحدة على إحتلال كوبا متجاهلة في ذلك جميع التنازلات التي قدمتها أسبانيا .

وإنتهت الحرب بهزيمة أسبانيا ، وتم إبرام معاهدة باريس في ديسمبر عام ١٨٩٨ ، وبمقتضاها إعترفت أسبانيا بإستقلال كوبا ، وتنازلت عن بورتوريكو للولايات المتحدة، كما تنازلت عن جزر الفلبين وجوام في المحيط الهادى مقابل عشرين مليون دولار ، وأصبحت كوبا تحت الحماية « المقنعة » للولايات المتحدة، فقد خضعت لحكم عسكرى أمريكى لمدة ثلاث سنوات من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢ قبل إنتقال السلطة الى حكومة مدنية جديدة بمقتضى دستور جديد . ولم يوافق الكونجرس الأمريكى على نقل السلطة إلى حكومة مدنية إلا بشروط عرفت باسم « تعديل بلات » (Platt Amendment) أدمجت في دستور كوبا الجديد، وتتلخص فيما يلى :

١ ـ لا يحق لكوبا إبرام معاهدات مع دول أجنبية من شأنها المساس بإستقلال كوبا ، أو السيطرة على أى جزء من أجزاء الجزيرة .

٢ ـ لا يحق لكوبا عقد قروض لا تتناسب ومقدرتها الإقتصادية العادية .

٣ ـ يحق للولايات المتحدة التدخل المباشر لحماية استقلال كوبا ، كما اعترفت كوبا بحق الولايات المتحدة فى التدخل لحماية أية حكومة كوبية ترى الولايات المتحدة أنها قادرة على المحافظة على حياة وحرية وممتلكات المواطنين .

٤ ـ يحق للولايات المتحدة إقامة قواعد عسكرية بحرية فى كوبا (*) .

وهكذا لم تدع الولايات المتحدة لنفسها حق التدخل فى شئون كوبا الخارجية فحسب ، بل أعطت لنفسها حق التدخل المباشر فى شئون الجزيرة الداخلية . وقد طبقت الولايات المتحدة هذا الحق عام ١٩٠٦ عندما ثار الشعب الكوبى ممثلا فى حزب الأحرار ضد رئيس الدولة الموالى للولايات المتحدة ، والذى أنتخب عام ١٩٠٢ بمساعدة القوات الأمريكية التى كانت تحتل الجزيرة آنذاك . وتوالى هذا التدخل مرة أخرى ، ففى عام ١٩١٢ هددت الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى فى كوبا للمرة الثالثة عندما قامت ثورة شعبية تطالب بوضع حد للسيطرة الأمريكية ، وإقامة نظام ديمقراطى ، وإجراء إصلاحات إقتصادية وإجتماعية . ولم يتوقف التدخل الأمريكى هذا إلا عام ١٩٣٤ بسبب تطبيق سياسة « حسن الجوار » التى تبناها فرانكلين روزفلت . ومن أهم النتائج التى ترتبت على هذه التطورات أن القيود التى تضمنها « تعديل بلات » لم يطبق على « كوبا » فحسب ، بل أصبح أساسا عاما للسياسة الأمريكية فى منطقة البحر الكاريبى وأمريكا الوسطى .

(*) من أهم القواعد التى أقامتها الحكومة الأمريكية قاعدة جوانتنامو (Guantanam) التى تسيطر على خليج المكسيك .

٢ ـ قضية قناة بنما :

لم تقتصر نتائج الحرب الأمريكية ـ الأسبانية على سيطرة الولايات المتحدة على منطقة البحر الكاريبى ، بل أن استيلاءها على جزر الفلبين وجوام قد أدى إلى تدعيم مركزها فى منطقة المحيط الهادى . ومن ثم فقد أصبح موضوع حفر قناة بحرية تصل بين المنطقتين أكثر أهمية عن ذى قبل ، وأصبحت هذه القناة حجر الزاوية فى الإستراتيجية البحرية الأمريكية . وبالرغم من إعلان «مبدأ مونرو» لم تتمكن الولايات المتحدة قبل توحيدها وتعاظم قوتها العسكرية والإقتصادية من التغلب تماما على منافسة الدول الإستعمارية الأخرى لها فى منطقة أمريكا الوسطى ولا سيما بريطانيا . ففى عام ١٨٥٠ اضطرت الحكومة الأمريكية الى توقيع معاهدة كلايتون ـ بلور (Clayton - Bulwer) التى أنكرت على الولايات المتحدة الإشراف المنفرد « على منطقة أمريكا الوسطى » . وأمام رغبة الولايات المتحدة فى إزالة هذه العقبة القانونية التى كانت تعوق فرض سيطرتها التامة على المنطقة، فقد ضحت بريطانيا التى كانت مشغولة بحرب جنوبية أفريقية وتم توقيع معاهدة هاى ـ بونسيفوت (Hay - Pauncefote) فى ١٨ نوفمبر عام ١٩٠١ والتى ألغت معاهدة كلايتون ـ بلور، وأعترفت بمبدأ حياد القناة ، وحق الولايات المتحدة فى الإشراف عليها ، وادارتها والدفاع عنها ، وحق إقامة التحصينات والإستحكامات اللازمة . وعلى هذا يمكن القول أن معاهدة هاى ـ بونسيفوت أطلقت يد الولايات المتحذة فى منطقة أمريكا الوسطى .

واستمر توسع الولايات المتحدة بسرعة كبيرة ففى يناير ١٩١٣ ـ عقدت الولايات المتحدة معاهدة هاى ـ هوران (Hay - Harran) مع كولومبيا ، حيث حصلت الولايات المتحدة على إمتياز تأجير المنطقة المتعلقة ببرزخ بنما بعرض ستة أميال لحفر قناة بحرية فيها ، وذلك لمدة ٩٩ عام مقابل عشرة ملايين دولار . وأجرة سنوية مقدارها ربع مليون دولار . وعندما رفض برلمان كولومبيا التصديق

على المعاهدة ، لجأت الحكومة الأمريكية إلى تشجيع ومساعدة حركة انفصالية في أقليم بنما الذى كان تابعا لدولة كولومبيا فى ذلك الوقت ، وحالت القوات البحرية الأمريكية دون قيام قوات كولومبيا بقمع الحركة الإنفصالية التى أعلنت استقلال بنما عن كولومبيا ، وأسرعت الولايات المتحدة بالإعتراف بدولة بنما الجديدة فى نوفمبر ١٩٠٣ ، وعقدت معها معاهدة ها يبونو فاريلا - Hay Bunau Varilla التى منحت الولايات المتحدة حقوق السيادة على منطقة القناة. كما نصت المعاهدة على حق الولايات المتحدة فى امتلاك وتحصين قناة بنما إلى الأبد،وحقها فى احتلال واستغلال جميع الأراضى اللازمة لإدارة القناة، والدفاع عنها . ومن ناحية أخرى ، تعهدت الولايات المتحدة بضمان استقلال جمهورية بنما الجديدة التى خضعت للوصاية الفعلية للولايات المتحدة . وبعد حفر القناة تزايد تدخل الولايات المتحدة فى شئون دول أمريكا الوسطى والبحر الكاريبى انطلاقا من «مبدأ مونرو» أحيانا، وبدافع من تأمين قناة بنما أحيانا أخرى.

٣ ـ قضية جمهورية الدومينيكان :

بين جزيرتى كوبا وبورتوريكو تقع جزيرة هسبانيولا Hispaniola التى تضم جمهوريتى هايتى والدومينيكان محتلة بذلك موقعا استراتيجيا مهما عند مشارف البحر الكاريبى، وفى مواجهة قناة بنما . ولذلك عملت الولايات المتحدة منذ فترة طويلة على منع الدول الإستعمارية الأوروبية من السيطرة على الجزيرة ، واتبعت سياسة أكثر إيجابية إزاء باقى دول البحر الكاريبى وأمريكا الوسطى ، بعد أن فرضت سيطرتها على جزيرتى كوبا وبورتوريكو . ولم يعد الأمر محصورا فى منع الدول الأوروبية من السيطرة على المنطقة ، ولكنه يعنى أيضا فرض السيطرة الأمريكية الفعلية عليها . وقد ساعدت الولايات المتحدة على تنفيذ هذه السياسة الإيجابية الجديدة تلك الإضطرابات والثورات التى شملت هذه الأقاليم بشكل مستمر ، وأفضل دليل على ذلك تطور الأحداث فى جمهورية الدومينيكان ،

فلقد ظلت الدومينيكان منذ استقلالها عن هايتى عام ١٨٤٤ تخضع لحكم ديكتاتورى رجعى واجه ثورات شعبية متكررة بسبب فساد الحكم ، وجشع الرأسماليين الأوروبيين والأمريكيين الذين أثقلوا كاهل الدولة بالديون الخارجية. ولما لوحت الدول الأوروبية بالتدخل لحماية مصالح رعاياها الدائنين ، طلبت حكومة الدومينيكان تدخل الولايات المتحدة لمساعدتها . وكانت فرصة انتهزها الرئيس الأمريكى روزفلت ليعلن رسميا مفهومه الجديد لمبدأ مونرو (Roosevelt Corollary) ففى ٦ ديسمبر ١٩٠٤ قال روزفلت فى رسالته السنوية « حيث أن الولايات المتحدة بمقتضى مبدأ منرو لن تسمح للدول الأوروبية باستخدام القوة ضد هذه الشعوب الصغيرة المتمردة التى لا تسدد ما عليها من ديون ، أو تستولى على ممتلكات الأجانب ، أو تسىء معاملة الأجانب المقيمين بها فقد وضع هذا على كاهل الأمريكيين مسئوليات لا مفر منها . وسوف تتولى الولايات المتحدة بنفسها مهمة مراقبة سلوك هذه الجمهوريات . وأضاف روزفلت أن قيام أية اضطرابات فى دولة من دول القارة الأمريكية سوف يقتضى التدخل بالقوة من جانب الولايات المتحدة عملا بمبدأ مونرو . وهكذا أعطت الولايات المتحدة لنفسها سلطة البوليس الدولى فى القارة الأمريكية .

وتحقيقا لهذه السلطة المزعومة عينت الولايات المتحدة مراقبا ماليا فى جمهورية الدومينيكان لتحصيل الرسوم الجمركية ، وتوزيع جزء كبير منها على الدائنين الأوروبيين والأمريكيين ، وأباحت الحكومة الأمريكية لنفسها حق حماية مراقبها المالى بالقوة إذا استدعى الأمر ذلك . ولكن الإضطرابات الداخلية استمرت فى الدومينيكان بسبب الصراع السياسى على السلطة ، وتدخل الولايات المتحدة السافر فى أمور البلاد ، الأمر الذى أدى إلى تطور هذه الإضطرابات إلى حرب أهلية . وهنا تدخلت الولايات المتحدة مرة أخرى ، وطالبت الدومينيكان بتوقيع معاهدة جديدة تقضى بتعيين مستشار إقتصادى أمريكى بجانب المراقب

المالى الذى توسعت إختصاصاته ، وذلك بهدف تحصيل جميع موارد الدولة الداخلية ، علاوة على الرسوم الجمركية ، وبالإضافة إلى ذلك ؛ طالبت الولايات المتحدة بحق الإشراف على تنظيم الشرطة ، ولكن حكومة الدومينيكان رفضت هذه المطالب لما فيها من مساس بسيادة البلاد . وفى مايو ١٩١٦ قرر الرئيس الأمريكى وودرو ولسون احتلال البلاد ، وإخضاعها لحكم عسكرى أمريكى . وهكذا تحولت جمهورية الدومينيكان الى مستعمرة أمريكية من الناحية الواقعية ، ومكثت القوات الأمريكية بها حتى عام ١٩٢٤ عندما تشكلت فى البلاد حكومة موالية للحكومة الأمريكية .

٤ ـ قضية المكسيك :

تعتبر المكسيك أهم دول أمريكا الوسطى من حيث عدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية ، وموقعها الجغرافى . وكان من الطبيعى أن تتدفق رؤوس الأموال الأجنبية على المكسيك لاستغلال مواردها المتعددة ، وتبوأت رؤوس الأموال الأمريكية المقام الأول بين الإستثمارات الدولية . وفى عام ١٩١٢ بلغت جملة الإستثمارات الأمريكية فى المكسيك ٥٢٪ من مإموع الأستثمارات الأمريكية فى جميع دول أمريكا اللاتينية . وكما يحدث عادة فى البلاد الضعيفة المتخلفة اقتصاديا فإن الرأسمالية الأجنبية لا تتمكن من إقتصاديات البلاد إلا بالتحالف مع الطبقات الحاكمة من الإقطاعيين والرأسمالية الوطنية التى لا تتورع عن إستخدام أكثر أساليب الدكتاتورية تعسفا لتحقيق مصالحها الخاصة المرتبطة إرتباطا وثيقا بالرأسمالية الدولية . وهذا يمثّل بوضوح فى ملامح الحكم فى المكسيك فى عهد الدكتاتور بروفيريو دياز Profirio Diaz ، الذى قبض على زمام الحكم فى البلاد بيد من حديد لمدة تربو على الثلاثين عاما من ١٨٧٧ إلى ١٧٨٠ ، ثم من ١٨٨٤ إلى ١٩١١ . وفى عام ١٩١٠ اندلعت ثورة شعبية قومية بزعامة فرانسيسكو ماديرو Francesco Madero ضد دكتاتورية بروفيريو دياز .

لقد اقتصرت ثورة ماديرو الذى كان ينتمى إلى الطبقة الإقطاعية رغم اعتناقه مبدأ الليبرالية السياسية ، اقتصرت على الجانب السياسى دون معالجة المشاكل الإقتصادية والإجتماعية . لذلك تعرض نظام حكم ماديرو (١٩٩١ ـ ١٩١٣) لمقاومة بعض أتباعه من أصحاب النزعات التقدمية . كما أن ديمقراطيتة السياسية فتحت المجال للرجعية الأوتوقراطية باغتصاب الحكم مرة أخرى بواسطة انقلاب عسكرى بزعامة الجنرال فيكتوريا نو هويرتا (Victoria No Huerta) الذى تطلع الى الإنفراد بالسلطة المطلقة ، والقضاء على منافسيه بكل أساليب الغدر والتنكيل . وأشعلت هذه السياسة الحرب الأهلية بين الرجعية والعناصر التقدمية ، مما يترتب عليه الإضرار بالمصالح الإقتصادية الرأسمالية الأمريكية . ومما تجدر الإشارة إليه أن شركات البترول الأمريكية كانت تؤيد حكومة هويرتا لأنها كانت الأقدر على حماية المصالح الرأسمالية . ولكن حكومة الرئيس وودرو ويلسون التى تولت الحكم عام ١٩١٣ كانت أبعد نظرا من هذه الشركات ، فساندت الحركة الديمقراطية على أمل استقرار الحكم فى المكسيك بواسطة حكومة ديمقراطية معتدلة ، تستطيع أن تكبح جماح التيارات الثورية بتقديم بعض الإصلاحات الدستورية التى لا تؤثر على المصالح الرأسمالية الأمريكية فى المكسيك . ولم تكتف الولايات المتحدة بعدم الإعتراف بحكومة هويرتا ولكنها قدمت السلاح إلى « الثوار » ، كما احتلت القوات الأمريكية ميناء فيرا كروز (Vera Cruz) ، لمنع حكومة هويرتا من الحصول على معونات خارجية، وبذلك نجحت الثورة المكسيكية بقيادة فنو ستيانو كرانزا (Vanustiano Carranza) بفضل التدخل الأمريكى .

ولكن استيلاء كرانزا على الحكم فى أغسطس عام ١٩١٤ ، لم يمثل نجاحا مطلقا لسياسة الرئيس ويلسون ، فقد كان رجلا وطنيا يريد وضع حد لسيطرة الرأسمالية الأمريكية على البلاد . ومن هنا اصطدم كرانزا بحكومة

ويلسون التى كانت مساندة للرئيس فى صراعه للوصول على الحكم غير أن نجاح الثورة الشعبية فى المكسيك لم يمنع من إستمرار الإضطرابات بسبب إختلاف زعماء الثورة على خطط الإصلاح الإقتصادى والإجتماعى ، الأمر الذى أدى إلى تدخل الولايات المتحدة بقوة السلاح فى شئون المكسيك ، بحجة الإنتقام لمصرع بعض الأمريكيين أثناء القتال بين زعماء الثورة المتصارعين وبسبب قرب دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى ، اضطرت الحكومة الأمريكية إلى سحب قواتها من المكسيك فى يناير ١٩١٧ . وفى نفس العام أصدرت حكومة كرانزا دستورا نص على ملكية الدولة لجميع الثروة المعدنية فى البلاد ، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية لصالح الفلاحين ، وحق الدولة فى تأميم الشركات الأجنبية التى تستغل ثروات البلاد المعدنية والزراعية . كما نص الدستور أيضا على أن تتنازل الشركات الأجنبية التى تستمر فى استغلال ثروات البلاد عن حق الحماية الدبلوماسية إذا ثار نزاع بينها وبين حكومة المكسيك حول عقود الامتياز . ولذلك قامت الشركات الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة بالتحريض على قلب الحكومة القومية فى المكسيك وتدخلت الولايات المتحدة مرارا لإقناع حكومة المكسيك بعدم التعرض للشركات الأجنبية .

التوسع الأمريكى فى أمريكا الجنوبية :

لم يبلغ تدخل الولايات المتحدة فى أمريكا الجنوبية درجة تدخلها فى شئون أمريكا الوسطى ، فاكتفت بفرض نفوذها المالى والإقتصادى عن طريق الشركات الأمريكية الكبرى ، والإعتماد على الأساليب الدبلوماسية لفرض نفوذها السياسى . ويرجع إهتمام الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية إلى أوائل القرن التاسع عشر ، عندما ظهرت حركات التحرر فى هذه البلاد من الحكم الأسبانى والبرتغالى . وقد أدى هذا الإهتمام إلى إعلان مبدأ مونرو عام ١٨٢٣ كما أسلفنا . وتعتبر الدوافع السياسية والاستراتيجية من أهم الدوافع التى وجهت اهتمام

الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية ، لاسيما الدول المطلة على البحر الكاريبى مثل كولومبيا وفنزويلا.

ولكن أهم أسباب تدخل الولايات المتحدة فى شئون أمريكا الجنوبية كان سببا ذا طبيعة إقتصادية . ولقد برزت هذه الأسباب منذ أواخر القرن التاسع عشر بعد تشبع السوق الداخلية الأمريكية ، وعجزها عن إستيعاب فائض الإنتاج الصناعى وفائض رأس المال ، وبدأ الاقتصاد الأمريكى يواجه خطر الكساد . وتمثل أمريكا الجنوبية ، بمواردها الطبيعية الغنية وقوتها البشرية مجالا واسعا أمام استثمار فائض رأس المال الأمريكى ، وتنمية التجارة الأمريكية ، الأمر الذى يؤدى إلى مزيد من التقدم والازدهار للإقتصاد الأمريكى ككل . وقد إرتفعت الإستثمارات الأمريكية فى أمريكا بمقدار عشرة أضعاف خلال الفترة من ١٨٩٧ إلى ١٩١٤ . كما إرتفعت معدلات التجارة الخارجية مع دول أمريكا الجنوبية إرتفاعا واضحا فى نفس الفترة . وكان من الطبيعى أن تصطدم رغبة الولايات المتحدة فى التغلغل الإقتصادى فى أمريكا الجنوبية بمصالح الدول الإستعمارية الأخرى وعلى رأسها بريطانيا. وإنعكس هذا التنافس البريطانى ـ الأمريكى على النزاع الذى ثار بين فنزويلا وبريطانيا حول الحدود بين مستعمرة غيانا البريطانية وفنزويلا .

ويعود النزاع على الحدود بين فنزويلا وغيانا البريطانية إلى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر ، حيث لم يسبق تحديدها من قبل . وحاولت الحكومتان التوصل إلى إتفاق بهذا الصدد ، لكن جميعها باءت بالفشل إذ أرادت كل دولة فرض سيطرتها على مصب نهر أورينوكو Orinoco الذى يتحكم فى تجارة جزء كبير من داخل البلاد . ومنذ عام ١٨٨٤ توترت العلاقات بين البلدين ، وتمسك كل طرف بموقفه بعد إكتشاف مناجم الذهب فى منطقة النزاع بينهما. وقررت حكومة فنزويلا فى عام ١٨٨٧ قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا ، وطلبت من الولايات المتحدة التوسط لحمل بريطانيا على قبول عرض

النزاع على لجنة التحكيم ، ورفضت بريطانيا الوساطة ، كما رفضت عرض الموضوع للتحكيم وتمسكت بمطالبها الإقليمية كاملة . حينئذ أرسل ريتشارد أولني Richard Olney وزير خارجية الولايات المتحدة فى ٢٠ يوليو ١٨٩٥ مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة البريطانية ، أكد فيها حق بلاده فى التدخل فى كل القضايا الإقليمية المتعلقة بالقارة الأمريكية . واستندت هذه المذكرة إلى مبدأ مونرو وأدعى أولنى أن هذا المبدأ له جانب إيجابى يهدف إلى حماية وتأكيد مصالح الولايات المتحدة فى القارة الأمريكية بأكملها ، وفى نهاية المذكرة أنذر أولنى بريطانيا بضرورة عرض هذا النزاع على هيئة تحكيم ، مؤكدا أن الولايات المتحدة أصبحت تتمتع بالسيادة الفعلية على القارة ، وأن إرادتها فى مقام القانون الملزم فيما يتعلق بالموضوعات التى ترى التدخل فيها .

ومن ناحيتها رفضت بريطانيا هذا التفسير الأمريكى لمبدأ مونرو ، وأنكرت على الولايات المتحدة حقها فى فرض وساطتها فى النزاع الفنزويلى البريطانى لمخالفة ذلك لقواعد القانون الدولى ، فطلب الرئيس الأمريكى كليفلاند (Cleveland) من الكونجرس الموافقة على تكوين لجنة أمريكية لتقصى الحقائق فى هذا النزاع . وأكد كليفلاند فى رسالته إلى الكونجرس بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٩٥ بأنه إذا اتضح لهذه اللجنة أحقية فنزويلا فى المنطقة المتنازع عليها ، فسوف تعتبر حكومة الولايات المتحدة استيلاء بريطانيا على هذه المنطقة عدوانا على حقوق ومصالح الولايات المتحدة التى من واجبها أن تدفع هذا العدوان بكل وسيلة ممكنة . وقد وافق الكونجرس على تكوين هذه اللجنة .

ولكن بريطانيا تراجعت عن موقفها ، وقبلت عرض النزاع على هيئة تحكيم تتكون من عضوين أمريكيين وعضوين بريطانيين ، وبرئاسة شخص محايد هو الفقيه الروسى الشهير دى مارتينز F.F. de Martens . وبمقتضى قرار هيئة التحكيم احتفظت فنزويلا بسيطرتها على مصب نهر أورينوكو ، وهو ما يحقق

المصالح التجارية الأمريكية فى المناطق التى يمر بها النهر . وتعتبر هذه الفائدة ثانوية بالنسبة إلى الآثار السياسية العامة التى ترتبت على أسلوب تسوية هذا النزاع ونجملها فيما يلى :

١ ـ يعتبر إصرار الولايات المتحدة على فرض وساطتها لتسوية النزاع الفنزويلى ـ البريطانى تطورا هاما لمبدأ مونرو إذ أدعت الولايات المتحدة لنفسها حق التحكيم فى كل نزاع ينشب فى القارة الأمريكية واعتبرته حقا من حقوق السيادة تلتزم به السياسة الأمريكية ، وترضخ له جميع الدول . وبالفعل رضخت بريطانيا لأنها كانت مشغولة بقضايا استعمارية هامة فى آسيا وأفريقية . ومنذ ذلك الوقت اتسمت العلاقات البريطانية ـ الأمريكية بطابع التعاون ليس فى القارة الأمريكية فحسب ، وإنما أيضا فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى .

٢ ـ تدخلت الولايات المتحدة فى هذا النزاع دون تفويض من فنزويلا ، وقد آثار هذا الأسلوب مخاوف دول أمريكا الجنوبية من فرض سيطرة الولايات المتحدة عليها كما حدث فى أمريكا الوسطى ، وفى منطقة البحر الكاريبى . ونتيجة لذلك ظهرت بوادر التوتر فى العلاقات بين دول أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة لأن الدولة الأخيرة أفصحت بوضوح عن نواياها الإستعمارية التى لم تختلف كثيرا عن سلوك الدول الإستعمارية الأوروبية التى حاربتها دول أمريكا الجنوبية للتخلص من سيطرتها . ولقد اضرت هذه المخاوف الوحدة الأمريكية ، حيث رأت فيها دول أمريكا الجنوبية وسيلة لفرض السيطرة الأمريكية على جميع دول القارة ، الأمر الذى انعكس أيضا على الحركة الأدبية والفكرية فى أمريكا الجنوبية والتى تبنت فكرة المحافظة على التراث الأسبانى لمواجهة النفوذ الثقافى الأمريكى .

التوسع الأمريكى فى المحيط الهادى :

لم يكن عام ١٨٩٨ نقطة انطلاق جديدة للدبلوماسية الأمريكية فى منطقة البحر الكاريبى وأمريكا اللاتينية فحسب ، وإنما فى منطقة المحيط الهادى والشرق الأقصى أيضا . وكان هذا التوسع الأمريكى الجديد سببا فى إثارة عدة قضايا يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ١٨٩٨ ، مثل ضم جزر الفلبين وجوام ، وضم جزر هاواى، وتسوية قضية جزيرة ساموا ، وأخيرا التنافس الاستعمارى فى الصين . ومما لاشك فيه أن كل هذه القضايا كانت متشابكةً تماما بحيث لا يمكن فهم إحداها دون النظر إلى الأخرى . ولكن رغم ذلك يمكن الفصل بين معالجة القضايا التى ثارت فى المحيط الهادى ، وقضية التنافس الإستعمارى فى الصين .

ويرجع تزايد النفوذ الأمريكى فى منطقة المحيط الهادى إلى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما قام التجار والمبشرون الأمريكيون بمد نشاطهم إلى جزر المحيط الهادى واليابان وكوريا والصين . وأمام تزايد هذا النشاط التجارى والتبشيرى بدأت الولايات المتحدة تولى اهتماما متزايدا بالمنطقة . وبالإضافة إلى ذلك فقد اقنعت الحرب الأهلية الأمريكية المسئولين بضرورة وضع خطة كاملة للدفاع عن البلاد ، وحماية نشاط مواطنيها فى المحيط الهادى ، وبصفة خاصة ضد الحيتان . وفى عام ١٨٦٧ أكتسبت الولايات المتحدة مراكز إستراتيجية هامة فى المحيط الأطلنطى بعد شرائها لشبه جزيرة آلاسكا ، وأرخبيل الوتيان (Aleutian) من روسيا ، وإحتلالها لجزر ميدواى (Midway) التى تقع شمال جزر هاواى . وقد بذلت عدة محاولات من قبل بعض رجال الأعمال الأمريكيين عند منتصف القرن التاسع عشر لدفع الحكومة الأمريكية على ضم جزر هاواى ، غير أن أوضاع الولايات المتحدة الداخلية والموقف الدولى لم تكن ملائمة لاتخاذ مثل هذه الخطوة .

ولكن الحرب الأمريكية ـ الأسبانية عام ١٨٩٨ غيرت الموقف كلية

فبمقتضى معاهدة باريس تنازلت أسبانيا عن جميع حقوقها فى جزر الفلبين وجوام ، وقررت الولايات المتحدة ضمها . ويمكن أن نلخص العوامل التى دفعت الولايات المتحدة على التوسع خارج القارة الأمريكية على النحو التالى :

أولا : دعا فريق من ذوى النفوذ من الأمريكيين أمثال روزفلت وماهان وكابوت لودج إلى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين وسائر جزر المحيط الهادى لأهميتها الإستراتيجية . وقد تأثر الرئيس الأمريكى وليام ماكنلى (W. Mackinley) بآراء هذا الفريق من الاستعماريين الأمريكيين ، وأرسلت تعليمات إلى الوفد الأمريكى فى مفاوضات الصلح مع أسبانيا جاء فيها « أن الحرب ألقت على عاتقها أعباء ومسئوليات يجب علينا القيام بها بإعتبارنا دولة كبرى كتب لها حاكم الأمم منذ الأزل القيادة العليا ونشر المدنية » .

ثانيا : تمثل الفلبين ركيزة للتوسع الإقتصادى الأمريكى فى الشرق الأقصى ، فالفلبيين بلاد غنية بمواردها لاسيما التبغ والخشب والبن وقصب السكر والأيدى العاملة الرخيصة . كما أن الفلبيين تعتبر قاعدة إنطلاق هامة لتدعيم التوسع التجارى والإقتصادى الأمريكى فى الصين ، وبذلك ارتبط استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين بسياسة « الباب المفتوح » وقد عبر السناتور بفريدج (A. J. Beveridge) عن ذلك بقوله « أن الفلبيين لنا ، ومن ورائها أسواق الصين غير المحدودة ولن ننسحب من أى منها ، ان الجزء الأكبر من تجارتنا يجب أن يكون مع آسيا .. الصين هى المستهلك الطبيعى للمنتجات الأمريكية ، والفلبين توفر لنا قاعدة على أعتاب الشرق بأكمله .. أن الدولة التى تسيطر على المحيط الهادى تسيطر على العالم ».

ثالثا : أثرت الاعتبارات الدينية على الرأى العام الأمريكى لحمله على تقبل فكرة ضم الفلبين وجوام إلى الولايات المتحدة . فقد رأت الطوائف البروتستانتية أن الفلبين تفتح مجالا واسعا للنشاط التبشيرى ، ومنافسة الوضع الممتاز الذى

تمتعت به الكنيسة الكاثوليكية فى عهد الحكم الأسبانى ، ولقد كان لهذه الطوائف تأثير على الرئيس الأمريكى ماكنلى .

رابعا : أدى تطور الأوضاع فى الفلبين ذاتها إلى تمسك الولايات المتحدة بالسيطرة عليها ، فخلال الحرب الأمريكية ـ الأسبانية ضاعفت الحركة القومية فى الفلبين نشاطها بزعامة اميليو أجونيالدو (Aguinaldo) للتحرر من الاستعمار الأسبانى. وتعاون أوجونيالدو مع الحملة العسكرية الأمريكية للإطاحة بالحكم الأسبانى أملا فى إعتراف الولايات المتحدة باستقلال الفلبين . وفى مايو عام ١٨٩٨ ، كون أجونيالدو حكومة فلبينية مؤقتة ، وأعلن استقلال البلاد فى ١٢ يونيو من نفس العام . وصدر أول دستور للبلاد فى ٢١ يناير من العام التالى . ولما أدركت الولايات المتحدة أن الحكومة الوطنية فى الفلبين تتبع سياسة قومية ، قررت الإستيلاء على البلاد ، وتحويلها إلى مستعمرة أمريكية . وفى أعقاب ذلك اندلعت الثورة فى البلاد ، ولم تتمكن القوات الأمريكية من إخمادها إلا فى إبريل ١٩٠٢ .

خامسا : اقتنعت الولايات المتحدة بضرورة الإستيلاء على الفلبين كعنصر هام فى مجال التنافس الإستعمارى بينها وبين الدول الإستعمارية الأخرى . وفى ذلك الوقت إنحصر التنافس الإستعمارى فى المحيط الهادى بين بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة . وخوفا من الخطر الألمانى فى المحيط الهادى ، حثت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة على ضم جزر الفلبين لمنع ألمانيا من الإستيلاء عليها، أو على الأقل منعها من الحصول على قاعدة بحرية فى تلك الجزر تهدد توازن القوى فى المحيط الهادى وفى الشرق الأقصى عموما . ومن ناحية أخرى خشيت الولايات المتحدة من أن تمتد أطماع اليابان التوسعية إلى الفلبين فى المستقبل .

ولقد انهى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين سياسة العزلة التقليدية قبل دخول الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى بربع قرن . وانعكست

سياسة الولايات المتحدة فى الحفاظ على توازن القوى فى المحيط الهادى على بعض القضايا الأخرى مثل قضية جزر هاواى وقضية جزر ساموا . وبالنسبة لجزر هاواى فإن لها أهمية إستراتيجية لفتت نظر الولايات المتحدة إليها منذ أواخر القرن الثامن عشر . وبالرغم من إحتفاظ الجزر باستقلالها الاسمى ، فقد أصبحت جزر هاواى مستعمرة أمريكية بحكم الواقع إقتصاديا وثقافيا وسياسيا . وفى عام ١٨٧٥ أخذت الولايات المتحدة تعهدا على حكومة هاواى بعدم التنازل عن حقوقها لأية دول أخرى . وفى عام ١٨٨٢ أستأجرت الولايات المتحدة ميناء بيرل هاربر (Pearl Harbour) ، وحولته إلى قاعدة بحرية . وفى عام ١٨٩٣ قام الأمريكيون المقيمون فى هاواى بإنقلاب ضد نظام الحكم فى البلاد ، وأقاموا حكومة مؤقتة يرأسها أمريكى ، وطالبوا حكومتهم بضم الجزر . وفى يوليو ١٨٩٨ وافق الكونجرس الأمريكى على ضم جزر هاواى إلى الولايات المتحدة .

أما جزر ساموا فتحتل موقعا إستراتيجيا هاما فى جنوب المحيط الهادى على الطريق الملاحى بين كاليفورنيا وقناة بنما من ناحية ، واستراليا ونيوزيلندا من ناحية أخرى . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر شهدت جزر ساموا تنافسا شديدا بين مواطنى بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا ، مما اضطر حكومة ساموا إلى توقيع معاهدات تجارية وسياسية مع هذه الدول الثلاث لتحييد نشاطها .

وفى أواخر ١٨٨٨ حدث صدام مسلح بين القوات الألمانية وشعب ساموا، وانتهزت ألمانيا هذه الفرصة لتفرض سيطرتها على البلاد . ولذلك نشبت أزمة دبلوماسية بين ألمانيا من ناحية ، والولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية أخرى . وأرسلت الولايات المتحدة بعض قطع أسطولها الحربى لمنع أى محاولة للتدخل العسكرى الألمانى ، ولكن الأزمة انتهت بين الدولتين بعقد مؤتمر ثلاثى فى برلين عام ١٨٨٩ ضم ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا . وفى ١٤ يونيو من نفس العام وقعت معاهدة برلين التى أخضعت جزر ساموا لإدارة مشتركة بين الدول الثلاث (Condominium) .

كانت هذه هى الخطوة الأولى لتقسيم جزر ساموا بين الدول الإستعمارية الثلاثة . وفى عام ١٨٩٨ ثار صراع حاد حول خلافة العرش فى جزر ساموا ، وتطور هذا الصراع إلى حرب أهلية . ولتفادى نشوب حرب بين الدول الثلاث التى تدخلت فى هذا الصراع ، تم تسويةالنزاع بالطرق الدبلوماسية فأبرمت معاهدة أخرى فى يونيو ١٨٩٩ ، أنهت النظام الملكى فى جزر ساموا ، وألغت الإدارة الثلاثية . وقد حصلت الولايات المتحدة على الجزر الواقعة شرقى خط طول ١٧١ : وتضم جزيرة تتويلا (Tutuila) وبها أهم ميناء فى جنوب المحيط الهادى ، وهو ميناء باجو باجو Pago Pago الذى تحول إلى قاعدة بحرية أمريكية ، وهى من أهم القواعد الإستراتيجية فى المحيط الهادى إلى جانب قاعدتى بيرل هاربر وجوام . ووضعت الولايات المتحدة الجزر التى حصلت عليها بمقتضى هذه المعاهدة تحت إدارة البحرية الأمريكية دون أن تعلن الولايات المتحدة ضم الجزر رسميا . واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٢٩ ، عندما وافق الكونجرس الأمريكى على ضم الجزر إلى الولايات المتحدة .

سياسة الباب المفتوح :

فى ٦ سبتمبر عام ١٨٩٩ أرسل جون هاى (John Hay) وزير خارجية الولايات المتحدة مذكرة إلى الدول التى استحوذت على مناطق نفوذ لها فى الصين، يطالبها فيها بالإعتراف بمبدأ حرية التبادل التجارى مع الصين فى تلك المناطق دون أية قيود ، ودون تمييز فى المعاملة بين رعاياها ورعايا الدول الأخرى . وقد أطلق على هذا المبدأ « سياسة الباب المفتوح » (Open Door Policy) . ولم يكن هذا المبدأ جديدا على الدبلوماسية الاستعمارية فى الشرق الأوسط ، فقد كان فى الأساس مبدأ رئيسيا من مبادئ الدبلوماسية البريطانية فى الشرق الأقصى منذ منتصف القرن التاسع عشر ، فلقد استحوذت بريطانيا على ٨٠٪ من تجارة الصين بفضل تفوقها الصناعى ، وقوة مصارفها ، وسيطرتها على البحار .

وفى مطلع عام ١٨٩٨ زاد إحتمال تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ بين الدول الإستعمارية . وكانت هذه الدول نفسها قد تدخلت لإرغام اليابان على التخلى عن بعض الإمتيازات الإقليمية التى حصلت عليها بمقتضى معاهدة شيمونوزسكى (١) (Shimonoseki) ، التى أنهت الحرب اليابانية الصينية (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥). وفى مقابل هذا التدخل طالبت الدول الإستعمارية بإمتيازات فى مناطق عديدة من الصين . وهكذا بدأت حرب الإمتيازات ـ التى هددت بتفكك الإمبراطورية الصينية . وقد خشى الرأسماليون البريطانيون من أن تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ بين الدول الإستعمارية قد يؤدى إلى تقييد التجارة البريطانية إذا لجأت تلك الدول إلى فرض قيود على التجارة الدولية فى مناطق نفوذها . ولهذا فإن سياسة الباب المفتوح كانت أكثر ملائمة للنشاط التجارى البريطانى الذى كان يعتمد أساسا ـ حتى نهاية القرن التاسع عشر ـ على تجارة السلع الإستهلاكية .

ولقد أثرت هذه الاعتبارات الإقتصادية أيضا على سياسة الولايات المتحدة تجاه الصين . ووضح هذا عندما قررت الولايات المتحدة ضم جزر الفلبين بهدف تحويلها إلى قاعدة إنطلاق لزيادة وتدعيم النشاط الإقتصادى الأمريكى فى الصين التى اعتبرتها الرأسمالية الأمريكية أهم سوق عالمية لتصريف فائض الإنتاج الأمريكى . وبالفعل ارتفع معدل الصادرات الأمريكية إلى الصين إرتفاعا كبيرا لاسيما فى منطقتى منشوريا وشمال الصين اللتان دخلتا فى دائرة النفوذ الروسى ـ الألمانى بعد الحرب اليابانية ـ الصينية ، ومن ثم خشى الرأسماليون الأمريكيون

---

(١) وقعت هذه المعاهدة فى ١٧ إبريل ١٨٩٥ ، واعترفت الصين بمقتضاها باستقلال كوريا (أى وضعها تحت الحماية الفعلية لليابان) ، كما تنازلت لليابان عن جزر فورموزا (تايوان) والبسكادور ، وشبه جزيرة اللياو تونغ بما فى ذلك ميناء دايرن (Deiren) وميناء بورت آرثر (Port Arthur) ، كما ألتزمت الصين بدفع مبلغ ١٦٥ مليون دولار على سبيل التعويض .

والبريطانيون أن تفرض روسيا وألمانيا قيودا على نشاط رعايا الدول الأخرى في هاتين المنطقتين . ولذلك دعت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة إلى تأييد سياسة الباب المفتوح ، ولبت الحكومة الأمريكية هذه الدعوة ، فكان أن أصدر جون هاى فى ٦ سبتمبر ١٨٩٩ المذكرة التى سبق الإشارة إليها .

ومما يلاحظ أن مذكرة جون هاى قد أشارت فقط إلى مبدأ المساواة بين رعايا جميع الدول فى التعامل التجارى مع الصين ، وكل الأقاليم الصينية ولكنها لم تشر إلى الوجه الآخر فى النشاط الاقتصادى الأجنبى فى الصين وهو إمتيازات إنشاء السكك الحديدية ، وصناعة التعدين . وقد وافقت الحكومة البريطانية على سياسة الباب المفتوح لأنها كانت تخدم مصالحها ، ولكنها أوردت استثناءا على تطبيقها فيما يتعلق بإقليم كولون Koloon المواجه لجزيرة هونغ كونغ. وتفسير هذا الوضع المتناقض للسياسة البريطانية يرجع ، فى الواقع ، الى تطور الوضع فى الصين بعد الحرب اليابانية ـ الصينية . وإلى مضمون مذكرة جون هاى . ولذلك قررت بريطانيا إتباع ثلاثة أساليب دبلوماسية فى آن واحد تتلخص فيما يلى :

١ ـ تأييد سياسة الباب المفتوح بصفة عامة ، ومحاولة حمل الدول الإستعمارية الأخرى على تطبيقها فى جميع المناطق الخاضعة لنفوذها . وفى حالة فشل هذه المحاولة تلجأ بريطانيا إلى أسلوبين دبلوماسيين آخرين هما :

٢ ـ محاولة الحد من التوسع الروسى والألمانى فى شمال الصين ، ولذلك إحتلت بريطانيا ميناء واى هاى واى (Wei Hai Wai) على خليج ميناء كياشو Kiaochow ، كما رأت بريطانيا ضرورة قيام نوع من توازن القوى فى المنطقة يخدم مصالحها ، ويحد من توسع النفوذ الروسى فى منطقة جنوب منشوريا وشمال الصين . وقد أدى ذلك إلى ضرورة التعاون مع اليابان ، وتوقيع التحالف البريطانى ـ اليابانى عام ١٩٠٢ .

٣ ـ تمسك بريطانيا بالحصول على منطقة نفوذ خاصة بها ، وهى منطقة حوض نهر اليانغ تسى ، والمنطقة المواجهة لجزيرة هونغ كونغ .

وقد علقت الدول الإستعمارية الأخرى قبولها لسياسة الباب المفتوح على موقف روسيا التى كانت تعتبر أكبر منافس للولايات المتحدة وبريطانيا واليابان فى هذه المنطقة ، فقد رفضت روسيا تماما سياسة الباب المفتوح ، ولم تتعهد الإلتزام بها فى المناطق الخاضعة لنفوذها وبالذات فى منشوريا . ولذلك لم تطبق الدول الأخرى هذه السياسة نظرا لسلبية موقف روسيا . وعلى الرغم من ذلك إعتبرت الولايات المتحدة ردود الدول على مذكرة جون هاى مرضية وقاطعة ، وبالتالى فإن سياسة الباب المفتوح أصبحت قاطعة ونهائية .

ولكن النتائج التى تمخضت عن ثورة البوكسر [(١)] (١٩٠٠ ـ ١٩٠١)، أدت إلى مزيد من التوسع فى مناطق النفوذ الإستعمارى ، مما هدد بالقضاء على سياسة الباب المفتوح . وعند ذلك رأت الولايات المتحدة ضرورة تحديد موقفها مرة أخرى فأرسل جون هاى مذكرة أخرى بتاريخ ٣ يوليو عام ١٩٠٠، إلى الدول يطالبها فيها بضرورة المحافظة على سلامة الصين الاقليمية ، غير أن الدول الإستعمارية تجاهلت هذه المذكرة ، واستمرت فى سياستها التوسعية . ونتيجة لذلك اضطرت الولايات المتحدة إلى إنتهاج نفس أسلوب السياسة البريطانية بالإعتماد على اليابان فى وقف التقدم الروسى فى الصين . وهكذا تكون وفاق ثلاثى فى الشرق الأقصى بين بريطانيا والولايات المتحدة واليابان ، ولكنه لم

---

(١) لقد قام بأهم مقاومة للتدخل فى شئون الصين جماعة وطنية سرية أطلقت عليها الدول الغربية اسم « البوكسر » ، وقامت هذه الجماعة بثورة مسلحة ضد الأجانب فى جميع أنحاء الصين ، واعتدت على منشآتهم التجارية ، وسفاراتهم ومبشريهم إبتداء من يونيو عام ١٩٠٠ ، كما شجعت بعض الدوائر الحكومية الصينية هذه الثورة ، واشتركت بعض وحدات الجيش الصينى فى الهجوم على حى السفارات .

يستمر أكثر من خمس سنوات . فبعد انتصار اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ ، إتجهت إلى فرض سيطرتها على كوريا ، وفرضت قيودا على تجارة الدول الأوروبية مع هذا الإقليم مما أدى الى فتور فى العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان ، وتطور إلى تنافس وعداء فى فترة ما بين الحربين العالميتين . وعلى الرغم من فشل سياسة الباب المفتوح إلا أنها أدت إلى بعض النتائج ذات الأثر البعيد تتلخص فيما يلى :

١ ـ تورطت الولايات المتحدة فى شئون الشرق الأقصى ، وكذلك فى السياسة الأوروبية بسبب الإرتباط الوثيق بين الشئون السياسية والشئون الأوروبية .

٢ ـ أوضحت سياسة الباب المفتوح التنافس الحاد بين الولايات المتحدة وروسيا حول السيطرة على الشرق الأقصى . وإذا كان هذا الصراع قد احتجب مؤقتا فيما بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ بسبب هزيمة روسيا عام ١٩٠٥ ، وفى الحرب العالمية الأولى ، فقد تجدد هذا الصراع من جديد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بانتصار النظام الشيوعى فى الصين عام ١٩٤٩ ، وحرب كوريا (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) ، وحرب فيتنام .



الملاحق

التحالفات التى تكونت خلال الحروب الإيطالية

١ ـ حلف البندقية (١٤٩٥) :

أعضاء الحلف : البابوية + الإمبراطورية + أسبانيا + البندقية + ميلان + فلورنسا ضد فرنسا .

٢ ـ حلف كمبراى (١٥٠٨) :

البابوية + الإمبراطورية + أسبانيا + إنجلترا + فرنسا ضد البندقية وميلان .

٣ ـ الحلف المقدس (١٥١١) :

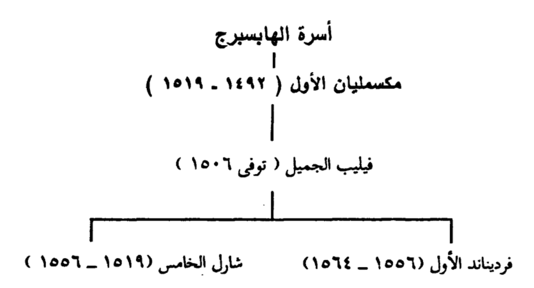
البابوية + الإمبراطورية + أسبانيا + إنجلترا ضد فرنسا .

٤ ـ الحلف المقدس (١٥٢١) :

البابوية + الإمبراطورية + أسبانيا + انجلترا ضد فرنسا .

٥ ـ حلف كونياك (١٥٢٦) :

البابوية + البندقية + ميلان + فلورنسا + انجلترا + فرنسا ضد الإمبراطورية + أسبانيا .



حكام أسبانيا

فرديناند (أراجون) + إيزابيلا (قشتالة)

كاترين

تزوجت (١) آرثر أمير ويلز
(٢) هنرى ٨ ملك انجلترا

جوانا (توفيت ١٥٥٥)

تزوجت فيليب هابسبرج

(شارل الأول) (١٥١٦ ـ ١٥٥٦)
الأمبراطور شارل الخامس

تزوج ايزابيلا البرتغالية

فليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٧١)

فيليب الثالث (١٥٩٨ ـ ١٦٢١)

فيليب الرابع (١٦٢١ ـ ١٦٦٥)

المحتــوى

الصفحة

القسم الأول
معالم التاريخ الأوروبى الحديث

الصفحة

الصفحة

الصفحة

القسم الثانى
معالم التاريخ الأمريكى الحديث

الصفحة

